حكاية

عمى الحاج مسعد

فانتازيا واقعية

****

ياعم ....  
 إني علي الاعتاب معتذرا  
 ومن سواكم يداوي كبوة ا لجاني  
 نقصي إذا بان يُغني عنه فضلكمُ  
ُ وذاك عَقدي وتصديقي و إيماني  
 فارضوا فإن الرضا يحيي مواتتنا  
 موت الجهالة أعياني وأرداني

يقول الشيخ عطا في مدحه:

عيني ما رأت مثله قط \*\*\* مقدام رجال انشال وانحط

يكفينا شرف أن عليه قلم النبوة خط \*\*\* مملوك من الملك لابس قميص كرك

له جوز ضفائر تحفه في جميع الملك \*\*\* إذ قال يمالك الملك لجمع جميع الملك

الفلك اتشحن والملك اتشحن بات من المغرب \*\*\* جاء العرفان في سبيل الله توب ياقلبى

الكرك هو رداء ذو فرو.

وقوله: له جوز ضفائر تحفه في جميع الملك

هذا القول إشاره الى شده الجمال وعظمه البهاء إذ كان الشعر مناط الزينة والتجميل،

والمغرب إشارة الى الستر والخفاء.

وقوله: (لجمع جميع الملك) أشاره أن جمال الكون قد اجتمع فيه.

وقوله: جاء العرفان ربما يكون أشاره الى أوان معرفته.

وفى سبيل هذه المعرفة يجب أن يتوب القلب عن جهالتة.

**تمهيد**

لم يكن القصد من الكتاب التوجه به إلى قارئ بعينه ، وإنما كان قصدنا عرض ماعرضناه لذاته لإستحقاق من نتحدث عنه أن نجلو سيرته ، وإن كان القراء يختلفون على عمومهم ، بحسب عقائد قلوبهم وأفكار عقولهم وهوى نفوسهم ، خصوصا فى مثل تلك النوعية من الكتب ، فأما صاحب العقيدة ، فإنه يأخذ ماكتبناه من باب الإيمان بشيخه ومن باب الثقة فى المصدر الذى أخذنا منه رواياتنا ، ومثل هؤلاء يقبلون ماكتبناه من باب الثقة فى المصدر والتعويل على أمانة الراوى الذى لا يخذله فيما يرويه .  
وأما صاحب الفكر الذى يستخدم العقل فى تفنيد الرواية ويطلب الدليل على صدق الراوى ، ويستخدم المنطق الظاهر فى إثبات الصدق أو الكذب فى المقالة ، ومثل هؤلاء لا يتمكن لنا ، جلب صدقهم لعلوم القوم ، أقصد علوم أهل الله من المتصوفة ،لأن جل هذه العلوم من العلوم الكشفية ، التى يكون الستر فيها غالبا عليها، والتى يدور أكثرها على حال أصحابها ، بحيث أنهم لم يطلبوا من أحدٍ تصديقهم فيها ، والى هؤلاء العقلاء أصحاب النظر الفكرى نتوجه إليهم بكتابنا على إعتبار أنه نوع من أدب الفانتازيا الواقعية ، فهو عندهم فانتازيا وهو عندنا واقع واجب التصديق ، ولا سبيل إلى عرض كتابنا عليهم إلا بهذا المنظور ، فالفانتازيا هى الرؤية التخيلية للواقع الحاصل ، أى الرؤية التى يراها الغريب عنها ، خيالا ، وهى عند أهلها حقيقة واقعة ، ولهذا جعلنا أسلوب العرض فى هذا الكتاب الأسلوب القصصى الروائى القائم على روايات أبطالها ، والذى يشبه إلى حد كبير العرض التخيلى لما لا يمكن وصفه واقعا ، وهكذا علوم القوم ، لأنها علوم أذواق ولا سبيل إلى شرحها إلا بالأسلوب التشبيهى الخيالى ، كأن تصف ، مثلا ، طعم التفاح لمن لم يتذوق طعمه قط ، فتقول أن طعمه كطعم كذا ، فاستلزم العرض منك إستخدام كاف التشبيه ، وذلك هو الحال عندما نكلم أصحاب الأفكار عن علوم كالعلوم الواردة فى هذا الكتاب ، فيقبلها منك ، كما يقبل الآخر وصف غيره لطعم التفاح ، فإذا قرأها صاحب العقل فليقرأها على أنها فانتازيا روائية ، ولا يُجهد فكره فى تعليلها ، فإذا فعل ذلك ، فإنه سوف يستمتع بقرائتها ، لما فيها من غرائب غير معهودة لديه .  
بقى أن نذكر إستقبال العوام لمثل هذا الكتاب ، فإن العوام ، إما أن يستقبلوه كما يستقبله أصحاب الإيمان فيقبلونه على ماهو عليه دون شك فى صدقه ، ودون إعمال نظر فى حقه ، وقد يستقبله العوام كما يستقبله أصحاب النظر ولكن لا يملكون تفنيده ،لجهلهم بأدوات التفنيد فيقفون عنده ولا يتمادون فيه ، وقد يستقبله العوام ويقفون بين الرفض والقبول ، لأنهم لا يجدون فى أنفسهم ترجيحات لهذا على ذاك أو ذاك على هذا.   
ونخلص من هذا كله أن الكتاب قد كتب بطريقة روائيه تحتمل كل الوجوه التى ذكرناها ، فَتُطَمْئِن المؤمن على إيمانه ، ويستمتع بها العاقل بغرابة أحداثها ، ويسير العامىُّ فيها بحسب ماتذهب به نفسه إليه .

**المقدمة**

كان الأمل يحدونا منذ زمن طويل ، في أن نتناول سيره الشيخ ، ولقد تفاوت الأمل في شدته و خفوته مع اختلاف الأوقات ، فقد كان هذا الأمل قويا فى أول معرفتنا بأبناء الشيخ الذين عاصروه وجلسوا معه وخالطوه وهم في هذا الوقت كُثْرٌ لا يكاد يحصيهم العد، فاذا جالست الواحد منهم واستقصيت منه عن أحوال الشيخ فكأنما قد وقفت على كنز دفين لا تتمكن من حصر محتوى هذا الكنز من غزارة المخزون فيه ، ولا تجد في نفسك جهد في استقصاء فحواه ، فإن مخزونه ينزل عليك كالشلال الهادر من كثره ما فيه ، ولكل واحد منهم حكاية مع شيخه في كيفيه معرفته به في أول الأمر ثم بعد ذلك تلك المحطات والمواقف التي صادفت السالك مع شيخه في طريق الله وكيف كان تصرف الشيخ معه في كل هذه المحطات والمواقف.

ثم كيف كانت خوارق العادات التي صادفت السالك في صحبه الشيخ ، ولم يخلو واحد من أبناء الشيخ عن ذلك الذى ذكرناه ، ولقد كان تحصيل هذا المعلوم ميسور في هذا الوقت لتوفر المصدر الذى نستقيه منه، كان ذلك بالتقريب منذ نيف وثلاثين عاما ... ثم تقادم الزمن وبدء هذا الأمل يبتعد عن التحقيق مع مرور الوقت وانتقال غالب أبناء الشيخ الى جوار ربهم الواحد بعد الأخر ...حتى جاء الوقت الذى إنحصر فيه هؤلاء المعاصرين للشيخ الذين استقوا من مدده ونظره و عاينوه معاينه الشهود واختلوا به واختلى بهم فكان هذا العدد القليل ، يكاد لا تحصيه أصابع اليد فقد كانوا إثنين أو ثلاثة على الأكثر وقد شابت ذاكرتهم وقدرتهم على الكلام ما شابها .. ووصل الأمر بنا ألا أننا بالكاد نجد من قابله وسمع منه أو شاهده ، حتى صرنا قريبين من فقدان هذا الأمل.

ثم لمع لنا بارق، فى سماء هذا الأمل فرأى البعض منا رؤىً ، رأى فيها الشيخ وكأنه يدلهم على سيرته ويرشدهم اليها من طريق من القلة الباقية الذين عاصروه، فرأى أحدنا الشيخ ولم يكن قد رآه من قبل فى حياته ، ولا عرف خليفته الذي ورث الأمر من بعده، رآه يقرأ معه سيرته ورآه يستعرض معه ما يبدو وكأنه تسجيلا مرئيا مسموعا عنه ، ثم رآه يتحدث معه وكأنه يشجعه على تدوين هذه السيرة الطيبة، ووصل هذا الأمر الى حفيده ووارث طريقه ، فجمع البعض من أبنائه ، وعرض عليهم الأمر، وتسائل كل واحد من المجتمعين على الطريقة الى جمع هذه المادة الدالة على سيرته ، فبرق بارق، أخر من طريق أبناء مريديه الذين سمعوا من آبائهم حكاياتهم مع شيخهم فكانت هذه هى النواة التى صارت مصدراً لهذا المعلوم، فاتسعت مصادر المعرفة ، وإبتدء المجتمعون في لقاء هؤلاء الأبناء وأبناء الأبناء، وهالنا كثافه ما سمعنا ، وبدأنا في رصده ، والذى زاد فى إطمئناننا لهذا الأمر ، التوفيق الذى صادفناه في هذا الجمع وأزداد الأمر اطمئنانا حين رأى أحدنا فى رؤياه الشيخ الكبير داخلا في قاعه كبيره و المجتمعون جالسون فيها بنفس الجلسة التي كإنوا عليها وقت التباحث في الأمر ، ووصف الرائي هذه الجلسة كما هي بالتمام و هم يتدارسون سيره الشيخ ، والبحث في أثاره ، والشيخ وضئ الوجه يرتدى زيا رسميا مكونا من جلباب صوف وعباءه فخمه وشال ابيض و ملفحه قيِّمه ، وكان واقفا ينظر اليهم ويستمع الى حوارهم بكل الاهتمام والتركيز ويتابع ما يقولون ... فعلمنا أن الأمر رهن التوفيق، وعلمنا أن مدد الشيخ ونظره معنا... وعلمنا أن توفيق الله سوف يحدونا بإذنه ،وبدأنا في جمع هذه السيرة العطرة .

ونحن إذ نتكلم عن سيره الشيخ مرتقين معه فى أطوارها المختلفة ، فإن ثمة خواطر تطرا علينا في توثيق ما نحكى به عنه، فمن الروايات ما نقلها عنه معاصروه الذين رأوه و استمدوا منة وتعاملوا معه ، هؤلاء المعاصرين له اختلفوا هم أيضا في معالم نقلهم للرواية منهم المؤمن الصدِّيق ومنهم الناقد البصير ومنهم الحافظ الحريص ومنهم الذى مرت عليه عبورا خاطفا لم يعبأ بتفاصيلها، ومنهم من اختلفت عليه الروايات ، فتداخلت الروايات بعضها مع بعض ، ومنهم من كان الراوي طرف فيها ومنهم من كان الراوي حاضرا لها ، ومنهم من أثرت أحداث الرواية في قلبه ، ومنهم من نظر إليها بعقله وفكره ونظره، ومنهم المحب والأكثر حبا والأقل حبا ، ولهذه الأسباب كلها اختلفت صورة الروايات وتباينت ، ولم يدرى المتلقي، أي هذه الروايات هو الأقرب الى الحقيقة ، وفى كتابنا هذا ، كان الحصر اقرب الينا من التمحيص ، فأوردنا الرواية الواحدة بالصور المختلفة التي وردت الينا بها.

ومن الرواة من لم يكن معاصرا للشيخ وإنما كان معاصرا لمن عاصروه، فجاءت الصورة التي نقلها الينا مشوشه غير مضبوطة، ولكننا آثرنا أيضا أن نوردها ، إذا سارت مع سياق العمل الذي نحن بصدده، ومنها ما ارتأينا نفيه لبعده عن السياق.

ومن الروايات من كانت واحدة ، لم يجد الراوي له فيها نظير ، ومن الروايات من تعددت ، وان اتفق التعدد فيها أو اختلف ، ولسنا في هذا الكتاب فى موقف الحكم على الصحيح منه وخلافه ، ولم يكن لدينا ميزان للحكم إلا الوثوق فى القائل ومسايره روح السيرة.

والروايات كثيره لا حد لها ممن عاشوا معه وعاشروه وأحبوه واقتدوا به واتبعوه، هكذا يقول حفيده ووارث طريقه عنه ، إلا أن هناك قصصا تستوقف السامع وتجعله يظل شاخصا فيها ببصره وبصيرته، منفعلا بها ومعها، مستخرجا منها الدروس والعبر على الرغم كونها بسيطة عابرة ، وبينما تتسع الرؤية لتشمل حياه الرجل بكليته، فإن هذه القصص بما تحمله من عبر ودروس تستقر في القلب فتفتح نوافذ النور وأبواب النفحات.

وهكذا هم الصالحون فإن نظراتهم وخواطرهم وكلماتهم وسيرتهم ومناقبهم ماهي إلا رحمه للناس، فما تركوه من اثأر وأثر وما يستتبعه من إصلاح وتقويم لغيرهم هو من أوجه الرحمة التي ينالها من أرادها من الناس، فضلا عمن طلبها وسعى إليها ، وتمسك بها وعاش ومات عليها ، وهم درجات عند الله والله بصير بما تعملون.

وترى التالي لرواية ما إذا تحدث عن شيخه، فإنه يتبدل ويتغير وكأنما ينظر الى من يُحدِثه فيها ويغشاه حال صاحبها وتأخذها الهيبة والجلال ويشعر وكأنما مَن يتحدث عنه هو جليسه وقت روايته لكلامه، فإذا كان بهذا الشكل، فإن كيانه وجوارحه وقلبه هي التي تتكلم، فيخرج الكلام صادقا، فيقابله السامع، بصدق مثله، ولذالك كانت الكلمات تخترق سامعيها نافذه الى دواخلهم، مستقرة في وجدانهم.

غير أن الغالب الأعظم من الروايات التي وردت الينا إنما تتناول العلاقة بين الشيخ ومريديه، والنذر اليسير منها ما يتناول الشيخ في ذاته، وفى صفاته وإذا كان الوصول الى روايات المريدين ميسورة الوصول اليها، ألا أن الوصول الى ذات الشيخ وصفاته يستحيل تحصيله، ولكن يجبُر ذلك أن الصفات البادية على أبناء الشيخ ماهي إلا صفات الشيخ وسماته، فمن أبنائه تعرفه ، ومن التعرف على أحولهم تعرف حاله، ومن معرفتهم تعرفه، فإذا تم لك الاطلاع عليهم فكأنما اطلعت على ذات الشيخ.

ولا تكاد ترى امرا بين الشيخ وبين أحد من أبنائه إلا وتجد كرامه له فيه أو منهجا في تربيته أو علما يضيفه إليهم، أو روحا ترفعهم أو رحمه تعمهم.

وعن خوارق وكرامات الشيخ على عمومها يتحدث الينا فيها الشيخ ناصر حفيده ووارث طريقه قائلا :

إن الخوارق والكرامات أمور خاصة، وهي معادلة ذات خصوصية شديدة، أحد أطرافها هو المنوط بأخذ العبر أو تلقي الدرس ممن أجرى الله على يديه هذه الكرامة، وهي من قبل ذلك بحول الله وقوته وما جرت إلا فضلا منه سبحانه لينتفع بها المريد في سيره وسلوكه وعقيدته، وليثبت به الأقدام، وما يعنينا من أمور الخوارق فضلا عن تلقينا إياها بالشوق والحب كونها جزءا من سيرة شيخنا ومعلمنا ومرشدنا ومربينا، أقول ما يعنينا هو وجه الإفادة التي نخرج بها والدروس والعبر التي يمكننا استخلاصها منها، ولذلك أرى أن يصحب رواية الكرامة ما يستتبعها من المعاني والفوائد والدروس.

ولم تكن هذه الروايات ألا سبيلا نستقرء به معا بعض من المعاني والعبر، لعلها تكون ضوءا لنا على الطريق، وقد جعلنا الطرق مفتوحا لأبناء الشيخ، يدلى كل واحد منهم بدلوه ويكمل أحدنا الأخر فى استقصاء هذه العبر والمعاني و الأبعاد التي في مجموعها تمثل معالم الطريق والقانون الذي يسير عليه.

من هذه العبر ، الانضباط والنظام الظاهر والباطن والالتزام الكامل بتعاليم الشيخ قولا وعملا، وهو مفهوم الاقتداء، ثم أن الشيخ لا يترك لهم الحابل على الغارب فلا يزال ملاحظا لهم فيما أدُّوه وفيما قصروا فيه.

ومن العبر ما هو مطلوب من المريد من إكبار الشيخ وتوقيره وتعظيمه والثقة فى أمره ونهيه ووجوب طاعته.

ومن العبر ما قاله أحد إخواننا عن الشيخ وهو (محمد بعطيش رحمه الله )، وأجراها كلمه جامعه مانعه حيث قال عن الشيخ : كان ربنا في لسانه (والمعنى أن امر الله نافذ محقق في كلامه وظواهره ، أى أنه إذا ذكر أمرا فإن هذا الأمر واقع ، وكأن الله هو القائل ).

ومن العبر أنه ، إذا كان من إثر تربية الشيخ لمريده عقوبة عليه ، فإن العقوبة وان كان ظاهرها العذاب إلا إن باطنها الرحمة، فمن العقوبات ما كانت فداءً لأمر آخر فى الآخرة قد يكون أكبر واشد من تلك العقوبة التى نالها من شيخه فى الدنيا وما خطر له على بال والشبخ يعلمه ، وليس أخطر على الأنسان من الخسران يوم الفرقان.

ولا ينبغي علينا ونحن نرصد صرامة الشيخ في تربيته لمريده إلا أن نقرن ذلك بقول الحق :(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وإسقاطا للمعنى على المربى الروحي والمرشد المحمدي، فالشيخ أولى بالمريد من نفسه ، فإن المربى الروحي أنما هو احرص وأخوف على أبنائه واعطف وأحب بهم من أنفسهم على أنفسهم، فحرىٌ بمن هذا غرضه أن يطاع، وأولى مَنْ هذه رحمته أن يُجاب، اللهم ارزقنا الفهم عنهم والطاعة والتسليم لهم ... أمين.

ونحن وان كنا نورد في هذه السيرة الجوانب الشخصية للشيخ ، والجوانب الروحية ، والطريقة التي كان يتعامل بها مع ذويه ، في بيته ، ومع أبنائه في العهد ، وطريقه تربيته لهم ، و إعانته لهم في مجاهداتهم ، ألا أننا حين نسرد هذه الأخبار وما يصحبها من خوارق العادات ، فإنا نتعمد أن نروى تفاصيل كثيره مصاحبه لهذه المرويات ، وذلك لآجل أن نعيش معهم تلك الأجواء التي كإنوا فيها ، فنشعر وكأننا معهم ،نصاحبهم ونتكلم معهم ونسمع لما يتكلمون به ، ونبتهج لفرحتهم ونحزن لحزنهم و نندهش لما اندهشوا به ، ونعيش معهم أمالهم التي كإنوا ينشدونها والمناسبات التي كانت تمر عليهم ، وما نقلنا ذلك ألا لنفهم دوافع سلوكهم فنكون بذلك اقرب الى فهمهم والقرب منهم و الانتفاع بسيرتهم التي هي في الأصل سيره الشيخ معهم ، فننقل حالهم الى حالنا وتصير أروحهم في ابدأننا ، فتحصل الثمرة التي ننشدها من كتابه هذه السيرة العطرة لهذا الشيخ الكريم.

**أهل الله وآثارهم**

قد يتساءل البعض عن السبب الذى جعل أحدهم أهلاً لأن يكون من أهل الله ، وجعل الآخر أهلا لأن يكون من حزب الشيطان ، ثم أنه قد يتساءل عن السبب فى ولوج السالك فى طريق الحق وفى سرعة سريانه فيه ، وفى عزوف الغير عنه ، وتلكأه فى الوصول إليه ، ولا إجابة لهذه الاسئلة إلا بأمرين ..... الأمر الأول هو إرادة الحق فيه أن يكون من أهل هذا الفريق أو ذاك ، والأمر الثانى هو درجة التأهب والإستعداد للقرب والعلم الإلهى والتعرض لأسرار الوجود ونفحات الجود ،وتختلف درجة الإستعداد من شخص لآخر ، ولا خيار للعبد فى الأمرين ، فإرادة الحق لا راد لها ، وأما تأهبه وإستعداده فلا يكون إلا بإلقاء الروح الإلهى فى جنانه ، تلك الروح الطالبة للقرب ، والتى بسببها تشتعل فى أوصاله جزوات الإرادة ، وعزائم الوصول والصبر على الإرتقاء فى مراتب الطريق ، ولم تكن الروح لتؤثر فيه إلا لأن نشأته الطبيعية والنفسية تقبل هذا ، ولا فاعل فى هذه النشاة إلا الحق ، فالأمر لله فى أوله كسباً ، والأمر لله فى آخره إكتساباً ، والأمر لله فى بدئه وهباً، والأمر لله فى آخره جهداً وإفتعالاً ، فما ثم إلا أفعال الله فى الأمرين .

فإذا درج العبد فى مسالكه إليه ، كان له فى كل درجٍ تجلياً ، وكان له فى كل درج علماً ، وكان له فى كل علمٍ حال ، فإذا إستقرت فيه الأحوال ، صارت الأحوال مقاما ، فإنطلقت الأسماء والألقاب على تلك المقامات ، وتباينت الأوصاف على أصحابها ، وتمايز كل ولىٍ عن الآخر ، بما ظهر له به من ربه .

وتكاثرت الأسماء والألقاب على أهل الله ، وإختلط على الناس مدلولها ، وصار الغالب على الناس جهل الفروق بين مصطلحاتها ، فصار دأب الناس حين يتكلمون عنهم ، أن يتكلموا فى شأنهم على العموم ، فقالوا أهل الله ، أو قالوا أولياء ألله ، أو قالوا رجال الله ، فإذا سألتهم عن سمت أحدهم ، إختلطت عليهم الافكار ، وتوزعت على معالمهم الأنظار ، أو كان جُلُّ علم أحدهم أن يعرف الفرق بين الولىّْ والنبىّْ ، دون أن يدرى الفرق فى مراتب الاولياه .

وتكلم العارفون من أهل الله عن هذه المراتب والألقاب ، وميَّزوا معالم كل مرتبة عن الأخرى ، وإشتركوا فى اشياء وإختلفوا فى أشياء ، ولم يكن إختلافهم سببا فى نقد الود بينهم ، أو سببا للضغائن والأحقاد ، ولم يَصِرْ الحال بين الأولياء ، كالحال بين المختلفين من علماء الرسوم الشرعية الظاهرة ، الرامين لأهل الله بالكفر والفسوق والضلال والعصيان ، ولم يكن السبب فى ذلك إلا لأن جُلَّ علوم الأولياء من طريق التجليات الإلهية الكشفية ، وجُل علوم أصحاب الرسوم من كتبهم وصحائفهم ، ويتجلى هذا الأمر فى قول البسطامى لهم : ( أخذتم علمكم ميِّتٍ عن ميِّتْ ، وأخذنا علمنا من الحى الذى لا يموت .

ولم يرتق أهل الله فى مراتبهم ، إلا بمقدار ماحصَّلوه من علوم إلهية ، صال فيها العارفون وجالوا فى مراتيها ، وفصلوا أنواعها مابين علمٍ عقلى ٍ قائمٍ على الفكر والنظر ، وبين علمٍ واصفٍ لأحوالهم ، وعلمٍ كاشفٍ لأسرارهم ، وعلمٍ ضرورىٍ فطرىٍ قابعٍ فى أعماقهم ، وعلمٍ نقلىٍ تقليدىّْ ورثوه عن أشياخهم ، وسيأتى تفصيل هذه العلوم فى قابل ٍ إن شاء الله .

ثم بيَّنوا مابين هذه العلوم من تعارضٍ وتوافق ، ثم أوضحوا الأسباب فى هذه الموافقة وهذه المخالفة ، وعذروا هؤلاء وهؤلاء لإختلاف الوجه الذى نظر منه كل واحد عن الآخر ، وجميعهم صادقون فيما قالوا به ، معذورون فى مذهبهم .

ثم جعل العارفون لأنفسهم علما خاصا ، توافقوا على مفرداته وألفاظه ، لم يطلعوه على غيرهم من غير مذهبهم ، وجعلوه من أسرارهم ، لا يتكلمون به على العموم إلا بالإشارة ، فإذا إنفردوا فيما بينهم ، إنفتحت إشارتهم ، وباحوا بسرِّهم وتواجدوا فى معانيهم ، ولو إطَّلَع عليهم عموم الناس لولوا منهم فراراً ، ولامتلؤا منهم رعبا ، ولرموهم بالفسق والضلال ، فلهذا آثروا الستر ، وعدم الخوض مع الناس فيه .

ثم بيَّن أهل الله ، السبيل الى التعرض لمواهب الحق وتجلياته ، إن كانت وهباً ، والوسائل إلى ذلك بالرياضة والمجاهدة ، إن كانت كسباً ، وقالوا بوجوب وجود المرشد للسالك ، العارف بالطريق ، الخبير بدروبه ، ومآخذه وأعطابه ، ووعراته وأمراضه ، فإذا كنت منتظراً لورود هذا الشيخ المراد ، فعليك أن تتأهب لملاقاته بالعزلة والصمت والجوع والسهر ، والصدق والتوكل والعزيمة واليقين .

فالأكابر من أهل الله ، هم أهل التأهب والإستعداد للقرب والعلم الإلهى ، الطالبين لمزيده ، والمتعرضين لنفحات الجود بأسرار الوجود .

هكذا ذكرهم إبن عربى فى إفتتاح كتابه الفتوحات المكية ، ذاكرا أن المتأهب ، إذا لزم الخلوة والذكر ، وفرَّغ المحل من الفكر ، وقعد فقيرا لا شيئ له عند باب ربه ، أى ترك مراده لمراد الله فيه ، هنالك يمنحه الله ، ويعطيه العلم به ، والأسرار الإلهية والمعارف الربَّانية ، مثل تلك المعارف التى أنزلها الله على عبده الخضر ، حيث قال الحق عنه : ( عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وآتيناه من لدنَّا علما ) فما كانت مكانة الخضر إلا بهذا العلم الربَّانى ، وما كان هذا العلم إلا لأنه كان متأهبا له ، فصار جديرا به .

يقول الحق : ( وإتقوا الله ويعلمكم الله ) وقال : ( إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ) وقال : ( ويجعل لكم نورا تمشون به )

ثم ذكر إبن عربى الجنيد ، حين سأله صاحبه : بم نلت مانلت ؟ فقال : بجلوسى تحت تلك الدرجة ، ثلاثين سنة ) أى درجة الطلب من الله ، وذكرنا من قبل قول البسطامى : ( أخذتم علمكم ميت عن ميت ، وأخذنا علمنا من الحى لذى لا يموت ) إشارة الى المفارقة بين علماء الرسوم وعلوم أصحاب الكشف ، الذين أخذوا العلم من مجالسة الحق وشهوده .

فينبغى للطالب ، أن يكون صاحب همَّة ، فى خلوته مع ربه ، صابرا عليها ، مقيما على أسبابها ، حتى يحصل على هبة الله ومنته ، ويأخذ من العلوم ، ماغاب عن أصحاب الكلام ، وأصحاب النظر والبراهين العقلية ، فإن علوم الكشف وراء النظر العقلى والبرهان النظرى .

فالأكابر من أهل الله ، هم الذين فى زمانهم بمنزلة الأنبياء فى زمانهم ، وهو مايطلقون عليه النبوَّة العامة ، فهم ليسوا أنبياء ولكنهم فى مقام الأنبياء ، فإن النبوَّة الخاصة المعروفة لدينا ، قد إنقطعت بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى نبوة التشريع ، فلا شرعا يكون ناسخاً لشرعه صلى الله عليه وسلم ، ولا يزيد فى حكمه شرعا آخر ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : ( إن الرسالة والنبوَّة قد إنقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبىّْ) فهذا هو الذى إنقطع وسُدَّ بابه ، لا مقام النبوة العامة التى هى نبوة الأولياء ، فإنه لا خلاف فى أن عيسى عليه السلام ، نبىُ ورسول ، وأنه لا خلاف فى أنه ينزل فى آخر الزمان حكما عدلا بشرعنا لا بشرعٍ آخر ، ولا بشرعه الذى تعبده به بنو إسرائيل ، فهو نبى ورسول قد ظهر قبل رسول الله ، ولكنه حين ينزل ينزل فى آخر الزمان سيكون فى صورة الولى التابع لشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعيسى من هذا المنظور قد جمع بين النبوة العامة من كونه ولىّْ وبين النبوَّة الخاصة من كونه نبىُ ورسول .

وهذا هو الفرق بين النبوة على وجه الخصوص وبين مقام النبوة .فإن النبوَّة على وجه الخصوص غير مكتسبة ، وإنما تأتى وهبا من الحق ، فليس من يسعى الى النبوة الخاصة ينالها ، أما نبوة الولاية وهى النبوة العامة ، فإنها قابلة للكسب ، لأن الولاية قابلة للإكتساب .

ولكن من الأحوط ألا نطلق على الأولياء ، أن لهم مقام النبوة ، وإن كانوا قد حازوها ، حتى لا يتخيل أحدهم ، أن الأمر يمتد إلى نبوة التشريع ، فيقول أنها بالكسب .

ويتمحور جهاد أهل الله فى أن يتخلصوا من بقايا نفوسهم ، وصولا الى فناء شخوصهم بالكلية ، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بإخلاص العبادة لله، وأن تكون دعوتهم فى سبيل الله ، ولو كان فى إمكانهم أن يتخلص الفرد منهم من فرديته ، وإنيته ، فيذهل عن الإشارة الى نفسه بقوله (أنا ) ليصير بكليته ذائباً ، قولا وفعلا وحالا وشعورا وذوقا ووجدانا فى محيط الربانية ، فلا يجد على الحقيقة قائلا إلا الله ولا فاعلا إلا الله ولا موجودا إلا الله ، وأن حقيقته العدم.

فجهادهم الأكبر أن يكونوا مخلصين ، ومخَلَّصين ، متحققين بكمال عبوديتهم لله ،لأن العبودية المحضة هى ألا ترى لك وجودا فى وجود سيدك ، ولا يتعدى دورك إلا أن تكون مظهرا له فى أقواله وأحواله وأعماله ووجوده، فتكون الحاضر بمظهرك الباطن بالله ، فقضية ( ألا لله الدين الخالص ) فى ذروتها تلغى الإنيَّة ، وليس للفناء معنى إلا بتحقق الإخلاص لله سبحانه وفناء إرادة العبد ، فى إرادة سيده ، سواء كانت هذه الإرادة ، نيَّة أو عزما أو خطرة من الخطرات أو فكرة فى سبيل الله ،

ولا نجد مثالا كاملا للعبودية المحضة إلا شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن له فى نفسه نصيب ، فملأ الحق عليه جميع أقطاره ، ولم يكن لغير الله فى نفسه مكان ، وسار على نهجه اهل الكمال من بعده ، وصولا إلى آخر كامل فى الوجود .

ولم يهدف الواحد منهم ( من أهل الله )إلى إذكاء نفسه ، أو الكلام عن إنجازاته أو مراسم جهاده اوكسب نفسه ، ولذلك لم يكن لأهل الله تاريخ شخصىّء مستخلص من كلامهم عنه ، بل جُل ماقيل عنهم إنما هو من آثارهم على مَن حولهم ، وعلى ما حولهم ، وكان هذا تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان همَّه نشر رسالته ويسط دعوته ، حتى لقد كان شخصه الشريف دائما مُظللا فى ظل الرسالة ، لا يكاد يظهر إلا إذا أظهرته الرسالة ،

ومن ثَمَّ ، فإن مقياس الإنجاز والكسب ، إنما يتوقف على هذا التأثير على الغير ، وهو الذى يُعَوَّلُ عليه فى الآخرة ، يقول الحق : ( ونكتب ماقدموا وآثارهم ) ، وذلك لأن آثار الإنسان تتوقف على ما قدَّم ، وبعض الناس يمر فى هذه الحياة فلا تكاد تشعر بوجودهمُ الحياة ، وبعضهم يغادرها ، وقد ترك فيها عبيرا يتضوَّعُ بالطيب فى البقعة التى ظهر فيها ، أو أريجا من الروح يتنسمه الآلاف ممن وصل إليه هذا الأريج ، أو شعاعا من النور يتألق فى مكان وجوده ، فيتمثل هذا الاريج فى سُنَّةٍ حسنة له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ويترك هذه الآثار ، وقد ربَّى أتباعا باعوا نفوسهم لله ، فكان لهم بهذا البيع الجنة ، وكان له بهذا الأثر مثلما غنموا .

**مراتب علوم أهل الله**

تناول العلماء ، مراتب العلوم على عمومها، فقالوا أنها على ثلاث مراتب :

**العلم الأول وهو علم العقل ( العلم العقلى )**

وهذا العلم أحد نوعين ، النوع الأول هو العلم الضرورى ، والنوع الثانى هو العلم المكتسب النظرى القائم على النظر والإستدلال. فأما **العلم الضرورى** فهو العلم الذى تضطر النفس إلى قبوله ، دون الحاجة إلى نظر أو فكر أو طلب دليل ، كالعلم الناتج من إدراكات الحواس ، كأن تعلم أن الشمس موجودة ، لأنك تنظر إليها ، أو تعلم أن الجو حار ، لأنك تشعر بحرارته ، أو تعلم مرارة الزيتون ، إذا ذقته ، أو تعلم طيب الرائحة ، إذا شممتها .

وكذلك العلم بوجود الشيئ أو عدمه ،وكذلك العلم بأن الكل أعظم من الجزء ، وأن النقيضين لا يجتمعان ، وكذلك العلم بوجود الصانع إذا رأيت المصنوع .... فكل هذه الأمور تجدها فى نفسك فجأة ، دون الحاجة إلى دليل ، ولا تتمكن من طرح هذه الأمور عن نفسك ، ولهذا تسمى بالعلم الضرورى ، وأطلق عليه أيضا العلم البديهى.

وأما العلم العقلى الثانى ، فهو **العلم المكتسب النظرى** القائم على النظر والإستدلال ، **فالنظر** هو الفكر فى حال المنظور فيه ، كأن تنظر إلى الأحياء ، وتفكر فى السبب الباعث لحياتهم ، مقارنة بحال الميِّت الذى لا تبدو عليه مظاهر الحياة ، فتستنتج من ذلك وجود الروح المسؤل عنها ، أما **الإستدلال** ، فهو طلب الدليل على شيئ غائب عن النظر ، والدليل هو المرشد إلى المطلوب ، ومن أمثلة العلم المكتسب ، وجود الروح ، كالمثل الذى ذكرناه ، وايضا وجود الكهرباء حينما ترى مصباحا منيراً ، فى مقابل مصباح مظلم ، فتعلم أن الكهرباء هى السبب فى ذلك ، وكذلك النظر فى حركة الأرض وسكونها ، عند من قال بهذا أو ذاك .... والدليل لا يكون صحيحا ، إلا إذا دلَّ على المدلول ، فإذا دلَّ على خلافه فهو دليل فاسد ، وفى الشرع لا يكون الدليل صحيحا ، إلا إذا كان مدلوله موافقا للشرع ، ولهذا يقولون فى النظر ، أن منه الصحيح ومنه الفاسد ، بحسب الدليل المستخدم فيه .

وعن العلوم المكتسبة عند أهل الله نضرب مثالا بالجُنيد الذي يطلقون عليه سيد هذه الطائفة وإمامهم ، يقول القشيرى عن علمه :

لقد كان فقيها يفتى فى حلقة أستاذه وبحضرته ، وهو إبن عشرين سنة ، وكان الكتبة ( الأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه ، وكان الفقهاء يحضرون مجلسه لتقريره ، والفلاسفة يحضرون مجلسه لدقة نظره ومعانيه ، والمتكلمون يحضرون مجلسه لتحقيقه ، والصوفية يحضرون مجلسه لإشاراته وحقائقه .

أما علم الجنيد نفسه ، فقد جاهد فى سبيل تحصيله السنين الطوال ، عن طريق الدرس والتحصيل ، وهذا هو الجانب الكسبى من علمه .

وقد حفظ القرآن وفهمه ، ودرسه وتدبره ، وإستوعب الحديث لفظا ومعنى ، وهذا هو الأساس الذى لا بد مِن إحكامه ، فقد كان من كلامه ( من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يُقْتَدَى به فى شأننا ، لأن علمنا هذا مقيًّدٌ بالحديث والسنَّة ) ، ولم يكن الجنيد بدعا فى هذا المضمار ، فقد كان أستاذه الحارث بن أسد المحاسبىّْ ، لم يكن فى زمانه نظير له فى علمه .

وكان ذو النون المصرى كذلك فى علمه ، فقد كانت له جولات فى علم الكيمياء وأسرار الطبيعة ، وحاول ان يكتشف أسرار قدماء المصريين فكان يقرأ كتبهم ، ويتفهم لغتهم ، فقد كان يحب إكتشاف الغامض ، ويحاول أن يزيل القناع عن المحجوب ، فضلا عما كان يجيده من علوم القرآن والسنة

وهذا هو الغزالى ، وقد خاض بحار العلم ، وإنغمس فيه ، ويحكى ذلك عن نفسه فيقول :

ولم أزل فى عنفوان شبابى ، منذ راهقت البلوغ ، أقتحم لجّة هذا البحر العميق ( يقصد العلم ) وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، أتوغل فى كل مُظْلِمة ، وأتهجم فى كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار كل مذهب ،لأميز بين المحق والمبطل ، والمتسنن والمبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطَّلِع على بطانته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا وأجتهد فى الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على سر صوفيته ، ولا متعبدا ، إلا وأترصد مايرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا ، إلا وأتحسس وراءه ، للتنبيه لأسباب جرأته وزندقته ،وقد كان التعطش الى حقائق الأمور دأبى وديدنى ، من أول أمرى ، وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله ، وضعتا فى جبلتى بإختيارى وحيلتى، حتى إنحلت عنى رابطة التقليد ، وإنكسرت علىَّ العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا .

أما الذى طوَّع مختلف العلوم ، وإمتلك ناصية المعرفة على إختلاف فروعها ، ووصل فيها الى القمة ، ولم يجاره فى ذلك فيلسوف من الفلاسفة ، فإنه الشيخ الأكبر .... سيدى محى الدين بن العربى الذى كان فى فتوحاته المكية ، خير المفسرين ، وخير الفقهاء ، وخير المحدثين ، وخير المتكلمين ، وخير الأدباء ، وكأن معين علمه لا ينضب ، لأنه إرتشف رشفة من بحار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت رشفته تتسم بنضارة مصدرها .

وجميع ما ذكرناه هو الجانب الكسبى ، المتوقف على التحصيل من الكتب ، والتلقى من الأساتذة ، أما الجانب الآخر من العلوم ، فهو العلم الكشفى الوهبى اللدنىّْ الباطنى ، الذى لا يحيط به محيط ، ولا يتسنى لأحد الوصول الى غوره ، ولا سبيل إليه إلا بوهب ربه ، ولكن دور العبد فيه ، هو التعرض له ، والإستعداد لتلقيه ، حتى يكون أهلا لإستقبال نفحاته ، ونول وهبه ، بالعبادة والإخلاص ، والعمل الصالح وتطهير الباطن ، فإذا حدث ذلك كنت فى طريق تلقيه من ربك إذا أراد الله لك ذلك ، وهذا العلم الوهبى الباطنى هو علمٌ إحاطىّْ يشمل فى طيِّه كل ماذكرناه من العلوم ، فضلا عن خباياه وأسراره .

وكثير من علماء أهل الظاهر من الفقهاء والمفسرين ، الذين ظاهروا بعداوتهم لأهل الباطن فى أول الأمر ، رجعوا فى آخر الأمر إليهم وإتبعوهم كأمثال دقيق العيد وإبن اللبان الذين كانا من أتباع سيدى أحمد البدوى ّْ.

**العلم الثانى هو علم الأحوال**

ولا يمكن العلم بهذه الأحوال إلا ذوقاً ، ولا يستطيع صاحب العقل ، أن يعرف حدَّ هذا العلم ، ولا أن يقيم عليه دليل ، كالعلم بحلاوة العسل ، والعلم بمرارة الصبر ، والعلم بلذَّة النكاح ، والعشق والوجد والشوق ، وعلوم الذوق عند أهل الله ، والتى يقولون عنها : من ذاق عرف ، وماشاكل هذه الأنواع من الأذواق .

**العلم الثالث هو علم الأسرار**

وهو علم فوق طور العقل ، وهو العلم الناتج من نفخ روح القدس فى الروع ، أى يبثه الروح الإلهى فى قلب صاحبه من نبىٍ أو ولى ّْ.

وعلوم الأسرار نوعان :

النوع الأول من نفس نوعية العلوم المكتسبة ، التى ذكرناها ، ولكن صاحبها لم يحصل عليها من طريق النظر والفكر والإستدلال ،كأن يعلم الولى صحة الحديث النبوى أوكذبه ، بإخبار الله له ذلك فى سره ، دون النظر إلى شروط الصحة والكذب فى موازين الفقهاء .

والنوع الثانى ، على ضربين ، ضرب يلتحق بعلوم الأحوال والأذواق ، ولكن حاله أشرف ، والضرب الثانى من علوم الأخبار ، وهى التى تحتمل الصدق والكذب عند من يسمعها من خارج ، إلا أن يكون المخبر بها ، قد ثبت صدقه عند من أخبره بها ، وثبتت عصمته عنده ، كإخبار الأنبياء صلوات الله عليهم من الله ، فى حديثهم عن الجنة ومافيها ، فإخبارهم أن هناك جنة ، فذلك من الأخبار ، وإخبارهم أن فيها حوضا أحلى من العسل ، فذلك من علوم الأحوال الذوقية ، وقولهم أن الله كان ولا شيئ معه ، فذلك من علوم العقل المدركة بالنظر ، إذ أن كل ماسواه مخلوق منه سبحانه ، فلابد أن يكون هناك وقت ، لم يكن إلا وجوده سبحانه ، وهذا مما يدركه العقل ،

فصاحب العلم الثالث الذى هو علوم الأسرار ، يعلم العلوم كلها ويحيط بها ، فلا أشرف من هذا العلم المحيط الجامع لكل العلوم .

والعاقل إذا سمع طرفا من علوم الأسرار ، فلا يجب عليه أن يرفضها ، أو يطرحها عنه ، ولكن يقول : هذا جائز عندى ويحتمل الراوى أن يكون صادقا أو كاذبا ، فإن كان معروفاً بصدقه ، صَدَّقَهُ إلا أن يكون مخالفاً للشرع ، وإن كان يعرف عنه عدم العصمة فى القول ، فلتتوقف فيما سمعته منه ، ولا تقطع بصدقه أوكذبه فيها ، وإن صدَّقته ، فلا يضرك هذا التصديق ،لأنه أمر جائز ولا يتعارض مع ماجاءت به الشريعة من أخبار ، ولا يبطل ركنا أو أصلا من أصولها ، فإذا كان هذا الأمر جائز عقلا ، ولكن لم يرد على لسان الشرع مثله ، وقد سكت عنه ولم يذكره ، فلا يرُدُّه أيضا لإحتمال صدقه ، لأن الشرع لم يَرِدْ بنفيه ، ولن نقف عنده ، ونحن مخيرون فى قبوله ،ولن يضرنا قبوله لسكوت الشرع عنه ، فإن كان هذا الذى جاء يه حقا ً، بوجه ما عندنا من الوجوه الصحيحة ، قبلناه ، وإلا تركناه من باب الجائزات ، ولا نتكلم فى قائله بشيئ ، فإنها شهادة مكتوبة ، نُسْألُ عنها ، قال تعالى ( ستُكتب شهادتهم ويُسألون ).

والأصل فيمن وردت إليه هذه الاسرار ، أن ينظر فى الشرع ، فإن جانبها ، رفضها ، وإن سكت عنها الشرع أو وافقها ، فهو مخيرٌ بقبولها ، وإلا جعلها من الجائزات ، ولا يتكلم فى شأن قائلها .

والأصل فى هذه الأسرار أنها صادقة ، وأنها تأتى بأمور وأحكام ، من أسرار الشريعة ، مما هى خارجة عن قوة الفكر والنظر الكسبى ، القائم على الأدلة والبراهين ، وإنما هى أمور لا تُنَالُ إلا بالمشاهدة والإلهام ، وماشاكل هذه الطرق .

ولعل الدليل على وجود هذا النوع من العلوم ، ماذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى الخبر الوارد عنه ، حين قال ؛ ( إن يكن فى أمتى مُحَدَّثُون ، فمنهم عمر ) فالمُحَدث هنا هو المُلْهَم ،الذى يأتيه علمه ممن ألهمه إيَّاه ، وبثَّه فيه وفهَّمَه معناه ،وألقاه على قلبه ، فنطق به لسانه ، سواء كان هذا العلم من الله مباشرة ، أو بواسطة الملك ، فإن كان هناك أمرأً أصابه بالظن والحدس والفراسة ، فليس من هذا النوع ، وهذا الحديث أصلٌ فى جواز الكرامات .

وكذلك ، قوله صلى الله عليه وسلم فى أبى بكر : ( مافُضِّل أبو بكرٍ بكثرة صلاة ولا صيام ، ولكن بِسِرٍ وقر فى صدره ) هذا السر هو الباب الذى يطَّلعُ منه على أسرار هذه المعارف والعلوم .

وعلوم الأسرار من وجه كونها أسرار ، فإن إنكارها من العوام وارد ،ولو لم يقع الإنكار لهذه العلوم فى الوجود ، ماقال أبو هريرة : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاءين ، فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته ، لقطِع منى البلعوم ، وهذا إشارةإلى كثرة منكرى هذه العلوم ، وكذلك قول إبن عباس ، حين قال فى قوله تعالى ( الذى خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، يتنزلُ الأمر بينهن ) لو ذكرت تفسيره لرجمتمونى ، وفى رواية ، لقلتم أننى كافر .

ومثل ماقالوا ، قولة الرضا ، وهو من حفدة علىّْ بن أبى طالب ، إذ قال :

يارُبَّ جوهر علم لو أبوح به لقيل إنك مِمَّن يعبدُ الوثنا

ولاستحل رجالٌ مسلمون دمى يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وهؤلاء الذين ذكرناهم ، عرفوا هذا العلم ومرتبته ومنزلته ، وإن كان أكثرُ الناس له منكرون ، وينبغى للعاقل العارف ، ألا يؤآخذهم ، فقد سبقهم موسى حين أنكر على الخضر ما جاء منه ، وإن كان إنكار موسى على نسيانٍ لشرطه ، وفى هذا عذر للمنكرين ، لأن الأمر أكبر من أن تدركه العقول ، فلا تخاصمهم ، وقصارى ما تقول لهم ، ماقاله الخضر لموسى ، حين قال : ( هذا فراق بينى وبينك ) .

وهذه العلوم التى هى علوم الأسرار ، والتى وصلت إلى العارفين عن طريق الكشف ، قد تطابقت فى جوهرها مع ما قاله بعض الفلاسفة ، أو بعض المتكلمين ، أو أصحاب النظر والفكر ، أو أصحاب أى علم كان ، فإن حصل هذا فلا تقل على هذا الصوفىّْ العارف المحقق ، أنه فيلسوف ، لكون الفيلسوف قد ذكر ماذكره فى هذه المسألة ، وقال بها وإعتقدها ، وأنه نقلها منهم ، أو أنه لا دين له ، فإن الفيلسوف قد قال بها ولا دين له ، وقد يصيب الفيلسوف فى قوله وقد يخطئ ، وربما تكون هذه المسألة من المسائل التى أصابها ، ولاسيما وقد وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد قال بها ، فما جاء عن طريق الكشف فهو صواب على الدوام ، وما جاء به الفلاسفة وأصحاب الكلام ، يحتمل الخطأ والصواب ، خصوصا وأن الفلاسفة يقولون بمثل ماقال الصوفى ، من الحكمة والتبرى من الشهوات ، ومقاومة النفس،فكلامهم قريب من كلام أهل الله. ولا تقولن عن هذا العارف ، أنه سمعها من فيلسوف ، أو طالعها فى كتبهم ، فإنك ربما تقع فى الكذب والجهل ، فالكذب لأنك لم تشاهده حين سمعها من الفيلسوف ، والجهل لكونك لا تفرق بين الحق والباطل فى هذه المسألة .

والفيلسوف ، وإن كان لا دين له ، فليس هذا معناه أن كل مايعتقده باطل ، فما كان إعتراضك على الصوفى ، وإدعاؤك بأن الصوفىْ يقول من كلام الفلاسفة ، إلا خروج من العلم والصدق والدين ،وإنخراط فى سلك أهل الكذب والجحهل والبهتان ، ونقص العقل وفساد النظر ، فخذ ما أتاك به هذا الصوفىّْ العارف ، وأنظر فيه وفَرِّغ قلبك لهذا النظر ، حتى يبرز لك معناه ، حتى لا تقول يوم القيامة ( قد كنا فى غفلة من هذا ، بل كنا ظالمين )، وقولنا أن الفيلسوف ، لا دين له ، معناه ، أن كلامه ليس من منطلق دينى وإنما كان نتاج فكره ونظره ، ولا نقصد أنه ليس له دين من حيث عقيدته.

وصفة العلم العقلى النظرى ، أنك تراه مبسوط العبارة ، مفهوم المعنى ، معذوب الإستماع ، أما صفة علوم الأسرار ، أنها كثيفة العبارة ، عصية على الأفهام ، خشنة الإدراك ، وربما مجَّتها العقول الضعيفة ، التى لم تتوصَّل لتعريف حقيقتها ، ولذلك يستعين صاحبها بضرب الأمثلة والمخاطبات الشعرية ، للتيسير فى فهم معانيها الغامضة ، أما علوم الأحوال ، فهى متوسطة بين علوم الأفكار وعلوم الأسرار ، فأصحابها أهل أذواقٍ وتجارب ، وهى إلى علوم الأسرار أقرب ، وهى لدى من ذاقها ، علمٌ ضرورى ، لأنه أدركها بحواسه ، ولم تحصل له عن فكرٍ أو نظر أو رويَّة ، ومن سمعها من أهل الأذواق وحسنت لديه ، وقبلها وآمن بها ، فليستبشر أنه هو الآخر على كشفٍ من كشف صاحبه ، ولا يلتذ بكلام صاحب الحال إلا من كان صاحب ذوق .

**الشيخ والمريد عندأهل الله**

السالك فى طريق الله ، إما أن يكون سالكا بالجذبة الإلهية (مجذوب)، على ماقال عليه الصلاة والسلام : ( جذبة من جذبات الحق توازى عمل الثقلين .) وإما أن يكون سالكا بالسلوك الكسبى الذى ذكرناة من الإستزادة من العلم والمجاهدة والرياضات الروحانية، للتعرض لنفحات الحق ، وغالب هؤلاء المجاذيب مأخوذون بحالهم عمن سواهم ، وهم درجات فى الجذبة ، فمنهم المجذوب بالكلية ، ومنهم الصاحى بالرغم من جذبته ، ومنهم مابينهما ، تارة يكون هكذا وتارة أخرى على النقيض .

..... فأما الأول فلا يصح أن يُقتدى به ، لغيابه عن نفسه ، وأخذته بجذبته ، ولأنه مثل من وجد كنزا فاصبح غنيا ً، فمثل هذا لا يعرف كيفية إكتساب المال ، ومن لا يعرف لا يتمكن من تعريف غيره بوسائل الكسب ، لأنه لم يمارسها فى نفسه .

أما الثانى فهو الذى يصلح لتربية المريد ( لكمال وعيه وإدراكه )، لأن من سلك الطريق وعرف مراحلها ومنازلها ، وإطلع على متالفها ومعاطبها ، أمكنه إرشاد الغير الى السبيل ، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل .

ولا بد فى طريق أهل الله من وجود الشيخ لوجوب وجود التأثير الروحى على المريد ، لأن العلاقة بين المريد والشيخ إنما هى علاقة أرواح فى المقام الأول ، يأتى بعدها العلائق العقلية والنظرية والفكرية ، ولكنها تكون تحت قيادة الأثر الروحى ، ولهذا نشأت السلسلة فى طريق أهل الله ، من حيث إنتقالها من شيخ الى مريد يوشك أن يكون شيخا فيؤثر بدوره على من تحته من المريدين.

ولقد أوجز الإمام الجنيد ، الشروط التى يجب أن تتوفر فى الشيخ فقال عنها :

نوال الحظ من العلوم الشرعية بأى طريق كان وهبياً أم كسبياً.

التورع عن المحارم .

الزهد فى الدنيا .

ألا يشرع فى مداواة غيره من قبل أن يشرع فى مداواة نفسه ، ونقصد بالأدواء هنا ، أدواء الطريق ، فإذا مرض مريده مثلا بسبب شبهة فى علم التوحيد داواه ، وإذا تحيَّر فى مسالة من مسائل الفقه أفتاه .

أن يكون لديه القناعة بالغنى عن الناس .

أن يخاف من المعاصى والأدناس .

أن يلازم العمل بالكتاب والسنة .

وعلى المريد أن ينظر هذه الصفات فى شيخه ، وأن يزن أفعاله وأقواله بميزان الشريعة ، وأن يتحدث معه إذا إستشكل عليه الأمر فإن داواه بتفسيره أو إشارته فيلزمه ، وإلا فلير رأيه ، على ظاهر ما شاهد ، والشيخ الصادق يعلم ما يدور فى خواطر مريديه ، فيتحدث إليهم قبل أن يتحدثوا إليه فى أنفسهم ، حتى وإن كان حديثا فى الخواطر ، فيأمن المريد على نفسه ، حتى وإن لم ينطق لسانه ،

يقول إبن عطاء الله السكندرى : ( ليس شيخك من واجهتك عبارته ، وإنما شيخك من سرت فيك إرادته ، وليس شيخك من واجهك مقاله ، وإنما شيخك من نهض بك حاله ، وليس شيخك من دعاك الى الباب ، وإنما شيخك من كشف بينك وبينه الحجاب ) ويقول :

( شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك ، حتى تتجلى فيها أنوار ربك، أنهضك فنهضت ، وزج بك فى نور الحضرة ، وقال لك ، ها أنت وربك )

ويقول أيضا : ( الإقتداء لا يكون بولىٍ مجهول العين فى ملك الله ، وإنما يكون الإقتداء بولىٍ دلَّك الله عليه ، وأطلعك على خصوصيته ، فألقيت إليه القياد ، أى أنه ماجاء بك إليه إلا بأمر خارق لمعتادك ، توقن به أنه مدفوع من الله إليك على وجه الخصوص ، فكانت هذه علامة صدقه معك ،وصدقه مع ربه ، فيسلك بك الى طريق الرشاد ، ويعرفك مكنون نفسك ، وكمائنها ودقائقها ، ويدلك على الجمع على الله ، ويعلمك الفرار مما سواه ، ويسايرك حتى تصل الى الله).

ويقول الشيخ شهاب الدين السهروردى :

( لا بد للمريد من شيخ مرشد الى الحق ، يرشده ويلقنه الذكر ، ويلقى فى روعه النور ، فإن تلقين الشيخ يلقح باطن المريد ، ويسرى فيه كأنما يلقحه من سراج )

اما صفة المريد الطالب للشيخفإن المريد يبدأ بالتوبة الخالصة ، تلك التوبة التى أمر الله بها أمرا إيجابيا صريحا فقال : ( وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون ، لعلكم تفلحون)

فإذا تاب المريد ، تأتى الخطوة التى تليها وهى أخذ العهد على المريد بإلتزام الطاعة لله وللرسول وللشيخ ،وإن كان معلوماً أن طاعة الشيخ من باطن طاعة الله ورسوله ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والعهد هو المبايعة.

ثم بعد المبايعة تأتى مرحلة التلقين ، والتلقين هو تعليم الشيخ للمريد كيفية ذكره ، بما يناسب حاله الذى يعلمه الشيخ عنه ، بما أعلمه الله له ، ويتجدد التلقين كلما قطع المريد مرحلة من مراحل القرب الى الله تعالى ، وتختلف أيضا صورة التلقين ، فمن صوره التلقين المباشر الظاهر ، ومن صوره إرسال خاطر الذكر فى باطن المريد ، ومن صوره رؤية المريد لرؤيا فى نومه تفيد إنتقاله من ذكر الى ذكر آخر ، أو بأية صورة أخرى يراها الشيخ مناسبة له .

ولقد أخذ أهل الله التلقين لمريديهم مما علموه من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما كان يطلب من أصحابه ، أن يقولوا كذا وكذا ، وكانت أقوال ذكره لهم تختلف من صحابى لآخر ، فهذا يقول له : قل كذا ، ويأمر الآخر أن يقول خلاف ما قاله للأول ، فقد حدث أن قال لعلىٍّ كرم الله وجهه : أغمض عينيك وإسمع منى ، لا إله إلا الله ، ثلاث مرات ، ثم قل أنت ، لا إله إلا الله ، ثلاث مرات ، وأنا أسمع .

وهناك تلقين جماعى للحاضرين فى جلسته ، ومن صور هذا التلقين مارواه الإمام أحمد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأصحابه يوما : هل فيكم غريب ؟ يعنى من أهل الكتاب ، فقالوا : كلا يارسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال : قولوا : لا إله إلا الله ، فرفعوا أيديهم ساعة يرددونها ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : .... اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة ، وأمرتنى ووعدت عليها الجنة ، وإنك لا تخلف الميعاد ، ثم قال : (ألا أبشروا فإن الله قد غفر لكم )، فكان ماذكرناه صورة من هذا التلقين الجماعى .

والأثر المطلوب من هذا الذكر ، أن يستغرق قلب الذاكر مايردده منه ، إلى أن ينتهى به الحال إلى الفناء بالكلية فى الله ، وبين الأولى والآخرة مراحل ومراتب وإرتقاءات ، هى مراحل قرب العبد من الله ، حتى يصل الى مرتبة العبودية المحضة ، المناظرة لفناء العبد بالكلية فى ربه .

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات للصادقين فيه ، حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصوات ، ويقتبسون منهم وفائد .

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، الى درجات يضيق عنها مقام النطق ، يقول عنها الإمام الغزالى : (وإنكشف لى فى أثناء هذه الخلوات ، أمور لا يمكن إحصاؤها وإستقصاؤها ) ثم يشهد الغزالى لأهل الله من الصوفية بقوله : أنى علمت يقينا ، أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أذكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ( أصحاب النظر ) وحكمة الحكماء ( الفلاسفة ) وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ( الفقهاء ) لغيروا شيئا من سيرهم ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، من نور مشكاة النبوَّة ، وليس وراء نور النبوَّة على وجه الأرض ، نور يستضاء به .

**نسب الشيخ وظروف ميلاده**

هو مسعد عبد العزيز داود، ينتهي نسبه الي أبي عبد الله الحسين رضي الله عنهم ،...... وكان ميلاده رضي الله عنه في قرية الأخصاص مركز الصف محافظة الجيزة وكان ذلك في 16/02/1920 ميلادية الموافق 1328 هجرية.

وسيرة الشيخ قد وردت الينا من خلال روايات متعددة عنه، ومن هذه الروايات من كانت واحده المصدر ومنها من تعددت مصادرها، وقلنا إن من هذه الروايات من إصطبغت بحب صاحبها الى درجة المغالاة ، ومنها ما كانت عقلانية السرد مع وجود ذات الحب.

ومن تلك الروايات أُحاديه المصدر تلك التي نحكيها عن ظروف ميلاده رضي الله عنه ، ولا ندرى إن صحَّت أو كانت غير ذلك ، ولا ندري إن إتصفت بالمغالاة أو كانت على حقيقتها ، ولكنا آثرنا أن نقُصُّها على عُهده قائلها، فربما كانت كلها حقيقية أو لها وجه أو وجوه من الحقيقة ، نقول ذلك إلتزاماً منا بالحق ، الذي كان منهج الشيخ في تعليمه لأبنائه ، فان الحق هو ثمرة أهل التحقيق .

ذكر الراوي أنه قبل أن يخرج الشيخ الى الوجود الظاهر في ميلاده ، رأت أمُّه في رؤيا لها ، أن أحداً ذكر لها أنها لن ترضع وليدها ، فإغتمَّت لذلك اغتماماً شديداً ، وسألته من سيرضعه إذا ؟ فقيل لها : حليمة السعدية والرواية إن صحَّت فإن لإسم حليمة السعدية ، دلالةٌ قويَّة على ما إتصف به الشيخ بعد ذلك ، فأول، تلك الدلالات ، هو أن هذا المولود سيكون وارثا للإرث النبوي وهو ما كان بالفعل ، وهو قدوته في أن تكون مرضعته حليمة كما كانت حليمة السعدية مرضعة الرسول.

الدلالة الثانية: في كونها سعدية ، وهو الجانب الأخر الفرعي من الوراثة وهى الوراثة الروحانية ، إذ كان وارثاً لسيدي سعد الدين الجباوي شيخ الطريقة ، في وراثة طريقته ولن نطيل في هذا الأمر لأنه قائم على الاحتمال والله يهدينا السبيل.

يقول الراوي: أنهم بحثوا في القرية عن أحدٍ يُرْضِعُه، فأعياهم البحث، إلا أنهم وجدوا إمراةً مسكينة ولديها أطفال ، وكانت ظروف معيشتها عسيرة وبالكاد تقوم على مطالب أولادها.

ولا يكاد السامع لهذه الرواية إلا أن يربط في خياله بين أحوال هذه المربية وحليمة السعدية أم النبي ، فلقد كانت حليمة السعدية تقتات من رضاعه أبناء أصحاب الجاه ، فخرجت من هوازن مع نسوة من بني سعد ومكثت مع الرضعاء بمكة تنتظر نصيبها من أبنائها ، وقد ظهرت آثار فقرها في دابةٍ هزيلة لا تكاد تصل بها الى مرادها من بطء سَيْرِها ، وفي ثديٍ جافٍ لا يكاد أن يكون كافيا لإرضاع ولدها الذي تحمله ، فلما ذهبت الى مكة و إنفضَّ الطالبين للرضاعة دون أن تنال منهم شيئاً ، لم تجد إلا يتيم بنى هاشم ، رضيعا لها ، فإستبشرت به وأخذته ، حتى أن زوجها قال لها: قد أخذتيه ؟ وكأنه يقول لها ، ماذا ستجنيه من رضاعته ؟ ، فقالت نعم ، والله إنى لم أجد غيره ، فقال أصبتِ فعسى الله أن يجعل فيه خيرا .

يابنَ الذبيحين ... مبروكٌ .... بنى سعدٍ

حليمةٌ نالها من خيره زَخَمُ

يا أمَّ أحمدَ قد فُقتِ السُها ذكراّ

إذ كان بعضُكِ فى أبعاضهِ طُعْمُ

رَضِيَتْ يتيمَ قريشٍ أن تطاعمهُ

فإذ رضاها فى رضا الرحمن مندغِمُ

جاءت إليه بثدىٍ ماله قَطرٌ

ففاض من خيره دَفٌاق يندهمُ

وشارفٌ قد خوى من ضرعه لبنٌ

فإذا الضراع من الإملاء ينصرمُ

مكث الأمينُ لستٍ فى بنى سعدٍ

فحان وقتُ رجوعٍ ماله فَصْمُ

هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما صاحبنا فيواصل الراوي سرد روايته قائلا : فعندما ذهبوا به إليها ، نقصد ذهبوا بمسعد الرضيع، إلتقم ثديها ، وكانت هذه الرضاعة سببٌ في تغير حالها ، فلقد كان أهل الشيخ من كبار رجالات القرية فأرسلوا إليها بقرة كبير وقالوا : هذه هدية منا اليك ، لكي ترضعي إبننا ، فامتلأ البيت بالخير ، حتى أن أهل السيدة كانت ترضعه هي وجيرانها .

وأيضا لا نكاد نسمع هذا الكلام إلا ونقارن ذلك بتغيُّر الأحوال على حليمة السعدية بعد تلقيها هدية الله المباركة إليها ، فنشطت دابتها العائدة بها الي قريتها في بني سعد ، وإمتلا ثديها باللبن فاكتفي منه ولدها كما اكتفى النبي صلى الله عليه وسلم وامتلأ بيتها بالبركة وأحبته والتصقت به أيَّما التصاق.

ولقد نشأ الشيخ وفي نفسه عِزَّة الجاه وعلوَّ المنصب ، فقد كانت أسرته من وجهائها مالاً وجاهً ، إذ كانت جُلُّ أراضي القرية من أملاكهم ، وكانوا من أشرافها ، فقد كان جَدُّه لوالده عمدةً لها ، فإجتمع لديه المال والجاه، ونشا صاحبنا وفي نفسه هذا الشعور الذى لا يكاد يغيب عنه لحظة واحدة ، فورث منهم -على صغره - السطوة والمكانة والجاه والقوة والعزة.

وحتى في طفولته لم يغب عنه هذا الشعور ، فإمتلأ نشاطاً وإزدادت حركته ، وعلا شأوُه على أقرأنه ، فكان كثير العِراك والمشاكسة معهم ، معتمداً في ذلك على سطوة وعزة أهله وقرابته ، وزاد ذلك للدرجة التي تكررت شكاوى أصحابه وذويهم منه ، فكانت والدته تحاول أن تُبعده عنهم لتمنع سيل تلك الشكاوى منه ، ولمَّا لم تتمكن من ذلك ، كانت تقيِّدُه وبالرغم من ذلك ، كان يحل وثاقه منطلقا إلى ما إعتاده من رفض سيطرته.

وأيضا من الروايات أحاديه الجانب ، والتي إختلفت فيها الروايات ، قصة تعليمه ، والتي تروى أنهُم أرسلوه لتلقى العلم في إحدى المدارس ، وتكررت شكاوى زملائه منه ، فأشار عليهم أحد الأشخاص أن يذهبوا به الى مدرسة للنصارى في القرية ، ففعلوا ، وتعلم في هذه المدرسة التوراة والإنجيل وفهم منهم أمور دينهم ، ثم انتقل بعد ذلك الى مدارس المسلمين.

ولا ادري إن كانت هذه القصة صادقةٌ أم شابها ما شاب غيرها من المقالات إلا أن يكون الدافع الى ذهابه الى مدارس النصارى ، إن إدارة هذه المدارس تتصف بالإنضباط والقوة وجودة التعليم ، فيكون ذلك داعياً لتقويمه وترويضه، نظرا لأن الراهبات كُنَّ يَقُمْن على إدارتها ، مع ما هنَّ عليه من القوة والحزم والصلابة والدقة ، وذلك ، ماهنَّ مشهوراتٌ به حتى اليوم ، وربما كان ذلك هو الحكمة الظاهرة ، أما الحكمة الباطنة فهي الإطلاع على علوم الملل الأخرى ، من باب الإعداد لما سيكون عليه الشيخ من الريادة في التالي من أيامه ، فإنه ما من شأنٍ عشوائي في ترتيب الكون ، فإن هداية القوم ليست وقفا على المسلمين ، بل تتعدَّاهُم إلى النصارى وأهل الملل الأخرى و الملاحدة والمشركين ، فكان حريَّاً بهم أن يتعلموا لغتهم و يفهموا دينهم ، فإن من تعلم لغة قوم أمن مكرهم ، بل إن الأكثر من ذلك، أن الهداية من الشيخ ليست موقوفةٌ على الإنس ، بل تتعدَّاها الى الجن، فإن من مريدين الشيخ أقوامٌ منهم ، وسيأتي الكلام عن ذلك في لاحقٍ أن شاء الله.

واستمرأ مسعد ما كان عليه في صباه ، وظل ملازما له في شبابه ، إذ إجتمعت لديه كل أسباب المال الذي يتمكن به من تحقيق ما أراد ، قوة الشباب التي كان يتمتع بها ، والجاه والسطوة والعزة التي كانت عليها عائلته ، والتي أعطته المناعة والحصانة من أن يناله أحدٌ بأذى ، في مقابل ما قد يؤذي به غيرُه من خلال أصحاب السوء الذين كانوا وقودا يرتفع بهم عنفوانه وقوته ، والذين يلتقى بهم ومعهم فى قضاء مآربه و مشاربه ، فعاثوا في الأرض فساداً ، من معاقرة الخمور ، والعَبِّ من أنواع الملذات وتعاطي كل ما حرمه الله ، وفرض السيطرة والسطوة على من يخالفهم، فكم من مرَّات ، أغلق بيوتاً على أصحابها ، ومنعهم من الخروج منها ، وكم من مراتٍ ، تجاوز في حقهم و منعهم منها ، و كم من مرات تعارك وتشاجر معهم لمجرد الخوض في سلوكه ، ووصل الأمر باهل قريته أنهم كانوا يتواصون فيما بينهم بألَّا يمرون في طريقٍ أو على مكانٍ هو موجود فيه، فيقول أحدُهم للأخر : لا تذهب من هذا الطريق فان صاحبك جالس فيه اومار به ، وظل مسعد هذا الذي ذكرناه حتى بعد زواجه ، ولم يمنعه الزواج من السير في هذا الطريق الذي بدأ به طفولته ، وإستمر معه في شبابه، وصاحبه إلى مرحلة رجولته ، وذلك بالرغم من صلاح زوجته ومحافظاتها على الصلاة وتلاوة القرآن ، فكانت شبيهه بأمِّه التي كانت هي الأخرى حافظه وتاليه للقران ومحافظه على الصلاة .

ولكنه بالرغم من كل ذلك ، فان شيئا طيبِّا ما ، قد وقر في صدره ، هذا الشيء كان يجرُّه الى بعض الفضائل التي ربما ورثها من صلاح أمه، التي كان باراً بها ، بالرغم من سوء فعله ، وكذلك كان باراً بأخيه الأكبر الحاج فرغل ، وقد ذكرنا ذلك من قبل فيما قدمناه من الكتاب إذ كان يجعله في مقام والده مطيعا له على الدوام.

**ما قبل الفتح الأعظم**

**الشيخ في أول طريقه مع أهل الله**

**ولقائه مع شيخه**

كان لا يزال صاحبنا على ما هو عليه من الخوض في المخالفات التي ذكرنا تفصيلها سابقا وان كان قد وقر في نفسه خلاف ما هو الظاهر عليه فحدث في احدى الليالي وهي ليله النصف من شعبان وهي ليله تعددت فيها المناسبات مع الشيخ كما سنذكر وكانت سبب له فيما بعد في إجلالها والاحتفال بها.

حدث في هذه الليلة أن ذهب صاحبنا الى الحقل لجمع بعض من (قوالح الذرة) وهي الباقية من ثمره الذرة بعد نزع حبَّاتها عنها ، والتي كانت لها استخدامات متنوعة ، منها أنها كانت بديله للفحم في الاشتعال ، بغرض التدفئة، وفي إشعال النرجيلة التي هي آلة التدخين ، وكان صاحبنا يجمعها لهذا الغرض وفي هذه الليلة حدث ما لم يكن محسوب لديه ، فقد قابل رجلاً مسناً لا يعرفه ، فبادره الرجل بقوله: الى أين أنت ذاهب؟ فأجابه الى سؤاله ، ثم طلب منه أن يتوضأ ويأتي للصلاة فكان طلبه له إنتقالٌ في الحال من أقصى اليسار الى اقصى اليمين ، وإنتقال في الحالة من حالة المعصية الى حال الطاعة ، وإنتقال عما إعتاده وألفه ، الى موطنٍ غريب عليه معروض عنه ، فصادف طلب الرجل من الشيخ إعراضا في أول الأمر ، ولكن الرجل نظر اليه بنظرة أصابت قلبه قبل أن تصيب عينيه ، ثم قال له : ستأتي يا مسعد الى الطريق لا محالة ، ولكن متى هذا مالا يعلمه ألا الله ، كان هذا الرجل هو : الشيخ إبراهيم الدكروري شيخ الطريقة السعدية ، ولما ذهب عنه الشيخ مسعد أصابته نظره الرجل إليه ، وعاود التفكير في حاله ، وفي الحال الذي يدعوه اليه ، واشتعلت في قلبه تلك الفطرة الصالحة التي وقرت فى داخله ، فعاد الى المكان الذي ترك فيه الرجل وسأله : عما يريد منه ، فقال له : أن تتوضأ وتصلي ، فتوضأ وصلى معه وتحادث معه واعلمه بنفسه ، وذكر له مكانه الذي يقيم فيه في دهشور، وسأله عن الطريق للوصول اليه فى داره ، فقال له الرجل☹ (عندما يتوب الله عليك ستأتيني وسوف تصل اليَّ دون وسيط. ).

ذهب الشيخ مسعد الى بيته بعد هذه المقابلة وقد تغير فيه شيئاً لا يدريه وانطبعت في قلبه كراهية ما كان عليه ، وقصَّ على زوجته ما كان معه والشيخ ، وكانت من الصالحات فاستبشرت خيراً بهذه المقابلة ، التي كان من أثارها أن قام الى نارجيلته وملحقاتها فتخلص منها ، وبات ليلته مصليا لله داعيا الله أن يتوب عليه.

وفي الصباح توجه الى المكان الذي ذكره له الشيخ وطرق الباب عليه فعرف الشيخ إبراهيم طارق الباب من قبل أن يفتحه فلما سألته زوجته: من الطارق؟ قال لها: انه الرجل الذي سيخلفني ويرثني في قومي من بعدى ، ثم فتح له الباب وأعطاه عهده وظل الشيخ مسعد على عهده مع شيخه محبا له متفانيا في طاعته لا يدخر من ماله وجهده وطاقته شيء عن شيخة مجتهدا في إستيعاب وتحقيق ما يرشده اليه شيخه غير عابر بما يتكبده في ذلك.

وكان في أول عهده بشيخه أن قال له : (يا مسعد ، أول حاجه تروح تدفن أبو داوود) وأبو داود هو لقب الشيخ مسعد ، ويريد بذلك أن يدفن نفسه الأمارة بالسوء ، بعد موتها ، بمطالبها ومباهجها ورغباتها وآثامها وشحها وبخلها وحرصها وطمعها وإيثارها ، ولا يزال هكذا فى دفع مطالب نفسه الى أن ترتقي روحه.

وكان الشيخ إبراهيم الدكروري يعرف مكانة الشيخ مسعد في قريته وعلو شأنه وارتفاع مكانته فقصد أن يروض هذا الإحساس في داخله فكان لا يذهب ليله من الليالي ويكون الشيخ مسعد معه ، إلا ويجعل وظيفته أن يسحب الحمارة التي يمتطيها شيخه ، الى أن يصل الى مكان الليلة ، فاذا نزل عليها وقف الإخوان الى جوار الشيخ إبراهيم ويكون الشيخ مسعد في أخرهم بجانب الحمار في الخارج ، وكان ذلك في كل ليله يذهب فيها مع عمه ، ويعلق الحاج مسعد على هذه الحالة قائلا : (كانت هذه الأيام من أجمل أيام حياتي فقد كنت أرى فيها البِدَعْ )ويقصد بالبدع هنا التجليات الإلهية والمواجيد الروحانية والمذاقات الصوفية.

ولم يكن ذلك من جانب الشيخ إبراهيم تقليلاً من شأنه أو دحراً لمكانه وكرامته ، وإنما كان ذلك تربيةً له لأنه كان من عائله كبيره ، وكان يريد أن يربي روح الشيخ ونفسه ويزرع فيه التواضع والانكسار.

وكانت الرابطة الروحية بين الحاج مسعد والشيخ إبراهيم قويَّة جداً ، وتجلت هذه الرابطة في طلب الشيخ له أن يذهب للحج ، وكان الحج في هذا الوقت يستغرق ما يقرب من ثلاثة شهور ، فقال له : يا عمي لا استطيع أن ابتعد عنك يوما واحدا ، فكيف أستطيع أن أبتعد عنك كل هذه المدة ، فقال له الشيخ إذهب وأنا سآتيك كل يوم ، وذهب الشيخ الى رحله الحج ، وكان له ما وعده شيخه به ،إذ كان يصاحبه روحانياً في كل مواطن حَجَّته ، وحدث في أثناء حجه أن جاء الشيخ إبراهيم الى أم الحاج مسعد ، وكانت تعد طعاماً مكوَّناً من خبز وملوخية وبامية ولحم ، فقال لها الشيخ إبراهيم :( أعِدِّي لمسعد طعاماً )، فسالته مستغربه : أين مسعد ؟ فقال لها : في الحج فقالت له كيف : سنذهبُ اليه فقال لها ، أشرب الشاي وبعد ذلك يسوِّيها ربنا ، فلما أعطته الطعام الذي أعدَّته لولدها أخذه منها ، فلما رجع الحاج مسعد من رحله الحج ، صدق ما قاله الشيخ إبراهيم ، واقسم أن الطعام جاء اليه من عمِّه ساخناً ، فكان ذلك كرامةً من عمِّه ، ودليل على تلك الرابطة الروحية الإلهية.

وكان الشيخ إبراهيم حاضر على الدوام في قلب ولده ، لا يعلم مسعد ، أن هناك أمراً يحبه شيخه ألا واحضره له ، مهما غلا ثمنه ، فلقد حدث مرةً أن الشيخ مسعد كان يصلي الجمعة في مسجد السيدة زينب ، فرأي بائع سمك وعنده سمكه كبيره ، فقال : (أن هذه السمكة لا تنبغي إلأ أن تكون لشيخى) فأشتراها ، ومرَّ في أثناء عودته على سيدنا الحسين ، ثم توجه الى عمه حال عودته فنادي الشيخ إبراهيم على زوجته وطلب منها أن تأخذ السمكة و تعد الطعام ، فأخذت زوجته السمكة واعدتها وقطعتها، ثم وضعتها على النار في الزيت ، وأنتظرت أن يتم طهيها ، وظلت على هذا الانتظار فتره فلم تنضج ، فإندهشت وأصابها الذهول ، فذهبت الى زوجها وأخبرته الأمر ، وقالت له أن النار لا تؤثر فيها ، فساله الشيخ : من أين جئت بها يا مسعد ، فقال له : من السيدة زينب ، ثم مرَرْتُ بها على أهل البيت أثناء زيارتي لهم ، وكذلك بعض الأولياء ، فقال له : أتجعلها تزور كل هذه المقامات ثم تعطيها لي لأحرقها بالنار ، يا بني إن اشتريت شيئا لتأكله فلا تذهب به الى المقامات ، فان النار لا تحرقه.

وكانت وصيه الشيخ الدائمة لمسعد ألا يظلم أحدا في طريقه ، وكان يغار على عمه إذا تكلم أحد عنه بسوء ، ولا يحتمل أن يذكره أحدٌ بما يكره. ولقد حدث أن أقام الشيخ مسعد مأدبة طعام لأحد ضيوفه ، وفى أثناء جلوسهم تكلم الضيف عن الشيخ إبراهيم بما لا يُرضى الشيخ مسعد ، فأقسم ألا يذوق طعامه وقد كان ، وذلك من غيرته على شيخه .

وبلغ من شده حبه لعمه أن يجتهد في جمع مقتنيات عمه إن كانت من تلك التي تُباع فيشتريها بأي ثمن كان ، وكان من هذه المقتنيات : مكتبة وبعض عقبان السجائر ، وعلبه سجائر صفيح ، وسبحه ، ومكحلة وشعرتان من ذقن عمه ،وختم وطاقيه وعمة ونظارة.

وكان من عادته أن يضع تلك المقتنيات بشكل وبطريقه معينه وعندما يرجع اليها ينظر أن كانت قد تغيرت عن صفاتها التي تركها عليها فيعرف إن كانت يداً قد عبثت بها أم لا ، ولا تزال هذه المقتنيات موجودة في بيت الشيخ.

وأمَّا خِلافه عمِّه ووراثته ، فإن لها هي الأخرى روايات نتحدث عنها : فلقد كان للشيخ إبراهيم أولاد من صلبه وكان الشائع أن يرثُ أحدُ أبناء صلبه الطريق من بعده وكانت زوجته تشير عليه بهذا ، فكان يقول لها : أن من سيرثني لا زال في الخمارة والكاس في يديه أشاره الى حالة الشيخ قبل توبته.

ألا أن هذا الأمر ( خلافة أبنائه من صلبه له ) لم يكن بالإمكان لأمرين:- الأمر الأول : هو تفاني الشيخ مسعد في خدمه عمه وطاعته وإيثاره على نفسه و حبه له بما لا يتدانى من أحدٍ غيرِه ، وكان لهذا التفاني شاهدا له على إيثاره على أولاده من صلبه ، وكان هذا الشاهد اختبارً لإظهار المفاضلة بين مسعد وبين اقرب أبنائه صلبا اليه ، حيث طلب من كليهما أن يحضرا له شيئا من البر الأخر المقابل لهم ، اذا كان يفصلُ بين البرين نهر ، ولكنه لم يطلب هذا الأمر في حضرتهما مجتمعين ، بل طلبه منهما كلا على حده ، وكان حال حُبِّ الشيخ متجليا وملتبسا في قلب الشيخ مسعد ، فما كان له إلا أن سار فيه بحاله على ظاهر ماء النهر بين البرين، وأتى بمطلوب الشيخ في لا وقت .

أما الأخر الذي هو ولده من صلبه ، فإنما سار الى مقصده بما تطلبه الأسباب من المواصلات التى تأخذُ وقتا طويلا حتى عاد إليه ، هنالك عرف أثر حب مسعد له وتفضيله على ولده من صلبه فظهر له الفرق بين هذا وذلك ، وهو فى نفسه يعلم هذا الفرق ولكنه أراد أن يكون له شاهد فى نفسه ، وقال قولته الشهير ( سبحان من هوَّنَ العزيز ) ، أى سبحان من هوَّن القريب الخارج من الأصلاب ، عن الغريب المنسوب للأحباب .

ثم أن هناك شاهدٌ أخر ، أراد به أن يبرهن لزوجته على أفضلية مسعد على ولدها ، فطلب منها أن تنادي في سِرِّها على مسعد ، وعلى ولدها، وتنظر إيهما سياتي أولاً ، فما أتمت النداء فى سرها ، حتى وجدت مسعد قائما أمامها فعلمت صدق الشيخ في ذلك.

وأما الأمر الثاني فيظهرُ في انه كان للشيخ إبراهيم الدكروري تجاوزات في شأن الطريق ، كان من أثرها أن عاقبه القائمون على دوله الباطن واهل البيت بأن يجعلوا وراثة الطريق في غير أهل بيت الشيخ إبراهيم ، وقد ذكروا أنه قتل بالسرِّ ثلاثةَ نفرٍ ...... وهذا أمرٌ لا نعلم تفصيله ولم يخبرنا الراوي بأمره ، وليس هذا الأمر بمستغرب في شان الطريق ، فإن شأنَ الطريق كغيره ، يحتمل الخطأ والصواب ، والثواب والعقاب ، ولهذا كانت وصيه الشيخ إبراهيم لولده ألا يظلم أحدا في طريقه الى الله ، وأوصاه أن يقرا له في كل يوم سوره الواقعة والرحمن وياسين ، وان يهب ثوابهم اليه واخبره أن بيته سيغلق بعد انتقاله ، ولن يفتح ، وذكر له انه حاول أن ينال شفاعه أهل البيت فلم يوفَّق.

**الفتح الأعظم**

الفتح الأعظم هو أول التجليات الإلهية على العبد وبشائر العطاءات الرحمانية، يحكى عنها الشيخ محمد أبو سلامة ، وينقلها الينا الدكتور احمد موسى، يقول الشيخ محمد سلامه: كنا إذا أتينا الشيخ نجلس بالمندرة من الدور الأول، فإذا كان الشيخ جالساً جالسناه ، وإن كان فى الدور الثانى ، إنتظرناه ، فلا ننادى عليه ، فمنا من يطلبه الشيخ للصعود إليه ، إذا أراده منفرداً ، وحدث أن طلبنى للصعود إليه( والكلام لأبو سلامة ) فصعدت ، وجلست إلى جواره ساكتا ساكنا ً، إذ لا يتمكن أحدٌ ، أن يبدأه بالكلام ، وكنا لا نقدر من فرط هيبته أن نسأله عن أمرٍ ، حتى يُفْسِح لنا مجالاً لذلك ، وكان يراودني سؤالاً ، كلما هممت أن أسأله للشيخ تراجعت ، وفى هذه المرة ، إستجمعت شجاعتى ، إذ رأيتنى منفردا معه ، والشيخ فى حال من البسط وطيب المزاج ، يؤهلنى للسؤال عما بداخلى ، فقلت له : ياعم ، هل لى أن أسألك ، كيف فتح الله تعالى عليك ، بالفتح الأعظم ؟ فسكت الشيخ برهة أضاء فيها وجهه الكريم ثم قال لي : لقد كنت شقياً جداً في شبابي يا محمد ، وكم عصيت الله تعالى وتعديت حدوده الشرعية وارتكبت العديد من الآثام والمنكرات. حتى جاءت ليلة، وكان بيني وبين عائلة في الأخصاص خصومة وثأر ، وتملكني الغيظ من تلك العائلة حتى عقدت بالغ العزم على الإنتقام منها في تلك الليلة ، فاستدعيت عدداً من أصحابى الذين هم على شاكلتى ، وأبلغتهم بما أنتوى فعله ، وأعددت بندقية وطبنجة لهذا الغرض وجعلتهم في غرفتي بالدور الثالث من البيت القديم . وحتى لا يشعر أحدٌ من أهل بيتي، وضعت لرجالي علامةً ، حتى أعرف وقت مجيئهم دون أن ينادوا علىَّ فيوقظوا من بالدار ، فجعلت حبلاً متدلياً من غرفتى ، فإذا ما جاءوا قبيل الفجر جذبوه فأستيقظ ، فأنزل إليهم حاملاً سلاحى ، جاهزا لما عزمت على فعله ، ولكن حدث أن غلبنى نومٌ شديد ، وغلب أصحابى مثل ما غلبنى من النوم ، فلم يستيقظ منهم رجل ٌ واحد ، بالرغم من شدة مهابتهم لى ، وخوفهم من مخالفتى ، وكانت الليلة هي ليلة النصف من شعبان . فلما اقترب الفجر وأنا غارق فى نومى ، رأيت كأن رجلا واقفا ً فى منتصف الغرفة ، يناديي علىَّ أن قُم أيها النائم. فظننت أن هذا الرجل هو أحد أفراد العائلة التى أنوى عراكها ، وظننت أنه قد تسلل إلى غرفتى ، ليقتلني أو يلحق بي أذىً ، فمددت يميني إلى سلاحى،فظل ذراعي ممدوداً لا يتحرك،فمددت يسراي إلى بندقية معلقة على الحائط ، فظل ذراعى الأيسر ممدودا هو الآخر لا يتحرك ، ، وبينما أنا في ذهول مما يدور حولي ، تقدم الرجل إلىَّ حتى اقترب منى ، فتمكنت من إستبصار وجهه ، فوجدتُ بهاءً شديداً على سمته ، فقلت : له من أنت؟ فقال أنا أبو بكر الصديق صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبينما أنا لا أصدق ما ترى عيناي، واصل تقدمه حتى إقترب منى إقترابا شديداً ، ووكزني بقبضته في صدري ثم قال : إلى متى لا ينتهي ظلمك، ثم وكزنى الثانية فقال: إلى متى لا ينتهي ظلمك؟ فلما كانت الثالثة شعرت بأن الظلم والقسوة كأنهما حجرً متجسداً ملموساً ، وقد تفتت إلى ذرات صغيرة ، ووجدتُ أثر ذلك ، رقةً شديدة فى قلبى ، ثم عاود قوله قُم.. قُم.. قم لتشاهد نورَ نبِيِكَ ، وأشار بيده إلى وسط الغرفة ، فإذا بعمود من نور يشبه أعمدة المسجد الرخامية الكبيرة ، قد ملأ الغرفة نواًر ساطعاً، وقد بلغ مداه إلى عنان السماء . فأشرت إليه وقد إنعقد لساني ، ماذا أفعل ؟ قال قُم.. وأدخل في هذا النور ، فلانت أعضائي وجوارحي ودخلت في هذا العمود النورانى .

وما أن ولجتُ فيه ، حتى ارتفع جسدي كما يرتفع المرء في المصعد، حتى وصل بي إلى ما قبل حدِّ السماء، وعند هذا المستوى رأيت وكأن جسدى قد تركنى فصرت عقلاً وروحاً مجردين عن الجسد ، حتى إذا ما دخلت في عنان السماء الأولى انفصل عقلي ثم واصلت روحي الصعود وصرت روحاً صرفاً بلا جسد ولا عقل ، حتى بلغت ساق العرش، فلما بلغته رأيتنى أقول : لا إله إلا الله ، وشاهدَت روحي ما شاهدته هناك، وسُقِيتَ ما سُقِيتْ ، وحمَلت ما حمَلت من عطاء ربى ، وأمِرْتُ بالهبوط ، على نفس مسار الصعود السابق ، وفى رحلة الهبوط ، عند حدود السماء الأولى عاد الىَّ العقل ، وعند حد السماء عاد إلىَّ الجسد ، فالتئم ماكان مفصولا ً،وصرت جسداً له عقل ٌ وروح ، ثم هبط بى الجسد الى مكانى فى الغرفة ، وشعرت بوطأة النوم علىَّ ، فأستسلمتُ له حتى صبيحة اليوم التالي.

استيقظ الشيخ في صبيحة اليوم التالي وكان يوم الخامس عشر من شعبان بعد نوم عميق، وما أن أفاق من غفوته واعتدل في جلسته وجعل يتذكر ما دار في غرفته ليلة الأمس ، وما لقى من مشاهد علوية حتى فوجئ بأنه يرى بعين البصيرة أعداداً من الملائكة جالسة معه في الغرفة، وما أن أدار وجهه حتى أدرك أنه يبصر بقلبه أدوار المنزل الثلاث بل والشارع المؤدى إليه، وبينما هو كذلك إذ يرى أعداداً كبير من الحراس النورانيين يحرسون المنزل من الداخل والخارج بل وينتشرون في أرجاء البلدة وعند مداخلها ومخارجها. فلما همَّ بالقيام من مجلسه وقفوا جميعاً لوقوفه فعاود الجلوس وهو يتفكر في أيامه الخوالي وكيف كان يعصى الحق سبحانه وتعالى دون أن يدرك رحمة وعظمة ربه سبحانه وتعالى.

كان باب الغرفة لم يزل موصداً منذ ليلة أمس، فسمع صوت طرقات لابنته تحمل صينية بها فطورا وتستأذنه للدخول فأجابها قائلاً ، لن أفطر، فأنا قد نويت الصوم لله اليوم ، فاليوم هو النصف من شعبان، وأبلغيهم أن يسخنوا لي ماءً فسأغتسل للصلاة . فعادت أدراجها إلى الطابق السفلى وقد أخذتها الدهشة لما لم تعتاده منه ، وأخبرت أهل الدار أن أباها صائم اليوم ، حتى يعدوا له طعام الفطور، ثم عادت له بالماء ، فقام واغتسل وصلى لله ثم عاود الجلوس.

جلس الشيخ ملياً فيما بينه وبين نفسه ، يفكر ، مالذى أصابه ، وماهى تبعات ماحدث له ، وماهى المهمة المنوطة عليه من آثارها ؟ وكيف سيتعامل مع الأرواح النورانية المحيطة به من كل جانب ، وماهى المهام المكلفة بها ،فما من عبث فى الوجود ، وماهذه القدرات الكشفية التى فاجأته ، ولعلَّه تذكَّر ما حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين نزل عليه الملك فى الغار ، فإرتعدت أطرافه من أثر إلتقاء العنصر البشرى بالعنصر النورانى الملائكى ، فهل كان ماحدث معه شبيه بما حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان الأمر مع رسول الله بعثتُه للناس رسولا ، فما هو الأمر بالنسبة إليه ، ..... أسئلة تصارعت فى عقله وروحه ، وإرتعدت لها أطراف أعضائه ، وكأنه فى نفسه يقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زملونى .. زملونى .

، ثم عاود التفكر في رحمة الله تعالى التي لا تعدلها رحمة وعطائه الفياض على عبده ، كيف كان قبل ليلته تلك ، عاقداً العزم على المعصية ، وكيف صار بعد إنقضاء هذا الليل ، وقد فتح الله عليه باب الرحمة اللدنية ، ففاضت عيناه من الدمع، وبكى كثيرا ... كثيرا ، حتى نزف الدم من مقلتيه، فكلما نظر ماحوله من التعيم والملك الكبير ، الذى جعله الله لمن فى فعلهم عاصين ومخالفين له ، ونظر الى عدم إستحقاقهم لهذا الفضل ،واصل البكاء الشديد حتى خارت قواه ، ، وقال مناجى ربه : يا رٍب، إنك قد أعطيتني أعظم العطاء وأنلتني أعلى الدرجات على غير إجتهادٍ منى ، ولا طلبٍ ولا استحقاق، فبعزتك لا أبرح مقامي هذا حتى تغفر لي ما مضى من جهالتى، بل وتبشرني بتلك المغفرة بعلامة ظاهرة ، فإن لم تغفر لي وترحمني وتمحو الذنوب من صحيفتي ، فأنا جالسٌ هاهنا مكاني أدعوك بكل جوارحي حتى تغفر لي وتبشرني بمغفرتك وعفوك التامَّيْن . وبينما هو جالس بين بكاء ورجاء ، وقد أتى وقت الضحى وقارب وقت الظهيرة، إذا به يبصر بعين بصيرته في نهاية الشارع المؤدى إلى البيت شيخاً شاباً يقارب عمره الثمانية عشر عاماً ، قادم في تؤدة ، يسير بخطى واثقة منتظمة في اتجاه البيت ، شيخاً معمماً أزهرياً مرتدياً كامل ثياب الأزاهرة من جبة وقفطان وعمامة وغيره ، وقد بات واضحاً له أمرين، الامر الأول أنه جاء إليه بالقصد ، ،والامر الثانى ألا أحدُ يراه من المارَّة ، فهو يسير فيما بينهم لا يلتفت إليهم ، ولا يلتفتون إليه ، ولا يفسحون إليه طريقا. وصل الشيخ إلى باب الدار ، ثم دلف منه وهو مغلق ، وتابع ارتقاء السلم المؤدى للدور الثالث دون أن يشعر به أحد ، حتى دخل من الباب وهو موصدٌ ، ثم توجه مباشرة إلي الشيخ ، فلما توقف أمامه راعته هيبته وبهاءه وحسن طلعته. وبينما هو ناظر إليه متأملاً ومنتظرا، رفع الشاب يده اليمنى فوضعها على جانب مقدمة راس الشيخ اليمنى ، ثم تلى قول الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، قال الشيخ : فلمَّا قالها، سمعت صدى صوته يتردد في السماوات السبع وفى الأرضين السبع ، كأن كل ذرة في الكون تردد قوله بصوتٍ جهورىّْ ، فما أن انتهى حتى شعرت كأنني قد غُسِّلت بماء من نور ، أذهب كل ما في كيانى من حزن ، فكانت هذه هي البشارة والعلامة التى طلبتها إيذانا بالمغفرة ، وإستجابة ً للدعاء ، لما كان من صدق التوبه ، وإخلاص العزم ألا يبرح مكانه حتى يغفر الله تعالى له بل ويبشره بذلك، ويأتيه شاهد من ربه بقبول التوبة . ثم عاد الشاب أدراجه بنفس هادئة وحركة رزينة ، والشيخ يتابعه بعين البصيرة حتى إختفى من حيث ظهر.

قال الشيخ رضى الله تعالى عنه، لم أكن أعلم مَنْ هذا في حينها، لكنى علمت بعد ذلك أنه كان سيدي شبل رضى الله عنه وأرضاه.

وبمناسبة هذا الأمر، فقد عظم شوق الشيخ بعد سنوات إلى لقاء سيدي شبل الأسود، فاعتزم الرحيل إليه وأعد لذلك العدة، وكان الشيخ من عادته إذا زار أهل البيت أن تكون له طقوس، فقد كان يبصرهم ويتحدث معهم ويتلقى منهم العلوم والمعارف والأوامر بطريقة معينة خاصة كما سنعرض لذلك لاحقاً في حينه بأمر الله تعالى. فلما شدَّ الرحال وعقد العزيمة ، وصل ليلاً فاتجه من فوره إلى مقام سيدي شبل الأسود ، لكنه لم يجده في المقام ، فحزن حزناً شديداً وقال معاتباً سيدي شبل، يا سيدي، إنك ولابد تعلم أنى قد جئت بملء الشوق للقاكم ، فلم لم تلقني؟ ثم انصرف من المقام إلى حيث سيبيت ليلته، إلا أنه ما أن وصل إلى حيث سيبيت وقع في قلبه خاطرا شديداً ، أنه قد أخطأ وأساء الأدب بهذا اللوم والعتاب وأنه قد وضعه في غير موضعه، وأنه ولابد مُعاقَبُ على ذلك ، فكان ماكان الشيخ قد إحتاط منه ، . فبماذا عاقبه سيدي شبل؟

نحن نعلم أن أهل الله من أصحاب الأحوال والمكاشفة يكون لهم في ذلك الأمر مقادير بحسب استطاعتهم، فما كان من سيدى شبل إلا أن رفع حساسية الكشف والمشاهدة إلى قدر لا يحتمله الشيخ رغم بلوغه درجة القطبانية، يقول الشيخ واصفاً هذه الحالة أنه لا توجد إمرأة تصرخ في أطفالها، ولا شيخ يهمس لصديقه، ولا زوجة تعد الطعام في البلدة كلها، إلا كان صوت ذلك في راسه جلياً واضحا، ويزيد فيقول، حتى صوت كباس الوابور صار في راسي، فعلمت أنى لا أحتمل هذا الأمر، فقد حمَّلني سيدى شبل بالمدينة كلها بضواحيها، وهو فوق طاقتي حتى كاد راسي أن ينفجر من الصداع الذى لم يفلح معه أىُّ علاج ، ، ولم أستطع قضاء ليلتي، حتى هرعت إلى سيدى شبل معتذرا له ، فرفع ذلك عنى، وكان مُفَاد الدرس أن يقول له: إلزم مكانك، وأعلم مع من تعاتب .

والأمر في دوله الباطن والكشف ، خلاف الأمر في دولة الظاهر والعلن ، ففي دولة الباطن لا يمتنع على أهل الله لقاءات أهل البرازخ ( أصحاب المقامات ) ، فهم أحياءٌ أيضا ، ولكن حياتهم مستوره عن أهل الظاهر ولا يزال صاحب البرزخ مسئولا من ربه عما هو تحت ولايته ، فيكون واسطة بين الله وبينهم ، يثيبهم بأمر الله ويعاقبهم بأمر الله ، ويسوسهم بأمر الله ، وله مهام لديهم وفي شأنهم ، والعلاقة بين الأحياء من الأولياء وأرباب البرازخ واهل البيت أنما علاقه باطنه علينا ، ظاهرة لهم ، ولها قوانينها التي تحكمها فلا يتعدونها ، وإن تعدَوْها فلهم ما عليهم من العقاب ، وان أحسنوا فيها وأرضَوا رؤسائهم ، فلهم ما لهم من الثواب كل ذلك بقدر الله وعلمه وإذنه ورضاه، ولا يعلم هذا الأمر إلا من ذاق ذوقهم وكشف كشفهم على سبيل الحق، إن كان من أهل الحقيقة ، وعلى سبيل العلم إن كان من أهل العلم ، وعلى سبيل الإيمان كان من العوام التابعين المقلدين لهم ، وتلك الأمور لا تملك معها إثبات أو برهان للخائضين فيها ، ألا أن لهم الخيار في تصديقها أو تكذيبها أو الوقوف معها بين التأييد والرفض فهم ليسوا من أهلها ولا يسألون عنها نقول ذلك لمن ينتقد علينا كلامنا و يتهمنا بالكذب والبهتان والكفر والزندقة.

ولعل رواية أخرى تتناول قضيه الفتح الإلهي للشيخ ، تخالف تلك الرواية التي ذكرناها من قبل والتي وردت الينا من خلال سيد أبو سلامه وهي وان كانت تسير مع نفس مضمون الرواية السابقة ألا أنها تبعث فيها الحيرة وتدعونا للتساؤل... أيىُّ الأحداث بعد وايُّ الأحداث قبل ... وسنورد بعد السرد تحليلاً قد نقترب به من حقيقه الأمر على ما هو عليه ، وقد نبتعدُ بها عنه ، وهي رواية اقرب ما تكون الى الرؤيا ، فربما كان الشيخ قد قصَّها على السامع على سبيل الرؤيا ، وظنها واقعاً حاصلا ، تقول هذا الرواية : أن الشيخ كانت بينه وبين أحد عائلات قريته خصومه ، وكان هناك تربصٌ لقدوم أحدٍ منهم لقتله فجلس في غرفته في أحد هذه الليالي وإلى جانبه سلاحه ، استعداداً لايّْ طارئ يطرا عليه ، وفي يده كأسا كبيرا من الخمر محتسيا إياه ، ثم رأى أخاه الأكبر بسيوني يدخل عليه من الباب ، فلما دخل وجد شقاً كبيرا (شرخا ) في أحد حوائط غرفته ، فأطلق من بندقيته على هذا الشرخ عدة طلقات ، ظناً منه أن الآتي اليه سوف يأتيه من هذا الشرخ ، فوجد أن المكان قد أضاء بنور ساطع ، ووجد إمرأة تدخل من هذا الشق ، ووجدها تقول له : (لا تحاول... يا مسعد متى ستتوب مما أنت فيه ... . يا مسعد دع هذا الكأس من يدك وخذ مني كأسى) فاذا الكاس الذي في يديها كاسا صغيرا ... فقال لها : كيف لهذا الكاس الصغير أن يرويني؟ فقالت له ... خذه... فأخذه وشربه .... ثم إستلقي على وجهه ، فجلس ثلاثة أيام لا يدخل عليه أحدٌ ، ثم فتحوا الباب عليه ودخلوا غرفته.... فوجدوه مستلق على صدره ووجدوا آثار القيء والدماء على ملابسه فأفاقوه، ... وبعد هذه الواقعة دخل في خلوته ثم سار في طريقه.

ونحن حين نسوق هذه الرواية ، فإننا نظن أنها اقرب الى الرؤيا من الحدث الواقع لعده أسباب ، أولها ما دور أخيه بسيوني في هذه الرواية ، ثم أن الشق الحاصل في الحائط ، أنما هو معنىً رمزي عند الشيخ يرمزُ الى المدخل الذى بالإمكان أن يلج العدو منه ، هو في حقيقته مدخلا للنور الذي هو ميقات الفتح الإلهي ، ثم أن هذا الكاس الصغير المشروب منه هو كاس العطاء ، والقيء والدماء هي الأدران التي امتلا بها جوفه ، وقد تكون السيدة الداخلة من خلال الشرخ النوراني هي السيدة زينب رضي الله عنها... فمن هذا إستنتجنا أن هذه الرواية جاءت على سبيل الرمز الذي عبَّرت عما يراد منها وتلك خصائص الرؤيا.

فاذا كان الأمر على سبيل الرؤيا ، فان منطق السؤال الآتي بعدها ، هل كانت هذه الرواية قبل لقاء شيخه والإنخراط في سِلكه ؟ أم كانت قبل تباشير الفتح الذي ذكرناه ، أم كانت قبل دخوله الخلوة ، ومثل هذه الأسئلة تستدعي منا إما النظر بالتفكير المنطقي في ترتيبها ، أو الانتظار لمن يكون عالماً بها ... ونحن في انتظار أحد السبيلين ... والله الموفق.

وأظن أن هذه الرؤيا هي أول تباشير القرب الإلهي وهذه من السنة النبوية فلقد كانت أول تباشير النبوة المحمدية هي المبشرات وهي الرؤيا الصالحة.

**الخلوة**

حدث بعد أن فتح الله عليه بما ذكرناه في الفصل السابق أن تعددت فترات خلواته رضي الله عنه ، فكانت فتره منها خمس سنوات متصلة أمضاها في حُجْرة فوق السطوح ، وكانت زوجته تضع له التمر والزبيب والماء وتدخلهم اليه من تحت باب الغرفة ، وأنشأ لنفسه طريقا منعزلا محجوبا الى الخلاء يدخل اليه ويخرج منه دون أن يراه أحد.

أما الفترة الثانية فكانت مدتها ثلاث سنوات أمضاها في غرفه صغيره في الدور الأرضي من البيت القديم. وهي الغرفة التي كان يقيم فيها الشيخ سيد أبو نصر خدمته في البيت القديم ... لمن كان له علم به.

أما الفترة الثالثة فكانت هي الأخرى ثلاث سنوات أمضاها في مندرة الدور الأرضي من البيت القديم.

ولو تُرِكَ الأمرُ للشيخ لآثر ألا يخرج من خلوته ، إذ كان مستمتعا فيها بالفناء في ذات الحق ، وإعتاد هذه العزلة والخلوة حتى أجبره سيدي سعد الدين الجباوي على الخروج منها لكي ينتفع الناس من عطاء الله له ، فما كان منه إلا أن أطاعه بالرغم من شده الأمر عليه ،فقد آثر العزلة مع الحق عن مجاوره الخلق ، فلما خرج فكأنه كان ميلاداً جديدا ، وقد هال الناس ما رأوه عليه من أثر هذه العزلة الطويلة في مظهره الخارجي ، وفي الهيبة التي بدرت منه ، لدرجه الخوف من الاقتراب منه ، وهو جالس أمام داره.

إلا أن هناك رواية تحكي عن دخوله خلوة مع أربعه من أصحابه وكانت هذه الخلوة في الأمام الشافعي أتم فيها عاماً كاملاً ولم يستطع أصحابُه أن يصاحبوه فيها ، فخرجوا قبل هذا العام.

فكان مجموع سنوات الخلوات ، أثني عشر عاما قضاها في الأماكن التي ذكرناها.

ألا أن لنا ملاحظات في شان هذه الخلوة: فأول الملاحظات هو توقيتها فقد علمنا أن هناك فتحا كبيرا للشيخ كنا قد ذكرناه ، خرج بعده للقاء الناس والتعامل معهم كمربى ومرشد ، فهل كانت الخلوة قبل هذا الفتح أم بعده ، وان خروجه للناس جاء بعد الخلوة ، وهذا مانرجحه ، فإن الأمر بدأ بالفتح الأعظم ثم تلته الخلوة ثم تلاه الخروج للناس لأداء المهمة التى خرج من أجلها ، والتى قضاها الله عليه .

أم أن الخلوة قد جاءت بعد انقضاء زمن شيخة إبراهيم الدكروري وإبتداء أمره خليفه عنه فتكون الخلوة هي الفترة الفاصلة بين زمان شيخه وزمانه ، وإن كنا نرى أن إلتقائه بشيخه جاء قبل الفتح ، وأن هذا اللقاء جاء فاصلا بين حياة جاهليته وبين سلكه فى طريق القوم ، ثم إنتقائه لقيادة الطريق من بعد شيخه ، ثم حصول الفتح ثم الخلوة ، ثم الخروج للناس ، وإن كان فى الروايات ما يناقض هذا الترتيب ، ولكننا جئنا به على ماذكره الراوى لنا .

أم أن الخلوة كانت في ابتداء أمره بعد أن شاهد المبشرات الدالة على ولايته ، ثم انتظر بعدها في سلك شيخه ثم جاءه الفتح الأعظم الذي خرج للناس بعده ، ولا نستطيع الجزم بأىٍ من هذه الأحداث قبل الآخر أم بعده ، ولم يأتنا شاهدٌ من الله على ترتيب محددْ .

أما ثاني هذه الملاحظات فهو تناول الرواية التي ذكرناها في نشاه الشيخ وتعليمه في صغره فقد ذكرت الرواية التي ذكرناها أن الشيخ كان قد تعلم أول ما تعلم في مدارس أهل الكتاب "المسيحيين" في قريته فتعلم منهم الكتاب المقدس ثم انتظم في مدارس المسلمين فاتسعت دائرة معارفه من خلال ما تعلمه.

أما الرواية الأخرى فمفادها أن الشيخ كان لا يقرأ ولا يكتب وكان خالي الوفاض من العلوم ، وهو أمر شبيه بالأمية التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل الخلوة وغادرها وجد نفسه قارئاً كاتبا حافظا القران ملما بالأحاديث النبوية الشريفة ، إذ كان يناظر أئمة الفقه فيما يوردونه عليه من المسائل وكان يحاورهم بكل الفطنة والعلم وكان كثيرا ما يقول أن معلمه هو سيدنا عمر بن الخطاب.... ولعل الجامع بين الأمرين أنه شتان بين العلوم التى تعلمها فى مدارس الدنيا وبين العلوم التى تعلمها من أهل الباطن ، فعلوم الدنيا أداتها العقل بما يوصف به من إنحسار ملكاته ووقوفه على حدِّه ، ولا يقارن بأى حال من الأحوال بعلوم أهل الباطن التى أداتها الروح المطلقة القادرة على الإدراك المطلق ، والتى لا يحدها قدرة أومكان أو زمان أو إنحسار أو شك أو شبهة ، فهى علوم حقيقية كما خلقها الله عليها .

أما ثالث هذه الملاحظات فهو قولنا في الرواية السابقة أن سيدي سعد الدين هو الذي أخرجه من الخلوة طلبا للاستفادة منه في التعليم والإرشاد والتربية بينما هناك رواية أخرى تقول :

أنه في خلوته وبعد تمام أمرها ، رأى السيدة زينب رضي الله عنها تأمره أن يخرج منها لكي ينتفع الناس منه ، وليس ذلك مدعاً للخلاف ، فربما تكون السيدة زينب ، هى التى أشارت لسيدى سعد الدين بخروج مسعد من خلوته للإنتفاع به .

فأما الملاحظة الأولى وهي توقيت الخلوة فنحن والعلم لله في ذلك، نظن أن المبشرات والرؤى كانت أول الطريق جاء بعدها السلك في شيخه في الطريق ثم كانت الخلوة الفاصلة بين زمن شيخه وزمانه ثم الفتح الأعظم الذي خرج بعده للناس مرشدا ومربيا ومعلما ، وقد ذكرنا ذلك من قبل .

وأما الملاحظة الثانية فان لا يعيب الشيخ عدم علمه قبل الفتح عليه ولا يعيبه علمه فاذا كان أميا فهو خلق نبوي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو دلالة على طهارته من علوم الناس ، وإذا كان متعلما فشتان بين علوم الظاهر وعلوم الباطن وعلوم الرسوم وعلوم الحقيقة فان الباطن في حقيقته جامعا بين علوم الظاهر والباطن وعلوم الحقيقة هي أم العلوم التي كانت منها كل العلوم ، فكلا الروايتين ليستا قدحاً في مقامه ، وقد ذكرنا ذلك من قبل .

وأما الملاحظة الثالثة فمردها أن الكل من رسول الله مقتبس ، فاذا كانت السيدة زينب رضي الله عنها وهي سليلة بيت النبوة ، ومن أقدر من أهل البيت أن يكونوا صُوَرٌ من جَدِّهِم ، وأما سيدي سعد الدين الجباوي فهو أيضا من أهل البيت وهو رب الطريقة ، وهو المرشد الأعلى وهو الصورة المحمدية الكاملة في عصره... نفعنا الله بهم جميعا.

ألا أن هناك رواية أكثر تفصيلا ، تسرد دوافع الخلوة التي اختلي بها الشيخ مع ربه ، وحاله قبلها وتسرد فحواها بنوع من التفصيل ، الذى يكشف لنا عن كثير من الأمور التي تكاثفت في خواطرنا عنها ، وكيف كان حاله فيها ، ثم أن هذه الرواية تتدرج بنا في مراحل هذه الفترة من حياه الشيخ ، من تلك المرحلة التي فاجأته على غير انتظار منه، والتي كانت فاصله بين عالمين : عالم يعيش فيه بنفسه ، وعالم يعيشه فيه بربه ، ثم مرحله يتوب فيها ويغتسل فيها من أدران ذنبه قبل الفتح ، ثم مرحله يتعلم فيها ما يجب عليه أن يتعلمه من علوم الشريعة وعلوم السلوك وعلوم الحقيقة ، ثم مرحله يخرج بها الى الناس داعيا لهم ومرشدا في طريق الحق ، وفي طريق السلوك اليه، ثم أن هذه الرواية تُفَصِّل لنا إتساع العوالم التي كانت تحت إمرة الشيخ من الأملاك والجن ، وأنه لم يكن فقط مرشداً لما بين أيدينا ، و ما نعلمه من عالم الإنس ، بل سيكون مرشدا أيضا لأ ملاك الجن المستورين علينا ، ثم اتصاله بالملائكة والأنبياء والصحابة وأصحاب البرازخ وكبار الأولياء ، وكل ما ذكرناه مطمورا في هذه الرواية التي قصها علينا الدكتور احمد موسى عن مقدمات الخلوة و فحواها فلنبدأ في سردها بأذن الله .

ذكرنا في الفصل السابق أن سيدي شبل الأسود قد جاء الى الشيخ بعد انتهاء مراسم الفتح التي انعم الله بها عليه وذكرنا انه جاء اليه في صوره شاب أزهري وذكرنا انه قد جاء ليُطَمْئِن الشيخ علي مغفره الله على ما اقترفه من الذنوب قبل هداية الله له ، وتلا عليه قوله تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمه الله أن الله يغفر الذنوب جميعا) ثم إستشعر بعد هذه التلاوة عليه ، أن الله قد غفر ذنبه وقبل توبته ومهد له الطريق للوصول اليه ثم انصرف هذا الشاب من حيث أتى.

، كان النهار لم ينتصف بعد، والوقت ضحى، وقد أبلغ الشيخ سكان البيت أنه اليوم صائماً.. أثار ذلك الأمر دهشة سكان البيت حتى بلغ من حوله، فالرجل ليس من عاداته صيام التطوع.. جلس الشيخ متأملاً حاله وما آل إليه، وما كان منه وما صار عليه، وواجه أقصى درجات ألم النفس اللوامة ... ثم ماذا بعد ... إن بصيرته قد انجلت إنجلاء مذهلاً حتى صار يبصر الملائكة والجن وحركة الأفلاك من تحت ساق العرش وحتى باطن الأرض السابعة.

وما هؤلاء الحرس المتأهبين من حوله؟ وكيف سيتعامل معهم؟ إنهم يهُمُّون إن هم، ويجلسون إن جلس. وماذا لو دخل عليه أحد؟ وماذا لو تضرر أهل بيته من جراء كلمة يقولونها بعفوية أو دون قصد؟ لقد سمعهم بما صار لديه من كشف ، وهم يتهامسون عليه بالأسفل،قائلين:( إن الرجل لابد وأنه قد جُنَّ وفقد صوابه)، فماذ لو عوقبوا على ذلك وهم لا يدرون؟ وبينما هم في شغلهم الشاغل بما بدت من الرجل من بوادر غيرت عاداته، رأى بعين بصيرته ضجة تشبه المعركة بالخارج ، معركة دائرة لا يدري عنها أحدٌ شيئاً ولا يبصرها غيره ولا يسمع قرقعة سيوفها ورماحها غيره ، فانتبه ليدرك أن نفرً من الجن قد استشعروا حدثاً أعظم ، قد حدث في ناحيةٍ الأخصاص فأقبلت جحافل منهم تستكشف الخبر ، وقد كانوا من قبل يخوضون ويجولون ويصولون بكل أريحية في أرجاء البلد وما حولها ، فإذا بهم الليلة يصطدمون بأعداد هائلة من الجنود المدججين بالسلاح الصارم يحولون بينهم وبين الدخول إلى حدود البلدة من الخارج ، ناهيك عن الوصول إلى البيت وملاقاة الشيخ . بدأت القصة بالجدل أول ما بدأت وإبداء الرغبة في مناظرة القطب ، فمُنِعُوا باللطف أول ما منعوا ، فلما توالت أعدادهم، فاجأتهم إمدادات مضاعفة من الجنود يتتابع هبوطها لدعم قوة الحراسة الموجودة ، ثم بدأوا في استخدام القوة الصارمة في احتجازهم وأصيبت أعداد كبيرة منهم ، كل هذا والشيخ يتابع بدهشة لا بعدها دهشة ، حتى فوجئ بتلك الجحافل تستغيث به لينقذهم ويصدر أوامره بالسماح لهم بمقابلته . فلم يزد هذا النداء الشيخ إلا حيرة ، فكيف يأذن لهم؟ وكيف يصدر أوامره؟ وكيف يتعامل مع هذا الموقف في أول ليلة له؟

كل تلك الأمور والعديد غيرها، جعل الشيخ ينتظر حتى حلول مغرب ذلك اليوم ، ليتفاجأ بكائنات نورانية بعضها يحمل إليه رسائل، وبعضها يطلب موافقته على تنفيذ أمر ما ، وبعضها يستشيره في شأن من الشؤون الروحانية!! ما هذا؟ وكيف أدير تلك الدائرة وأتصرف في أمورها، فلربما اتخذت قراًرا غير صائب، فليس لدى العلم والخبرة الكافيين، وماذا لو ترتب على ذلك أمر خطير، أو أحدث متغيرا أو أسكن متحركاً في الكون؟ عقد الشيخ العزم على أن أول خطوة واجبة الاتخاذ هي التوقف والتبين والتحقق . فعقد العزم على أن يعتكف في مكان منعزل حتى تتبين له الأمور ، وبالأحرى حتى لا يتضرر أحد من أهل بيته من جراء تلك القوة الهائلة التي صارت في روحه ، وانعكست على بدنه وحواسه. واختار مكاناً قاصياً ، فى الدور الثالث من البيت، بحيث لا يعيق حركة أهل بيته وذويه في قضاء حوائجهم اليومية وغيرها ، فإذا انتابه حال أو نزل مقاماً، لم يشعر به أحد ولم يدخل عليه أحد.

دعي الشيخ بألواح من خشب جعل منها فاصلاً لخلوته في السطح ، وأبلغ ابنته الكبرى أنه سيعتكف قليلاً في هذا المكان وأنه يريدها أن تعينه على ذلك. وأما عن شؤون الطعام والشراب، فإنه سيتناول طعامه وشرابه وإحتياجاته من أسفل الباب فإذا عنَّ له طلب فسوف يُعلمهم بذلك في ورقة يرسلها لهم من نفس المكان ، والملاحظ فى هذه الرواية ، أن الراوى ربط بين الفتح الأعظم والخلوة وجعلهما مرحلة واحدة .

مكث الشيخ في خلوته سنوات خمْس ، كان يقضى أولها في البكاء والدعاء والتوبة والندم ، وكان جُلُّ طعامه فيها التمر، لا يأكل إلا عن جوع، ولا يشرب إلا عن ظمأ ،ولا ينام إلا عن غلبة، كل وقته لله بين دعاء ورجاء وخشية . ولم يلبث غير قليل حتى جاءه زائر من كبار الصحابة، قيل أنه كان سيدنا على بن أبى طالب، و قيل أنه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما، وأغلب الظن أن كلتا الروايتين صحيحتان .فسيدنا على باب مدينة العلم بصحيح الحديث، وسيدنا عمر صاحب المكاشفات والموافقات بصحيح السنة ،ولربما كان لكل منهما مهمة بحسب اختصاصه ، والعلوم التى ينقلونها إليه ، ، فلماذا أتوا إليه؟ كان لابد من تعليم القطب قدرا هائلاً من العلوم، وكان لابد من تدريبه تدريباً راقياً، قبل أن يؤذن له بالجلوس على كرسي التوحيد وإدارة الدائرة وتوليه مهام القطبانية وما يتبعها من تبعات، وكان لابد من تعليمه كافة الأساليب التي يجب أن يتبعها مع كل طائفة حتى إذا ما انتهى تدريبه وتأهيله نزل فمارس مهامه.

يتبادر إلى الذهن العديد من التساؤلات عن نوعية ذلك التعليم، وكنه ذلك التدريب. واختصارا لمجمل دون تفصيل، يجب أن نعلم أن هذا التعليم قد تم على أربعة مراحل مختلفة، وتولاه أربعة أشخاص مختلفين، كل بحسب مهمته. كما يجب ألا نندهش

إذ علمنا أن الشيخ قد تلقى كافة علوم الشرع والفقه والقرآن والسنة والحديث والعقائد والعبادات مضافاً إليها علوم اللغة من نحو وصرف وغيرها، على أعلى المستويات. وأغلب الظن أنه قد تلقى تلك العلوم من سيدنا على رضى الله تعالى عنه. أما علوم الروحانيات والغيبيات وغيرها فلربما شارك الإمام على فيها سيدنا عمر فهو تسعة أعشار العلم. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن هذه المرحلة قد استغرقت الجانب الأعظم من الوقت، فلما بلغ منها ما بلغ، أتاه سيدنا سعد الدين الجباوى، فلقنه علوم الطريق، وفقه السلوك، وتربية المريدين، وأصول الطريقة السعدية وخلافه ، فأضاف له الجانب المعرفي في التصوف، فلما انتهت المرحلة الثانية أُمر بالخروج من خلوته فدعي إبنته وأمرها بأن تحضر اثنين من الحلاقين، وملابس جديدة وأخبرها بيوم خروجه، فلما نزل وشاهدته لأول مرة، سقطت مغشياً عليها.

نزل الشيخ فجلس في ديوانه، وجال بخاطره، أن هل سيخبر الناس بما لديه من علوم ومعارف؟ أم يكتم السر؟ وكان قد تلقى أوراده من سيدي سعد الدين، فخطر بباله أن جل ما يجب أن يشغله الآن هو عبادة ربه وسلوك الطريق. دعي الشيخ بعطر له وبخور للمكان، وأمسك بمسبحته وجلس يذكر الله، وإذا بسيدي سعد الدين الجباوى يدخل عليه قائلاً له: إنت بتعمل إيه يا مسعد؟ فرد قائلاً: أتلوا وردى.. قال له: ما بهذا أمرناك (يعنى المسك والبخور والجلسة)، أخرج إلى هناك وأشار له إلى منطقة بها زرائب للبهائم ، فقام الشيخ من فوره وجلس بين تلك الأكوام من التبن والعلف وفضلات البهائم قابضاً على مسبحته مستكملاً أوراده. وبينما هو في تلك الحالة، إذ مرت أمرأة تسحب جاموستها متوجهة بها إلى الغيط، وما أن بصرت به حتى أخذت تقول : مسعد؟ أنت بتعمل إيه هنا ، وإيه اللي في إيدك دي؟ وما لبثت أن انهالت عليه بسيل من التهكم والاستنكار اللاذعين ، والشيخ مطأطئ راسه منهمكاً في ورده غير عابئ بما تقول، ثم أردفت قائلة: تلاقيك عامل الحركتين دول ومستخبى هنا لحد عايز تقتله، وهنا رفع الشيخ راسه محولاً ناظريه إليها باسطاً يده في اتجاهها، فقد كان يبغى أن ينهاها عن الاسترسال في القول، حتى لا تلفت نظر الناس إليه، إلا أنها ما أن إلتقت عيناها بعينيه الحادتين حتى سقطت مغشياً عليها. تألم الشيخ كثيراً وهو يرى بعض الفلاحين يهرعون إليها محاولين إفاقتها أو رفعها من الأرض وهم يظنون أنها قد فارقت الحياة.

أثرت هذه الحادثة في الشيخ أيما تأثير، فقد كان يسعى جاهداً أن يتجنب الإضرار بأحد أو إلحاق الأذى به دون أن يقصد، فقد كان مستمتعاُ في خلوته، سعيداً بها، والآن.. ها هي شكوكه ومخاوفه تتحول إلى حقيقة واقعة، فماذا عساه فاعل فيما أمر به من الخروج، لا من الخلوة فقط... بل من البيت أيضا ....

**مفتاح الشخصية**

# اذا سألت عن مفتاح الشخصية فإن حفيده ووارث طريقه يقول عن ذلك:

لعل أبلغ مثال نبدأ به فهم شخصيته رضي الله عنة هو شخصية سيدنا عمر بن الخطاب، فربما تلاقت خطوط كثيره بين الشخصيتين في مرحلتي ما قبل الهداية وما بعدها ،فقد كان سيدنا عمر قوياً شجاعا فتياً شديداً في الجاهلية ، الأمر الذي ظلت عليه شخصيته بعد إسلامه على اختلاف توجهها وسلوكها، كذلك الشيخ قبل تجرده وفناءه في طريق القوم، كان مهاباً شجاعاً قوياً لا يشق له غبار، وقد رسَّخ وضعه المادي والاجتماعي إلى إبراز هذه الصفات، فقد ولد لأب من كبار الأعيان ذو سطوة ومكانة وثراء شديد، الأمر الذي أثر في نشأته كأحد أبناء الطبقة العليا مكانة ووجاهة ومال وعزوة وجاه،

ولنا هاهنا وقفة، فحصول أحدهم على واحد من مفردات عز الدنيا هذه كفيلة أن يتمسك بها ويعمل جهد حياته في الحفاظ عليها فضلاً عن أن يزيد فيها وينميها، فأمامنا نماذج لا تحصى ممن أثرت فيهم الدنيا وسجنتهم فيها، فصاحب الأموال مشغول بماله تحصيلاً وجمعاً، ومثله صاحب السلطة وذو المكانة والوجاهة وهكذا.

وليس الكلام هنا عمن يطلب الدنيا ويسعى إليها ، فجاءته الدنيا من أثر سعيه ، بل من وجدها طوع يديه إبتداءً من غير سعى منذ أن نضج واكتمل ، والأمر هنا أصعب وأعتى من أن يُتْرَك ، فالأول ربما رجع أدراجه وكف عن السعي خلفها لكونه لم يملكها بعد، أما من ملكها ، فعزيمة الأبطال يرجو ، وهِمَّة الرجال يعوز ، حتى يركلها وينفض غبارها من يده، ولا يتسنى ذلك إلا لمن إحتمل صدقاً راسخاً كالجبال ، وإخلاصاً يُشهد الله عليه ، وعهداً تحرسه همة الأبطال ، ولقد ترك صاحبنا هذا كله وتوجه لطريق واحد وطَرَق باباً واحدا وابتغى مقصوداً واحداً. هو الله وحده ورسوله الأكرم وآل بيته الطيبين الأطهار.

حكى لى ( والكلام للشيخ ناصر وارث طريقه ) أن أحداً من أفرد قريتنا وكان رجلاً مسناً ممن عاصر الشيخ في مقتبل حياته قال:

كان إذا خرج لأمر له ، ركب فرسه حاملا بندقية في كتفه وطبنجة في جنبه وكرباجا في يده ، وكأنما هى أدوات سطوته وقضاء حوائجه

ولكنه بالرغم هذه الوجاهة وشده الإطلالة إلا انه كان يُكِنُ في صميم دواخله أدبا جما وخلقا رفيعا ، كل ذلك في باطنه، وان بدا علي ظاهره خلاف ذلك ، ولقد تجلى هذا الأدب الباطن في علاقتة بأخيه الأكبر الحاج فرغل إذ كان يضعه في مكان أبيه بعد رحيله في صغره، ومما رواه ولده الشيخ باهى رحمه الله أنه حتى وفاة أخيه لم يدخن أمامه سيجارة ، ولما علم بوفاته ، وقد توفى فى بيت له في منيل الروضة ، ذهب الشيخ من منزله الى هناك حافي القدمين من وقع الخبر دون أن يشعر ، وعلم ذات مرة أن شخصاً قد تجاوز مع أخيه وتشاحن معه فى أمر ما ، فجمع إخوته وتواصوا على أن يحرقوا بيت الرجل وبيوت عائلته جميعا ، ثم يقضون على من سينجوا من الحريق بالأسلحة النارية ( هكذا كانت تسير الأمور فى القرى بين الأسياد والسوقة فى هذا الوقت وصاحبنا من هذا النوع من الأسياد ) ، ألا أن أخاه قد علم بذلك ، وما هم قاصدون إليه ، فجمعهم ونهرهم وطرد أحدهم من البلد ، وتوعد أخر بالسجن وقال للشيخ "أنا عارفك تسمع الكلام، انهي الموضوع ده "فأجاب بالسمع وطاعة ".

فهذا الجانب من القصة يكشف الجانب الأصيل في باطنه وان خالفه الظاهر الممقوت وان هناك بذره طيبه فيه لو تعهدتها روح العناية لكان لها شان أخر ... وهذا ما كان.

ولهذا كان الشيخ مسعد في أول عهده مع شيخه إبراهيم الدكرورى ان قال له شيخه :

أول امر تبدأ به طريقك الى الله أن تذهب وتدفن أبو داوود ( وأبو داوود هو لقب الشيخ وهو اسم عائلته ) وقصد به شيخه أن يذهب ، فَيٌمِيتَ نفسه وجاهه وسطوته وعزَّه وجبروته ، وكل سبب يصده عن الله في طريقه وهو المقصود في لغة القوم بالتخلية ، حتى يكون أهلا للتحلية،

وفى عودٍ لنا للمفارقة بين صاحبنا وسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنهما للمناسبة فى الصفات واقتراب السمات نقول :

انه كما حدثت المقاربة في الظاهر ، فإن مقابله حدثت بينهما في دوله الباطن، ويحكى عن هذا المقابلة الشيخ محمد سلامه وكان من أكابر أتباعه ، وينقلها الينا أحد أبنائه وهو الدكتور احمد موسى ونحن ننقلها عنه بدورنا ، ولسنا نسوق هذه الرواية لمن ليسوا من أهل طريقنا ، لأن أهل الطريق يعرفون صدقها ، ولكن لا يستطيعون بذل الدلائل عليها ، لأنها منقولة من الخواص كشفا الى أربابها ، ولسنا نطالب غيرنا بالإيمان بها رغم صدقها ، لأنها مرهونة بمن كُشفت لهم وهم محاسبون عليها ، ونصيب المريد تصديقه لشيخه فيها ، ونصيب العامىِّ المنصف أن يتوقف عندها ويقف على الأعراف بين التصديق والتكذيب ، لإحتمال الحدوث ، حتى يأتيه نبأ من الله بالحكم فيها ، هذا إن كان له مع الله سبيل ، وأما العامىُّ المنكر ، فليست مثل هذه الروايات له ، فليدعها لأهلها ، ثم نعود الى جوهر الروايه :

فقد دار بينهما ( بين الشيخ وهو القطب الغوث فى وقته ، وبين وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ) لقاء في زمن حرب 1967، وللقطب الغوث من الله التصرف في الكون بما أعطاه الله ذلك.

ومن خصائص القطب الغوث أن يكون له حق الاعتراض ( الفيتو) في أمور العالم لما لديه من الله التصريف فيه ، فلما رأى الشيخ رضى الله عنه تَقَدُمُ اليهود في عمق سيناء ، غار على وطنه، فاستخدم هذا الحق الذي أعطاه الله له في وقت قدومهم ،الى الحد الذي وقفو عنده من سيناء ، وذلك من الأسرار الخاصة التي لا علم لاحد بها، وعلى الفور ثم تحويل الأمر الى المحاكمة الباطنية ، وكان من أعضاء هيئه المحكمة اثنان، أحدهما سيدنا عمر بن الخطاب والأخر مولانا الأمام الحسين، فقال له سيدنا عمر في هذه الحلية:

لماذا استخدمت حق الاعتراض دون أذن ؟ وهل للقطب أن يتحرك قبل كل الرتب والبرازخ التي تسبقه ؟ وأراد أن يصدر حكما بمعاقبته ، فرد الشيخ قائلا : يا سيدى ما فعلت ذلك إلا لغيرتى على الإسلام وعلى آل البيت ، إلا أن مولانا الحسين رضى الله عنه تدخل في هذا الأمر لإنقاذ صاحبنا ، فقال للقائمين على المحاكمة : فتشوا روحه فإن وجدتم فيها غِيره على الإسلام ، فهو برئ ، وان لم تجدو فيه غيره فعاقبوه ، فلما وجدوها فيه أمروا بتبرئته ، ولقد اضحك ذلك الشيخ محمد سلامه حين سرد هذه الرواية ، أضحكه أن يأمر سيدنا الحسين بالبحث عن الغيرة وهو يعلم أن الغيرة مفطورة في قلب كل مسلم على ربه ، فلا بد من وجودها ، فكأنما سيدنا الحسين ا ارد أن يجعلها ذريعة لخروج الشيخ مسعد من العقوبة ، وان كنا قد علمنا من مصدر أخر ساق لنا هذا الحدث أن الشيخ رضوان الله عليه قد عوقب في هذا الأمر بأن امتنعت عنه زيارة دراويشه في بيته لمده شهر كامل وكأنت من اشد الأمور التي مرت على صاحبنا ، روى لنا هذا الشيخ ناصر رضى الله عنه .

ولا يفوتنا أن ندرءَ عن هذه الرواية معارضيها من غير أربابها فإن لدوله الباطن أحكام غائبة عن أهل الظاهر وليس أدل على ذلك ، من أفعال الخضر فى زمان موسى ، من إفساد السفينة وقتل الغلام وبقاء الجدار ، وكل هذه أحكام " جعل الله للخضر فيها الحكم والتأثير في العالم ، وليس التحكم والتأثير من شأن الخضر ولكن بما أعطاه الله له ، ولولا معارضه موسى لأفعاله لظل موسى ينقل الينا نماذجا كبيره من أفعال الخضر التي تحكَّم بها في العالم ، ولا يزال الخضر حياً ولا يزال التحكم في العالم قائما ، فلا تتعجل في النقد فقد سقنا لك من دلائل الشرع ما يؤيد ما ذهبنا اليه (وهو شأن الخضرمع موسى ) ، بقى لنا أن نسأل : هل كان شأن ، صاحبنا كشأن الخضر في ذلك ؟ فترد عليه هذا ليس من شأنك فأصحاب الشيخ قد امنوا به على ما ذكره وأنت لم تؤمن به، فمالك وشأنهم ،فلكل واحد منكما شِرعةً ومنهاجا ، فهكذا قد اثبتنا لك الاحتمال من جانب الشرع ولا حرج على فضل الله فيما لم تؤمن به .

ثم يواصل الشيخ ناصر كلامه عن مفتاح شخصيه الشيخ فيقول عن ذلك أن هناك نموذجان من التاريخ يؤصلان للشخصية التي نحن بصددها الأول : أبو وحامد الغزالي : وقدكان عالما في الشريعة والفقه وفروع العلوم الظاهرة والتي يسميها ابن عرب علوم الرسوم ، ولكن عندما أصابه الفتح انطلقت روحه من إسار هذه العلوم وان بقيت فيه ، وأصابه العلم الوهبي اللدنى ، وتزيَّن بالاسرار الباطنة ، ففتح الله له بما حباه ، فتحا جديدا في إلارشاد والتوجه الى الله في طريق القوم ، على جناحي الظاهر المكتسب والباطن الموهوب ، فعينٌ تنظر الى الملك وأخرى تنظر الى الملكوت.

أما النموذج الثاني : فهو مولانا جلال الدين الرومي ، فلقد كان ابن الرومي شاعراً رقيقاً ، فاض قلبُه بحب الجمال وهام فيه ، فلما أصابه الفتح الإلهي ارتقت روحه الى الأفاق العلا وإنتقل شَدْوُهُ من جمال المخلوق الى جمال الخالق ومن وصف الملك الى وصف الملكوت فهامت روحه في الأفاق واستقرت في قلبه الأشواق واتسقت رؤياه في رؤيه الحق ، فادرك انه مأثمَّ إلا الله ، فأثمر هذا ما يردده الناس من نغماته الى يومنا هذا ، وكلا النموذجين بقى عليهم ما كانا عليه في ماضيها ، وأضيف عليه ما استجد في حاضرها فَعَلت نفوسهم وارتقت بصيرتهم وبانت لهم الأمور بجلاء.

كذلك كان شيخنا، ظل بجوانب شخصيته وبمواهبه بعد ثروته الروحية فأثمر له ذلك الشجاعة والمروءة والأقدام والتضحية.

فإجتمعت لديه جوانب أصيله من ميراث نشأته ، وأخلاق روحانيه محمديه وفدت عليها من آثار عباده ووهب الله له .

**الفتوة ومظاهرها فى حياة الشيخ**

الفتوة فى الظاهر هى حالة بين الطفولة والكهولة **،** و ليس فيها شيئ من الضعف الذى يعتريهما وهى الفترة التى تنقضى من زمان البلوغ حتى الأربعين ، يقول الله تعالى فى هذا المقام ( الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ) تلك القوة هى حال الفتوة ، وفيها يسمى الإنسان فتاً ، ثم قال سبحانه ( ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبا ) يعنى الكهولة إلى آخر العمر ، والشية تعنى الوقار ، والوقار يعنى السكون ، لضعف الإنسان عن الحركة ، فإن الوقار من الوقر ، الذى هو الثقل ، فقرن هذا الضعف الثانى بالشيبة الذى هو الوقار ، وهذا خلاف الضعف الأول من الطفولة ، حيث يتميز الطفل بكثرة الحركة .

وإختلف العلماء فى هذه الحركة المصاحبة للفتيان ، وتساءلوا : هل هى من الطبيعة أم من الروح ، ولم يُجب إبن عربى عن هذا السؤال ، وربما كان نظرنا فى الإجابة عليه ، أن القوة من الروح ولكنها موقوفة على الطبيعة الجسمانية ، التى تساير الرغبة الروحانية ، فإن وجدت فيها قوة سايرتها ، وإن لم تجد خمدت وسكنت ، وإتصفت بالوقار المشار إليه ، أو أن هناك قوة روحانية ، وقوة طبيعية ، فالروح تطلب ماتوافق مطالبها من الإرتقاء بالأخلاق الكريمة ، والقرب الإلهى ، ومراقى الآخرة ، بينما يطلب الجسد ملاذ الطبيعة ، من مأكلٍ ومشربٍ وخلافه ، فلكل من الروح والجسد مطلب مخالف من مطالب الفتوة .

ومما سبق عرفنا ، أن الفتوة لها مقام القوة ، فشابهت فى الأركان ركن الهواء ، فلقد خلق الله الإنسان أقوى من الهواء ، إذا كان مؤمنا ، ومصدر قوة الهواء أنه يغلب الماء ، لأنه يحرك السحاب الحامل له ، والماء أقوى من النار ، إذ له القدرة على إطفائها وخمود أثرها ، والنار أقوى من الحديد ، إذ به تنقطع أواصره ، وتنفصل أعضاءه ، فالهواء أقوى العناصر من هذا الوجه ، فقد ورد فى الحديث النبوى عن الله تعالى لمَّا خلق الأرض ، فسألت الملائكة فى آخر هذا الخبر : يارب هل خلقت شيئا أشد من الريح ( الهواء )؟ ، فقال ؛ نعم ، خلقت المؤمن يتصدق بيمينه ، فلم تعرف يمينه ، ما فعلت يساره ( دلالة على قوة مجابهة النفس فى طبعها ، التى تطلب مثل هذه القوة ) ، فصاحب الصدقة يتصف بالقوة الروحانية ، القادرة على ترويض نفسه التى جُبِلَت على الشح والبخل ، فجعلته بهذه القوة – مثلا – أن يحسن على من أساء إليه ، لان مقتضى طاقة النفس ، أن تحسن على من أحسن إليها ، وأن تسيئ إلى من أساء إليها ، فكانت قوة المؤمن قادرة على مقاومة هذا الطبع فيها ، وهذا يؤكد ما قلناه ، من أن للروح فتوة وقوة نحو المطالب الروحانية والقربات الإلهية ، وللطبيعة قوة نفسانية ، نحو مطالب النفس ورغائبها ، وبين القوسين صراع .

**وبالتالى فإن من الفتوة أن تحسن إلى من أساء إليك ، وموطن القوة فى ذلك ، أنك بهذه القوة تتغلب على ما جُبِلَت نفسك عليه .**

ومثال ذلك فى الصفات الإلهية ، قول الحق : ( إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ) فنعت الحق نفسه بأنه هو الرزَّاق القوى ، لوجود الكفران بالنعم فى عباده ، وأنه برغم هذا الكفران يرزقهم ، فهو يرزقهم مع كفرهم به ، ولا يمنع عنهم الرزق والإحسان لكفرهم ، مع إن الكفر بالنعمة سبب مانع يمنع النعمة ، ولهذا وصف نفسه بأنه هو الرزاق ذو القوة المتين ، فإن المتانة فى القوة تضاعفها ، والقوة لها طبقات ، أعلاها المتانة .

يقول إبن عربى فى شأن الفتيان :

بميمنة خُصُّوُا ، تعالى مقامُها وليس له ضد يُسَمَّى بمشأمة

فكلتا يدىّْ ربى يمينٌ كريمة وإن كريم القوم من كان أكرمه

فإن اليمين إشارة إلى القوة التى عليها مقام الفنيان ، وليس لهم فى الضعف الذى هو المشأمة نصيب ، ولهذا كانوا كرماء كربهم ، وذلك ما شرحناه من قبل .

ولقد حاز الفتيان مكارم الأخلاق أجمعها ، ولا يتأتى لمن يحوز مكارم الأخلاق أن يكون هكذا حاله ، قبل أن يعلم المصارف التى يصرف فيها هذه الاخلاق ويظهر بها ، فالفتيان لهم حظ وافر من هذا العلم ، فهم على علم بمقادير الأكوان ، أى مقدار ماقدره الحق فيها من الصفات ، التى تناسب الوظيفة التى خلقه الله من أجلها ، بما فيها نفسه ، وذلك من خلال ما أخبره الله بها فى شرعه ، فيعامل الفتى كل موجود على قدره من المعاملة التى أوجد الله فيه صفتها ، فيقدِّم ماينبغى أن يقدم ، ويؤخر ما ينبغى أن يؤخر .

يقول إبن عربى فى وصف علومهم :

لهم فى خفايا العلم كل شعيرةٍ وماهو موسومٌ لديهم بسمسمة

فالشعيرة والسمسمة ، هى دقائق العلم التى تغيب على كثير من العلماء .

فمكارم الأخلاق تدعوه إلى أن يحكم على الأشياء والناس ، حكماً مطلقاً على قدْرِه ، فلا يتأثر بهوى نفسه ، أو هوى المحكوم له ، أوهوى المحكوم عليه ، فهو يحكم بحكم الله وشرعه فى الشيئ ، وِفق ما يراه من قدر هذا الشيئ ، وبما قدره الله له ، دون النظر إلى هواه أو هوى غيره ، وهذه هى الفتوة والقوة .

فليس فى وسع العالم أن يسع العالم بمكارم أخلاقه ، إذا كان واقفا مع هذا العالم ، بغرضه وإرادته وهواه ، ولكن يسعه بما ينبغى أن يكون عليه هذا العالم ،بحسب ما أرشده ربه إليه ، لأنه إذا إختلفت أغراض و إرادات المحكومين ، لدى الحاكم الذى هو الفتى ، وطلب كل صاحب غرضٍ أو إرادة من الفتى ، أن يعامله بحسب غرضه وإرادته ، والأغراض متعارضة ومتضادة ، فيكون – مثلا – غرضُ زيدٍ من عمرو أن يعادى خالداً ، ويكون غرض خالد من زيد أن يعادى عمرو ، أو غرضه أن يواليه ، ويحبه ويوده ، فإذا وقف مع عمرو عادى خالدا فذمه خالد وأثنى عليه زيد بالفتوة وكرم الأخلاق ، وإن لم يعادى خالدا ووالاه وأحبه ، أثنى عليه خالد وذمَّه زيد ، فالواقف فى الحكم بين المتعارضين ، ينبغى عليه العدل المطلق ، وعدم الجنوح للهوى والإرادة الشخصية ، فلا يجنح إلى فلان أو فلان لغرض فى نفسه ، وهوى فى طبعه ، بل يجب عليه الحكم بما يوافق قدر المحكومين ، وليس أعلى من الفتيان الأقوياء فى معرفة هذه المقادير ، وهو مقام عزيز ، ندر من حازه أو إتصف به ، ولهذا قلنا ، أنه من مقام الفتوة ، لأنه مهما بلغ عدلك بين إثنين ، فلن تكون إلا مذموما من أحدهما وممدوحاً من الآخر ، فيصفك المادح بأنك كريم الأخلاق ، ويصفك الذام بأنك سيئ الأخلاق ، والحقيقة أن صاحب الأخلاق هو الذى يقف مع الحق أينما كان ، والفتى هو الذى يعرف الحق المقدور له ..... فلما رأينا أن الأمر على هذا الحد ، وأنه لا يتمكن عادة ولا عقلا ، أن يقوم الإنسان فى هذه الدنيا فى مقام يُرضى المتخاصمين ، فإبتغى الفتى أن يترك هوى نفسه ، ويرجع إلى خالقه ، الذى هو مولاه وسيده ، ويقول : أنا عبد وينبغى للعبد أن يكون بحكم سيده لا بحكم نفسه ، ولا بحكم غير سيده ، فيتبع مراضيه ، ويقف عند حدوده ومراسمه ، ولا يكن ممن جعل لله شريكا فى عبوديته ، فيكون مع سيده بحسب ما يُحَدُّ له ، ويتصرف فيما يرسم له ولا يبالى ، هل وافق هذا أغراض العالم ، أو وافق خالقهم ، فإن وافق مراد الخالق ، خرج له توقيع من ديوان سيده ، على يد رسول قام الدليل عليه ، والعلم بأنه خرج إليه من عند سيده ، وأن ذلك التوقيع توقيع سيده ( وهو ماجاء به من شرعه) ، فقام له إجلالاً ، فتكلم مع المحكومين ، بما أمره السيد أن يكلمهم فيه وبه ، وذلك هو الشرع المقرر فى كتاب الله المسمى قرآنا ، والرسول هو جبريل عليه السلام ، الذى نزل بالشرع من عند الله ، وحاجب الباب الذى يصل إليه الرسول الملكى من عند الله ، هو النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أيا من كان من الأنبياء فى زمانهم ، فلزم العبيد مراسم سيدهم التى ضمنها توقيعه ، فلم يكن لهم فى نفوسهم ملك ولا تدبير ، فمن يقف عند حدود سيده ويلتزم مراسيمه ، ولم يخالف فى شيئ مما جاء به ، على حد مارسم له ، من غير زيادة فى صورة قياس أو رأى أو تأويل ، فعامل نفسه وعامل جنسه من الناس بما اُمر أن يعاملهم به ، من مؤمن وكافر وولىٍّ ومنافق ، وماثم إلا هؤلاء الأصناف الأربعة ، وكل صنف من هؤلاء على طبقات ، فالمؤمن منهه العاصى والطائع ، والولى منه النبى والرسول والملك والحيوان والمعدن ، والكافر منه المشرك وغير المشرك ، والمنافق ينقص فى الظاهر عن رتبة الكافر ، فإن المنافق له الدرك الأسفل من النار وهو باطنها ، أما الكافر فله الدرك الأعلى والأسفل ، لأن باطنه وظاهره كافر ، والمؤمن العاصى ينقص فى المرتبة عن رتبة المؤمن المطيع .

**وخلاصة ماذكرناه أن الفتى هو الذى يكون بأمر ربه فى الحكم على نفسه ، وفى الحكم على من حوله من الخلائق ( الأصناف الأربعة المذكورة)بحسب ماشرع الله له ، لا بحكم إرادته وهواه ، وهذا هو موطن القوة التى تستدعى تسميته بالفتى** **، لمخالفته إرادة نفسه وهواها**

والفتى يعطف على الصغير علماً وسنا ، لأن هوى النفس الكِبر على مَن دونها ، وهو لديه من القوة التغلب على هذا الهوى لفتوته ، وهو أيضا يوقر الكبير علما وسنا ، لأن لديه القدرة على دحر هوى النفس فى إظهار الغلبة والانفة على من علاهم ، وهو يوثر المساوى على نفسه ، لأن هوى النفس توثر نفسها على من يعادلها .

يقول إبن عربى فى وصفهم شعراً:

وفتيان صدقٍ لا ملالة عندهم لهمُ قدم فى كل فضلٍ ومكرمة

مقسمة أحوالهم فى جليسهم ، فهم بين توقير لقوم ومرحمة

وإن جاء كفء آثروه ببرهم ولا تلحق الفتيان فى ذاك مذممة

فكل إنسان لا بد أن يكون جليسا لأكبر منه ، أو أصغر منه ، أو مكافئا له ، إما فى السن أو فى المرتبة ، أو فيهما .

**فالفتى من وقَّرَ الكبير فى العلم والسن ، والفتى من رحم الصغير فى العلم والسن ، والفتى من آثر المكافئ فى العلم والسن .**

**والفتى يوقر الحاكم ويسمعه ويطيعه ، غير ناظر إلى ما يعامله به الحاكم ، فإن هوى النفس أن يعامله بمثل ما يعامله به ،** والفتى يعلم أن توقير الحاكم وطاعته ، إنما هو من باب أن الله تعالى هو الذى ولَّاه ، وأن الحاكم هو نائب الحق فى حكمه على عباده ، فقد يكون الملك صغيرا فى السن أو صغيرا فى العلم ، ويكون شخص من رعيته كبير فى السن وكبير فى العلم ، إلا ان السلطان برغم هذا هو نائبٌ لله فى عباده ، وهو خليفته فى بلاده ، وما أقامه إلا الله فى هذا المقام ، وإن لم يُجر الحق على يديه ، فينبغى على الفتى أن يخضع للمرتبة ، وأن يذعن له فى السمع والطاعة ، فى المنشط والمكره ، على حد مارسم له سيده ، وما هو عليه ، مما أقام الله ذلك السلطان فيه من الأخلاق المحمودة أو المذمومة ، فى الجور والعدل ، ويوفى للسلطان حقه ، وإن لم يوافيه السلطانُ حقه ، فليس للفتيان أن يخاصموا السلاطين ، وإنما كان وجه القوة فى هذا الامر ، أن يطيع السلطان حسب ما أمره الله بذلك ، بالرغم إن كان السلطان ظالما إن كان كذلك ، فإبتلاع الظلم والظهور بالطاعة هو وجه القوة فى هؤلاء الفتيان .

**والفتى يؤدى عمله المنوط به ، ويترك حقه للناس فلا يطالبهم به ، فهو يؤدى حق الناس عليه ،** ولا يطالبهم بحقه منهم ، وهذا مناف ومعارض لسلوك النفس ، وهذا هو وجه القوة فى معارضة النفس ومجاهدتها .

**ولا يأت الفتى بفعلٍ عبثٍ أبدا ، بل إن كل أقواله وأفعاله وفق ميزان الشرع ، وفى ذلك ثقل المشقة فى الوفاء بمطلوب الشرع** ، وهذا لأنه سمع الحق يقول : ( وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما باطلا ) وهويعلم أن أفعاله وأقواله مما بين السماء والأرض ، فهى ليست باطلا أو عبثا بحكم الله لها بذلك ، فإن الخالق حكيم ، فالفتى من يتحرك أو يسكن لحكمةٍ فى نفسه ، ومن كان هذا حاله فى حركاته وسكناته ، فلا تكون حركاته وسكناته عبثا ، لا فى يده ولا فى رجله ولا فى شمه ولا فى ذوقه ، ولا نفسه ولا بصره ولا باطنه ولا ظاهره ، فيعلم فى كل نفس له ماينبغى فيه من العمل ، وماحكم سيده فيه ، ومثل هذا لا يكون عبثا .

**وإذا كانت الحركة من غيره فلا يظنها هى الأخرى عبثا ، فإن الله خلقها وقدرها ، وإذا قدرها فلا تكون عبثا أو باطلا ،** فيكون الفتى حاضرا مع هذا عند وقوعه من العالم ، فإذا فتح الله عليه باب العلم بها فبَخٍ بَخٍ ، وهو صاحب عناية ، لأن الله أعلمه بها ، وإن لم يفتح عليه باب العلم بها ، فيكفيه حضوره فى نفسه أنها حركة مقدرة من الله ، وأن لله فيها سراً لا يعلمه ، فيؤديه هذا القدر من العلم إلى الادب الإلهى ، وهذا لا يكون إلاء الاقها فى علاقة هؤلا للفتيان أصحاب القوة الحاكمين على طبائع النفوس والعادات .

ومادمنا قد علمنا أن الفتوة هى القوة ، والتى ذكرنا مظاهر ها فى علاقة هؤلاء الأقطاب بربهم ، فإن إبت عربى يذكرنا بأقوامٍ آخرين ، لهم هذا المقام ( مقام الفتوة ) ، ألا وهمُ الملامية ، ولا يخفى عليك مظهر القوة فى علاقتهم بربهم ، حين ستروا أنفسهم عن أعين الدخلاء ، بالرغم من طول باعهم فى القرب الإلهى ، ولا يقدر على هذا الستر إلا هؤلاء الملامية ، وهذه القدرة تحتاج إلى قوة ، والقوة هى الفتوة ، وبالتالى هم من الفتيان ، فإن الله قد ولَّاهم على نفوسهم ، وأيدهم بروح منه عليها ، فلهم التصريف التام والكلمة الماضية ، ولهم الحكم الغالب ، فهم سلاطين القرب الإلهى ، فى صورة العبيد من الناس ، فهل رأيتم مَنْ كان فى نفسه مَلِك ، ثم أظهر تفسه للناس فى صورة العبيد ، فهؤلاء الملامية هم أصحاب القدرة على ذلك ، ولهذا كانوا فتيان ، فهم يعرفهم الملأ الأعلى ولا يعرفهم من يجاورونهم فى الأرض ، فليس أحدٌ مما سوى الثقلين ،إلا قليل منهم ، إلا ويقول بفضلهم ، لأنهم مشهودون لهم ، ومطَّلِعون على مقامهم .

ويذكر إبن عربى كلام حكاه الحق عن الفتى إبراهيم نبى الله حين قال الحق : ( سمعنا فتى يذكرهم ، يُقال له إبراهيم ) فأطلق الله على ألسنتهم ، فتوَّة إبراهيم ، لأن ماقام به إبراهيم لا يقد عليه إلا الفتيان ، لأنه قام فى الله حق القيام ، ولمَّ أحالهم إبراهيم إلى الكبير من الأصنام فى قوله ( بل فعله كبيرهم ) كان هذا القول فى الظاهر كذبا ، لأن إبراهيم هو الذى كسَّر الأصنام ، وليس كبيرهم ، أما فى عالم الحقيقة فإن الكبير هو الله ، وأن الله هو الفاعل فى تكسير الاصنام ، وما ظهرت صورة الفعل إلا على يد إبراهيم ، فلم يكن ذلك كذبا على الحقيقة ، ولو نطقت الأصنام فى ذلك الوقت لنسبت الفعل إلى الله لا إلى إبراهيم ، فإنه مُقَرر عند أهل الكشف ، لأن الجماد والحيوان والنبات قد فطرهم الله على العلم به وتسبيحه بحمده ، فلا يرون فاعلا إلا ألله ، ومن كان هذا فى فطرته ، فكيف ينسب الفعل لغير الله ؟

ويذكر ايضا ما ذكره القرآن فى شأن فتى موسى ، حين قال الحق ( وإذ قال موسى لفتاه ) فلقد كان فتى موسى خادمه ، وسُمِّىَ الخادم فتاً ، لأنه روّض تفسه على سبيل الخدمة لسيده ، لأن هذا معارض لهوى النفس ، فإن النفس تهوى السيادة ، ولكنه لمّاَ قهر نفسه بأن جعلها خادمة ، إستحق لفظ الفتى ، لقدرته على نفسه ، وتطويعها لما أراده منها ..... فإن الخادم ، أياً كان لا يقبل الخدمة لمن هو من جنسه ، إلا على محمل الإضطرار ، لأن النفس تأتف العبودية لمن هو صنوٌ لها فى الجنس ، فإذا صار خادما ، كان ذلك على غير هواه ومراده من نفسه ، فلقد كان فتى موسى فى خدمته ، وكان موسى فى ذلك الوقت رسول ذلك الزمان ، الناقل للناس شرعهم من جانب الحق ، ولك أمة بابٌ إلهى منه يوصل الحق شرعه إلى هذه الأمة ، فالرسول هو حاجب ذلك ألباب ، الذى يدخلون منه إلى الله تعالى ..... إلا أن هناك ثمة علاقة بين معنى الفتى ومعنى الخادم ، فالفتى هو من روَّد نفسه وحاربها ليكون تحت مراد ربه ، وخادما مطيعا له ، وهذا هو معنى العبودية ، فالفتى الحق من هذا الجانب هو العبد الحق ، أو إذا شئت هو سيدٌ فى شأن عبوديته .

ويتفاضل الفتيان فى مراتبهم ، من حيث وقوفهم مع مَن يمارسون عليهم فتوتهم ، من حيث ضعف القابل أو قوته ، فالأعلى فى الفتوة هو الواقف مع القابل الأضعف ، والأقل منه هو الواقف مع الأقوى ، لأن الضعيف مقدورٌ عليه بالطبع من الفتى ، فإذا قاوم الفتى إحساسه بالقدرة على هذا الضعيف ، فهو الأقوى فى الفتوة ، وهذا معنا دقيق يحتاج إلى مثالٍ لشرحه ، فيسوق إبن عربى هذا المثال وننقله عنه بنفس لفظه مع قليل من التصريف :

شيخ أمرمريده أن يقدم الطلعام للضيف ، فلما نظر المريد إلى الطعام ، وجد فيه نملاً ، فلم يشأ أن يزعج النمل من فرط فتوته ، وإنتظر حتى يخرج النمل من ذاته خارج الطعام ، مما جعله يتأخر عن إيصال الطعام للضيف ، فهذا المريد تفتى على الأضعف ، الذى هو النمل ، فلم يشأ ان يزعجه حتى خرج من ذاته ، ولكنه فى نفس الوقت لم يتفتى على الضيف فى إكرامة ومسارعة وصول الطعام إليه ، والنمل هو الأضعف والضيف هو الأقوى ، فلمَّا رآه الشيخ ، عرف مافيه فقال له : لقد دققت فى معنى الفتوة ، لأنك راعيت الأضعف ولم تراعى الأعلى ...... ويريد إبن عربى أن يخبرنا ، أن الأكثر فتوَّة هو الاكثر مراعاة للأضعف ، وهو الذى يجعل نفسه خادما له ، لأن خدمتك للأضعف ، إمعانٌ فى قوة روحك وسيطرتها على ماجبلت عليه نفسك ، فكلما كنت خادما للفقراء الضعفاء ، كنت بذلك قادرا أو فتيا ً ، لأنك كنت الأقدر على قهر نفسك .

ومن صور الفتوة ماذكره إبن عربى عن أبى عبد الله الدقاق ، حين تذاكر هو ومن معه ، مفهوم ( الفعل بالهِمَّة ) أى فعل الشيئ الخارج عنك بالقوة التى فى داخلك بمجرد الإرادة النفسية لها والمجردة عن وسيلة الجوارح إليها ،فقال أبو عبد الله الدقاق :

( فزت بواحدة مالى فيها شريك ، ماإغتبت أحدا قط ، ولا اُغْتِبَ أحدٌ بحضرتى قط ) فكونه لم يغتب أحدا على الإطلاق ، فهذه فتوة وقوة منه ، وكونه بهمته ، لم يُمَكِّن أحداً فى حضرته أن يغتاب ، فتلك مرتبة أعلى من الفتوة ، إذ تفتَّى على من فى عادته أن يغتاب ، فلم يقدر على الغيبة فى حضرته ، من غير أن يكون من الشيخ نهىٌ له عن ذلك ، بل هى من قبيل الهمة النفسية ، التى هى نفس الشيخ .

**فالفتى هو من بذل وسعه وإ ستطاعته فى معاملة الخلق ، على الوجه الذى يُرضى الحق** .

وخلاصة ماذكرناه أن الفتوَّة من المنظور الإيمانى هى قدرة المؤمن على دحر صفات نفسه المجبولة عليه من الشخ والبخل والرغبة فى السيادة والشفوف على الغير والتباهى والعجب بالقدرة الطبيعية ، والمكاسب المادية ، وإتساع العلوم الدنياوية ، وفرط العزة والجاه والسلطان والسطوة على الضعفاء والمساكين ، ويستعين المؤمن عل دحر هذه الفتوة النفسانية الطبيعية ، بالفتوة الروحانية العلية ، التى هى من ثمار الإيمان واليقين بالله ، فينقلب الإنسان من الفتوة النفسية الطبيعية الى الفتوة الروحانية ، بهجوم الإيمان والقرب الإلهى عليه ، فتظهر عليه ذات القوة ولكنها تكون فى الإتجاه المعاكس لما كان عليه فى جاهليه ، قبل هجوم الإيمان عليه ، فكما كان قويا فى جاهليته يكون قويا فى إيمانه ، تلك القوة التى قصدها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله ( المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) لأان قوته بعد الإيمان تكون للدين ، وقد كانت على الدين قبل إيمانه .

فقوة النفس قبل الإيمان تكون فى الوفاء بمطالبها ، ورغائبها ، ولذائذها ، فإذا فتح الله على عبده باليمان ، تحولت القوة النفسية إلى قوة روحانية ، تطلب مكارم الأخلاق والقربات الإلهية ، ومحاربة رغائب النفس العاتية التى يحملها .

ولنا فى الفاروق مثلُ على ذلك ، وكذلك لنا فيى سيرة الشيخ مسعد مثل على ذلك..... فربما تلاقت خطوط كثيره بين الشخصيتين في مرحلتي ما قبل الهداية وما بعدها ،فقد كان سيدنا عمر قوياً شجاعا فتياً شديداً في الجاهلية ، الأمر الذي ظلت عليه شخصيته بعد إسلامه على اختلاف توجهها وسلوكها، كذلك الشيخ قبل تجرده وفناءه في طريق القوم، كان مهاباً شجاعاً قوياً لا يشق له غبار، وقد رسَّخ وضعه المادي والاجتماعي إلى إبراز هذه الصفات، فقد ولد لأب من كبار الأعيان ذو سطوة ومكانة وثراء شديد، الأمر الذي أثر في نشأته كأحد أبناء الطبقة العليا مكانة ووجاهة ومال وعزوة وجاه، ولقد ذكرنا تفاصيل هذا الأمر فى الفصل الذى تحدثنا فيه عن مفتاح شخصيته ، فأرجع إليه .

وكما قلنا فإن الفتوة والقوة تظلان كامنتان فى أشخاصهما وإن إختلف توجههما من قبل الهداية إلى مابعدها ، ولكنها تخرج وقت الحاجة إليها ومصداق ذلك ماحكاه الشيخ ناصر عن جده الشيخ مسعد فى الرواية التالية :

عدا رجلٌ من قرابة الشيخ على ضيفٍ لأحد العائلات المجاورة للشيخ وكانت هذه العائلة معروفة بالسطوة والظلم والجور على من يطالهم بشيئ لتسلط روح الإنتقام فيهم ، فأرادت هذه العائلة أن تفتك به ، ولكنهم لما عرفوا قرابته للشيخ ، إكتفوا بأن يفدى نفسه بأن يقدم إليهم كفنه ، تكفيرا لما إقترف فى حقهم ، وهذا فى نظرهم منتهى التنازل الذي ليس بعده تنازل ، ووافقت عائلة الشيخ على هذا الأمر تجنبا لإراقة الدماء ، ولكن حدث ذلك دون علم الشيخ ، فلما علم الشيخ بهذا الأمر ، أدرك أن هذه العائلة لن تقف عن تماديها فى غيِّها وبسط نفوذها ، وأن الأمر مايجب أن يصل إلى ماوصل إليه ، وأنهم إن وافقهم على ما أرادوا فسوف تكون سُنَّة يتمادون بها فى غيِّهم ، وأنه لا طريق إلى وقف ذلك إلا بقوة تكافئها ، فأرسل إليهم أن ما أشاروا به مرفوض ، وأنه سيخرج إليهم فيقاتلهم نفسا بنفس وقوة بقوة وعزيمة بعزيمة ، ولا يغرنهم سلوك الشيخ فى طريقه ، فهم يعرفون ماكان عليه الشيخ مسعد قبل سلكه فى طريق القوم من القوة والقدرة والبطش والسلطان ..... فما أن وصلهم رد الشيخ إلا وسقط فى أيديهم ، لما يعلمونه عنه ، فهو ليس بالخب ولكن الخب لا يخدعه ، وهو ليس بالظالم ولكن الظالم لا يظلمه ، وهو ليس بالجائر ولكن الجائر لا يجور عليه ، فهدأت الأمور وإستقر الحال وارتضى الطرفان .  
فهذا مثل لمكمن الفتوة والقوة فى الشيخ التى لم تغادره بعد الهداية وإن إختلفت مصارفها ، فهو فتى من قبلها ومن بعدها ، ولا تزال الفتوة قابعة فيه إلى أبد الآبدين

وفى رواية أخرى يحكيها الشيخ ناصر عن جده الشيخ مسعد متناولا الفتوة التى كان الشيخ متصفا بها ، يقول :

حكى لي المرحوم محمد غريب أو كما عُرف بين الإخوان بمحمد ابن ام علام قال :  
كانت مدرستي الثانوية بحي السيدة زينب وكنت على دراية بالحي وسكانه وأهله لتواجدي فيه يومياً . وكان لكل منطقة بالحي فتوة معروف بسطوته وسيطرته وأهلة بما فى ذلك من العنفوان والقوة. وكان الوقت يومٌ من أيام الإحتفال بمولد السيدة زينب وبينما أنا ذاهب إلي حيث يقيم الشيخ هناك في المولد وفي مكان بعيد عن إقامته إذا بي أراه مشتبكاً مع فتوة المنطقة هناك وحده وهالني ما رأيت فالشيخ المُسن يمسك بتلابيب الفتوة ويرفعه عالياً ثم يطرحه أرضاً  
. والرجل في يده كمن يمسك بقطعة قماش أو ورقة. ثم يقوم الفتوة من كبوته وكأنه لا يصدق ما حدث فيعود مشتبكاً بالشيخ فإذا بالشيخ يعود فيرفعه ثم يهوي به أرضاً وهكذا يعود الرجل فيعود الشيخ حتى تملك اليأس من الرجل فانصرف عن الشيخ فانصرف الشيخ عنه .   
لا أحد يعرف ملابسات الحدث حتى الراوى ، الذى هو شاهده الوحيد ، لكن محمد غريب لكونه يعرف ديموجرافيا المكان ويعرف مكانة هذا الرجل وقوته وبأسه في أهل الحى ، إستغرب هذا الأمر من الشيخ .... انتهت القصة وبقيت العبرة ، والفكرة التي أستخلصها ربما تكون معلنة عن نفسها ولا تحتاج لبيان أو توضيح. فها هو فتوة المكان يصرعه الشيخ ويكسر كبريائه وتعاليه ، واللقاء لم يكن مع فرد من العامة بل فتوة المنطقة وما عُرف عنهم من استحقاقهم للقب ، بالبأس والقوة وفرض النفوذ والسيطرة.   
فكأنه فتوة ، يواجه فتوة ، ولكن مع بعض التوضيح والبيان ، فالأول فتوة بالدنيا إن شئت تسميته أو في عالم الملك والظاهر ، لكن الثاني فتوة على التحقيق أو في عالم الملكوت والحقيقة.

وقريب من ذلك ماحكاه محمود بركان نقلا عن الشيخ سيد عبد العزيز عليه رحمة الله :  
أن بعض الناس أو احد الدراويش وهبَ (عجلا ) يجعله طعاما للفقراء المجاورين لسيدى أحمد البدوى بطنطا وتركه فى الساحة والكل يعلم أن هذا العجل مخصوص لهذا الأمر ، ومرت الأيام بل الشهور والعجل فى الساحة يأكل ويشرب لدرجة أنه أصبح كبير الحجم وارادوا فى المولد الأحمدى ذبح هذا العجل ولكن لايوجد جزار قادر على تنييمه و إمالته على جانبه للذبح إن صح التعبير ، وعلم الشيخ مسعد بالخبر فذهب للساحة وما أن أشار بإصبعه السبابة للعجل حتى وجدوا العجل على جانبه على الأرض فأمر الجزارين بالذبح ، وهذا من مظاهر الفتوة والقوة التى نحن بصددها ، فضلا عن ذلك النوع الآخر من الفتوة التى ذكرناها فى أول هذا الباب .  
ولم تقتصر مظاهر الفتوَّة فى الظاهر ، بل تعدته إلى الفتوة فى الباطن ، ونقصد بالفنوة هنا ، القدرة على حماية أبنائه من بطش الغير وجورهم عليهم .

فمما رواه لنا أخونا محمود بركات عن أخونا سيد عبد العزيز رحمه الله ، أن أحد أبناء المريدين كان يعمل غفيراً نظامياً ، فذهب بصحبة اثنين أو ثلاثة من الصيارفة لتحصيل بعض الأموال ، واذا بقُطَّاع الطريق يظهرون لهم بَعْدَ جمعهم الأموال ، فنادى الغفير بأعلى صوته : يا عمَّ أبويا (يقصد الشيخ مسعد إذ كان شيخ والده) والصيارفة ينظرون الحدث ، فاذا بفارسٍ صنديد يركب فرسه ، ويُشْهِرُ سيفه ، وإذا بقطَّاع الطريق ، يَفِرُّون من أمامه ، فَنَجُوا منهم ، فقال أحدُ الصيارفة للغفير : لقد ناديت وقلت : يا عمَّ أبويا ، فأكرمنا الله بهذا الفارس ، مَنْ هو أبوك ؟ومن هو عمه الذي ناديت عليه ؟ومن ذلك الفارس الذي حضر بمجرد مناداتك له ؟ لابد وأن نزوره ، وكان الصيارفة نَصَارَى ،فقال لهم الغفير : (ما لكم انتم ومال الحكاية دي )فصَمَمُوا على الذهاب للشيخ ، فذهبوا وبمجرد ما وقع نظرهم على الشيخ قالوا : (هوَّا دا الفارس ) ،فتلك نوعية من الفتوة الباطنية التى بدت لأتباعه فى حياته ، وإن لم تكن على الشكل الظاهر المعهود للناس ، ولذلك قلنا أنها فتوة باطنية .

ومثل هذه الرواية ماحكته إبنته زوزو من أنه ، دخل عليهم رجلٌ بِجَلَبةٍ وصياح وسرور ، وكان هذا الرجل من أبناء الشيخ المحسوبين عليه ، ودخل مردداً كلماتٍ تُفِيدُ سرَّ الشيخ في حفظه لمريديه ورعايته لهم ،فأستقبله الشيخ متسائلا : ( فيه أيه يا ابني؟) فرد عليه الرجل : ما أنت عارف في أيه يا عمي ، ده أنا لولاك إمبارح كان قَطَّاعين الطرق قتلوني ، لوُلا هَجْمِتَك عليهم ، وضربهم ، وجريك وراهم وإنقأذك ليَّا منهم ، فتلك هى واقعة أخرى من نماذج الفتوة التى إتصف بها الشيخ ، وإن كانت من ذلك النوع الباطنى .

ولم تقتصر مظاهر الفتوَّة على حياته ، بل تعدته إلى مابعد إنتقاله ، فقد حدث أن أحد المريدات من بنات الشيخ باهى ( بعد إنتقال الشيخ مسعد ) وهى الحاجة صباح ، قد تعرضت لمن وقف فى طريقها ، مريدا سرقتها ونزع حليِّها منها ، فما كان إلا أن ، نادت على الشيخ مسعد ، ولم تكن قد رأته فى حياته ، فإذا به قادما نحوها طارحا هذا الرجل على الأرض ، والقصة بتمامها قد ذكرناها ، حين تناولنا الكلام عنها ، فى الفصول التالية .

ومما سبق نستطيع أن نقول أن الفتوة لازمت الشيخ قبل هدايته ، وإستمرت معه حال الفتح فى الطريق ، ولم تبرحه حتى بد إنتقاله إلى جوار ربه .

**حال الشيخ في بيته وبين ذويه**

كان صاحبنا لا يدخل الى فراشه ليلا حتى يمر على بيته ويراجعه ويتأكد من أن داره قد خلت تماما من أي مال مدخرٍ فيه ، فإذا أتم مهمته وتأكد مما كان يقصده آوى الى فراشه مطمئنا.

وذات يوم وجد مع زوجته بعضا من المال فغضب عليها غضبا شديدا، وقال قولته الشهيرة: خائفين من أيه الى عشانا النهارده يعشينا بكرة ، خائفين من أية ؟ فأجابته بأنها لم تفعل ذلك عن عمد أو قصد منها ، فانظر الى هذا اليقين وتلك الثقة، إنها ثقة العارفين أصحاب القلوب المحمدية، الذين تناولوا عطاء اليد المحمدية وهباً ومنحاً وإجتهادا وعملا وتفانيا وإخلاصا، حتى لكأنه الصوره المحمدية الكاملة في زمانه.

وللخادم في بيت الشيخ مكان ومكانة يغبطه فيها الإخوان ويتمنون أن يكونوا مكانه في القرب منه، إذ هو أقرب اليه ممن يتوقون الى القرب منه ، لعلمهم أن الشيخ ما أختار قربه منه إلا لأنه أهل لهذا القرب رجالا كان أو نساء ، والحقبقة أن الخادم فى بيت الشيخ لم يكن مثل هذا الذى يطلب أجرا نظير خدمته ، بل كان تواقا بروحه إليها ، يسعى إليها ويحسده الآخرون عليها ، بل يجعلها فى نفسه قدرا ومقدارا ومرتبة يحاول غيره أن يصل إليها ، وهو فى مكانة صفىُّ الشيخ وخليله وكاتم سره وحافظ عهده ومطلع على خباياه ، ولهذا كانت لهم فى قلوب الإخوان حظوة ودلال وبهاء وجمال ومحبة وقرب .

عرفنا منهن الست **كاملة** التي كانت وصلةٌ بين الشيخ ومريديه ، تدعوهم اليه وتنقل اليهم الخبر منه ، تعرف أحواله و عاداته ومواطن رضاه وغضبه ، وتشير على الإخوان بما يجب عليهم نحوه وتَصدُقُهم النصيحة ويصدقونها الطاعة ، فلم يكن بين الإخوان على عمومهم فيما نشاهده بين الناس ، من البغضاء والشحناء والمكر والغيرة والكراهية والإستحواز والكيد والضغينة ، بل يشعر المريد وهو يجالس أخاه أنه يجلس مع نفسه ، وليس هذا من قيبل سرد القول ، بل هى حقيقة فيهم ، وكأن الشيخ قد وضع هذا الأمر فى قلوبهم فلم يخرجوا عنه ، إذ لم يكن في علائق الإخوان شيئا من الريبة والشك ، فلقد كإنوا إخوان صدق ، وعرفنا منهم الست **زينب القصيرة** التي كان منوط بها غسل ملابس الشيخ ، والتي كان من فرط حبها للشيخ أن تأخذ منديله وتشطفه وتشرب الماء الناتج من شطفه ، والحقيقة أيضا أن كل مريدين الشيخ رجالا كانوا أو نساء كانوا يعدون أنفسهم خدما للشيخ ويتسابقون فى أنفسهم الى نول هذا الفضل ، ولم يكن سعيهم عن أمر فى نفوسهم ولكن إن شئت قلت أنه أثر ونضحٌ من فرط المحبة والفناء فيه ، إذ كان هو أقرب إليهم من بنيهم وبناتهم الذين من أصلابهم ، وأقرب إليه من آبائهم و أمهاتهم ، حتى أقرب اليه من أنهسهم التى بين جنوبهم .

وتجاوز هذا الأمر زمان الشيخ وتعداه الى زمن وارثه الشيخ باهى رضى الله عنه ، فعرفنا منهم نفراً كثيراً ، إخواناً وأخوات ، فمن الأخوات عرفنا أم جمال وعرفنا أم جمالات وعرفنا أم فايزة زوجة الشيخ سيد حسين وعرفنا زوبة ابنه الشيخ سيد عبد العزيز ، وعرفنا كريمة وعرفنا منى وجميعهن تربين في بيت الشيخ ولم يكن له إليهن فرق بين بناته من صلبه وبناته في الطريق واستمرَرْن معه إلى أن تزوجن ، وعرفنا من الإخوان دبٌّور الذي إقترن وجوده بوجود الشيخ ، وعم سد أحمد ، وأبو جاد ، ولسنا فى صدد حصرهم لأن الحقيقة تنبئنا بان كل أبناء الشيخ وبناته خدمٌ له .

ونحن إن تكلمنا عنهم فان الكلام على هامش الهامش ، فقد عرفوا من أسرار الشيخ أضعاف وأضعاف ما نعرفه نحن عنه، وإتخاذ الخادم من الإخوان هو سنه نبوية، فقد علمنا من الصحابة أنس بن مالك الذي مكث معه عشر سنين، وعرفنا عبد الله بن مسعود الذي كان صاحب وساده وسواكه ونعليه وعصاه ، وعرفنا منهم من كان آخذا بدابته وناقلته وراحلته ومن مظاهر محبتهم للقائمين عليهم بالخدمة، تلك الرواية:

حدثتنا السيدة توحه بنت الشيخ أنه بعد نقل الشيخ من الجبانة الى مقامه الكائن فيه بشهر ماتت خادمه له تدعى أم عيشة إذا كانت تخدم في البيت حال وجوده، فأشار الشيخ باهى الى دفنها بجانب عمها في الجبانة،

وبرغم اعتراض الاخوان على ذلك ، صمم الشيخ باهى على ذلك، وقال: هي أحق أن تدفن بجانب الشيخ.

ولم ينشغل الشيخ بمريديه عن أهل بيته واولاده من صلبه ، وإن كان الأمر فى حقيقته أنه لا فارق بين هذا أوذاك لديه ، وإن كانت الكفَّة تميل قليلا نحو أبنائه المريدين ،وسنورد فى قابل من السيرة مصداق ما ذكرناه ، ومن مظاهر رعاية الشيخ لبناته من صلبه والقيام على مطالبهن ما كان يعامل به ابنته زوزو ، فلقد كان زوج ابنته زوز سعد افندي حجازي من الهائمين في محبه أهل البيت والمحبين لطائفة المجاذيب و المجاورين لهم ، فكان في أول كل شهر بعد أن يأخذ راتبه من عمله، يذهب بهذا الراتب لزياره أهل البيت ، فيوزع كل ما لدية من مال على مجاذيب ومجاوري أهل البيت ، ويذهب الى منزله خالي الوفاض ، فإذا سألته زوجته عن راتبه أخبرها بما فعله ، فتصرخ في وجهه، ويشتد عراكها معه للدرجة التي يخرج من البيت ويتركه لها ، خوفا من توابع هذا العراك ولقد وصل به الأمر مره انه اختبأ في احدى المقابر المجاورة لسيدي على زين العابدين خوفا منها ... ولما كانت تشتكى الى أبيها الحاج مسعد فكان يقول لها يا زوزو ... ملكيش دعوه بسعد افندي ... أنت ليكي إن كل حاجتك تبقى موجوده في البيت ... ثم توجه الى الشيخ صلاح طه وهو أحد الإخوان المقربين لديه ، قائلا له : ياصلاح أنت ملزوم بقضاء حوائج زوزو .... ووضع الشيخ محبه زوزو في قلب الشيخ صلاح طه، ووضع فيه حرصه على قضاء مصالحها والوفاء باحتياجاتها، ودوام السؤال عليها، حتى أنه إذا سلم عليها لا ينتهى سلامه إلا بتقبيل قدميها، وكان في يقينه وعقيدته أن تلك القدم التي يقبلها هي قدمي شيخه ... الحاج مسعد، هكذا كان الحال الموضوع فيه فكان هذا الحب لازما له لوفاء بمصالحها.

## فإذا ذهبنا الى تحليل الرواية السابقة وجدنا أن للشيخ نظرارت الى أبنائه سواء كان من أصلابه أو من أهل طريقه ، وأبطال هذه الرواية ثلاثة أولهم ابنته الكبرى زوزو ، ثم زوج ابنته سعد أفندي ، وآخر الأبطال الحاج صلاح طه، أما ابنته فلم يتركها للعوز والفاقة فقد قام بتلك المطالب التي قصَّر زوجها عن أدائها فسد النقص ورأب الصدع ، أما نظرته الى زوج ابنته سعد افندي فنطر الى ما ينفقه خارج بيته والذى به قصَّر عن أداء واجبه نحو أهل بيته ، فرأى الرجل مقهورٌ في رغبته مدفوعٌ دفعاً الهيا بروحه الصافية الرقيقة الطاهرة المخلوطة بمحبته أهل البيت ، الأمر الذى دعاه في نفسه أن يرى أن مجاذيب ومجاورى أهل البيت أولى بالإنفاق عليهم من أهل بيته ، ومعنى ذلك أن محبته لأهل البيت تعلو على محبته لأهل بيته ، ومن ذاق محبه أهل البيت يعرف أن لا محبه تعادل محبتهم ، ولا شوق الى أحدٍ قَدْرَ شوقة اليهم ، ففرح الشيخ بما رآه على زوج ابنته ولم يكلمه على التقصير في نفقته على أهل بيته ، بل على العكس رأب الصدع وجبر النقص ، بل كان سعد افندي زوج ابنته هو أ قرب المقربين لديه بالرغم من كونه مقصر في الأنفاق على ابنته.

أما البطل الثالث في هذه الرواية وهو الحاج صلاح طه ، وهو الذى جعله الشيخ أمينا على كريمته الكبرى زوزو ، ولم يجعله هكذا من فراغ وإنما كان لعلمه بفنائه في شيخه واختلاط روحه فيه ، وزاده على ذلك حبا على حب في ابنته ، ولقد كان للشيخ صلاح سابقه حب لكريمة الشيخ جارية ، والتي أفاض الشيخ صلاح طه بذكر مناقبها وقد رأى من آيات ربه الكبرى في تشييعها الى مثواها وقد علم من أسرارها الباطنة ما جعله مرتبطا بها ، فكان إذا ذهب الى زياره السيدة زينب رضى الله عنها قرأ لها الفاتحة ووجد عمتنا جاريه قابعه في مقام السيد زينب ،إذ كان الشيخ صلاح طه من اشد المحبين والمقربين والحافظين لزياره أهل البيت حتى وفاته رحمه الله ، وكان الحاج صلاح من أكثر المريدين ذكرا للشيخ مسعد بعد وفاته وقد إتصف بالذاكرة القوية لكل دقيقة من دقائق هذه السيرة ، ولو كان الشيخ صلاح حيا ً بين أظهرنا وقت كتابة هذا الكتاب لأغنانا عن كثير من العنت الناشئ من ندرة الروايات .

والبطل الحقيقي في قصتنا هذه هو المحبة، تلك المحبة التي ربطت بين الشيخ وأبنائه وتلك المحبة التي ربطت بين سعد أفندي وأهل البيت ثم تلك المحبة التي ربطت الحج صلاح طه بشيخه وأبنائه من صلبه وإخوانه وأهل البيت.

## ثم ننتقل الى وقفة أخرى من وقفات الشيخ مع بناته وهى إبنته جارية ، فمن الروايات ذات المصدر الواحد ماحكته الست أم حسين ناقله إياها عن أمها الست أم محسب،ما قصته من عمتنا جاريه ابنةالشيخ الكبرى رحمها الله وكانت هي اكبر أبنائه واقرب المقربين اليه ،وإنفردت عن باقى أخواتها بكرامات خاصة بها بالرغم من إنتقالها الى ربها فى ريعان شبابها ، ومن كرامتها أن جعل الله لها أسرار ليس لأحد غيرها ، وهى أن تجد تحت وسادتها كل صباح مبلغا من المال ، فتتوجه به الى أبيها ، فينفق منه على بيته وعلى أولاده في الطريق، فكان الشيخ يأخذ منها كل صباح ما تجده تحت وسادتها ، وكان لهذا المال في مقداره سر عجيب ، مثلا اذا اخذ الشيخ عشره جنيهات ، فأنفق منها ثمانية جنيهات ،وبقى معه اثنان ، لا تجد تحت وسادتها إلا ثمانية جنيهات فكأنما المال بالتمام على قدر المنفق منه ، ولم يكن للشيخ في هذا الوقت مصدراً للمال إلا هذا الوجه إذ كان قد انفق كلُ مالٍ وَرِثَهُ من أهله ، في الطريق.

وكان للست جاريه دور أخر في طريق مرافقتها لأبيها إذ كانت ملازمه له في خدمه الإخوان وإطعامهم والقيام على خدمتهم ومعاونه أبيها في ذلك وقد كان كثير من زوار الشيخ ممن يأتون اليه بعلل وأمراض تباينت بين الأمراض النفسية و الأمراض العضوية ، ومَنْ قد تلبَّس جنٌ به ، أو من قد أصابه سحرٌ ، أودى بجانب من سلامه بنيانه ، فكان بنظرةٍ واحدةٍ منه ينطلق إسارَه من الجن المتلبس به ، أو يذهب سحره ، أو يصرف السر في مرضه فيعالجه بما يناسبه ، ومن الحالات العجيبة التي صادفت الشيخ مسعد وكان لابنته جاريه دور في علاجها ، شاب أتى اليه أهله به ، يعانى مرضا قد أصاب عقله جعله يعوى كالكلاب ، وكان طالبا في الجامعة فلما نظر اليه الشيخ عرف أن علاجه أن يأكل قطعه من لحم كلب ،ويدخل هذا العلاج من باب الإضطرار ، هكدا علم كشقا السبيل الى علاجه ، ولم يبق إلا كيفيه الحصول على الكلب وذبحه وطهيه ، وهنا يبدء دور السيدة جاريه ابنه الشيخ ، فلقد تطوعت بالمهمة فأتت بالكلب وذبحته وطهته وشفى المريض من علته، فلما رأى الشيخ من جاريه ما فعلته نظر إليها واغرورقت عيناه وقال لها :" لقد فزت بها يا جاريه ، لقد كان اختبار شديدا وفقك الله فيه" أي لقد كان فعلك هذا سببا لك في الفوز والنجاة عند ربك ، لأنه لا يفعل هذا إلا من كان قلبه صافيا خالصا ، لا يبالى ما يعانى في سبيل من أمنت به ، فكان هذا الفعل سببا في نوال مقامها عند الله.

والحقيقة أن وجود المال تحت وساده جاريه ، أنما يُفَسَّرُ بصفة التجريد المطلق الذى اتصف به الشيخ ، وهو غض النظر عن الأسباب بالكلية ، ومن مظاهره انه انفق كل ما لديه من ميراث والدة في الطريق وعلى الإخوان ولم يحصل في جعبته أي ادخار منه حتى انه تساءل في دهشه موجها اندهاشه لأهل بيته : انتو فلقانيين ليه ، إلِّى عشاكم امبارح ها يعشيكم النهارده وهو حال " مخصوص بمن هُم على شاكله الشيخ مسعد ، لأن الله أمرنا أن نأخذ بالأسباب ، ولكنه مقام التوكل المطلق الذى اتصف به الشيخ ، ومادام التجريد عن الأسباب صفته ، فبالتجريد عن الأسباب يكون رزقه ، وهو ما كان يجده من المال تحت وسادة ابنته فينفق منه أهله وأولاده في الطريق ، وقد يرد الينا تساؤلا ، لماذا لا يكون المال تحت وسادته هو و هو الشيخ الأمام ، لا وساد ابنته ، فنجيب عليه بصفه أخرى من صفات الشيخ وهى الخفاء والستر فلن تظهر الكرامه عليه ولكنها ظهرت على ابنته.

وأما نظره في الشاب المريض بأن دواءه أن يأكل قطعة من لحم كلب فلا يفسر إلا بالكشف الذى اتصف به ، وقد تواترت الروايات على صدقه فيه ، فرأى أن دواءه لا يبرء إلا بمثل هذا الدواء ، بدليل شفاء الشاب من مرضه كما ذكرت الرواية، والشيخ و الشاب المريض في هذا الوقت ، هم من أصحاب الاضطرار الذى بمثله سَنَّ الشرعُ للمضطر أن يأكل من الميته والدم ولحم الخنزير ، وقت الأشراف على الهلاك ، ولا يوجد لغير ما وجدوه ، كالطبيب الذى سن له الشرع أن يبتر احد أعضاء المريض المصابة بالغرغرينا ، بالرغم من كون البتر هو نوع من الإفساد للبنيه التي خلقها الله للإنسان ، ولكن كان صلاح باقي بدنه متوقف على إفساد هذا الجزء المصاب منه ، والأمر في هذا الجانب لا يتعدى كونه طبيبا والأخر مريضا ، وأما السبب في العله فهي المنوطة بكرامه الشيخ الذى عرف كشفا بالداء والدواء.

وأما ابنته جاريه التي سارعت بإحضار الكلب وذبحه وطهيه فكان الدافع لها امرين: **الأول** أيمانها بالشيخ أيمانا لا يقاومه مقاوم ولا يساوره شك ، فهو أيمان مطلق يتبعه طاعة مطلقه، وان كان طاعتها لم تكن لأمر الشيخ لها بذلك ولكن بسبب طواعيتها الشخصية بطلب الشيخ دون أمرها به ، ولأنها تعرف أن أباها لا يتحرك إلا بالله ، ولهذا قال لها: لقد فزت بها ياجاريه ... أي فزت بالطاعة المؤدية الى الفلاح.

والأمر **الثاني** هو رغبتها في علاج الشاب، لا لسبب إلا محبة الإصلاح لما هو فاسد فإن الله لا يحب المفسدين.

وفى كرامة أخرى من كرامات السيدة جارية أنه فى الصباح الذي توفيت فيه ، وكان ذلك في مولد سيدي السلطان الحنفي بجوار السيدة زينب، أنها نظرت الى الإخوان وقالت لهم: إتغدوا .... عشان مش هتتعشوا، أشاره منها الى رحيلها في هذا اليوم ، فبعد أن تناول الإخوان غدائهم، استلقت على فراشها ، ثم طلبت أن يأتوا لها بالشيخ وقالت له:

يا أبى ...شد حيلك فِيَّا، فقال لها أشِدّْ حيلي في مين ياجاريه ؟ قالتلو فيَّ يا بابا، هناك شعر الشيخ أن ظهره قد انقسم، إذ كانت من اشد المعاونين له في خدمه الإخوان، ولم يمض بضع دقائق حتى وافتها المنية في داخل الخدمة، وكانت حاملا وقت وفاتها، فأتى بها في عربه أقلتها الى البيت في الأخصاص، فلما أرادت زوجته حين رأتها أن تصرخ نهرها الشيخ ولكنها لم تتحمل فصعدت الى أعلى البيت (السطوح )وأخذت تصرخ فلا يزال ينهرها ولا تزال تصرخ، فقالت له: حتى ابنتك تمنعني من الصراخ عليها.!!!

وكانت لها جنازه " مشهوره تصاحبها البيارق والأعلام الى مرقدها وقد قصَّ علينا الشيخ صلاح ، وأيدته في ذلك الست أم محسب أن عمتنا جاريه كانت قد طلبت بروحها من سيدنا الحسين ومن السيدة زينب أن يكون لها ضريح ومقام ، وهذا الكلام قد ورد من الشيخ مسعد فى حياته فعقب الشيخ مسعد على هذا الكلام قائلا : فقلت لسيدنا الحسين نحن نحب الخفاء ، وقالت السيدة زينب لعمتنا جاريه : ابوكى مش موافق على هذا الطلب ولا يطلب مقامات أو أضرحه ... ولكن ... يرضيكى أن تكوني معي في مقامي هذا – والكلام للسيدة زينب رضى الله عنها – وتم لها هذا فكان الشيخ صلاح طه، وكانت الست أم محسب لا تذهب لزياره السيدة زينب إلا وتجد عمتها جارية فيه بعد قراءه الفاتحة لها ، وصار ذلك من عادة الإخوان كلما ذهبوا لزياره السيدة زينب يقرؤن الفاتحة لعمتهم جارية

والنظرة العامة التي ينظر بها الإخوان الى عمتنا جارية هي انهم ينظرون اليها على أنها درويشه( مريدة ) اكثر من نظرهم اليها على أنها من بنات الشيخ ’ فكانت تتعامل معهم من هذا المنطلق ويعاملونها من هذا الوجه ، فكانت تصاحبهم في جميع مناسبات الشيخ في الموالد والليالي ، وكانت تقف مع الشيخ في جميع مطالبه وكانت محط مناجاة الإخوان ، وحلقة الوصل بينهم و بينه ، وهى أيضا منظورٌ إليها من جانب الشيخ ، على أنها درويشه اقرب من كونها ابنته فهي مساعده الأيمن وهى موطن عنايته ورعايته، لا من و جه كونها ابنته ، ولكن من وجه كونها كإخوانها في الطريق ، ولها معه أسرار من هذا الجانب ، ذكرنا بعضا منها ، ولا تجد أحدا من الإخوان قد رآها أو عاصرها أو تحدث اليها إلا وله معها ذكرى عزيزة صادفته منها ، وهى أيضا -من بنات الشيخ – التي كانت لها كرامة ظاهره في حياتها وبعد انتقالها ، فكانت بذلك جامعة للشرفين ، الشرف الأول كونها من بنات الشيخ عصباً ، والشرف الثاني كونها من دراويش الشيخ كما ذكرنا.

ومن بنات الشيخ صلبا العمة توحة فقد كان لها نصيبا من سيره الشيخ في أول زواجها ، وفيمن تزوجت به ، وفى سيرته معه حال حياته وفى سردها لأحواله بعد انتقاله ، فأما زواجها فكان بأحد المقربين لدى الشيخ من أبنائه في العهد وهو الشيخ سيد سلامة ، فإن العزم كان قد عقد على زواجها من ابن عمها ولكن حدث لأمر ما نوع من الخلاف أصرَّ الشيخ بعده على ألا يزوجها له ، وقال له من فرط غضبه : أزوجها من واحد بتاع فجل وجرجير ولا أزوجها له ....وكان الشيخ محمد ابوسلامه حاضرا هذا اللقاء ... فالتقط الخيط على الفور واغتنم الفرصة وقال للشيخ.... يا عمى : أنا ...أنا سآتى بِمَشَنَّه أنا واخى سيد، ( المشنه هى إناء مصنوع من الخوص يحمل فيه البضاعة التى ينادى على بيعها ) فيها فجل وجرجير، وكان ذلك تعريضا برغبته في زواج أخيه سيد من ابنه الشيخ توحه ..... وعلم الشيخ مقصوده ، فقال: انتظر يا محمد .... وبعد خمسة عشر يوما وافق الشيخ وقُرِأت الفاتحة .... ثم توجه الشيخ الى عم سيد وقال له : أنت مسمار جحا .... وربما كان معنى هذا أن هذا الزواج هو الذي سيجعلك موصولا بالشيخ على سبيل النسب، فقد صار محسوبا عليهم حسبة أبديَّة لا إنفصام لها ، وبهذا اجتمع للشيخ سيد القرب للشيخ على سبيل العهد وعلى سبيل النسب.

وتم كتب الكتاب بعد ذلك، وفى أول مولد للسيد البدوي بعد كتب الكتاب، اجلس الشيخُ زوج ابنته الى جواره في المولد وقال له .... لم لا تذهب أنت وزوجتك لتزورا شيخ العرب، ... يريد بهذا الاقتراح أن تزول الكلفة بينه وبين زوجته وان يُؤدِمُ الله بينهما .... وكان يقف الى جوارهم سعد أفندي حجازي زوج ابنته الكبرى زوزو ، وكنا قد ذكرنا من قبل بعضا من سيرته مع الشيخ ... وكان هذا الآخر من اشد المقربين الى الشيخ ومن اشد الناس حبا في الشيخ وتفانيا فيه، ... وسمعه سعد أفندي فقال له، عارضاً على الشيخ مسعد أن يذهب معهم ، فقال له الشيخ : لا يا سعد بلاش أنت ... فأصرَّ على الذهاب، فما كان من الشيخ إلا أن قال له ... خلاص روح (إذهب ) ... وكانت هذه الليلة هي الليلة الكبيرة للمولد .... فذهبوا جميعا ... وعند الدخول للمسجد، كان القائمين على المسجد يقفون على بابه، يسمحون لبعض الزوار بالدخول ويمنعون البعض عنه، حتى لا تحدث كثافه شديده داخل المسجد و داخل الضريح، فسمحوا للشيخ سيد وزوجته، ومنعوا سعد أفندي من الدخول، وكأنهم قد سمعوا كلام الشيخ مسعد فأطاعوه ، وأصرُّوا وأصر ...حتى جاء إمام المسجد فأدخله على غير رغبة حُجَّاب الباب....

وحدث أثناء الزيارة أن وجدت عمتنا توحه كيسا بجانب المقام، فقالت لزوجها: ماذا افعل به، فقال لها: دعيه معك، واعرضى الأمر على الشيخ، وعندما عادوا ، قال الشيخ لسعد أفندي، وقد بدا عليه إثر المنع من الزيارة في أول الأمر واضطرابه لذلك ... ألم اقل لك يا سعد لا تذهب .... ثم توجهت توحه الى أبيها ، وأخبرته بخبر الكيس التي وجدته بجوار المقام، فقال لها : أعيديه الى مكانه .... لا يفعلها الكبار ويقع فيها الصغار .

ولا يخفى على القارئ . أن يستقى منها فضيلة طاعة الشيخ دون ردِّه أو مجادلته في أمره ، وبدا ذلك في أمره لسعد أفندي بعدم الذهاب ، ثم قوله لابنته : يعملوها الكبار ويقعوا فيها الصغار، فهذا الكيس قد وجد في مقام شيخ العرب، ولا يعرف على التحديد الحكمة في وجوده ، فربما يكون اختبارَ أمانة لمن صادفه، فينظر ماذا يفعل به ، فيكون وجوده في هذا المكان من أفعال الكبار ، ويكون تصرف من يجده من أفعال الصغار ، إذا آثر الإحتفاظ به .

ثم أنظر كيف أراد الشيخ الأب أن يُؤْدِمَ بين ابنته وزوجها وأن يأتلفا في طريق حياتهما، فيكون إيذانا بتلك المودة والرحمة التي يجعلها الله في قلوبهم.

وبعد انتقال الشيخ لم يغب عنه حال أهل بيته ولا طمأنة ذويه في المواقف الصعبة التي قد تصادفهم فهذا هو الشيخ ناصر في صغره وكان قد أصابه شيء في قلبه استدعى إجراء جراحه مفتوحه في القلب وكان هذا النوع من الجراحات في هذا الوقت من الأشياء التي يُخْشى كثيرا منها وعليها ، إذ كان هذا النوع منه لا يزال في ابتداء أمره وكان الشيخ والإخوان جميعهم في حاله من حالات الاستنفار العام في هذا الوقت ، فحدث أن رأى اربعاً من الإخوان رُؤىً مختلفة للشيخ جاءهم فيها وطلب منهم أن يذهبوا الى أم ناصر ويطمئنوها على ولدها ويخبرونها أن ناصر سوف يمر بسلام من هذه الجراحة وسوف يُشفى بأذن الله من مرضه ، فلا يصيبها القلق ناحيته.

وتكرر هذا الأمر في الجراحة التي أجرتها حنان ابنه الشيخ باهى والتي اُجْرِيَت لها بعد انتقال الشيخ باهى، فقد رأت أم ناصر زوجة الشيخ باهى الشيخ مسعد في رؤيا رأتها يقول لها فيها : يا أم ناصر ... حنان ها تعمل العملية وتقوم منها بخير أن شاء الله.

وفى ليله الجراحة، وحنان مستلقيه على سريرها في المستشفى وكانت والدتها بجوارها واقفه بجانبها ... وكان أمام السرير عمود قائم في غرفتها ... فإذا بحنان ترى الشيخ باهى قائما أمامها متكئا على العمود واضعا يديه خلف ظهره ضاحكا لها... ولكنه لم يتكلم معها .... فطمأنتها أمها وقالت : طب إطمني بقي ... ياحنان ... ونامي.

وكما طمأن الحج مسعد أم ناصر على سلامه ناصر وحنان كذلك كان الشيخ باهى يأتي الى أم ناصر ويطمانها على حنان، وأتى الى كثير من الإخوان في الرؤية ويطلب منهم أن يطمئنوا أم ناصر على حنان.

والشيء الذي ندركه فيما شاهدناه في طريق أهل الله أن الشيخ الكبير لا يترك أبناءه في الطريق بعد انتقاله فلا يزال ناظرا إليهم ممدا لهم، وإذا كان هذا حاله مع أبناء الطريق، فكيف يكون حاله مع أبنائه من صلبه، هذه الكلمات قالها الشيخ صديق في معرض حديثه عن الشيخ باهى بعد انتقال والده، ونقولها نحن في معرض حديثنا عن الشيخ ناصر بعد انتقال والده .

ومن تلك الكرامات التي روتها عنه أمنا أم ناصر تلك الرواية عنه ، والتي كان زمانها أول زواجها من ولده الشيخ باهى فقالت عنها :

حدث في هذا الوقت إني كنت اجد يوميا بعضا من المال في طريقي ، أيا كان هذا الطريق ، ولا يفوتني يوما دون أن أجد المال ، مرة أجد قرشين ومرة اجد ثلاثة ومرة اجد خمسة قروش ، وظللت على هذا الأمر مدة قاربت العامين ، دون أن اخبر أحدا بذلك ، وذات يوم من هذه الأيام وجدت عشرة جنيهات ... وهو مبلغ " كبير في هذا الوقت ... وحدث أن طلب منى الشيخ باهى شيئا من المال فأخرجت حافظتي لأعطيه ما طلبه ، فلمح في حافظتي تلك العشرة جنيهات التي كنت قد وجدتها في طريقي .... ولا أزال احتفظ بهذه العشر جنيهات الى الآن .... فسألها الشيخ باهى عن مصدرها، ولازالا يتجادلان ...حتى أخبرته بالآمر وبالمكان الذي وجدته فيه .... وفى اليوم التالي لإفصاحها عن هذا الأمر لم تجد ما تعودت أن يصادفها، ومر اليوم الثاني والثالث والرابع على هذا المنوال دون أن تجد شيئا .... فأخبرت الشيخ مسعد بهذا الأمر فقال لها: ما الذي جعلك تفصحي عن هذا الأمر ؟ فقالت له: لقد اضطررت الى ذلك ، وحكت له ما كان منها ومن الشيخ باهى في هذا الشأن .... فقال لها: لقد توقف عنك هذا الأمر ... ولكن الله سيرزقك أن شاء الله.

ومضت الأيام مع الشيخ( والكلام لأم ناصر )، وفى ليله من احدى ليالي هذه الأيام رأيت رؤيا مفادها: أنني رأيت عمودا من نور قائما في غرفتي بين الأرض والسماء مخترقا سقف الغرفة، له ضوء يكاد سناه يذهب بالأبصار مالئاً غرفتي بنور لا أتمكن من وصفه... فهالني ما رأيت وارتعبت من وقعه علىّْ .... ثم وجدت رجلا ينظر الى ويقول : لا تخافي ... لا تخافي ... ثم نظرت الى هذا الرجل فوجدته مذبوحا من رقبته ... فلما استيقظت في الصباح،ذهبت الى خالي الحاج مسعد ( إذ كان شقيق والدتها )وجلسْت الى جواره فنظر الىَّ وقال : احكى بقة ... شفتي أيه ...؟ فقصصت عليه رؤياي .... فقال لها فرحا مستبشر: أوعى تقولي لحد !!!، وكانت هذه أول مر منذ لقائها مع عمى الحاج مسعد تحكى عن هذه الرؤية ويخبر بها...

وكان تأويل هذه الرؤيا أن العمود المنير النازل من السماء هو نور النبي صلى الله عليه وسلم وان الرجل المذبوح هو مولانا سيدنا الحسين.

وفى ليله أخرى من الليالي شاهدْتُ (والكلام لأم ناصر) وكأنى في زيارة لسيدنا الحسين ، فقيل لي أن الباب مغلق ، ووقفَت على مقربه منه، فوجدت قنايه ماء ممتدة بجوار سيدنا الحسين ، ثم رأيت بابا صغير قد فتح وأحدهم واقف على هذا الباب مناديا علىّْ فقلت له : أتنادى على !!! قال نعم فقلت له: ليه؟ فقال: مش انتى جايه تزوري سيدنا الحسين؟ فقلت له: ما أهو أنا رحت على الباب وقالولى ... مقفول .... فقالي : طيب تعالى ... أنا فتحت ليكي الباب ده عشان تدخلي ... فقلت له ، لا استطيع أن اعبر قناه الماء الفاصلة بيني وبينك ، فأخذ الرجل بيدي ، وشدني من طرف القناه الى الطرف الأخر ، وأدخلني من الباب ، وكان الباب قصير ، وتعجبت في نفسى كيف اعبر منه برغم قِصَرِه ، فعبرت منه الى الداخل ، فلما دخلت رأيت جميع دراويش الشيخ مجتمعين داخل المكان الذى دخلت فيه ، فتعجبت من ذلك وقلت لهم : انتم قاعدين هنا، وأنا جيت ادخل لقيت الباب مقفول فقالوا لي : طب ياست ، ما هم بعتولك سيدى إبراهيم ، هو الى فتح لك أهو ... فلما قصصت على عمى الحاج مسعد ما أريته قال لي : اتعرفين من فتح لك هذا الباب ... انه سيدك إبراهيم الدسوقي. !!! ثم قال لها: طب الحمد لله.

وفى ليلة أخرى من الليالي رأيت في نومى أن البيت الذى يقيم فيه الشيخ قد تحول الى ساحه كبيره متسعه ، وفى أخر هذه الساحة ثلاثة أفران ، يقف على كل فرن منه سيدة تقوم على صناعه الخبز من الفرن أمامها ... وأنا أذهب اليهم واستلم منهم الخبز واضعه على رأسى ، ثم اذهب به الى الدراويش الجالسين في هذه الساحة فأعطى لكل واحد منهم رغيفا من هذا الخبز ، وهكذا ، ثم وجدت في جانب من هذه الساحة باب ، وجدت عليه احدهم ينادى علىّْ ، وكان هذا الرجل متوسط الطول مرتديا جلبابا ابيض وطاقية بيضاء وفى يده سبحة ... فقلت له : لم تنادى على ؟ فقال لي: يالا عشان هانْطَلَّعْ أبو عبده ( أي أننا ذاهبون لدفنه ) وهو رجل من بلدةٍ يقال لها الشرفا ، فقلت له : مالي ومال أبو عبده، انه ليس من قرابتى ولا عائلتي، فقال لي: أنا مليش دعوا ... أنا عبد المأمور وخلاص ... فقلت له: أديك شايف إحنا بنخبز وبنوزع العيش .... والشيخ باهى كمان مش هنا .... فظهر لنا الشيخ باهى فقال لها: خلَّصي يا عفاف .... وروحي معاه، فقلت له: طب وأنت؟ ... قالي : أنا هاجى بردو ، فانتظرها الرجل الى أن أتمت الخبز والتوزيع ، وظل واقفا على هذا الباب الى أن انتهت من عملها ، فقال لها : هلم بنا ... وكانت هناك عربه لتقللني الى مكان الدفن ، وكان هناك أتوبيس يأخذ الأخرين الى مكانه ، فقلت له : إن مكان الدفن في الجبل وهو قريب ولا يستدعى وجود عربات أو أتوبيسات، فقال لي : انه سيدفن في مكان أخر ، فليس كل الرؤوس تدفن هنا ...بل سيدفنونه في القدس ، فلما أن أردت الذهاب الى مكان الدفن ، ذهبت الى الأتوبيس مع نفر من النساء ، فوجدت هذا الرجل على باب الأتوبيس يمنعني من صعوده ،ويقول لي :إن هذا الأتوبيس ... ليس مكانك إن مكانك تلك العربية الواقفة أمامك .... فركبت مع الرجل وسرنا طريقا طويلا ... وفى الأخر رأينا مسجدا ووقفنا أمامه و قال لي: هاتصلى؟ ... فقلت له: أن شاء الله هصلى .... فدخلت فتوضأت ثم صليت ... ثم قال لي الرجل:

معاكي سبحة؟ فقلت له: أيوه ... قاللى: فين.. قلت له: في جيبي أهو ... أنا معايا سبحتي مديهالى خالي مسعد ... أنا شيلاها في البيت .... مَبَطَلَّعَهَاش ... قاللى: شايلاها فين؟ ... قلت له: أنا شيلاها ... قال لي حرَّصى عليها ، قلت له: أنا حاطَّاها في علبه ...داخل صندوق خشب ... فقال لي أوعى تفرطي فيها ، وكرر ذلك ثلاث مرات...

وتم دفن الميت في القدس.

وبعد هذه الرؤية بسنوات طوال، ذهبت للحج – والكلام لأم ناصر – وذهبنا لزيارة المزارات ، فكأنما نفس الطريق الذي سرت به في الرؤيا هو نفس طريق المزارات التي زرتها في الحج، ونفس الجامع الذي رايته في الرؤيا هو ذات المسجد وهو المسجد الذي أقامه النبي صلى الله عليه وسلم في أول نزوله المدينة وهو مسجد قباء الذى هو أول مسجد بنى فى الإسلام ، ولما نزلت هذا المسجد في الحج .... قلت في نفسي لقد رأيت هذا المسجد من قبل ... ولكن أين؟ وفى هذه اللحظة بالذات تذكرت هذه الرؤيا، وكنت قد نسيتها طوال هذه الفترة من وقت رؤيتي إياها الى أن شاهدت المسجد خلال رحلتي للحج وقد مرَّ أكثر من ثلاثين سنه بين رؤيتي لهذه الرؤية وبين مشاهدتي للمسجد خلال الحج، وتعجبت من هذا الذي حدث ومن تذكري إياها بعد هذه المدة الطويلة.

ولا زلت سبحه الحاج مسعد معي الى الآن لا أخرجها من مكانها ألا في فتره الحج والعمرة .

وعلى نفس النسق الذى نجمع فيه بين سيره الحج مسعد وسيره الشيخ باهى ، في هذا الجزء الذى يتناول أهل بيت الشيخ وأولاده ، تحكى لنا أم ناصر عن موقف لها بعد انتقال الشيخ ....تقول في احدى أيام مولد سيدنا الحسين ، والشيخ باهى في حال التأهب للذهاب ، وكانت العادة أن نذهب سويا الى المولد ، وناصر لا يزل صغيرا إلا أنى آثرت أن أبقى في البيت ولا أصاحب الشيخ باهى في ذهابي ، إذ كان بيني وبينه شيء من الخلاف ، فلما عرض على الذهاب معه رفضت ، فترك لي عشره جنيهات وقال لي : إذا أردت الحضور فأحضرى معك ناصر وتعالى المولد ، وانصرف الشيخ باهى في سبيله.

وفى اليوم التالي لهذه الواقعة ، ونحن جلوس في البيت ، نتناول طعام الإفطار ، إذا بجلبه شديده وصراخ من خارج المنزل ... ونظرنا ... فإذا برجل نعرفه في البلد، وهو رجل مسكين لم يتزوج بعد ، يقتات على ما يبيعه من الخضار الذى يطوف به في البلد ، وإذا برجل أخر غريب عن البلد ، وقد أمسك هذا الرجل المسكين ضاربا إياه بالبلغة ( وهو نوع بسيط من أحذية القدم ) وما حوله من الناس لا يمنعونه من ضربه ، واكتفوا بمشاهدة الواقعة ، وكأنما ابن بلدتهم غريب هو الأخر عنهم، فأخذتني الغيرة على هذا الرجل المسكين ، المفترض أن يكون في حِمانا ، فلما شاهدت ذلك نزلت مسرعة الى خارج المنزل ، وجذبت الرجل الغريب من جلبابه وقلت له : أنت رجل غريب وجاي بلدنا تضرب راجل من البلد ... فنظر الى الرجل وقال لي طيب .. لما أنت كده بتدافعي عنه ....طب ادفعى الى عليه .... فقلت له عليه أيه؟ ...فقال عشره جنيهات فأخرجت تلك العشرة جنيهات التي كان الشيخ باهى قد تركها لي لأجل الذهاب الى المولد، ثم قلت له إياك أن أرى وجهك مرة أخرى في البلد.. ووقف الرجل مندهشا من تصرفها.. وسأل من كانت تقف الى جواره.... عن هذه السيدة ، فقيل له : أنها زوجه الشيخ باهى ... فقال لها: هذه السيد قد عظمت في نظري وإن كانت قد سبَّتني واستهزأت بي . وبعد هذه الواقعة ... نظرت في نفسي... لقد ضاعت العشرة جنيهات التي كنت سأذهب بها الى المولد ... فسلمت امرى الى الله ... وإن كان في نيتي أن أذهب الى المولد...

ولكن قدر الله وما شاء فعل ، ولكن حدث مالم يكن في الحسبان : كان لنا أخ في الطريق اسمه مصطفى عبدالله معه عربيه ملاكي وكانت لنا أخت في الطريق اسمها أم إبراهيم المجذوبة وكان مصطفى عبدالله يطيعها في كل ما تأمر به ، فإذا قالت له : يالا ياواد يا مصطفى وديني شيخ العرب ... فيسارع الى طاعتها ويذهب بها حيث أمرته مهما كانت ظروفه ... فلابد له من طاعتها والائتمار بأمرها ، وحدث في أثناء حضورها هذا المولد الذى ذهب الشيخ باهى اليه بمفرده دون مصاحبه أم ناصر ... أن قالت لمصطفى عبدالله : يا واد يا مصطفى... عمى الحاج مسعد جانى .. وقالي : روحوا هاتوا عفاف م البيت ... قالها : طب مقلناش لعمى الشيخ باهى ... فقالت له : لا ... ما احننا مش هنقوله ... عمى الحاج مسعد إللى أمرنا بكد ... وقالي: ها تفطروا بقُرَصْ ولبن ... وهاتوها من البيت وتعالوا، ثم تواصل أم ناصر حديثها : وفى صباح اليوم التالي، بعد الفجر مباشره، سمعت طرق الباب ، فقلت ... مين؟ فقال الطارق: افتحى الباب يامرات عمى ... أنا مصطفى عبد الله... نزلت فتحتلهم ودخلوا في المندرة ...خمس دقائق أجيب لكم فطار .... عشان تغيروا ريقكم ... وكان عندنا قُرَصْ ... وسخنت لبن ونزلت لهم القرص بالبن ... فلما أرت أم إبراهيم ذلك ... نظرت الى مصطفى، مشيره الى اللبن والقرص ... وقالتلوا : واد يا مصطفى ... مش قلتلك ... قالها : ماشي يا أم إبراهيم.

ثم توجه مصطفى عبدالله الىَّ ( والكلام لأم ناصر ) وقالي ... ياللا بقى عشان تروح سيدنا الحسين ...قلتلوا ...لا ... عشان واحدة من أخواتي عيانه قال لها : ده عمى الشيخ باهى اللي باعتنا وقلنا : ماتسيبوهاش إلا لما تيجى معاكم ... وكان ذلك في الليلة الكبيرة... قلت لهم : إنهارده هاروح أشوف اختى ... واطلع من المستشفى على الليلة الكبير ، التي كان الشيخ باهى يقيمها على سطح العمارة المقابلة للباب الأخضر عند سيدنا الحسين ،فقال لي : و الله العظيم ما ننتقل إلا إذا جيتي معانا ... وبعد الحاح شديد ، وافقت ، وصعدت لارتداء ملابسي ، حتى لا ينكشف أمر الخلاف بيني وبين الشيخ باهى. .. لما ذهبت المولد دخلت شقه عمتي زوزو ابنة الشيخ الكبير ..... إذ كانت قاطنه في ذات العمار، التي يقيمون فيها المولد ... وكان الشيخ باهى نائما في الشقة، فلما استيقظ وجدني أمامه ... وكان الشيخ من قبل قد اتفق مع الحاجة صباح – وهي احدى أخواتنا الكرام – أن تذهب هي والحاج نعيم – وهو أيضا من إخواننا الأعزاء على القلوب – ويذهبوا لإحضاري من البلد ...فلما رآها الشيخ باهى ... قال لها ...إيه ده ... أنتي جيتي مع مين ... قلتلو أنا جيت مع مصطفى عبد الله ...فوجه كلامه الى مصطفى ، وقال له : أنت جيت امتى يامصطفى ؟ ...فقص عليه قصه ذهابكم الى الأخصاص وإحضارهم لي.

ثم صعدت على سطح العمارة مكان الخدمة وما أن جلست بين الأخوان وكان منهم غريب واحمد أبو راشد وسيد عبد العزيز، وأبو العلا وكانت جلستهم في مقابله السلم الصاعد الى السطح، وما إن جلست بينهم حتى وجدت رجلا يصعد على درجات السلم وقد أعياه الصعود، ماسكاً بيده اليمنى عصا يتكؤ عليها وماسك بيده اليسرى ( تربزين السلم )... فقلت لغريب : هات الرجل الغريب الى طالع على السلم ده .... فلما ساعده على الصعود أراد أن يذهب به الى داخل الخدمة مكان جلوس الشيخ باهى بين الإخوان ... فقال له الرجل ... مودينى فين؟ ... جتلك نصيبه تخدك ...قالوا ... أنا موديك عند الشيخ، ...قالوا ... ومين قالك إن أنا عايز الشيخ؟ ... قاله ... أمال أنت جاي لمين ... قالوه .... أنا جاي للولية دي... وأشار الىّْ ...قاله ... تعرفها منين؟ ... قاله ... معرفهاش ... بس أنا جايلها ... قلت له ... طب تعالى ياعمى الحاج ... تعالى ... وجلس الى جواري ...ثم سألني ... عندكم قهوة ... فقلت له عندنا قهوة وشاي وعندنا أكل كمان .... قالي لا ... اناعايز أشرب فنجان قهوة ... ثم نظرت اليه فإذا به قابضا يده على مبلغا من المال فأعطاه لي ... فنظرت الى المبلغ فوجدته خمسون جنيها ، خمس ورقات كل ورقه منة عشر جنيهات ...قلتلو استني ... دا أنا اللي هاديك .... قال لي ...لا ... ده مش من عندي .... ده رسالة أنا جاي بيها ...قلت له ... فين الرسالة؟ .... قال دي حاجة ما قدرش أكلم فيها ، ... قلتله.. طب أنت تعرفني؟ ... قالي ... أنا مش عايز أعرفك ... ماليش دعوا ... فربطت في نفسي بين ذلك الموقف الذي كان لي مع الرجل في البلد وأنفاقي العشر جنيهات في سبيلة وبين هذا المبلغ الذي ورد الى، وقلت في نفسي ... هذه بتلك.

ولعلنا إذا نظرنا الى هذه الرواية، نجدها وقد امتلأت بالكثير من مفاتيح أخلاق هؤلاء القوم الذين هم أهل الله، فهذا هو بيت الشيخ المتواضع في النفقة، القائم على الكفاف لتلك الدرجة التي لم يكن مع ربه البيت سوى مقدار ما يعينها على نفقه الوصول الى مكان المولد، وهم مع هذا لا يألون جهدا في استضافه الإخوان والقيام على شئونهم فكان رزقهم كفافهم وكفاف أبنائهم من أهل الله وكان هذا دأبهم ودأب إخوانهم.

وانظر الى شهامة زوجه الشيخ، فإنها ربيبه الشيخ والشاربة من أخلاقه وشهامته ودفاعه عن الضعيف والمسكين والمظلوم وانظر الى كرمها الذي كان من فيض ما تربت عليه، والذي كان منه أن أنفقت كل ما لديها من مال في سبيل الحق ولم تبال ما يحدث بعده ، ثم انظر الى رعاية الشيخ الكبير بعد انتقاله ونظرة ومدده لا بنائه ثم أنظر الى تلك الرعاية التي لا زالت تنالهم منه بعد الانتقال وكأنه معهم لم يبارحهم.

ثم انظر الى شفافية الإخوان وصفاء بصائرهم المتجلي في أم إبراهيم المجذوبة التي كانت محلا لتجلى الشيخ عليها بما طلبه منه مستشعرًا من هذا المشهد أن الأمر ليس متروكا للصدفة ، فإن الرعاية قائمه، ولهم أعوان هم أسباب هذه الرعاية و وسائلهم الى أولادهم بها ، ثم انظر الى خضوع الإخوان لبعضهم وكون أحدهم خدما لبعضهم ، فالبعض للبعض وان لم يشعروا خدم ، ولم تكن تلك المحبة من قهر واستبداد من المخدوم ، أنما هي من نتاج الحب الذى رأوه من شيخهم الذى بدأ برسائل محبته لهم ، ثم انتقل اليهم فأحبوه ثم تبادل الإخوان تلك المحبة بعضهم لبعض ، ولقد تجلى هذا الأمر في خضوع مصطفى عبدالله لمطالب أخته أم إبراهيم المجذوبة ، ومثل ذلك ماحدث ذات يوم حين نظر الشيخ باهى رحمه الله الى أم جمال ، وهى أخت غاليه علينا... وكانت تصنع الطعام وكان يبدو عليها الإرهاق والتعب في القيام به ، ثم نظر الىَّ وقال لي أترى ، ما الذى دفعها أن تتعب في هذا الشأن وتنال به هذا القدر من النصب والإرهاق ؟ .... فسكت ... وكأنما يريد الشيخ باهى أن يجيب على هذا السؤال بنفسه قائلا ... انه الحب ... أما ترى قول القائل ... الله محبه .... هذه المحبة هي تلك المحبة التي نشاهدها الإن.

ثم أنظر الى صنائع المعروف وأن المعروف، وديعة، لا تضيع عند الناظر لها والعارف بها ، وهو الحق ، وأن المعروف على مدد صاحبة، فجاء المعروف من أم ناصر على الرجل الضعيف، بعشرة جنيهات ثم جاء المعروف من الحق بخمسين جنيها.

ثم أنظر الى أمانه الرجل الكبير الذي ساق المعروف الى صاحبة وكان رسولا بحق، يؤدى حق المرسل والمرسل اليه وانظر الى كتمانه وسترة لحقيقه وشخصيه المرسل منه.

ثم انظر الى الشيخ باهى في محبته لزوجته التي احتال في إرضائها فطلب من أحدهم أن يذهب إليها في الأخصاص ليحضرها جبرا لخاطرها الإ أن عمى الحاج مسعد كان قد سبقه في ذلك، والحقيقة أنها ذرية" بعضها من بعض ".

ورغم طول الرواية إلا أننا أوجزناها ولم نرد أن نطيل في عبارتها وإن كانت تحتاج الى الكثير من الكلام لاستيفاء حقها ، وهى وإن كانت رواية عابرة ، إلا أنها تَعْبُرُ الى المريد فتصفى أخلاقة وتُعلى مقامه ومقداره ورتبته، ولا شيء في الوجود قائم على الصدفة ، فإن الأمر تحليل وتفصيل وتدبير وحكمة ، ولقد جاء ذكرنا لأختنا أم إبراهيم المجذوبة ، ومصطفى عبدالله ، في الرواية السابقة ، ولعل الأفق أن تذكر نبذة مختصرة عنها وعنه في هذا المكان ، إذا جاء ذكرها حينما قلنا أن عم الحاج مسعد قد جاء اليها في الرؤيا وطلب منها أن تذهب هي ومصطفى عبدالله الى زوجه الشيخ باهى في الأخصاص وتأتى بها الى المولد، وقد ذكرنا تفصيل ذلك.

هذه السيد كانت متزوجة ولها ولد من زوجها إسمه إبراهيم ، ثم حدث أن ذهبت لزيارة السيدة زينب رضى الله عنها، فشعرت وكأنما سلك كهربائي قد خرج من الضريح متوجها نحوها ودخل في قلبها ، هكذا رأته أثناء قراءتها الفاتحة في الضريح، فلما حدث ذلك ارتعش جسمها وذهل عقلها ، وصارت مجذوبة لأحوال الطريق، فتركت زوجها وولدها ، وطافت بالموالد و الليالي خلف المشايخ والمقامات ، وكانت لها أحوال غريبه ، لا يتحملها العقل ولا يضبطها المنطق ، ثم التقت بمصطفى عبدالله، وكان هو الأخر غريب الأطوار عجيب الأحوال ، فالتقيا على صفه واحدة ، وتجاذبا لإتحاد صفتيهما ، فلا تكاد ترى مصطفى عبدالله إلا وفى صحبته أم إبراهيم المجذوبة، فكان يذهب بها الى أي مكان تطلبه في زيارات أهل البيت وفى الموالد و في ليالي الإخوان، في أي وقت من ليل أو نهار وكأنَّه مسخر لها لقضاء مطالبها ، وكان مصطفى عبدالله وحيد أبويه ، فأرادا أن يتزوج كي يطمئنها عليه وعلى أحواله ، ولكن ارتباطه بأم إبراهيم وهى السيدة المسنة التي تكبره بسنوات كثيره ، قد حال بينه وبين ما يرغب والده فيه ، فلما شكوا للشيخ هذا الأمر ، حبس أم إبراهيم عنه داخل الخدمة ، فكانت تحاول الخروج فلما منعوها منه أخذت تلقى الورق المشتعل على الجالسين في الخدمة ، و تلقى عليهم الماء ، و تريق الماء على الأرض ، فتمنع الإخوان من الجلوس عليها ، واستمر الأمر على ذلك حتى تزوج مصطفى عبدالله ، ولكن لم يمنعه زواجه عن مصاحبة أم إبراهيم في أي مكان تكون فيه وأن يكون تحت طلبها في أي شيء تريده منه ، ولا تفسير لمثل هذه الصحبة إلا أنها صحبة الأرواح لا صحبه الأشباح ، فثمة امر مشترك يجمع بينهما ، تلك الأرواح التي انجذبت لأهل البيت وصحبه الأولياء ومصاحبة الإخوان ، وإذا كانا وهما على هذا الحال ، لا يستطيعان التحكم فيما شعرا به ،فهما في حكم المجاذيب ، فكيف تطلب منا أرباب الظواهر أن نفسر هذه الظاهرة وقد أسميناها ظاهرة ، فَدَعْ باطن هذا الظاهر لأصحاب دولة الباطن. ... ولرب الظاهر والباطن.. انه هو اللطيف الخبير.

العهد والفاتحة بين المريد والشيخ

حدثنا الراوى أن صوره العهد الذي كان يأخذه على أولاده هو الطعام والشراب الذي يأكله ويشربه المريد في بيت الشيخ وهو في نيته أن يكون له مريد ، وكان كثيرا ما يقول: أن من اكل طعامي وشرب من مائي فهو على عهدي، فلم يحدث فيمن عاصروه ولا من عاصروا وريثه، أن رآهم قد وضعوا أيديهم في أيدي مريديهم أخذين العهد منهم، أو انه قرا الفاتحة على هذه البيعة ... هكذا كان عهدهم مع أولادهم.

والعهد على عمومه إنما هو صورة من صور المبايعة بين المريد والشيخ ، مثل تلك البيعة التى بايعها رسول الله مع المهاجرين والأنصار ، حين قال لهم : ( بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب فى الدنيا فهو كفَّارة ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، ثم ستره الله ، فهو إلى الله ، إن شاء الله عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ) ،

ولقد بارك الله مثل هذا النوع من المبايعات فقال سبحانه ( لقد لقد رضى الله عن المؤمنين ، إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم مافى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ) ، وقال : ( إن الذين يبايعونك ، إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيهم، فمن نكث فإنما ينكث عن نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله ، فسيؤتيه أجرا عظيما )

والصورة التى ذكرناها فى عهد ومبايعة الشيخ مسعد ، من أن الطعام والشراب فى البيت هو صورة المبايعة ، ليس بمستغرب فى أعراف الناس وفى سننهم المعهودة ، فإنهم يشيرون إليها بمصطلح ( العيش والملح ) لأن العيش والملح إشارة الى نقاء السريرة وصفاء الطوية بيت المتآكلين وإشارة الى إتفاق الأطراف على فحوى بنود المبايعة ، ولا مبايعة بين الشيخ والمريد إلا فى بنود ماطلبه الشرع منهم ، والتى أبانها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى مبايعته مع المهاجرين والأنصار .

وعلى العموم فإن صور المبايعة تتخذ صورا متعددة ، مادام أساسها طاعة

الله ورسوله ، فهى بيعةٌ لله تعالى ، فمن صور البيعة مثلا الجهاد فى سبيل الله ، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ( من سلَّ سيفه فى سبيل الله ، فقد بايع الله ) ، ومن صور البيعة إستلامنا للحجر الأسود ، فإن الحجر الأسود هو يمين الله فى الأرض ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحجر الأسود ( والله ليبعثه الله يوم القيامة ، له عينان ينظر بها ، ولسان ينطق به ، يشهد على من إستلمه بالحق ، فمن إستلمه فقد بايع الله ورسوله ) ، يقول الحق ؛ ( إن الذين يبايعونك ، إنما يبايعون الله ورسوله ، يد الله فوق أيديهم ) ...... فكيفما كانت صورة المبايعة فهى مبايعة بين العبد وربه .

أما الكلام عن الفاتحة ولا نقصد به قراءه الفاتحة ، وإنما نقصد به ما يطلقون عليه عُرفا على ذلك المبلغ من المال الذى يعطيه المريد للشيخ أو القائم على الطعام أو الشراب أو الخدمة في موطن خدمه الشيخ ، وهو مبلغ من المال غير مقيد بكمية قليلة أو كثيرة ، ويعطيه طواعية غير مجبور عليه ، ولا يدخل هذا المال تحت مرتبه الصدقة أو الزكاة أو الفيء أو خلافه ، أنما هو مال له مذاق خاص وله هيئه مستقلة ، وهو موضوع شائك قد تتناوله العقول الضعيفة من غير أهل الطريق بالشك أو الريبة، أما أهل الطريق فانهم يؤدونه بنفوس وافره الثقة مطمئنه الدَخَل لا يساورها فيها ادنى شك أو ريبه ، ويعرفون القصد منه .

ولقد سُئِل الشيخ مسعد عن هذا المال فلم يزيد عن قوله إنه تطهير لأدران النفس وتنظيف لما بداخلها من شوائب، فإذا أردنا أن نغوص قليلا في معناه ، فلنبدأ بسؤال نلقيه على انفسنا لا لأجل استعلامنا عنه،وإنما لأجل طمأنة غيرنا من غير أهل طريقنا على المقصود منه ، فنقول**: هل يحتاج الأشياخ الى أموال أولادهم ؟.** ونجيب عليهم أجابه قاطعه بالنفي القاطع : وكيف يحتاجون اليه وهم أهل الله الربانيين الذين إذا أرادوا كانت لهم الدنيا وما فيها وما عليها وهم الذين إذا قالو للشيء كن فيكون وهم الذين يعلمون من أسرار الله وأسرار أسمائه ما إذا قرأوه على أخس معادن الأرض لأنقلب ذهبا وهم العارفون بأسرار الكلمات والحروف والأعداد وأسماء الملائكة والأسماء الفعالة في الكون وتحت أيديهم عوالم الأرض من الجن والأنس، وهم المطاعون من أجناس الأرض، ولو حصل لك الاطلاع على حقيقتهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا.

وكيف يحتاجون اليه، وهم على درب نبيهم وعلى أخلاقه، حين قال لعائشة رضى الله عنها (يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الدهب) وقوله صلى الله عليه وسلم:( عرض على ربى ليجعل بطحاء مكة ذهبا، فقلت لا يارب، ولكنى أجوع يوما واشبع يوما، فإذا شبعت حمدتك وشكرتك، وإذا جعت تضرعت اليك ودعوتك.) ، وكيف يحتاجون اليه، وهم المتخلقون بأخلاق النبي في كفاف عيشهم وتواضع أرزاقهم، حين قال:( اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا) وكثير من مثل هذا تمتلئ به كتب السيرة .

وكيف يحتاجون اليه ومثلهم كمثل عم الحج مسعد الذي أنفق جميع ما يملكه وأنفق ميراثه من والده الذي زاد على الخمسة والثلاثين فدان على أبنائه في الطريق وفى سبيل الله، ولو كان هذا طبعه لما أتفق خردلة من ماله فى سبيل الله .

وكيف يحتاجون اليه وقد بلغ من فرط توكل الشيخ أن كانت ابنته الكبرى جاريه تجد تحت وسادتها كل يوم ما يكفيها ويكفي أبيها ويكفي بيت أبيها ويكفي زواره من الأبناء في الله، فضلا من الله ووهبا منه وقد ذكرنا ذلك في سيرته ، فهكذا دأبه من الله أن يرزقه من حيث لا يحتسب .

وكيف يحتاجون اليه وقد جعل الله لزوجه ابنه أم ناصر أن تجد تحت قدميها يوميا على مدار السنوات مبلغا من المال أنَّى ذهبت ، وهباً من الله دون أن يكون لها تَعَمُلٌ في ذلك ، كل ذلك من فرط التوكل والأيمان والثقة في الله.

وكيف يحتاجون اليه ومثلهم كمثل الشيخ، الذي كان إذا أدخل يده في جيبه يجد ما ينفقه على من ينفقه عليه، دون الحاجة الى سؤال أحد، ولا مصدر له إلا كرم الله وفيضه عليه وجوده له. وكيف يحتاجون اليه وهم المنسوبون الى أهل البيت الذين لا تجوز فيهم الصدقات والزكوات ولسنا في الزمن الذي نجد فيه غنائم حروب الكفار ولا فيئهم.

فعرفنا مما سبق أن هذا المال لا يذهب الى خصوص مصالحهم و لا أحوال نفوسهم فلم يبق إلا أن نقول أن المقصود بهذا المال هو المريد في نفسه ، وليس المقصود منه نفعا ماديا موجها اليهم وإنما هو معنا داخليا يحصل في صدور المريدون و تظهر به نفوسهم ، فإن المال في ذاته مرتبط بالكثير من العلل والأمراض النفسية التي تعوق المريد من الوصول في طريق الله ، فأن طلب المال يورث الحرص عليه ثم يؤدى الى كنزه ، والسبب في هذا الحرص إنما هو الخوف من الفقر الناتج من عدم الثقة في الرزَّأق الضامن له ، والخلل في الثقة بُعدٌ للمريد عن طريق التفويض والتوكل ، وكل ذلك يؤدى الى البخل والشح ثم يؤدى الى الأقتار في الأنفاق على الفقراء والمساكين ، فيؤدى به في نهاية المطاف الى معصيته الله وعدم إطاعته ، والمعصية هي المانعة من الوصول ، ولهذا أطلق على العطاء مصطلح (الفاتحة ) وهو من مصطلحات الصوفية ، لأنه ببذل المريد للمال تُفَتَّحُ له أبواب الطريق فيسعى في المراتب والمقامات ، فأول الفتح للمريد بذل المال .

ثم انه لابد لهذا المال من مصرف يتوجه اليه ، وللفاتحة مصرفان ، مصرف ظاهري و مصرف باطني ،فأما المصرف الظاهري فهو الأنفاق منه على مطالب الإخوان في الخدمات ولوازم الضيافة وللغرباء عنهم من مأكل ومشرب ومفرش للخدمات أوما شابه ذلك ، وأما المصرف الباطن فهو تنقيه النفس من شوائبها وتطهيرها من البخل والغل والنظر الى الغير والحرص والحسد ، لأن المال من الأمور التي يَحْسِدُ الناسُ بعضهم بعضا في شأنها ، ويُورثُ الحقدَ على من كان لديه المال ، والغرور والتباهي بكثرته ، و التنابز بالألقاب في شأنه ، وقطيعة الأرحام الناتجة من الخوف على صرف المال عليهم ، وقد يؤدى بهم إذا تمادوا في ذلك الى السرقة والقتل من أجله ، وغير ذلك من مصارف السوء .

ولهذا لا يُحبُ الشيخ الكامل من أبناءه أن تكون هناك معاملات ماديه فيما بين بعضهم البعض ، فلا يحب منهم المشاركة في التجارة ولا عقد الصفقات ولا الاقتراض بعضهم من بعض ، ولا حتى الكلام عن المال والانخراط في لوازمه ، لأنهم ما تركوا أحوال الناس من خارج ألا هروبا منها ، الى هؤلاء الذين لا يرجون إلا لقاء الله والسير في طريقه ، فلم يهربوا من الدنيا ليجدو الدنيا في جوار شيخهم ، يقول الحق ( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم ) لأن المقصود من سلوك الطريق هو اقتلاع محبه المال من القلوب، وزوال شوكته ، وتأصيله في نفوسهم، واقتلاع محبه المال من القلب هو سبيل السالك الى القرب الإلهي، وأما تأصيل محبته فهو المانع من الوصول، ولهذا كما قلنا ، تسمت الفاتحة بفاتحة الطريق.

ولذلك تجدُ أن أشد ما يحزن الشيخ أن يجد الخلاف قد شبَّ بين الأفراد من الإخوان ، ولا خلاف إلا في أسباب الدنيا ولا أسباب اقوى من المال ، فأراد الأشياخ أن يقطعوا على مريديهم علائق الدنيا ، فيتبدى لهم الطريق الى الآخرة .

نظر عم الحج مسعد الى الشيخ صديق ذات مرة وكان مَقْتُور المال مُضَيَّقا عليه في هذا الوقت ، وقال له: أين فاتحتي يا شيخ صديق؟ ... وهو يعلم حاله، ثم لم ينتظر أجابته، وقال له: سوف يفتح الله عليك في المال ، ولكن إذا كان لك فتحٌ فيه فلا تنس فاتحتي.

وفى أثناء عودة الشيخ صديق الى منزله قابل من قابل، من أصدقائه القدامى فعرض عليه عملا في مكتب للسفريات، وهي من الأعمال التي تدرُ ربحاً وفيرا... وبدأ العمل في ذات اليوم الذي قابل فيه الشيخ ، وكسب من عمله في هذا اليوم فوق خمسمائة جنيه ، وبعد عده أيام ذهب الى الشيخ في الأخصاص ( وهى بلدة الشيخ) ، ووجده جالسا خارج منزله، وكان قد أعد مالاً يعطيه للشيخ ( فاتحة ) وهو مائه جنيه ، ومالا يحبسه في جيبة ، وهو ثلاثمائة جنيها ينفق منه، فلما سأله الشيخ: أين فاتحتي فأخرج من جيبه المائة جنيه التي كان قد أعدها لهذا الغرض ... فقال له الشيخ .... وأين المال الذي تضعه في الجانب الأخر، يقصد المال الذي ادخرته وهو الثلاثمائة جنيها .... هنالك ضحك الشيخ صديق، ضحكه تمتلئ بالمحبة لشيخه، مشيراً بها أنه ألا يُجْدي أن تستر عن الشيخ شيء ، فأعطاها له في مزيد حب وامتلاء رضا واكتمال فرحه بشيخه العارف ثم قال له: طب.... أقرا الفاتحة لعمك .... وأسيادنا أهل البيت إن ربنا يوسع رزقك أكثر وأكثر.

**الشيخ مع مريديه**

**ومع المريدين من أبناء الطرق الأخرى**

**ومع العوام**

كان يوم الحضرة يوما مشهودا لدى أبناء الشيخ ، يجتمعون فيه مع شيخهم ويتسامرون في ما بينهم ويتحادثون عن أحوالهم الروحية و نوادرهم فيما بينهم وبين شيخهم ، وحدث أن كان يوما من أيام الحضرة وقد امتلأت القاعة ( المندرة ) عن أخرها بالإخوان ، وهم في حضرة الشيخ ، وإذا برجل يدخل عليهم ويلقى السلام على الشيخ ، فقام الشيخ له واستقبله بحفاوة بالغة ووضع له الطعام فأكل ، ثم لا حظ الشيخ أن الرجل قد دسَّ رغيفا مما أمامه من الخبز في جيبه ، فأشار اليه الشيخ ألا يفعل ، وقال له : كُلْ ولا تأخذ شيئا في جيبك ، فقال الرجل : يا سيدنا رغيف واحد أحتفظ به ، فقال له لا ، ثم قام الرجل وانصرف من حضرة الشيخ ، فلما انصرف التفت الشيخ الى أبنائه وقال لهم : أتعرفون من هذا الرجل ؟ فقال الإخوان لا نعرفه، فقال الشيخ: هذا هو الشيخ أبو مْسَلَّم وهو منتقل – (أي وافته المنية)، وله دراويش ويريد أن يحتفظ برغيف، والرغيف الذي يريد أن يحتفظ به هو أخوكم محمد عبد الرحمن، أي يريد أن يأخذه ويضمه الى إبنائه من المريدين ، فيتنورون بوجوده معهم، فقلت لا، محمد عبد الرحمن يِنَوَّر في بيته وأخواته.

وفى هذه القصة ملامح متعددة نستجلى بها حقيقه الطريق و تتضح لنا معالمة ، أول هذه الملامح أن هذا الضيف شيخ منتقل قد وافته المنية وهو الإن في برزخه ، ومع ذلك يقول أن له دراويش ويريد أن يضم محمد عبدالرحمن اليهم ، وهذا معناه أنه برغم انتقاله فلا تزال ولايته قائمة على أبنائه ، فإن انتقاله لم يمنع عنهم ولايته عليهم فالولاية متصلة مهما تعددت صعود الوالي عليهم بعد انتقاله ، ويؤيد ذلك قولة الشيخ في اكثر من مناسبه أن الشيخ الذى يُبعده عن إبنائه حفنة من تراب لا ينبغي أن يكون شيخا لهم ( أى لن تكون المسافة الحاجبة بين القبر ورعايته للإخوان مانعة له عنها ) ، يريد أن يقول أن انتقال الشيخ في قبره لا يمنعه من ولايته على أبنائه ، فالقوانين في شأن الولاية تختلف عن القوانين الحاكمة على العوام بتلاشي أثرهم ، وهم في ذلك متخلقون بالخلق النبوي المحمدى، وهو والى المسلمين الأعظم ، وقطبهم الأول ، فإنه لا تزال أعمال أمته تعرض عليه ولا يزال ناظرا لهم ، ماداً لهم بمدده ،وليس ذلك شأن النبي صلى الله عليه وسلم وحدة ، بل يتعداه الى أهل بيته الكرام وإلى أولياء المسلمين الروحانيين وأئمتهم وأقطابهم ، ولسنا نتوجه بهذا الكلام الى هؤلاء الرافضين لما نذكر وإنما نتوجه به الى هؤلاء الذين ذاقوا ذوقه وعايشوا حقيقته ولم يتطرق اليهم أدنى شك في صدقه ولكن تواترت أخبار هذه الظاهرة ، وكل خبر يؤكد صدق الخبر الذى سبقه، والحقيقة أن الولي في الحياة الدنيا مقيد بتقييد الروح في البدن وبعد انتقاله من الدنيا يزيدُ نفعه بكيفيه لا يعلمها ألا الله وذلك لتحرر الروح وإنطلاقها فى أجواء العالم الأعلى ، والله اعلى واعلم.

وثانى هذه الملامح ، أن رغيف الخبز ، إنما هو رزق مَن يقتات عليه ، فعلمنا من ذلك ، أن المريدين هم أرزاق شيوخهم الروحانية ، التى يتقوتون عليها ، وهى أنصبتهم من عطايا ربهم ، بل هم أسباب تلك العطايا وتلك النفحات ، وذلك أيضا خُلُقا من أخلاق السنة المشرفة ، وبابا من أبواب العطاء ، يقول الرسول الكريم ( والله لأن يهدى بك الله رجلا واحدً خير لك من حمر النعم ) فانظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف جعل الهداية المعنوية مقابلة للرزق المادى المتمثل فى حُمُر النعم ، وأنظر الى الشيخ وقد هدا به أقوامً الى ربهم ، فجعل هداية المريد المعنوية مقابلة للرغيف المادى المرزوق له ، وعلى قدر العدد يكون المدد، فأنما الأصل في الطريق هداية النفس الى الحق بدأً من نفسه في ذاته والتى بين جنبيه ، وصولا الى ذوات المُتَّبِعين له.

وثالث هذه الملامح تظهر في قول الشيخ : (محمد عبدالرحمن ينور في بيته وبين أخواته )، وهى أشارة الى خصوصية العلاقة بين المريد وشيخة من جانب ، فإن بيت المريد هو قلب شيخه ، الذى ربَّاه وأدبه وأمده وهذبه وأمده وأعطاه ، حتى صار أهلا للتدرج في الطريق ، وأيضا خصوصية العلاقة بين المريد وإخوانه ، ولا يعرف هذه الخصوصية إلا من ذاق محبة الأخ في الله ، حتى حدى بالشيخ ذاتَ مرة ٍ أن يقول : لأن يسقطُ الأخ من السماء الى الأرض أهون عليه من أن يسقط من قلب أخية ، وهو أيضا من الأخلاق النبوية المشرفة حيث يقول الرسول الكريم (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) فلقاء المؤمن بأخيه المؤمن يؤكد أواصر المحبة ويدعم بِنيه الأيمان ، كل ذلك بمدد الشيخ ونظره فيهم و عونه لهم.

وآخر هذه الملامح حرص الشيخ على أبنائه ليكونوا على الدوام تحت نظره وتحت رعايته وموطن حفظة ، لأنه المسؤل عنهم أمام الله ، فكل راع مسؤل عن رعيته ، ولن يسأل الله ُ التائه ، لماذا ضللت ، ولكن سيسأل ولى أمره ، حتى ولو كان ولىُّ أمره ، نفسُه التى بين جنبيه ، فالشيخ اعلم بمسالك الطريق وأخطارها وأدوائها وعللها حتى يصل بها الى جادة الطريق.

ولقد كان الشيخ محمد عبدالرحمن بطل قصتنا التي قصصناها عليكم من أكابر أبناء الشيخ ، جاء الى الشيخ من طريق الشيخ على سعد وهو أيضاء من أكابرهم ، ومن الشيخ محمد عبدالرحمن دخلت عائلته كلها فى رحال الشيخ مسعد ، ومنهم محمود بركات ابن أخيه الذى قص علينا هذا الأمر ، ويذكر محمود بركات أن محبه الشيخ محمد عبدالرحمن في الطريق ، وصلت الى الدرجة التي أنابه فيها عنه في قراءة دلائل الخيرات ( وهو كتاب يضم مجموعة من الصلوات النبوية المشرفة بِصِيَغٍ مختلفة وله أسرار عجيبة لمن داوم على قرائته) وهو تشريف لا يستهان به ، ومكث الشيخ عبدالرحمن يقرأها مع الإخوان تحت رعايته لمدة اقتربت من اثنى عشر عاما في حياة الشيخ ، وكان إخوانه يحبونه ويوقرونه لمحبة الشيخ له ، ولم تكن هذه المحبة من فراغ ، وإنما كانت بسبب تفانى المريد في شيخه ، وأن انتقاله الى جوار الشيخ كان إيذانا له بغض النظر عن مطالب الدنيا ورغائبها ، وكان في هذا متخلقا بأخلاق الشيخ حين تجرد عن أملاكه وأنفقها في سبيل السير الى الله ولم يبق منها شيئا يملكه ، وهو أيضا من الميراث النبوى ، فقد إنتقل النبى الى جوار ربه ، ودرعه مرهونة ليهودىّْ .

وكان الشيخ يطلق علي محمد عبد الرحمن ( فقيه الإخوان )، جاءه ابن أخيه محمود بركات يوما ، وكان قد قرأ عن دعاءٍ ، من يقرأه لمد أربعين يوما في مكان طيب مبارك يعطى كذا من المال المادى أو كنزا من القَدْر المعنوىّْ ، فتمسَّك به ، ولازم قراءته وكتبه في ورقه، وكان يقرأه في مقام سيدى إبراهيم ذي النفس الذكية (وهو إبن سيدى زيد الأبلج، وعم السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وهذا المقام موجود بالمطرية فى مصر ) وحدث أن قابل بعدها عمه الشيخ محمد عبدالرحمن ، فأخبره بما يقرؤه وما يهدف اليه من وراء قراءته ، فلما رأى الشيخ محمد عبدالرحمن الدعاء ابتسم وقال : عندي احسن منه ، ففرح محمود بركات فرحا شديدا وألح عليه في طلب ما عنده ، فقال له الشيخ محمد : ياولدي ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل ، فقصد بذلك ، أن قراءتك لهذا الدعاء إن كانت لنوال الكنز أو القَدْر العظيم ، فإن الكنز والقدر لابد ويزولان ، إن تحقق من الدعاء هذا الأمر ، ولم يبق لك بعدها إلا الفقر و العوز وإن قرأته لله فإن ثواب قراءته يدوم عليك من الله ولا ينقطع أثره ، وإن لم يتحقق في الظاهر الغنى والقدر ، فإنك ستجد أثره فى باطنك، وقد يؤذيك كنز المال وعزَّة القَدْر ، فتسئ التصرف و تصبح وبالاً عليك وسببا في هلاكك ، يا بنى لا تدعو الله لغرض المال والقَدْر ، ولكن ادع الله ليرضى عنك ، يابنى أدع الله بلا غرض تجد كل شيء ، ويحافظ عليك في كل شيء ، فوقع هذا القول من لسان الشيخ الى قلب السائل عنه.

وكانت للشيخ محمد عبدالرحمن كرامه قصها علينا أخونا محمود بركات على لسان الشيخ سيد عبدالعزيز منقولة عن زوجته ، تقول فيها على نصها : أنهم سمعوا رجلا خارج المنزل ينادى على محمد عبدالرحمن من خارج فنظروا إليه فوجدوه عسكري شرطه ، فظنوا أنه زميل للشيخ محمد إذا كان يعمل في الشرطة ، وطلب منهم المنادى أن ينزل اليه محمد عبدالرحمن وهو مرتديا لزيِّه الميرى ، وتقابل الرجلان ، فأخذه الرجل للصلاة في مسجد سيدى على الروبي ، وإصطحبه الى هناك ، فلما دخل المسجد ، وكان الخطيب على منبره ، نظر اليه الشيخ محمد ، فإذا بالخطيب هو ذات الرجل الذى أصطحبه الى المسجد فتعجب من ذلك ، ولما ذهب بعد ذلك الى الشيخ مسعد ، قال الشيخ لمحمد عبدالرحمن : إنت عارف مين الى جالك وخدك وكان يخطب الجمعة ، فقال له : مين ياعم ؟ قال سيدى على الروبي.

ونحن وان كنا قد استرسلنا في الكلام عن الشيخ محمد، فإنما كان ذلك لبيان مقامة وارتفاع مكانة، ولم يكن ذلك إلا من أثر تربيه شيخه له ومدده عليه ونظره فيه، فالمريد علامة للشيخ ودليل عليه وبرهان على مكانه، ونحن وإن وجدنا من ينقل الينا بعضا من أخبار هذا المريد الصالح فإن إخوانه من أصحاب الشيخ كانوا على ذات شاكلته ولكن قصرت عنَّا أخبارهم وغابت عنا سيرتهم.

ولا تكاد خطانا تطأ موطن خدمه الشيخ سوآءً كانت في داره في تلك القاعة الكبرى (المندرة الكبرى) على يمين الداخل ، التي كانت تمتلئ على آخرها أو تلك القاعة الصغرى ( الغرفة على يسار الداخل ) التي كانت مجلسا للإخوان في أيام الشتاء ، إذ كانوا يضعون في منتصفها شيئا يضعون فيه بعضا من الخشب الجاف فيوقدونه ( المَنْقَد ) ، فترى الدفيء في هذه الغرفة ، بما يصاحب الدفيء من الإحساس بالأُنس والسكينة والتآلف، وكان لهذا الغرفة سر عجيب ، إذ كانت تسعهم جميعهم بالرغم من ضيقها إذا قورنت بالقاعة الكبرى ، وكأنما تتسع وتضيق بحسب كثره أو قله الإخوان ، هكذا كان يقول عنها الشيخ باهى رحمه الله ، وكنا نجلس وتَزْكُمُ أنوفنا تلك الروائح الأتية من أثر النار الموقدة فى المنقد ، ونشعر هجمة الدفء الآتية من نحوها ، وروائح الشاي والقهوة ، وروائح الطعام الغادية والرائحة ، وروائح أنفاس الحاضرين ، المخلوطة بالود الصافي و المحبة الطاغية ، إذ كانوا لا يجمعهم جامع إلا محبه الشيخ ورضاهم به ورضاه بهم في سبيل من توجهوا الى القرب به ، وكأنما تسمع قول الحق بأذاننا: ( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ) فقد كان الشيخ يجلس في احد أركان المكان وعن يمينه وعن يساره أبنائه مصطَفِين جالسين في حضرته بالسكينة و الوقار ، لا يتحدث احدهم قبل أن يأذن له الشيخ بذلك ولا يرتفع صوته ولا يعلو بصره ، يتحدث إليهم ويسألهم عن أحوالهم وهم يتحدثون إليه وعيونهم إليه ناظرة وقلوبهم إليه راغبة وأرواحهم مع الله هائمة ، وتسمع بين الحين والحين صرخة مجذوب أو آهة من صاحب حال أو زفرة من أثر جلال الجلسة ، أو همهمة مناجاة الخاشعين ، وترى السعادة على وجوههم أن كانوا في حضرة شيخهم وكأنهم حازوا الدنيا وما فيها ، منشرحين الصدر ظاهرين البِشْر، يمازحون شيخهم ويمازحهم ، يلاطفونه ويلاطفهم ، ويتودد اليهم ويسأل عن أخبارهم وأخبار آلهم ، يستمع الى شكاواهم في جناياتهم وأعمالهم ويطمئن على كل واحد منهم ، فيرفع عن كواهلهم تلك الهموم التي أتوا بها من دنياهم فيهذب أخلاقهم ويسمو بأرواحهم ، ولم يكن المريد يبالى ما تكبده من المشاق في سبيل الوصول الى الشيخ، فيكفيه أنه يجد في قلبه نارا تستعر للقاء شيخة ، ولا يكاد يفكر في طريق الوصول اليه ،فلقد كان سيد عبدالعزيز أتياً من المطرية الى الأخصاص على دراجة ليحضر الحضرة يوم السبت ، فقال له الشيخ ذات مرة : أنت جاي راكب عجله ، أمال يابنى لو حبتنا هتركب أيه ؟ وأسعد الشيخَ اجتهادُ ولده في طريقه، فأعطاه عشرة قروش ، وقال له خمسه منها للدخان ، وخمسه منها للهوى والَّلوعة ، فالدخان نار ، إشارة الى تكبد المشاق ، ولوعة الهوى أشار الى المحبة المتبادلة بين الشيخ والمريد والتى حملت عنه عنت السفر من المطرية إلى الأخصاص على دراجة ( عجلة )، وعطاء الشيخ للمريد ، إشارة الى أن حب المريد ما كان لولا حب شيخه له ، فلو ما احبه ما فعل ، وأن اجتهاده وسعيه أنما هو من مدد شيخه له ، وكان هذا هو دأب الشيخ مع أبنائه ، فقد يضع في جيبه قرش صاغ ويعطيها لمن له حاجة ولمن به أي تعب ومن يأخذ القرش يقضى الله حاجته ، فأم محسب كان معها منه قرشان ومحمد أبو سلامه كان معه قرش واخت لنا اسمها أم حبيب كان معها قرش ومن يأخذ القرش كان يربطه بخيط يعلقه في صدره ، وهو إشارة رمزية الى البركة الحاصلة عند المريد من جراء عطاء الشيخ وكأن به سر أودعه فيه ، هكذا حدثتنا السيدة توحه ابنته.

وشبيه بما نقلناه عن الشيخ سيد عبد العزيز ، ما قاله **الشيخ عبد العاطي أبو عبدالحميد** فقد كان للإخوان في أحوالهم عجائب لا يقبلها أي منطق كان ، فهذا أحدهم وقد تلبس بحال التجريد من جانب واشتعلت فيه الرغبة في الأنفاق من جانب أخر ، فكان إذا تواجد معه أي مال ينفقه على أخره ولا يبقى شيئاً منه ، فإذا صرف راتبه من عمله لا يعود الى بيته إلا وقد أنفقه ، ويظل على هذا حتى أخر الشهر ، وذات يوم أراد أن يذهب لزيارة الشيخ ولم تكن معه نقود يصل بها اليه واشتدت عليه الرغبة في ذلك ولم يتمكن من صد هذه الرغبة عن داخله ، فذهب اليه سائر على قدمية من مكان بعيد إلى أن وصل اليه ، فلما وصل اليه ، نظر اليه الشيخ من نافذته وقال له: يا عبدا لعاطى ، ما الذى فعلته ، لماذا تمشى الىَّ كل هذه المسافة؟ ، وظل الشيخ الى أن انتقل الى جوار ربه كلما قابله يسأله إن كان معه نقود أم لا ، فإذا لم يكن يعطيه هو من عنده.

ولا يخفى عن السامع والقارئ مالهذه القصة من النظر في اشتداد حال المريد وتلبسه بحال الأنفاق والتجريد ، ومن جانب أخر مدى محبة المريد لشيخة التي جعلته يذهب اليه سيرا على الأقدام ثم متابعه الشيخ ورعايته له.

وكان الأدب غالبا على الإخوان ، من اثر تربيه شيخهم لهم ، فإذا هَمَّ احدهم بدخول مجلس الشيخ ، فإنه قبل أن يطأ عتبتها ، ينبه الحاضرين الى دخوله فيقول : الله .... ، فإن أذن له شيخة بالدخول دخل ، وإن لم يأذن ، ظل قابعا في مكانه لا يحرك ساكنا ، وكأنما سورا قد قام بينه وبين المجلس ، حاجزا أيَّاه عن ولوجها ، فإذا لم يأذن له شيخه بالدخول ظل واقفا حتى يأذن له بالجلوس ، وإن بقى على وقوفه ما شاء له من الزمن ، فإذا دخل لا يتحدث ولا يتكلم حتى يبدأه شيخه بالكلام و الحديث وان بقى ساكنا طيلة وقته ، فإن تكلم كان للصوت خافتا ، منكسرة عينيه ، غاضا طرفه ، هكذا كان أدبهم مع شيخهم ، أو هكذا أدَّبَهم فأحسن تأديبهم ولم يكن ذلك من جانب الشيخ رغبةً في أظهار السيادة أو طلبا من نفسه بالشفوف عليهم ، أنما كان ذلك نوعا من أنوع التربية الروحية ، إذ كان عارفا بأسرار طبائعهم وسمات نفوسهم وما الذى يجب أن يُروِّضه فيهم من جوامح هذه الطبائع والنفوس ، حتى يتخلص المريد منهم من علل الطبع ، وبوائق النفس ، وجسارة القلب ، فتنزاح الحُجُب المانعة لهم من إدراك الحقائق العليا ، فتسموا أرواحهم وترتقى أسرارهم فيكون أهلا لمواطن القرب التي تتوق اليها أعناقهم .

ومن سواهم يملك هذه العين الكاشفة لعلل القلوب وأمراض النفوس فلقد كانت أفعالهم وحركاتهم وسكناتهم بالله، آخذين من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أهل بيته ومن سبقوهم من الأولياء طرائق الأدوية ومذاهب العلل، فكانوا نعم الوارثين لهم والحافظين لهذا الإرث.

ولم يكن الشيخ في سبيل تلك التربية تأخذه لومه لائم ولا أشفاق شافق، فإن الأمر جد عظيم وخطر الدنيا لا يستهان به والنجاة منه يجب أن يؤخذ على الجد.

حدثنا الشيخ محمد سلامه عنه في هذا الشأن قائلا : أن الشيخ إذا بدرت عليه بوادر الغضب ، التزم جميع المريدين الصمت ، إذا كانوا يعلمون شدة حاله ونفاذ أمره في الكائنات ، فكان المريدين يهربون من أمامه إذا صادف أن رأوه على مثل هذه الحالة من القبض ولم يستثن من ذلك أحد ، حتى اقرب المقربين لديه ، وحتى إبنائه الذين من صلبه ، حتى أن مثل ذلك الأمر تكرر كثيرا مع ولده الشيخ باهى إذ كان يُعِدُّهُ لتحمل الأعباء من بعده ووراثه الشأن في الإخوان ، فلا يسمح له بما قد يسمح لغيره به ، إذ كان يحاسبه على الخاطر وعلى العمل وهى درجة فى غاية المشقة إذ كان مطلبه فيه أن يجعل ظاهره كباطنه وكلامه كخاطرة ، حتى أنه إذا انتاب الشيخ باهى خاطر يخالف رأى الشيخ منه، أصاب الشيخ باهى نوبة شديده من ارتفاع الحرارة تكاد تؤدى به ، مما حدا بالإخوان أن يستروه عن الشيخ في هذه الأوقات رحمة وشفقة منهم عليه،

وحدث أنه في ذات يوم خالف الشيخ محمد أبو سلامة أمره في شأن من الشئون ، وكان جالسا في حضرته ، فوقع فى نفس الشيخ محمد أبو سلامة أن الشيخ لا بد قاتله ، فهرب بروحه ، وهو اصطلاح يعرفه من ذاقه من أهل الطريق، إذكانت أرواحهم بأيديهم وتحت تصرفهم ، وإذا بالشيخ رضوان الله عليه يصيح به في ثوان معدودة : إنت فين ياولد ، قال : له أمامك يا عم – إذ كان هكذا حديثه معه – فقال الشيخ : انطق بالحق ، فأجابه الشيخ محمد أبو سلامة : سأجيبك ولكن قل وذات الله لا أقتلك ، إذ كان يعرف أنه ولابد قاتله، فقال الشيخ : نعم ، فأين هربت ، لقد بحثت في السماء والأرض والبحار والبرازخ جميعا فلم اجد أثرا لروحك ، فاين ذهبت بها ؟( والكلام للشيخ مسعد ) فقال الشيخ محمد : علمت أنه لا سماء تظلني ولا ارض تقلني ولا بحار تَضُمُني ولا برازخ تحميني منك، فاختبأت منك فيك، فجعلت روحي بين جلدك ولحمك، فضحك الشيخ ومسح على لحيته، ثم قال: والله يا ولدى، لو اختبأت منى في قاع البحر لقبضت عليك، إذ لو أمرت سمكه في بحرها ، ألا طعام لكي اليوم، ما أكلت من يومها هذا، ويعلق الشيخ محمد سلامة على ذلك قائلا، وهذا حق، إذ كان المقام الذي فيه هو مقام الغوثية وهو مقام مهيمن ، وهو مقام من خصائصه التصرف فى العالم .

ولا ينازع قارئ هذا الكلام بالشك في صحته ، إذ أن هذا الكلام ابتداء أنما توجه الى المؤمنين به والكاشفين لسره أو الذائقين لذوقه أو حتى أصحاب العقول الذين يعلمون إحتماله لأنهم لا يملكون له نفيا أو إثباتا ، لأنه ما الذى يمنع الحق أن يهب لهم مثل هذه الصلاحية ؟ ، أما أصحاب العقول والفكر والنظر والبحت ، فإنا ندعهم الى قول الحق في شأن عبادة الربانيين في الحديث الطويل الذى منه ( ما تقرب الىَّ عبدى بشي أحب مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها وإن سألني أعطيته ولئن أعادني لأعيزنه ) وهؤلاء الذين تتحدث عنهم وننقل منهم ، همُ العباد الربانيون الذين يروا بالله ويسمعون بالله ، وكان الله جميع قواهم ، فلا تَقْصُر أبصارهم وأسماعهم وأيديهم عن البحار و الأنهار و القفار والسفوح والجبال ، فإذا لم تزل في شك من أمرهم فتوقف عن الخوض فيهم ، وقف عند حدك بين القبول والرفض ، فلا تجعل مقالهم بحسب ما نظر اليه فكرك ، ولا ترفض كلامهم بحسب ما تحدثوا به ، وقف بين السبيلين وقل : الله اعلم بهم ، فَمُدَّعِى الولاية إن كان كاذبا فعليه كذبه ، وإن كان صادقا فَكَذَّبْتَهُ ، فإنه يُصيبك أثرَ تكذيبك له في قوله ، فقف على الأعراف بين القبول والرفض وبين الرضا والصد.

في الفقرة السابقة تحدثنا عن الشيخ محمد سلامه ولكن لم نذكر بداية وروده على الشيخ ، وإن كان الشيخ محمد أبو سلامه قبل وروده على الشيخ كان وليا في نفسه وكانت علامة ولايته أن أعطاه الله الكشف وهباً ولكن بصوره كبيرة ودرجة عالية ، ولا يزال الكشف متزايدا معه في الوقت ،حتى أصبح لا يستطيع كبح جماحه ، ولا يتمكن معه من منع نفسه من أِخبار من كشف لهم به ، لدرجه أنه كان يوقف الناس ويُخْبِرهُم عما بهم، ويقص عليهم تفاصيل حياتهم ، وأصبح هذا الأمر فوق جهده وأقوى من احتماله وأبعد عن سيطرته ، وكان أخوه سيد سلامه ممن سبقه الى الشيخ مسعد ، فعرض عليه أن يذهب معه اليه ، وكان لهم صديق آخر قد سبق الإثنين الى الشيخ إسمه الشيخ جابر ، فالشيخ جابر هو الذى أتى بسيد سلامة ، والشيخ سيد سلامة هو الذى أتى بأخيه محمد أبو سلامة الى الشيخ ، وسنعرض تفاصيل هذه اللقاءات فى لاحق إن شاء الله .

فلما دخل الشيخ محمد سلامه فى صحبة أخيه ، على الشيخ وجده على صورة وكأنه يحمل رتبة عسكرية فأدى له التحية العسكرية ، فلما جلس قص عليه الشيخ محمد تفاصيل ما جاء به اليه ، وكان الشيخ ينظر اليه وبيده سبحته ، ثم أدناه الى جواره ، وكأنه لم يسمع ما قاله ، ثم قال له : إن بيني وبين واحدٍ من أهل القرية خصومه ، وأريدك أن تذهب لتصلح بيني وبينه ، فاندهش الشيخ محمد ، وقال في نفسه : ما لهذا جئنا ، أنما جئت لكى تخفف عنى وطأة ما أحمله من كشف لا أملك السيطرة عليه ولا أقوى على وقفه ، ولكن لم يكن له فى هذا الموقف إلا الطاعة ، فخرج من عنده هو وأخيه ، دون أن يأخذ عنوان هذا الرجل أو مكانه في القرية أو حتى اسمه فقال له الشيخ سيد سلامه ، استخدم ما عندك من قوة الكشف في معرفه مكانه ومعرفه شخصيته ، فسار في شوارع القرية مهتدين بكشف الشيخ محمد الى أن وصلا الى المنزل المطلوب وقابلا الرجل صاحب الخصومة ، فلما دخلا على الرجل قالا له : إن الشيخ يريد أن يأتي اليك ويقبل راسك ويصالحك ، فقال لهم : سأذهب اليه بنفسي وجاء معنا ودخل على الشيخ وقبل راس الشيخ وتم الصلح ، ثم نظر الشيخ الى سيد سلامة ، وقال له : خذ صاحبك وتوكل على الله ، دون أن يحكيا ما كانا قد أتيا لأجله واندهشا لذلك .

ثم حدث أنه في ليله النصف من شعبان التالية لهذه المقابلة ، أن طلب الشيخ محمد أبو سلامة والشيخ جابر من الشيخ سيد أن يذهبوا الى مقابلة الشيخ حتى يتم لهم ماكانوا قد إنتووه من قبل فى شأن علاج الشيج محمد سلامة من حال الكشف المفرط التى يعانى منها ، (و الشيخ جابر كان أول العارفين بالشيخ كما ذكرنا وقلنا أنه كان سببا في معرفه الشيخ سيد سلامه بالشيخ ، والذى كان بدوره سببا في معرفه الشيخ محمد به )

ذهب الثلاثة الى الشيخ ، وبعد أن جلسوا قال لهم الشيخ : اذهبوا لزيارة مقام أم الغلام ، وضريح أم الغلام هو ضريح عتيق يتم النزول إليه عبر درجات سلم ، وهو قريب من ضريح الحسين ، وفى داخل الضريح غرفتين ، إحداهما وضعت بداخلها لا فته كبيرة ، سُجِّلَت فيه رحلة قدوم راس الأمام الحسين الى مصر ، وفى الغرفة الثانية الضريح ، والضريح ، كماهو مكتوب على اللوحة المعلقة عليه ، يضم كل من السيدة فاطمة بنت سيدنا الحسن بن على ويضم زوجه سيدى على زين العابدين ويضم السيدة فاطمه أم الغلام الذى تسمى الضريح باسمها.

والسيدة فاطمة أم الغلام ، هي زوجة الأمام الحسن الفارسية واسمها شهر باتو جهان شاه بنت بردجرد وهي احدى بنات كسرى ملك الفرس وقد زوَّجها الأمام على رضى الله عنه لولده الحسين في حضور عمر بن الخطاب ، وبعد دخولها الإسلام انطلق عليها إسم فاطمة ، وهي والدة سيدنا على زين العابدين، ومن ضريح أم الغلام انتقلت راس الأمام الحسين الى مرقده الحالي غير ممر بالضريح.

ثم نعود الى قصتنا فنقول إن الشيخ طلب من الثلاثة أن يذهبوا الى مقام أم الغلام ثم ينظروا ماذا ستقول لهم ، فلما دخل الشيخ محمد أبو سلامة والشيخ جابر للزيارة تكلموا بالسرياني ، والناس ناظرون إليهم ، فلما خرجوا سأل الشيخ جابر الشيخ محمد ماذا قالت لك أم الغلام، فقال له: قالت اشترى لي أكبر شمعة في القاهرة ، فذهبنا لشرائها ووجدناها بعد مشقة كبيرة، وذهبنا الى الشيخ بالشمعة، وكان الذكر قائما، فقال له الشيخ: تعالى يابو سلامه، ماذا قالت لك أم الغلام؟ ..... قال: قالت هات أكبر شمعة في القاهر فاشتريتها، وها هي بين يديك، فأشعل الشيخ الشمعة، واستمرت على اشتعالها حتى الفجر، ثم وضعها الشيخ في حُجرة ، و خرج من الغرفة، فما لبث أن شعر الشيخ محمد أبو سلامة بأن روحه فارغة من أثر الكشف الذي شكا منه، فكان هذا علاجه ، فكما إنقضت الشعلة بإنقضاء الشمعة ، كذاك إنقضت حالة الكشف بإنقضائها .

أما الشيخ جابر فكان له تجاوزات في الطريق( سنذكرها في لاحق أن شاء الله)وكان يتكسب ماديا بسبب هذه التجاوزات ، وكان يضع ما يتكسب في زلعة ( إناء من الفخار ) محفوظة لولده زين، فنظر اليه الشيخ وقال له: أنت تحافظ على المال في زلعة لولدك زين !؟ فما لبث بعد ثلاثة أيام إلا أن غرق ولده، وهو الابن الوحيد له على بنات الشيخ جابر، ومرت الأيام على الشيخ جابر وخرج من الدنيا على خير والحمد لله.

كانت الرواية السابقة هي رواية الشيخ سيد سلامة في أول معرفه أخيه الشيخ محمد أبو سلامة بسيدي مسعد ، غير أن هناك رواية أخرى ، اختلفت تفاصيلها عن تلك الرواية السابقة ، فأردنا أن نسردها على ماهي عليه ، فإن في الروايتين التقاءات واختلافات وإن اتفقتا في الجوهر ، تلك الرواية هي رواية الدكتور احمد موسى عن عمه الشيخ محمد سلامه ، يقول فيها على لسان شيخه:

روى لي شيخنا أبو سلامة أن أول ما رأى الشيخ رآه في رؤية ظاهرة باطنة فقال له يا محمد أنا الشيخ مسعد عبد العزيز داود من الأخصاص وأنت من أبنائي فاحضر إلىَّ بعد ثلاثة ليالي من الآن. فلما جاء الموعد ذهب إليه مع أحد أقاربه من الحديد والصلب. قال محمد أبو سلامة : فلما دخلنا الديوان استأذنَّا في الصعود إلى الشيخ فقد كان فى الطابق الأعلى ... فأذن لي.. فلما صعدنا وجلست بين يديه ولم أعرفه، لأني لما رايته في غرفتي كان بهيئته الحقيقية مرتديا زيه الرسمي،فجلسنا فأمر لنا بالضيافة، وظللنا منتظرين قدوم الشيخ .. فلما استبطأته سألت الشيخ وأنا لا أعرفه... هو الشيخ مش موجود؟ فضحك وقال لي.. لا موجود بس جاي كمان شوية ، ثم أمر قريبه بالنزول فبقيت أنا وهو فوق، وبينما أنا أنظر إليه وجدته في حال حضور كامل كما كان في الرؤيا فما أدرى بنفسي إلا واقفا بين يديه ومؤديا لهيبته التحية العسكرية وقد تسمرت جوارحي تماما... فلما أردت أن أكلمه ، خرج الكلام كله بالسرياني.. فاستمع لي منصتا ثم أمرني أن أستريح.. فتحركت أعضائي وجلست أمامه وأنا مغيب العقل تماما وهو يتحدث مع حالي الذي يبلغه بكافة المعلومات عنى فلما انتهى الحوار بينهما أفقت إلى رشدي وردَّ إلىَّ عقلي فقال لي إيه ده؟ عيل صغير معاه جوهرة لو واحد ضحك عليه ببلحة يأخذها منه، فرد عليه الحال قائلا لقد أعطى عيسى في المهد صبيا، فقال الشيخ رضى الله تعالى عنه للحال، إنت كمان غلباوى، إنزل تحت، ثم طمأنني الشيخ قائلا إنت تروح دوقتي يا محمد تستريح وتجيلي بكره الصبح. ولعل تلك الجوهرة التي أشار اليها الشيخ هي حال الكشف الذي اتصف به الشيخ محمد سلامة والذي ذكرنا تفصيله في الرواية السابقة، وأما ما مقصده من قوله: لو واحد ضحك عليه ببلحه يأخذها منه؟ فربما أشارته الى لصوص العطاءات عند من لا يحافظ على عطائه، وهو أمر يعرفه أهل الله ، جاء في هذه الرواية و سيجئ في روايتنا عن الشيخ عبد المنعم أبو حسين ، وأما قول الحال : أن الله أعطى النبوة لعيسى وهو في المهد صبيا ، فربما معناه أنه كما اعطى الله لعيسى النبوة وهو صبيا، أعطى الله الكشف لمحمد أبو سلامه وهو مازال فى بداية الطريق ، وهو لم يصل بعد الى مقامات الأولياء التي تحافظ على عطاءاتها، وما قلناه هو احتمال فهمنا وقد يكون الأمر خلاف ما قلنا.... وأما حديثه مع الحال فربما كانت ذلك خلال اللغة السريانية التي تصدر من باطن المريد الى باطن الشيخ، فهو خطاب أرواح لا خطاب أجساد ، فتكون اللغة السريانية التي تصدر من باطن المريد الى باطن الشيخ، هي حديث الحال وأما طمأنه الشيخ له فربما يكون معناه يكون معناه أنه بلقاء الشيخ قد صار عطاؤه محفوظا محميا.

ولكننا فى طريق ما سردناه ورد إلينا إصطلاح السريانية ، وفى السريانية ورد إلينا إصطلاح الديوان الصوفى ، وهما إصطلاحان لا ينبغى علينا تركهما دون إيضاح ، لأهميتهما فى طريق القوم :

**السريانية :**

السريانية هى لغة الأرواح سواء كانت الأرواح التى تجردت من أجسادها بطريق الرياضة والمجاهدة وهو أمر يختص بالأولياء على درجاتهم ، حين يتخاطبون فيما بينهم بلسان الحال ، لأن لسان الحال هو لسان الروح ، والروح تتكلم بها ، وهى اللغة التى يتخاطب بها الأولياء من أهل الديوان ، ولا يتكلمون العربية إلا إذا كان الرسول حاضراً معهم فى الديوان ، وسنورد معنى الديوان فى لاحق إن شاء الله ، وكذلك نرى السريانية فى بعض زيارات الأولياء لأصحاب المقامات فى برازخهم ، لحصول الإنفلات الروحاني عن أغلال أجسادهم ، فيكون خطاب روح لروح ، أو نرى السريانية فى الأرواح التى تجردت من أجسادها بالموت ولهذا كانت السريانية هى لغة أهل القبور ، فيكون الخطاب بين روح الميت وروح الملك فى القبر ، وقد نقلوا عن الإمام السيوطي قوله فى منظومته :  
 ومن غريب ما ترى العينان أن سؤال القبر بالسريانى  
أفتى بهذا شيخنا البلقيني ولم أره لغيره بعيني " .  
قال شارح المنظومة : قال الناظم : "وقع فى فتاوى شيخ الإسلام علم الدين البلقينى أن الميت يجيب السؤال بالسريانى. فالميت يجيب بروحه والملائكة السائلين تتكلم بالسريانية كسائر الأرواح .  
وكذلك نرى السريانية فى الأرواح النورانية كأرواح الملائكة ، وقيل أن الملائكة تتكلم باللغة الجبروتية ، ولهذا كانت السريانية هى لغة يوم القيامة، فإذا دخل من دخل الجنة ، تكلم بالعربية هنالك ، ولهذا لا تحتاج السريانية إلى تعليم لأن الأرواح مفطورة على العلم بها فتجد الولى يتكلم بها وكأنها لغته الأصيلة ، والولي المفتوحُ عليه فتحا كبيرا يتكلم بها من غير تعلم أصلا لأن الحكم لروحه فما ظنك بالميت فلا صعوبة عليه في التكلم بها .وإذا تكلم بها كانت معانى حروفها وكلماتها حاضرة مع النطق بها ،لأن الروح هى الناطقة بها ، ولا يصيب الروح سهوٌ ولا غفلة ولا نسيان ، وإنما السهو والغفلة والنسيان يكونون مع النفس ، وإذا غالت النفس فى مطالبها وغلبت على الروح بالتعلق بالماديات ، غابت عن السريانية وبعدت عنها ، وكلما إشتدت الأرواح وصارت لها الغلبة على النفس إقتربت من السريانية وغابت عما سواها ، وقيل أنها لغة آدم ونوح عليهما السلام .  
وتتميز اللغة السريانية بأن لكل حرف من حروف كلماتها معنا مخصوص مقيدٌ به ، ولهذا تحمل الكلمة الواحدة معانى مختلفة بإختلاف حروفها فالغالب على السريانية معانى الحروف والغالب على ماعداها من اللغات معانى الكلمات لا الحروف ، ولذلك كان الغالب عليها الإيجاز فى بسط المعانى لا الإطناب كما فى باقى اللغات ، كما أن السريانية أقرب إلى معرفة أسرار الحروف وطبائعها وآثارها وأحكام أعدادها ، وللحروف أسرار وحسابات عند من يعرفونها من أهل الله .والحروف والكلمات عندما يستعملها أهل الله فى الظاهر فإن معانيها فى أرواحهم تنير فى دواخلهم وتتعداها إلى ماحولهم ، من أثر ما قرأوه فتقع به الفائدة ، أما العامى حينما يقرأ الفاتحة فإنه لا يجد لها هذا النور ولا هذا الأثر فإذا قرأها على مريض لا تحدث الفائدة ، خلاف الولى حينما يقرأها عليه ، وذلك بسبب النور المؤثر الذى يخرج منه ، ولهذا قال من قال : هذه الفاتحة فأين عمر ؟  
وتتميز أيضا اللغة السريانية بقلة المتكلمين بها وهذا يتماشى مع حال الستر المطلوب فى أهل الله الذين هم أهل الإشارة فى التعبير عن أحوالهم ومواجيدهم صيانة له من غير أهلها ، وحَجْب هذه اللغة عن عوام الناس إنما هو رحمة بهم لثقل علومها ، أما الأولياء من أهل الله فهم جديرون بها لقدرة أرواحهم على إستيعابها . ولئلا يطَّلعُ العامة على الحكمة مع وجود الظلمة فى نفسه ، فقد يعلم سر الشيئ ولكن يستعمله فى غير موضعه،كالعارف لسر الطلاسم والأسماء فيستعملها فى الأحجية والأسحار ويسير فى غير مرغوب الله منها ، أما نور العارف فإنه يكبح جماح أسرارها فى حين ظلمة الجاهل تسير به فى هلاكه وغوايته وضلاله ،  
وقيل أن السريانية هى لغة الأطفال فى سنى حياتهم الأولى لأن الطفل فى حال الرضاع تكون روحه متعلقة بالملأ الأعلى ، وقيل أن من كلمات الأطفال فى هذا السن مثل كلمة ( إغ) وهو فى السريانية إسم للذات يدل على الرفعة والعلوم والرأفة والحنان ، فالفعل فى هذه الحالة فى منزلة من يقول : ياعلى ياحنان ،   
وفى مثال لهذه الكلمات السريانية :

حدث أن زار أحد الصالحين من تلمسان قبر سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه ، ورأى صاحب القبر وعلَّمه الدعاء التالي :   
بسم الإله الخالق الأكبر ، وهو حرز مانع مما أخاف وأحذر ، لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق ، يلجمه بلجام قدرته ، " أحمى حميثا ، " أطما طميثا " ، وكان الله قويا عزيزا ، حم عسق " حمايتنا ، " كهيعص " كفايتنا ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقال له سيدى إبراهيم الدسوقي :ادع بهذا الدعاء ولا تخف من شيئ .  
لكن الشيخ التلمساني امتنع من هذا الدعاء لأنه لم يعرف معنى هاتين الكلمتين : أحمى حميثا " .. " أطما طميثا ".. وقال لا أدرى معناها . .فسأل الشيخ عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه فقال :هما كلمتان بلغة السريان ، أما " أحمى " فمعناه : يا مالك .. يا مالك الملك العظيم الأعظم الحي القيوم ، و " حميثا " إشارة إلى مملكته .. فهو بمنزلة من يقول : يا مالك الأسرار .. يا مالك الأنوار .. يا مالك الليل والنهار .. يا مالك السحاب المدرار .. يا مالك الشموس والأقمار .. يا مالك العطاء والمنع .. يا مالك الخفض والرفع .. يا مالك كل حي .. يا مالك كل شيئ ..وفى هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم ولا العبارة تبليغه أبدا .  
وأما قوله " أطمى " فهو بمنزلة من يصفه تعالى بالعظمة والكبرياء والقهر والغلبة والعز والانفراد فى ذلك كله .. وكأنه يقول : يا عالم كل شيئ .. يا قادرا على كل شيئ .. يا مريد كل شيئ .. ويا مدبر كل شيئ .. ويا قاهر كل شيئ .. ويا من لا يتطرق إليه عجز ولا يُتوهم فى فعله نقص .. و " طميثا " : إشارة إلى الأشياء التي يتصرف فيها ، وإلى الممكنات التي يفعل فيها ما يشاء ويحكم ما يريده سبحانه لا إله إلا هو . وفى هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم ولا العبارة تبليغه أبدا .  
و عند الطريقة القادرية ينسبون وردا للشيخ عبد القادر رحمه الله – فلا يشك العلماء في عدم صحة هذا النسب إليه - ويسمونه ورد الجلالة ، يقولون فيه ما نصه: " وأسألك الوصول بالسر الذي تدهش منه العقول، فهو من قربه ذاهل، ايتنوخ، يا ملوخ، باي، وامن أي وامن، مهباش الذي له ملك السموات والأرض " ثم يستطرد قائلاً: " طهفلوش انقطع الرجاء إلا منك، وسدت الطرق إلا إليك، وخابت الآمال إلا فيك .

ويقول الدسوقي في ورده المسمى " الحزب الكبير " ما نصه: " اللهم آمني من كل خوف، وهم وغم، وكرب كدكد كردد كردد كردد كرده كرده كرده ده ده ده ده ده الله رب العزة وما ذكرناه هو نماذج من الكلمات السريانيه ليكون لك علم بمثلها .

وإذا نظرنا إلى تاريخ السريانية الظاهر المعلوم ، نجد أن اللغة السريانية نشأت فى الألف الأول قبل الميلاد وهى لغة مشتقة ومتطورة من اللغة الآرامية التى كان يتكلم بها السيد المسيح عليه السلام والأصل فى اللغة الآرامية اللغة السامية التى منها كانت اللغة العربية التى تكلم بها النبى صلى الله عليه وسلم ، والعبرية التى تكلم بها موسى ، والفينيقية والآرامية التى تكلم بها عيسى عليه السلام ، ومن الآرامية خرجت اللغة السريانية التى هى إمتداد لها ومشتقة منها  
فاللغة السامية هى أم هذه اللغات ومنها خرجت العربية والعبرية والآرامية والسريانية

و لا يعرف اللغة السريانية على تمامها إلا الغوث والأقطاب السبعة الذين تحته ، ومن فهم السريانية وأسرار الحروف أعانه الله بها على فهم باطن القرآن وعلم ما في عالم الأرواح و ما في هذه الدار والدار الآخرة وما في السماوات وما في الأرضين وما في العرش وغير ذلك والله أعلم . وسئل الدباغ : هل القرآن الكريم مكتوب في اللوح المحفوظ باللغة العربية ؟ فقال : "نعم , وبعضه باللغة السريانية .

ولكن ماهو حكم قراءة المريد للأدعية الواردة بها بعض الكلمات الغريبة الأعجمية غير المفهومة والتى ينسبونها إلى اللغة السريانية ؟ وذلك لأنه تلاحظ وجود رغبة شديدة من المريدين فى قراءة هذه الأدعية التى تحمل ألفاظا غريبة ، ظاناً منهم أنها تحمل إليهم مفاتيح الفتح الرباني الذى ينشدونه وتفتح لهم أبواب القرب الإلهى الذي يسعون إليه ، فيتهافتون على إستخدامها دون التحقق من صدقها وسلامة مصدرها   
ومن هذه الكلمات الغريبة ، ماهى باللغة العبرية ومنها ماهو باللغة السريانية ومنها ماهو باللغة الفارسية ومنها مايعرف باللغة الجبروتية التى هى من لغات الملائكة ، والتى قد يعطيها الله لبعض أوليائه بإلهام ملائكى فتكون بلغتهم الجبروتية ..والحكم فى قراءة هذه الأدعية عدم جواز قراءتها للعوام الذين لا يعلمون معناها ، فإذا علموا معناها واستيقنوا منه جاز لهم قراءتها ، وكذلك يجوز لهم قراءتها إذا كانت بإرشاد عالم أو شيخ مربى يعلم معناها وآثارها فيهم   
وقد رأى أحدهم الشيخ عبد القادر الجيلاني فى منامه وسأله عن حكم قراءة هذه الأدعية التى تحتوى على أسماء أعجمية وإصرار الناس على قراءتها ، وسأله عن العلوم الروحانية .  
يقول صاحب الرؤيا:  
أكرمنى الله برؤية سيدى عبد القادر الحيلانى ، رأيت نفسى أقف مع الشيخ فقلت له : ياسيدى ، ماتقول فى العلوم الروحانية ؟ فقال وهو يهز رأسه :  
ياولدى هو علم صحيح ولكن وهمه أكثر من صحيحه فأفسده .  
ثم بادرنى بسؤال فقال :  
ياولدى ، هل سليمان وداود وموسى وعيسى ، أفضل أم محمد صلى الله عليه وسلم ؟  
فقلت له : بل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
فقال : فهل يعطى الله لهم خيرا مما أعطاه لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : لا ، فقال : فلماذا نضع أفضل علم وهو علم محمد صلى الله عليه وسلم الذى وصل إلينا بالسند الصحيح ، ولم يدخل فيه ما أفسده ، ونأخذ العلم الذى يُنسب لغيرنا من الأمم ولا ندرى أهو علمٌ بسندٍ صحيح أم لا ؟ ثم سألنى :   
هذه الأسماء التى تتعاملون معها ، وأراد بذلك الخُدٌام ( أى خدام الأسماء الأعجمية التى يتكلمون بها من الأرواح والملائكة التى يسعى الناس لإستخدامها فيما يودون إيجاده( هل هى شخصيات حقيقية ، وهل هى مخلوقات ثابتة ، وهل ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنها موجودة فتتأكدوا من وجودها ؟ فقلت : لا   
فقال : فلماذا تتركون اللجوء إلى الله واجب الوجود القادر الخالق ، وهذه الموجودات إن وجدت فإنما نفعها وضرها بإذن الله ، فلماذا نترك اللجوء إلى الله عز وجل ونلجأ إلى هولاء الخدام الذين لا حقيقة ولا يقين لنا بوجودها ، ثم قال كلمه عظيمة فقال :   
ماذا تريدون من العلوم الروحانية ؟ أتريدون جلب نفع ، ودفع ضر ، وتسخير محب ٍ ، ومحبة مبغِض ؟ فقلت : هذا والله ما يطلبه أصحاب العلم ، فقال : عندنا فى طريقتنا وعندنا فى ديننا ما يغنينا عن هذا ، فإن أصحاب هذه العلوم يزعمون أنها أشرف العلوم وخيرها ، فقلت : نعم يزعمون ذلك ، فقال : فكيف كتمها عنَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أُمره بالتبليغ ، ثم خُتِمَت هذه الرؤيا بقوله :  
ياولدى ، كن مع الله يكن الله معك ، وكن له كما يريد يكن لك كما تريد ، وتفعل ماتريد بأمر الله ، ولا تحتاج إلى هذا ، واسعى إلى العلم اللدنىٌ الذى يهبه الله إلى العبد إذا إتقى الله ، وهو خير لك من ذلك ، وليكن يقينك كامل ، ثم قال : أنا لا أنكر هذا العلم جملةً ، ولكن وهمه أكثر من حقيقته ، وخطره أكبر من صوابه , والإبتعاد عنه خير من الدخول فيه ، ثم ختم قوله : دع مايريبك إلى مالا يريبك .  
والخلاصة من هذه الرؤيا أن القرآن الكريم هو أفضل كلام وأفضل ذكر ، ولا إله إلا الله تعلو ولا يعلى عليها ، والصلاة على النبى تعلو ولا يعلى عليها ، وكفاكم هرولة إلى الكلمات الأعجمية ، فكلام الله الوارد فى القرآن يعلوا ماعداه من الكلام ، وقد قال سيدنا على كرم الله وجهه : لو تاه بعيرى فى الصحراء لأخرجت من كتاب الله ، كيف أجده .

**الديوان الصوفى العام :**

ورد هذا الإصطلاح فى كلامنا عن اللغة السريانية ، وهو ديوانٌ للأقطاب والأوتاد وسائر صنوف الأولياء عند الصوفية، وينعقد في غار حراء ، وفي أماكن أخرى أحيانًا ،فقد قيل أنه ينعقد أحيانا فى صحراء السودان ،ليدير هذا الديوان العالم من خلال قراراته‏.‏‏.‏.  
وهو اجتماع يومي يتم بين الأولياء الأموات منهم والأحياء، من مشارق الأرض ومغاربها ويقول الشعراني في كتابه الطبقات الكبرى ما لفظه: "ما من ولي لله صحت ولايته إلا ويحضر مكة في كل ليلة جمعة لا يتأخر عن ذلك"   
إلا أن هناك فرق بين الصغير والكبير من الأولياء ، فإن الصغير من الأولياء يحضر بذاته وروحه وأما الكبير فلا تحجير عليه ، يشير ـ رضي الله عنه ـ أن الصغير إذا حضر غاب عن محله وداره فلا يوجد في بلدته أصلًا لأنه يذهب إليه بذاته‏.‏ وأما الكبير فإنه يحضر ولا يغيب عن داره لأن الكبير يقدر على التصوٌّر على ما شاء من الصور المختلفة التى يتلبسُ بها لكمال روحه .  
وينعقد هذا الديوان: فى غار حراء بمكة المكرمة.، ويتكون من سبعة دوائر متحدة المركز ، وكل دائرة تمثل إقليما من الأقاليم وعلى رأسها قطب هذا الإقليم المتصرف فيه بأمر الغوث ، ويطلق الدباغ وهو من أئمة الصوفية في كتابه اسماً لكل دائرة فأصغر الدوائر قطرا تسمى الصف الأول ووصفها كالتالي: يجلس قطب الغوث في صدر الصف الأول وأربعة أقطاب عن يمينه وهؤلاء الخمسة طبعا مالكية المذهب -أي على المذهب المالكي-، وعن يساره ثلاثة أقطاب كل واحد منهم على مذهب من المذاهب الثلاثة ، والوكيل(النائب): أي وكيل الغوث في مواجهة الغوث وهو مالكي أيضا، ويسمى قاضى الديوان وهو الوصلة بين القطب وسائر الحاضرين ، فهو ينوب عن القطب فى الكلام وينوبُ عن سائر الحاضرين فى كلامهم .   
ويكون هذا الاجتماع يوميا وقد جاء في بعض كتبهم أنه في كل ليلة جمعة ويتم في الثلث الأخير من الليل وهي ساعة استجابة الدعاء أو هى ساعة ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعتقدون.  
ولغة الاجتماع: هى اللغةالسريانية لاختصارها كما يقولون ، وجمعها المعاني الكثيرة ولأن الديوان يحضره الأرواح والملائكة والسريانية هي لغتهم ولا يتكلمون بالعربية أبدًا إلا إذا حضر النبي صلى الله عليه وسلم تأدبا معه فقط.  
وأما الغرض من الاجتماع في الديوان الصوفي: أنهم يجتمعون ليتباحثوا فى قضاء الله تعالى في اليوم التالي والليلة التي تليه ، إذ جعلهم الله أسبابا لتصريف هذا القضاء وليسوا همُ القاضين به وإنما هم أدوات نَفَاذِه ، لأن الله هو الفاعل من ورائهم وهو الظاهر فيهم وهم المظهر الذى تظهر به أفعال الحق   
فأهل الديوان إذا اجتمعوا فيه اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد فهم ـ رضي الله عنهم ـ يتكلمون في قضاء الله عز وجل في اليوم المستقبل والليلة التي تليه قال ـ رضي الله عنه ـ ولهم التصرف في العوالم كلها السفلية والعلوية وحتى في الحُجُب السبعين وحتى في عالم الرقا ‏(‏بالراء وتشديد القاف‏)‏ وهو ما فوق الحجب السبعين فهم الذين يتصرفون فيه وفي أهله وفي خواطرهم وما تهمس به ضمائرهم فلا يهمس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصرف ـ رضي الله عنه ـ أجمعين وإذا كان هذا في عالم الرقا الذي هو فوق الحجب السبعين التي هي فوق العرش فما ظنك بغيره من العوالم‏ .وتختلف مراتب الأولياء الذين يحضرون ديوانهم فمنهم من يقدر على النظر في اللوح المحفوظ، ومنهم من يتوجه إليه ببصيرته ويعرف ما فيه ، ومنهم من لا يتوجه إليه لعلمه بأنه ليس من أهل النظر إليه .  
أما عن كيفية اجتماع أهل الديوان: فينزل الأموات من البرزخ، يطيرون طيرانًا بطيران الروح، فإذا اقتربوا من موقع الديوان بنحو مسافة نزلوا إلى الأرض ومشوا على أرجلهم إلى أن يصيروا إلى الديوان، وحضورهم يكون بالروح لا بالجسد، وللأموات منهم هيئة وشكل يُعرفون به ، وأنه لا ظل لهم لكونهم أرواحا مجردة ولهذا يختلفون عن الأحياء من الأولياء فى هذا الديوان.  
وتحضره الملائكة وهم من وراء الصفوف ويحضر أيضًا الجن الكُمَّل وهم الروحانيون وهم من وراء الجميع وهم لا يبلغون صفًا كاملًا ، وفائدة حضور الملائكة والجن أن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها فيستعينون بالملائكة وبالجن في الأمور التي لا تطيق ذواتهم الوصول إليها‏"‏ ، ويحضره أيضا بعض النسوة .  
وفي بعض الأحيان يحضره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا حضر عليه السلام جلس في موضع الغوث وجلس الغوث في موضع الوكيل للصف، وإذا جاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءت معه الأنوار التي لا تطاق دائمًا وهي أنوار محرقة مفزعة قاتله لحينها، وهي أنوار المهابة والجلالة والعظمة حتى إننا لو فرضنا أربعين رجلًا بلغوا في الشجاعة مبلغًا لا مزيد عليه ثم فجؤوا بهذه الأنوار فإنهم يصعقون لحينهم إلا أن الله تعالى يرزق أولياءه القوة على تلقيها ومع ذلك فإنه قليل منهم هو الذي يضبط الأمور والتي صدرت في ساعة حضوره ـ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الغوث إذا غاب ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكون له أنواره الخارقة حتى لا يستطيع أهل الديوان أن يقربوا منه بل يجلسون منه على بعد ، فالأمر الذي ينزل من عند الله تعالى لا تطيقه ذات إلا ذات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإذا خرج من عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا تطيقه ذات إلا ذات الغوث ومن ذات الغوث يتفرق على الأقطاب السبعة ومن الأقطاب السبعة تفرق على أهل الديوان‏"‏  
وإذا حضر سيد الوجود ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع غيبة الغوث فإنه يحضر معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وأمهما فاطمة الزهراء تارة كلهم وتارة بعضهم ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين، قال وتجلس مولاتنا فاطمة مع جماعة النسوة اللاتي يحضرن الديوان في جهة اليسار كما سبق وتكون مولاتنا فاطمة أمامهن ـ رضي الله عنها ـ وعنهن قال ـ رضي الله عنه ـ وسمعتها ـ رضي الله عنها تصلي على أبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة من الليالي وهي تقول اللهم صل على من روحه محراب الأرواح والملائكة والكون اللهم صل على من هو إمام الأنبياء والمرسلين اللهم صل على من هو إمام أهل الجنة عباد الله المؤمنين .  
ويقال أن الديوان كان معمورًا بالملائكة قبل بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما بعث الله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعل الديوان يَعْمُر بأولياء هذه الأمة فظهر أن أولئك الملائكة كانوا نائبين عن أولياء هذه الأمة المشرفة حيث رأينا الولي إذا خرج إلى الدنيا وفتح الله عليه وصار من أهل الديوان فإنه يجيء إلى موضع مخصوص في الصف الأول أو غيره فيجلس فيه و يصعد الملك الذي في ذلك الوضع وهكذا كانت بداية عمارة الديوان حتى كمل ولله الحمد ، فكلما ظهر ولي صعد ملك ، وأما الملائكة الذين هم باقون فيه يكونون في الصفوف الستة كما سبق فهم ملائكة ذات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين كانوا حفاظًا له في الدنيا ولما كان نور ذاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ مفرقًا في أهل الديوان بقيت ملائكة الذات الشريفة مع ذلك النور الشريف‏.‏ قال ـ رضي الله عنه ـ وإذا حضر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الديوان وجاءت معه الأنوار التي لا تطاق ، بادرت الملائكة الذين مع أهل الديوان ودخلوا في نوره ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما دام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الديوان لا يظهر منهم ملك ، فإذا خرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجع الملائكة إلى مراكزهم والله أعلم‏"‏ ‏  
والاجتماع السنوي في الديوان يحضره الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: مثل إبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل، وموعده السنوي في ليلة القدر، كما يحضره من الملأ الأعلى الملائكة المقربين، وأزواج النبي –صلى الله عليه وسلم– وأكابر صحابته رضوان الله عليهم.  
وقد يغيب الغوث عن الديوان فلا يحضر فيحصل بين أولياء الله تعالى من أهل الديوان ما يوجب اختلافهم فيقع منهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضًا فإن غالبهم اختار أمرًا وخالف الأقل في ذلك ، فإن الأقل يحصل فيهم التصرف السابق فيموتون جميعًا ،   
فإن قلت أنهم أهل بصيرة وكشف فلم يحصل بينهم النزاع وهم يشاهدون مراد الله تعالى ببصيرتهم ؟ فيكون السبب فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يحجب مراده عنهم ، وكذلك فعل الملائكة من قبل حين إختصموا فى الله ، وإذا كان الملائكة يختصمون ، فلا نستغرب من إختصام الأولياء .  
وإذا حضر الغوث فلا يقدر أحد على مخالفته ولا يقدر أن يحرك شفته السفلى بالمخالفة فضلًا عن النطق بها فإنه لو فعل ذلك لخاف على نفسه من سلب الإيمان .‏ ‏  
أما سبب غيبة الغوث ـ رضي الله عنه ـ عن الديوان فقال ـ رضي الله عنه ـ سببه أحد أمرين إما غيبته في مشاهدة الحق سبحانه فلهذا لا يحضر في الديوان وإما كونه في بداية توليته كما إذا كان بقرب موت الغوث الذي قبله فإنه قد لا يحضر في بداية الأمر حتى تتأنس ذاته شيئًا فشيئًا قال ـ رضي الله عنه ـ وقد يحضر سيد الوجود ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غيبة الغوث فيحصل لأهل الديوان من الخوف والجزع من حيث إنهم يجهلون العاقبة في حضوره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يخرجهم عن جناسهم حتى إنه لو طال ذلك أيامًا لانهدمت العوالم‏ من هول خوفهم ‏.  
وماذكرناه هو الديوان الصوفى على إطلاقه ولكن هناك دواوين أخرى تختلف بإختلاف الغرض منها :   
فللسيده زينب ديوان ولسيدنا الحسين ديوان آخر وللسيده نفيسه ديوان ولمولانا زين العابدين ديوان ولكل عارف بالله ديوان   
وهناك ديوانا يسمى (ديوان أهل البيت )وهذا يحضره سيد العالمين صلى الله عليه وسلم ومعه أهل البيت ولا يوجد فى هذا الديوان أنبياء ولا مرسلين ولا أولياء ولا عارفين ولا صالحين إنما هو لأهل البيت فقط

ولنا تعليق على ماذكروه ،فى جواز تصديقه أو تكذيبه ، فمن الناس من قال أنه شاهد ذلك ، وهو شهود خاص لم يشهده غيره ، وبالتالى فإن الأمر مخصوص به دون سواه ، ولا يُلزمُ أحدا به ، وللآخرين الحق فى تصديقه أو تكذيبه أو الوقوف بين التصديق والتكذيب لعدم قدرتهم على إيجاد دلائل النفىَ أو دلائل الإثبات ، ولتطرق الإحتمالية فى ذلك ، ونحن نقول للمكذبين : ماهو دليلكم من الكتاب والسنة على كذبهم ؟ وهل طلب أحدٌ منكم تصديقه أو الإيمان به ، وما أدراكم بأسرار الكتاب وفهم رموزه وتأويلاته فتقطعوا بما قطعتم به ، وفيه من الأسرار ماعجزتم عن الجزم بمعناها جزما قاطعا ، ويكفيكم ماترونه فى كتاب الله من فواتح السور من الحروف المقطعة ما يدل على عجزكم عن الإحاطة به ، وما شأنكم بما يقولونه غيركم إن لم تجدوا فيه مخالفة للكتاب والسنة والإحتمالات تتطرق إليه ؟ .... فما يمنعُ الحق سبحانه أن يطلع أحداً من خلقه على بعض ما قضاه الله فى خلقه ؟ ومايمنع الحقَ سبحانه أن يجعل بعضَ خلقه أسبابا فى تصريف ماقضاه الله على البعض الآخر ، ولم تدَّعى الأسباب أنها هى صاحبة التصريف ، ولم تقل أنها الفاعل فى ذاتها ، بل قالت فى كل الأحوال أن الله هو الفاعل ؟ وقد رأيتم فى الدنيا أن الحق سبحانه قد وكَّل فى الدنيا مُدَراء على مُلكه ، فجعل منهم السلاطين والأمراء والملوك ورؤساء الدول والنواب والوكلاء ، وكان الحق سبحانه بقدرته قادر على إدارة ملكه بنفسه ، ولا يعجزه ذلك ، ولكنها سنة الله فى خلقه ، هذا فى ظاهر ما نعرفه ، فما بالك فى باطن مالا نعرفه ، والمهم فى هذا ألا ترى منهم ما يخالف كلام الله فى كتابه وما شرعه لهم فى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فهل بدى من هؤلاء القوم ما يناقضُ ما شرعه الله فى كتابه وفى سنة نبيه ؟  
ثم ، ما أدراكم بعالم الأرواح وقد جعلها الله من أمره ؟ وأن قول الحق من أمره لا يمنع أن يطلع عليها بعضا من عباده المقربين ، فيعرف عنها مالم يعرفه الآخرون ؟

ثم نعود الى ماكنا بصدده من علاقة الشيخ بمريديه بعد أن جنحنا كثيرا عن سياق ماكنا بصدده فنقول :

ومن طرائف وعجائب الشيخ مع أبنائه الواجبة التفسير والتي تختل على الغرباء في تفسيرها ويرسلون سوء الظن والاستهجان في قبولها على ظاهرها وينتقدونها في دواخلهم ، أخذين منها دليلا على القدح في الطريق وفى سيرة الصالحين وفى تجاوز مريديهم في إظهار درجة الخضوع والخنوع لهم ، وبرهانا على ضلال الصوفية ، ما نراه من مريدي الشيخ حيثما يمسحون بأيديهم على أقدام الشيخ وساقه وهو مادا لها ، هذه الظاهرة المتكررة وإن كانت غريبة على الغرباء مستهجنة عليهم ، إلا أنه لا يعرف سرها إلا من ذاقها من شيخه ولسنا هنا في صدد مجادلة المعارض أو مناهضه الغريب ، لأن المعارض والغريب لن يجد آثارها فى نفسه إذا فعل فعلهم ، فإن جل علوم القوم هي علوم ذوقية ومن ذاقها فقد عرفها ومن عرفها اطمأن إليها ، وعلوم الأذواق ليس لها صفة الحجه المنطقية والبرهان النظرى والدليل العقلي ، أنما هي مناط الذوق والخبرة والتجربة ، فمن ذاق طعم التفاح ، لا يتمكن مهما بلغت مهارته في التعبير أن ينقله الى من لم يذق طعمه ، ولا يتمكن له معرفة ذوقه إلا بعد أن يذوقه مثله ، هنالك يتمكن لهما مناقشة المذاق لأن كلاهما قد ذاقاه ، واصبح الذوق له معلوم لديهما ، أما اذا كان احدهما قد علم ذوقه والأخر قد جهله فلا يجتمعان معا في منطقه المعرفة ، ولا يجوز لهما في هذا الوقت المجادلة والمخاصمة ، والأنسان على العموم عدو ما يجهل ، وكان بالإمكان أن نهمل هذه الظاهرة فلا نذكرها فى حكاياتنا ، ولكنَّا آثرنا أن نكون أمناء فى وصف تجاربهم وفى بسط مواجيدهم ، وهم الصادقون فيما ذكروه ، ومامن شيئ فعلوه إلا وكان له أصل يستندون عليه .

فإذا اردنا أن نقص هذه الظاهرة من خلال أذواق العالمين بها العارفين لها ، الذائقين أثرها الذين يملاهم اليقين في فعلها فإننا ننقل ما سمعناه من الدكتور أحمد موسى ناقلا إياه عن شيخه محمد أبو سلامه الذى نقله بالتبعية عن شيخه عم الحج مسعد ، بادئا بإظهار رأى المعارض لهذه الظاهرة معنياً بتفسيرها على الوجه الذى ذاقه أهلها ، يقول الدكتور احمد موسى بادئاً كلامه (وبتصريف منا) :

كان الشيخ محمد أبو سلامة حاضرا مع الشيخ مسعد في احدى جلساته قبل وفاته بقليل ، وكان قد اصطحب احد أقربائه معه في زيارته للشيخ ، وكان لهذا الرجل شأنه في قومه ، وكان الشيخ مادا ساقيه وقدميه ، ووجد الشيخ محمد أبو سلامه نفسه وقد امتدت يديه على ساق الشيخ يُدَلِّكُها له ويمررها عليه ، فقد وجد الشيخ أبو سلامة في نفسه أن يفعل ذلك ، فلما انتهت الجلسة وطفقا عائدين بعد وداع الشيخ ، لامه الرجل لوماً شديدا على ما فعله في قدم الشيخ قائلا له : أنت أيه ؟...عامل زي النسوان كدة ...وتدعك رِجْل الراجل ده ؟!!! ...ياأخى عيب عليك دا أحنا ولاد عيلة كبيره ... ولم يكتف هذا الرجل بذلك بل لَكَمَ الشيخ محمد في صدره لَكْمَةً آلَمَتْةُ ... وفى المرة التالية لزيار الشيخ، شَكَا الشيخٌ محمد للشيخ ما كان من قريبه، فقال له الشيخ:

... ماتزعلش يا محمد .... أنا هاردهالو. ...

ثم حدث أن انتقل الشيخ الى جوار ربه ، وكان من المشيعين للشيخ ذات الرجل صاحب الواقعة ... وأثناء وقوف الرجل ارتطم نعش الشيخ الحامل له بصدر هذا الرجل في ذات الموضع الذى كان قد لكم الشيخ محمد أبو سلامة فيه ...وكان من اثر ارتطام النعش في صدره ، أن أصابه من أثر هذا الارتطام التهاب شديد ، مات بعده ، فعلم الشيخ محمد أن هذا رد الشيخ ، وكان الأحرى بهذا الرجل إذا شاهد مالم يقبله عقله ونظره ، وهو في نفس الوقت لا يعلم سره ، أن يقف بين السبيلين ، فلا يقبله بنظره ، ولكنه أيضا لا يرفضه لاحتمال وجود سر فيه ، وتفسير له ، فيقف بين القبول والرفض ، الى أن يشاهد ترجيح احدى الاحتمالين ، فهذا هو مقتضى الأدب مع هؤلاء الذين لا يعرف سرَّهم ، وهذا الرجل أيضا لم يكتف بالرفض السلبى العقلي و اللفظي ، بل تجاوز الى الإساءة للشيخ محمد بالإيذاء ، بالقول والفعل ، فوصفه بأحوال النساء وسَبَّه في نفسه وآذاه في بدنه وأهانه في نظره ، وكانت هذه الإساءة في سبيل عمه وبسببه، وبهذا استوجب على الشيخ ردَّها ، وكان رد الإساءة على قدر مقام الشيخ ، فحصل له ما ذكرناه .

والأمر الثاني الذي لا ينبغي علينا أن نفعله أن الشيخ يدافع عن أبنائه بعد انتقاله، وكأنما هو بينهم وسترون في سيرة الشيخ ما يؤكد هذه الحقيقة، في مرات نتمكن من إحصائها.

أما سر هذه الظاهرة ( ظاهرة مسح أرجل الشيخ ) ، ففي الإمكان أن نقول أنه وسيله لا نتفال نوع من العلوم من الشيخ الى المريد بما يُعرف (بالعلم المَطْوي )والعلم المطوي المخبوء هو العلم الذى لا يحتاج التلقي فيه إلى القاءٍ ظاهري للأشباح من الشيخ الى المريد ، من خلال الكلمات والحروف ، بل هو انتقال روحانىّْ ذاتي للعلوم من الشيخ الى المريد عن طريق الأرواح ، وإذا أردت شبيها لهذه الظاهرة ، حتى لا يظن أن الكلام في المطلق ، فانظر الى سريان الكهرباء في يدك اذا لا مست سلكا عاريا ، فإن الكهرباء في السلك العاري الظاهر ، باطنةٌ فيه ، لا تراها ، فإذا لا مسسته انتقل هذا الشيء الباطن المستور الى داخلك ، فاذا كانت الكهرباء أقوى منك ، داهمتك وأتلفتك ، وإن كان لك قدرة على إستيعابها ، أفادتك وأعانتك ، مثل جهاز الشحن الناقل للطاقة في الجهاز المشحون ومثل الأجهزة التى تدار بالكهرباء ، ، فإذا كان هذا معلوم لديك في الظاهر فلماذا تستغربه في انتقال العلوم المعنوية بملامسة الواهب لها ، وكما ذكرنا أنها علوم ذوقيه لا يعرفها إلا من ذاقها ، تماما كمن ذاق أثر الكهرباء إذا سرت في يديه من اثر ملامسة السلك المكشوف ،فعرفها ، ولو لم يجد من ذاقها مثله ، لا تستغربه منه .

فمدد الشيخ من خلال الملامسة للمريد هو إيصال روحاني معزول مستور لا يشعر به أحد ، فهو مدد خاص غير منظور لا يدري به إلا صاحبة ، فالأمر محصور بين المُمِد والمدود ، وهو مدد مستور محجوب حماية للممدود من أثر الناظرين إليه فربما يصيبه حاسد أو يشنأه شانئ أو يكيد له كائد، وأيضا لأنه من العلوم الروحانية التى لا سبيل للأشباح إليها ، وهو سر بين الشيخ وولده لا يطلع عليه جن ولا ملك ولا كائن من كان.

ومن خلال هذه الملامسة يتم الاتصال بين الطرفين فيتلقى أحدهما من الأخر ويتبادلا فيها المعلوم.

ولقد كان لهذا الذى قلناه شاهدٌ فيما رواه الشيخ محمد أبو سلامه فقال واصفا ما كان بينه وبين شيخه ،.... فقد حدث أن شكا اليه الشيخ مسعد من ألمٍ أصاب كتفه وطلب منه أن يُدَلِّكُه له ، فلما فعل ذلك ، وجد في سرِّه وِرْدَاً من الشيخ له ، يطلب منه قراءته وتكراره ، ولقد تساءل في نفسه عن عدد تكرار هذا الورد ، ولم يجد من الشيخ جوابا ، ولكنه وجد الجواب الفعلي أثناء قراءته له فتراه يمسك المسبحة ويردده بقلبه فإذا وصل الى العدد المطلوب توقفت المسبحة من حولها بين أصابعه ، حينئذ يعلم أن مرات تكرره ، هو ذات العدد الذى توقفت عنده المسبحة. وعلى منوال ما سبق كانت هناك الكثير من المعلومات والأسئلة والإجابات والتفسيرات والإيضاحات، وهكذا.

وقد يحدث المدد من هذا الطريق الى المريد الممدود دون أن يدرك المريد فحوى المعلوم بعقله ، فيكون هذا المعلوم داخل المريد فى روحه ، ولكن لا يتمكن بعقله من قراءته ، فليس بالضرورة أن يفهم ما أعلمه الشيخ به، ولكنه في ذات الوقت يتفاعل مع هذا المعلوم دون أن يكون عقله هو الدافع اليه ، فقد يجد في نفسه تصرفا تلقائيا بسبب هذا المعلوم في أمر ما ، دون أن يكون عقله هو الدافع له كمن أودع أمانه لدى شخص ولم يخبره بفحوى هذه الأمانة ، خلاف من أودع أمانه عنده وقد أخبره بفحواها وأعلمه حقيقتها ، فالأول صاحب سر ولكنه لا يعلم فحوى سره ويعلم فحوى سره ، ولقد سألت الشيخ باهى سؤالا ذات مر – والكلام لي – فقلت له ؛ هل يكون المريد حاملا لمقام معين ... ولا يعلم أنه صاحب هذا المقام فقال لي : نعم ... ولكنه يجد أثره فيه، وعلامته عليه.

وأما سرعة سريان المعلوم من الممد الى الممدود بهذا الطريق فأنها تكاد تكون بلا زمن، فإن وقت سريان إمدادها من الممد هو ذات وقت وصولها الى الممدود، فلا وقتا فاصلا لآنه لا مسافة فاصله بينهما في هذا الوقت، لاتحاد الممد بالممدود. وأما كميه العلم الممدود في فلا حد لها ولا ضابط لها ولا نهاية لها ، إلا بانقضاء وتمام المعلوم المراد إيصاله . وقد يكون نوع الأمداد حالاً يتصل من الشيخ به ، فيجد حال الشيخ قد إنتقل إليه .

وقد يكون نوع الإمداد علاجا لداْءٍ أصاب مريده ، سواء كان هذا الداء ظاهرا فى جسده ، أو باطنا فى روحه ، أو عطبا فى نفسه ، أو عادة أدمن فعلها ، ولم يتمكن من الخلاص منها . وقد يكون نوع الإمداد سلباً للطاقة السلبية التى ربما قد أصابت المريد ، بما يهبه شيخه من طاقة إيجابية ، يغلب بها هذا السلب الى الإيجاب ، وقد يكون نوع الأمداد نوراً كاشفا لأمر قد أبهمت صورته لدى المريد .

وقد يكون نوع الإمداد طمأنةٌ للمريد من أمر أصابه أو امر جللٌ سيصيبه أو نازلةٌ على وشك النزول اليه. مثل ما حدث لآخينا محمود بركات حين كان جالسا مع الشيخ باهى يتحدث اليه و الشيخ بين الوقت والأخر يربت على ركبته ويربت على ذراعه ويربت على كفيه ولم تكن هذه عادته معه ، وبينما هما على هذا الحال ، إذا بمكالمه يتلقاها محمود بركات يخبره فيها من أخبره أن ولده قد أصيب في حادثة نقل على اثرها الى المستشفى وأخبره من أخبره أن الحادثة كبيرة وأن الإصابة جسيمه ، فلم يكن منه إلا أن قال : قدَّر الله وما شاء فعل ، ونزلت عليه هذه النازلة مصحوبة باطمئنان داخلي وسكون في قلبه ولم يتحرك من داخله بشيء ، ومع فوات الأمر ادرك سر ما كان من الشيخ في هذه الجلسة وهو ما ذكرناه والشيخ في هذا الوقت ، من الأمداد الروحي الذى يتحكم فى طاقه المريد ، فيرفع منه ويخفض فيه ، بحسب ما يُودعه فيه من المدد.

والشيخ بهذه الملكات يملك السيطرة على استقبالات المريد ، فربما استغرق المريد في وردٍ ما أو صلاةٍ أو ذكرٍ ، وإذا استمر على هذا الحال فإن هذا الذكر سيأخذه بروحانيته من مطلوبات حياته والتزاماته الاجتماعية وظروف عملة ، فالشيخ في هذه الحالة يُغَيُّرُ إسقبالات باطن المريد بما يضمن المعادلة بين مطالب الحياة ، ومطلوبات الطريق ، أو يكون المريد ، ممن إذا استشعر حلاوة التجليات ، فأصابه الجذب من أثرها فيكون بهذه السيطرة له ضابط ، قائم عليه ، أو يكون في المقابل شديد القلب عتىَّ النفس صعب المراس ، فيجذبه اليه بشديد التجليات وفائض الأنوار .

ومن باب ما ذكرناه ،تلك القصة التي سمعناها من الشيخ خالد بن أم محسب والتي ذكر فيها بداية معرفة أم مِحَسَّب بالشيخ نذكر منها ما يفيد الكلام عمَّا ذكرناه ، وسنورد تفاصيل لقاءها بالشيخ مسعد فيما سَيَلِى أن شاء الله.

تقول الرواية أن أم محسب قبل معرفتها بالشيخ ، كانت هى وزوجها يتسابقان في عدد مرات الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على الحَصَى ، وهم في حراسه ضريح احمد حسانين باشا في الدراسة ، ولم يكن المكان مأهولا في هذا الوقت ، وكانا يقضيان الوقت فيما ذكرناه ، فمر عليها الشيخ عبدالقادر وهو أحد مريدين الشيخ مسعد ( بتكليف ممن أمروه بذلك ) دون أن يخبرهم بالمصدر الذى جاء منه ، وجالسهما ، وتكررت زيارته لهما ، إذا كانت هذه المرحلة ، مرحلة انتقالية بين ماهي علية الآن ومرحلة ما بعد التقاءها بالشيخ والدخول في سلكه ، فكان من الشيخ عبدالقادر بعض التجاوزات ( المقصودة منه ) في نظرها ، والتي شكَّكَتها في أخلاقه ، فمن هذه التجاوزات أن يجلس الى جانبها على الدوام، ومنها أن يضع يديه على رجلها أو كتفها أو يتعمد ملامستها ، فساءها ما رأته منه ، وحاولت أن تتخلص من وجوده فلم تستطيع ،الى أن جاء دحروج وهو أيضا من مريدين الشيخ مسعد ، وهو في الحقيقة ابن الشيخ عبدالقادر ، فأخبره أن الشيخ مسعد يريد أم محسب وزوجها في الأخصاص ، وان مهمتك قد انتهت الى هذا الحد ... وكان لدى أم محسب حماس للقاء الشيخ للتخلص من عبدالقادر ، الذى ساورها الشك فى أمره ، فلما ذهبت اليه شَكَت له هذه الأفعال ، وقال لها : ماذا فعل لك عبدالقادر ... فقالت له : ده قليل الأدب ... وراجل بتاع نسوان ... فضحك الشيخ وقال لها ... أنا ما عنديش أولاد قُلَلَات الأدب ...وتمر الأيام ... وإذا بالشيخ في احدى الجلسات ، وكانت في هذه الجلسة أم محسب .. وكان ماداً رجليه أثناء جلسته ... وكأنما الشيخ قد وضَعَ في نفس أم محسب الرغبة الشديد في تدليك قدمي الشيخ .... وفى نفس الوقت قال لها الشيخ ... بقولك أيه يابنتى.. رجلي واجعانى ... متيجى تدليكهالى ... فلما وافقَ أمرُ الشيخ رغبتها في ذلك ... ذهبت الى هذا الفعل بهمة ونشاط .... فلما رأى منها ذلك، ضم ساقيه ... وقال لها : لا يابنتى أحسن هاتقولى : دا بتاع نسوان زي عبد القادر .... فأراد الشيخ أن يُعَرِّفها ، أن مافعله الشيخ عبد القادر لم يكن من تلقاء نفسه ،مثلما حدث معها الآن من رغبتها الشديدة فى مسح قدم الشيخ ،ثم قال لها : .. وعزَّة جلال الله يابنتى ... ده وزير سيدنا الحسين ( مشيرا الى عبد القادر ) ... ومِتْحَوِّلْ عندك بإذن ... ويابنتى ده ورقك متحوِّل عندي... وبربى فيكي .... من يوم فنجان القهوة وانتى في بيت أبوكى ... فتذكرت تلك الواقعة التى حصلت من زمنٍ ولم تكن قد تزوجت بعد ... إذ دخل عليهم في دارهم رجل .... واستقبله أباها ... ثم توجه الى نوال ( أم محسب ) ، ولم تكن قد تزوجت بعد في هذا الوقت ... وقال لها: يا نوال إعمليلنا قهوة، فصنعت ثلاثة فناجيل قهوة، فأخذ أحدها وأعطاها الأخر، وسكب الثالث في الأرض ... فعلمت أن الزائر الذي كان قد زارها في هذا الوقت هو عمى الحاج مسعد .... ثم دار الزمن والتقت بالشيخ بعد زواجها وحصل ما ذكرناه .... فملامسة المريد للشيخ على أي صوره من الصور التي ذكرناها، هي وسيله مطْويَّة لا نتفال المدد أو الحال أو العلم من الشيخ المُمِد الى المريد الممدود له.

ومن باب ما ذكرناه أيضا ماحكاه الشيخ محمود بركات نقلا عن الشيخ محمد ابوسلامه ...تقول الرواية: توجه الشيخ أبو سلامه الى قدمي الشيخ وأخذ في تدليكها كما اعتاد هذا الأمر كثيرا، إذ كان يعلم أن مددا سيمتد من الشيخ اليه، كما امتد اليه في كل مرة تناول فيها قدمي الشيخ بالتدليك، وكان المريدون يستشعرون تجليات هذا المدد بعده ، ويعيشون فيه مستمدين بذوقه ... وبعد تدليك قدمي الشيخ ... ذهب الى بيته ... ومكث قرابة الشهر بعد هذا الحدث مريضاً في بيته.. لا يتمكن من الحركة.. ولمَّا أعيته السبل ذهب الى الشيخ وشكا اليه حاله. ... فضحك الشيخ وقال له: يا بنى ... أرأيت وقت أن كنت تدلك قدمي ... أنها لم تكن قدمي ، .... إنها كانت قدَمَيّْ سيدي أحمد البدوي!!! ..... وحال البدوي شديد ... فلا بد وقد انتقل اليك حاله... أن تسْكر بما سَكَرْتَ به . وفى هذه الرواية امرين، الأمر الأول هو التأكيد على ما ذكرناه من أن الحال والعلم والمدد ينتقل الى المريد عبر هذه الواسطة . أما الأمر الثاني فهو تجَسُد أرواح الأولياء في الصور المختلفة، وكان منها تجَسُدْ روح السيد البدوي في صورة عم الحاج مسعد، وهو أمر مألوف في طريق الله، وقد ذكرنا طرفا منه وإمتلأت سيره أهل الله بمثل هذه الظاهرة.

وثمة رواية أخرى من هذا الباب ينقلها الينا الشيخ سعيد ابن الشيخ محمد أبو سلامه، يقول فيها: كان من معتادى زيارة الشيخ سيدة تأتى اليه وفى يدها حقيبة، فارتابت زوجة الشيخ في أمرها، إذ كانت في كل مرة تختلي بالشيخ أوقاتا طويله كانا يتبادلان فيها الحديث... فما كان من زوجة الشيخ ، إلا أن إختلست الوقت فى غفلة منها ، ونظرت في محتويات حقيبتها فوجدت فيها صاجات ، وهي من أدوات الراقصات أثناء رقصهن، وكأنما عثرت على ضالتها ... فنادت على الشيخ وأطلعته على ما وجدته في حقيبتها وقالت له ... أشوف كلامك أصدقك ... وأشوف أمورك استعجب.. وكأنما مفارقه كبيره بين كلام الشيخ ومقاله .... فأجلسها الى جواره ... ثم مدَّ ساقيه .... وطلب من زوجته أن تقبض على قدميه ... فلما قبضت على قدمي الشيخ ، غابت عن وعيها الظاهر مما صادفته فى باطنها ... فرات هذه المرأة التي ظنت فيها السوء ... في السماء السابعة والملائكة يحوطونها فرحاً بها ، ولم يذكر لها السر في قرب هذه المرأة من ربها بالرغم مما شاهدته منها ،

ومن تلك الرواية نستخلص أمرين ، الأمر الأول هو تأكيدٌ لما ذكرناه ، حين انتقل المعلوم المستور المطوي فى روح الشيخ الى روح زوجته حال ملامستها لساقه ،وكأنه حديث أرواح الى أرواح ، والأمر الثاني هو التأكد على عدم الأخذ بظواهر الأشياء ولا القطع بها ، حال الحكم على صلاح هذا وفساده ، فإن ثمة أمور لا تظهر للعين ، لا يعلم حقيقتها ألا الله ، و علاج ذلك السكوت عن إطلاق الأحكام وإرجاع الأمر للقادر الحاكم.

وليست الملامسة بين الشيخ ومريديه على أية صورة ، بالأمر المستهجن أو الغريب عن مشاهدات الناس فى عادة أحوالهم ، سواءً كانت هذه المشاهدات من أثر سُنَّة نُقِلت إليهم ، أو من أثر تحارب عايشوها ، أو من أثر أبحاث توصلوا إليها أو من أى مصدر عاينوه .  
فإن من السنة أن مسحُ رأس اليتيم والحُنو عليه تُذهب قسوة القلب؛ فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-: أَنَّ رَجُلاً شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ –صلى الله عليه وسلم- قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ: "إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ".  
وسأل رجل الإمام أحمد -رحمه الله-: كيف يرق قلبي؟ قال: (ادخل المقبرة، وامسح رأس اليتيم)، فأىُّ أثر فى المسح المادى على الرِقَّة القلبية المعنوية ، فيجعل ذلك بسبب المسح .  
وثمة موقف مع أحد الصحابة يدل على شديد حبه وتعلقه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، حتى أنه أراد أن يكون أخر عهده من الدنيا أن يعانق جسده جسد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم . فقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله يوم بدر يمر على صفوف الجند ليتفقدهم وكان بيده الشريفة قضيب من سواك يعدل به الصفوف، فمر بالصحابي سواد بن غزية حليف بني عدي بن النجار وهو خارجٌ قليلًا عن الصف، فُيُحَركه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعود السواك إلى الخلف ليساوي الصف وقال له : "استوِ يا سوادُ بن غزية".حينها وجد سيدنا سواد الفرصة سانحة ليفوز بفوز عظيم، فاستغل الموقف وقال: "آآآآه ..أوجعتني يا رسول الله،وقد بعثك الله بالحق،فأقِدْني( أى مكننى من القصاص منك ) .فكشف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بطنه، ثم قال له: "استقد" (إقتص) يا سواد"، حينها انكب سيدنا سواد فاعتنق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقبَّل بطنه الشريفة. فتعجب الصحابة الكرام، وسأله النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "ما حملك على هذا يا سواد؟" فقال سيدنا سواد: يا رسول الله، حضر ما ترى فلم آمن القتل، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك. فدعا له رسول الله بخير، وقال له خيرًا ، فأى خير يرجوه من مس جلد بجلد ، سوى أنه الحال الذى طغى عليه ودفعه إلى ذلك ، ولم ينكره رسول الله ، بل دعا له رضاءً بما صنع .  
وعن عبد الله بن عباس : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وضَع يدَه على كَتِفه أو على مَنكِبه ثمَّ قال اللَّهمَّ فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْه التَّأويلَ ، فكان ماكان من علمه رضى الله عنه ، ، فأىُّ أثر فى يده الشريفة كان به أن جعل قلبه وعاء للمعرفة وعالماً بأسرارها .  
ولقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أن قال : جاءني ربي في أحسنِ صورةٍ ، فقال : يا محمدُ ، قلتُ : لبيك ربي وسعديك ، قال : هل تدري فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى ؟ قال : قلتُ : لا أدري ، قال : فوضع يده على صدرِي فوجدتُ بردَها بين كتفي - أو قال : فوضع يده بين كتفي ، فوجدتُ بردَها في صدري - فقال : يا محمدُ فقلتُ : لبَّيك وسعديك ، قال : هل تدري فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى ؟ قال : قلتُ : في الدَّرجاتِ والكفَّاراتِ ، أما الدَّرجاتُ : فإسباغُ الوضوءِ في المكروهاتِ ، ونقلُ الأقدامِ إلى الجماعاتِ ، وانتظارُ الصَّلاةِ بعد الصَّلاةِ ، وأما الكفَّاراتُ فإطعامُ الطعامِ ، وإفشاءُ السلامِ ، والصلاةُ بالليلِ والناسُ نيامٌ ، فمن فعل ذلك عاش بخيرٍ ، وكان من ذنوبه كيومِ ولدته أمُّه ،وقال لي : يا محمدُ ، قل : اللهمَّ إني أسألُك عملَ الحسناتِ ، وتركَ السيئاتِ ، وحبَّ المساكينِ ، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً وأنا فيهم ، فنجني إليك غيرَ مفتونٍ ، فانظر مقدار ماعلمه الحق لرسول الله بواسطة وضع يديه سبحانه على صدره ، وكأن هذا خلقاً إلهياً ورثه النبى وأورثه الأولياء من بعده ، فغدوا يعلمون أولادهم ومريديدهم بوساطة اللمس ، الذى كان بوابة العلم النبوى ، وهو علم الأولين والآخرين .  
ومن صور التأثير باليد أنَّ غلامًا شابًّا أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فقال : يا نبيَّ اللهِ أتأذنُ لي في الزنا ؟ فصاح الناسُ به , فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : قَرِّبوهُ , أدْنُ فدنا حتى جلس بين يديْهِ , فقال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ : أتحبُّه لأُمِّكَ فقال : لا , جعلني اللهُ فداك , قال : كذلك الناسُ لا يُحبُّونَه لِأمَّهاتِهم , أتحبُّه لابنتِك ؟ قال : لا ، جعلني اللهُ فداك قال : كذلك الناسُ لا يُحبُّونَه لبناتِهم , أتحبُّه لأختِك ؟ وزاد ابنُ عوفٍ حتى ذكر العمَّةَ والخالةَ , وهو يقولُ في كلِّ واحدٍ لا , جعلني اللهُ فداك , وهو صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقولُ كذلك الناسُ لا يُحبُّونَه , فوضع رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يدَه على صدرِه وقال : اللهمَّ طهِّرْ قلبَه واغفر ذنبَه وحصِّنْ فَرْجَه فلم يكن شيءٌ أبغضَ إليه منه ، فانظر كيف أخرج الله من قلبه ما أخرج من محبة هذا الذنب بأثر وضع يد رسول الله على صدره ، وكيف أن هذه اليد الشريفة قد قلبت الحقائق الثابتة وأخلفت الموازين المرصودة فجعلت المحبوب مكروه والمكروه محبوب ،   
وقد تكون الملامسة عند أهل الله جسراً وبرزخا وممرا موصولا بين روح إلشيخ وروح المريد ، ينقل به الشيخ العلم والحال إليه ، أو يتحدث به المريد بحاله الى شيخه ، أو كشفا يكشف به للمريد بعضا مما يراه ، فيعرف مافيها من غير كلام ولا نطق لسان وتلك الأحوال من أحوال الطريق التى يعرفها أهلها ، وقد عرفنا من أحوال الحاج مسعد أنه كان يخاطب مريديه بالخواطر فى حضرته دون أن تنطق شفاههم ببنت كلمة ، وكان يحاسبهم على ماقترفوه من تجاوزات وهم جلوس معه دون كلام ، حتى إذا بلغت التراقى فى الحساب وكاد المريد أن يهلك من شدة هذا الحساب ، فوقتها يرفع عنه الوطأة والحساب ، ويزيل عنه الكمد .  
وأما ملامسةالمريد لأضرحة الأولياء ، فإن ظاهر الشرع المعتدل لا يمنعها فقد قالت دار الإفتاء المصرية، إن المسح على قبور الأنبياء والصالحين وتقبيلها جائزٌ شرعًا؛ فهو من قبيل التبرك بصاحب القبر وتعظيمه واحترامه، ولا مانع منه شرعًا؛ فهذا ما دلت عليه الأدلة، وجرى عليه عمل المسلمين عبر الأزمان والبلدان.  
وأما أثرها عليه فإن ذلك يعتمد على حال المريد وقت الزيارة ، وكما ذكرنا أن ذلك يتوقف على روح المريد الظاهرة وروح صاحب المقام ، وقد يكون الحوار بين روح وروح ، أو بين ظاهر حواس المريد وباطن روح صاحب المقام ، وقد ذكرنا من قبل الحوار الحاصل بين الشيخ محمد أبو سلامة ومقام السيدة أم الغلام ، ولا شك أن الضريح ، وإن كان جمادً ، إلا أنه حَىٌ بحياة مناسبة له ، وإن كان ظاهره الجمادية ، وهو من وجه كونه حىّْ ، تحصلُ له بركة صاحب المقام ، ويحصل له القرب الإلهى من هذا الوجه ، فلا عجب أن يُقَبِّل ويلامس الزائرون هذا الجماد الحى فى باطنه ، ولقد رأينا كيف أن منبر رسول الله قد أنَّ لفراقه ورأينا كيف كان الحجر يسلم على رسول الله ، ورأينا كيف أخبرته الشاة المسمومة ، بمن أوُدِعَ فيها من سُم .  
وأما الملاحظ من أحوال العوام الظاهرة أن المصافحة بين الناس وهى نوع من أنواع الملامسة تعني إلتقاء الأيدي، وهي تعببر عن التحية أو الوداع أو عقد اتفاق، أو زيادة المودة والترابط وإنتقال المشاعر بين المتصافحين ، كالتى بين الشيخ ومؤيديه ، ولا يختلط على المريد إدراك آثارها ، فمثل تلك المصافحة التى ذكرناها ، مصافحة أيدى المريد لقدم الشيخ وساقه .  
فاللمس والطبطبة على الكتف ، عبارة عن قناة أو لغة جسد مُعَقَّدة تنقل العديد من الرسائل الدقيقة للآخرين. ويدخل فيها أنواع اللمسات المختلفة التى تستخدم للتعبير عن المشاعر والتحكم في الآخرين وإنجاز المهام. وهى نوع من التواصل غير الفظى الذى تنتقل بها الرسائل للآخرين بدون كلمات. بما في ذلك تعابير الوجه والإيماءات وحركات العين والجسم التي تُستخدم لإرسال رسائل معقدة.  
إذ أنّ لمس شخصٍ ما أو التعرض للمس ينشط مناطق مُعينةً من المخ و بالتالي يؤثر على طريقة تفكيرنا وردود أفعالنا وحتى الاستجابات الفسيولوجية. فعلى سبيل المثال، تشير إحدى الدراسات إلى أنّ فحوصات المخ أظهرت أنّ اللمسات العاطفية تنشط منطقةً دماغيةً ترتبط بالتعلم وصنع القرار بالإضافة إلى السلوكيات العاطفية والاجتماعية وهي القشرة الأمامية المدارية.  
كما يمكن أن يبعث اللمس رسائل من التهدئة لشخصٍ في ضيقٍ، إذ إنّه يُقدم ويوصل دعمًا وتعاطفًا مع الشخص الآخر ،  
ولقد دلت الدراسات أن الملامسة المباشرة تفيد القلب حرفيًا، وليس مجازيًا فقط .وتساعد أيضًا على تعزيز جهاز المناعة، فتبدو الملامسة المباشرة أنها نوع من أنواع التطعيم ، ودفعا للمشاعر السلبية التى تقدح فى سعادة الأشخاص ، و من الأسباب الجيّدة التي تجعل شعورنا عند لمس أو عناق الأشخاص الذين نحبهم شعورًا مريحًا ومطمئنًا.  
وقد أظهرت الدراسات أنّ الاطفال – من جميع الفصائل الحيوانية بشكلٍ عامٍ – الذين يكبرون بدون التعرض للعناق أو للمس يكون لديهم مشاكل في النمو وفي الارتباط الاجتماعيّ.  
وفي ظروف كهذه، يشرح الباحثون أنّ إشارات الوالدين بأنهم متاحون لتقديم التعاطف والدعم لأبنائهم ، يوفر استجابة الأولاد الإيجابيّة لهذه الدعوة، وكما أنّ هذا السيناريو يسمح للطفل باستعادة الإحساس بالأمن والطمأنينة ، وكذلك يكون الأمر بين المعلم وتلميذه وبين الشيخ ومريده ، ولهذا تجد أن محبة الشيخ لمريده السابقة على محبة المريد له ، هى التى تدفع المريد إلى التعلق بشيخه والإندماج فيه ، والشعور بالأمن والإطمئنان والراحة والمودة ، والتخفيف من حدة التوتر والعصبية ، وهو فى جواره ، وقيل أن هذا يوثر فى تقليل إحتمالية إصابته بالأمراض التنفسية ، ويقلل من المشاكل الإجتماعية التى قد تصيبهم   
وأخيرًا فإن اللمس فعال جدًا عندما يتعلق الأمر بتخفيف الألم الجسدي، منها علاجات التدليك التي تعتبر طريقةً رائعةً لتهدئة جميع أنواع الأوجاع من الصداع إلى آلام الظهر.  
ويبدو أنّ اللمس له تأثير أكثر قوةً على أدمغتنا وأجسادنا مما كنا نتخيله، لذا من المهم أن نكون مدركين تمامًا لكيفية تأثير الأشياء البسيطة مثل الملامسة على مشاعرنا ومشاعر من نحبهم.

ثم ، هانحن نعود الى ماكنا بصدده من علاقة الشيخ بمريديه وعلاقتهم به ، فنذكر ظروف بداية المعرفة بين الشيخ مسعد وسيد سلامة ، وإن كنا قد عرفنا من أكثر من مصدر ، أن الشيخ يعرف أبناءه وهم فى أصلاب آبائهم ، ولكن مانحكيه هى البدايات التى تظهر لعوام الناس .

فأما بداية معرفه الشيخ سيد سلامة بعمى الحاج مسعد ، فان الشيخ سيد يقصها علينا بنفسه ، واضعا بداية رحلته في نفسه ومع شيخه، فهو الابن المقرب لدى الشيخ للدرجة أن كان زوجا لابنته ، وهو الشقيق للشيخ محمد سلامه الذى كانت له مع الشيخ أسرار جمة ، وقد كان له كشف وولاية قبل حضوره للسلك مع الشيخ في طريقة ، وهو في نفسه كانت له مع الشيخ أسرار وعجائبا ، فيبدا الشيخ سيد واصفا هذه البداية بقوله :

كان بداية امرى وانشغالي بالطريق ، أن كان الى جوارنا رجل يدعى الشيخ جابر ( وكنا قد ذكرنا طرفا من سيرته من قبل )، وكان لديه حانوتا صغيرا يتاجر فيه ، وكان معروفا لدى العوام بكونه صوفيا محضا حافظا للقران ، عالما بالشرع ويَعْرف في علوم الأوفاق ( جمع وِفْق وهو مايُعْمَل من الأحجبة والأعمال التى تقرب بين من يريدون التقريب بينهم أو التفريق بينهم ، أو مايعرف بالعلوم الروحانية ) و هذه الأمور تشغل حيزا كبيرا من اهتمامات القوم في ذلك الوقت ، ولا زالت ، وكان لدَىَّ ( والكلام لسيد سلامة ) ميل كبير الى الجلوس الى جواره والاستماع الى حديثه ، وأعتدت هذا الجلوس ، واعتاد هو الأخر مصاحبتي فطلبت منه ذات مرة أن أخذ عهدا على يديه فرفض ذلك وقال أنى صغير السن على ذلك ، إذ كان عمرى في هذا الوقت لم يبلغ الثانية عشر ، ألا أن هذا الخاطر لا يزال يلح على حتى أكون في سلكه ،فألححت عليه في ذلك ، ولم يزل على رفضه حتى إنني كنت أرى في الرؤى أنى على الدوام أريد أن أشترى منه بضاعه وهو على الدوام لا يبعني إياها ألا أنه من فرط الإلحاح قال لي :

إننى سوف أعطيك فاتحة سلوك تسلك به نحو الله ،ولكن ليس هذا من قبيل أخذ العهد ، فأعطاني وردا يوميا أقرؤه بعد الصلاة ، لكل صلاة وردا خاصا بها ، بعد صلاة الصبح تقول لا اله ألا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد صلاة الظهر تقول اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي صلاة تحل بها العقد وتنفرج بها الكرب وعلى آلة وصحبه وسلم ، وبعد العصر تقول استغفر الله الغفور الرحيم ، وبعد المغرب تقول لا اله ألا الله عدد كل متحرك وساكن ، فداومت على هذه الأوراد ، وبعد العشاء تقول سبحان الله والحمد لله ولا اله ألا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولازلت على قراءة هذه الأوراد حتى اليوم ، وحصل بيني وبين الشيخ جابر رباط روحاني فنتج عنه مودة وأنس به فكنت احب أن اجلس اليه يوميا مستمعا الى قصص و حكايات وألفتُ الجلوس إليه.

ألا إنني كنت في بعض الأوقات والأيام أرى الشيخ جابر غائبا مختفيا عن الأنظار ، وانا المتتبع لكل حركاته وسكناته ، ووجوده وغيابه ،وكانت تلك الأيام التي يكون غائبا فيها هي أيام المواسم و الأعياد و المولد النبوي وليلة النصف من شعبان و أيام المولد ، وخلاف هذه المناسبات ، وحصل في نفسي شغف لإستطلاع أسرار هذا الرجل ، وكنت قد نضجت قليلا وسلكت مسلك الشباب والرجال وكنت اسأل زوجته عن سر غيابه فتقول لا اعلم ، اصبح هذا الأمر شاغلا لي ومقلقً إيَّاي ،وكان لي أحد الأصدقاء المقربين إليَّ ، والذي كنت أسر له بهذا الخاطر في نفسي ، فقلت له إن هذا الرجل يختفي في المواسم والأعياد ، فأريد أن اعرف أين يذهب هذا الشيخ في تلك الأوقات ... تعالى نتربص به، وجاءت المناسبة التي كانا ينتظرانها، وكان يوم جمعه وكان الشيخ جابر يخطب في أحد المساجد القريبة منه فلما نزل على المنبر وأتم الصلاة وخرج من المسجد رأيناه يتوجه الى خارج المنطقة التي نسكن فيها فقلت لصاحبي تعالي معي نتبع خطى هذا الرجل ، لنعرف الى أين يذهب فوجدناه يركب احد الأتوبيسات ، وكان يركب من الباب الأمامي ، فركبنا نحن من الباب الخلفي وسارت العربة الى أن وقفت في مكان لم نتبينه بعد ، ولما نزل من العربة نزلنا خلفه ، رأيناه قد وقف برهة في أول الطريق ، ثم نظر خلفه فرآنا فَسُقِطَ في أيدينا ، وقال : ما الذي جاء بكم الى هنا فقلنا له كنا نريد أن نعرف أين تقضي هذا الوقت ، فسرنا من وراءك ، فقال تعالوا معي، .… وكان المكان الذي يقصده الشيخ جابر هو بيت الشيخ مسعد فى الأخصاص ، وكانت الوقفة التي وقفها في أول البلد هي الوقفة التي يقرا فيها الفاتحة للشيخ ، وهي في عُرفة الأذن بالدخول عليه.

فلما دخلنا على الشيخ سلمنا عليه وقبَّلنا يديه وجلسنا ، وكانت القاعة مكتظة بالرواد والزائرين، وجلس الشيخ جابر في جوار الشيخ وجلست وصاحبي في آخرها ، ومرَّ الوقت وشعر صاحبي بالجوع ، وكذلك أنا فقال لي صاحبي … لو كان هذا الرجل شيخا حقا لأتى لنا بالطعام .… وما أن انتهى صاحبي من كلامه حتى نظر الينا الشيخ وصاحبي ونده على ولده باهى قائلا له: يا باهى هات الطبلية بتاعه الأكل … الناس نَفَسْها انقطع من الشاي … فنزل الطعام وأكلنا.

وكان الشيخ جابر يريد أن يجالس الشيخ و يتحدث اليه إلا أن الشيخ مسعد قال له: خذ دراويشك وتوكل على الله آذنا له بالانصراف.… سلمنا على الشيخ وخرجنا من المندرة ، ولما خرجنا نادي الشيخ علي بشير (وهو من أحب الإخوان على الشيخ واحبهم الى إخوانه ) وأشار اليه أن ينادوا علىّْ - والكلام للشيخ سيد سلامه ـ وأخذني بشير ، وذهب بي الى الشيخ فأعطاني الشيخ قرش صاغ ، وكان هذا في عرف الإخوان عطاء كبيرا لا يُعرف كُنْهُهُ، فهل هو فتحة الطريق ، أم هل هو مال يأتي اليه من خظوظ الدنيا ، هل... هل ... ؟ المهم انه اخذ منه القرش صاغ فلما خرجت بعد هذا العطاء وقابلت الشيخ جابر … قال لي ماذا في الأمر؟ فقلت له أعطاني الشيخ قرش صاغ … فقال لي مندهشا.. ده صاغ ياوَلَة… ثم قال لي لا تنفقه ، وجعلته في ورقه مربعه ، وعلقته على صدري … وكان هذا القرش الصاغ الذي أعطاه الشيخ له في اللقاء معه …. رمز ينتهى الى القرب منه والذي آل إلى زواجه من إحدى بناته .

ثم عاودن الذهاب الى الشيخ مع الإخوان ، وتكررت زياراتي لديه ، وكان الشيخ بسبب كثرة الإخوان يقسم حضورهم على الأيام ، فمنهم من يأتي في يوم الجمعة ومنهم من يأتي في يوم السبت ومنهم من يأتي في يوم الثلاثاء ومنهم من يأتي في الصباح الباكر وكان ذلك محصورا على الأخوات ، ومنهم من يأتي بعد الظهر وكان ذلك للإخوان ، وتعلق قلبي بالشيخ والإخوان وكان ارتباطي بالأوقات التي يأتي فيها الشيخ جابر سبباً في ضيقي ، وكان ذلك مانعاً لي من الوفاء بتعلقي بالشيخ مسعد والإخوان ، فلما تكلمت مع الشيخ مسعد في ذلك قال لي اذا أردت أن تأتي الىَّ فأتي في أي وقت تشاء ، ولا تتقيد بالشيخ جابر ، ولا تخبره بذلك ، واذا سألك عن هذا الأمر فقل له عمي قال ذلك …. فشعرت في هذا الوقت أنني صرت ابناً من أبناء عم الحاج مسعد وانتقلت تبعيتي من الشيخ جابر فرعاً الى الشيخ مسعد أصلا ، وأصبحت كأني وجدت ضالتي ، واصبح لي عما وشيخا ومربيا ومرشدا ، فالشيخ جابر قد أخذت منه بداية السلوك وكانت السبب و الفاتحة في دخولي الى الحاج مسعد ، ولا انقص فضله ولا ابخس حقه، فكان مما استفدت من مصاحبة الشيخ جابر أن أتممت على يديه قراءة أسماء الله التسعة والتسعين ، وكان عدد مرات قراءة كل اسم مائه الف مرة ، وكان كل اسم يأخذ في قراءته ثلاثة شهور ، وكنت انتقل من اسم الى اسم بعلامات مختلفة، في بعض الأوقات يكون الانتقال عن طريق أشاره ، فإن لكل اسم من الأسماء الإلهية عوالم ترتبط به ، فإذا ذكرت بهذا الاسم دخلت في هذه العوالم الذاكرة به فيحصل داخلك نوعا من الارتباط بذكر هذا الاسم ، يعقبه أن يذكرك به في ذات الوقت الذي تذكر فيه هذا الاسم ،فمثلا إذا كان من عادتك أن تذكر الاسم بعد صلاة المغرب وحدث لك انشغال عنه فلم تذكره في هذا الوقت حصل لك نوع من الضيق والكرب والحزن والزهق ولا يزول عنك ما تشعر به ألا بذكرك له ، فإذا أتممت مدة قراءته ، وقد آن الأوان أن تنتقل الى إسمٍ أخر جاءتك أشاره توجب لك هذا الانتقال ، كأن تكون جالسا - مثلا – بين القبلة والمقام فتجد بابا مكتوب عليه لا إله إلا الله ، وقد كنت تقرا في الاسم الله ، فتلك إشارة بانتقالك إلى الذكر الجديد الذي رأيته ،فإذا أخبرت شيخك به أجاز لك الذكر به ، أو رؤية تراها بالاسم الجديد التالي لك.

وإذا ذكرت الاسم الإلهي مع هذه العوالم الذاكرة به ، وحصل لك الإنس الذي ذكرناه ، تولدت في قلبك خواطر ، هذه الخواطر تُحْدِثُ فيك نوع من أنواع الشفافية والإحساس ببواطن الأمور ، وليس هذا هو الكشف المعلوم لدى القوم إنما هو الإحساس الذي هو أكثر من الظن ، وأقل من اليقين ، كأن يدخل عليك أحدهم وتشعر انه حزين أو سعيد أو مهموم.

إلا أن هذه الخواطر قد تؤدي بك الى ما لا يُحْمَد عقباه حين تجد في نفسك سرور بها ، وشفوفا بها على غيرك ، ودليلا على ارتفاع مكانتك ، فإذا حدث مثل هذا فاعلم أنه قد أصابتك آفتها وافتتنت بها وأصبحت أسير لها ، وبدلا من أن تتقدم بها ، تجد نفسك ، قد انحرفت عنها الى شهود نفسك والإعجاب بها ، ولا يوقِفُ هذا المدَّ عليك ألا مدد شيخك ومشورتك له وإخلاصك نحوه والطاعة والاستماع اليه.

وقد تتجاوز حد الذكر بالاسم الذي تذكر به ، اذا لم يكن لك مرشدا ينصحك أو شيخا تحت امرته ، فيصيبك من اثر روحانيتة هذا الذكر مالا تتحمله ولا تطيقه، فيحصل لك خلل في بدنك ونفسك وقلبك وروحك ، فتذهل في سلوكك أو تغيب عن إدراكك ، وهذا هو دور المرشد والإمام الذي يعرف حدَّك من حد ذكرك ، وهو العالم بطاقة احتمالك فيوقفك عند حد هذه الطاقة ، وإذا لم يكن لك مثل هذا المرشد فقد يتناولك الشيطان بالأذى والإتلاف والإفساد ، فمن لا إمام له فإمامه الشيطان ، وقد ذكرنا من قبل ما حدث مع الشيخ سيد سلامة ، وقت أن كان يرى الكعبة ماثلة أمامه بمجرد قراءته لتكبيرة الإحرام ، فأخبره عم الحاج مسعد بأن هذا من أثر الشيطان عليه .

ثم نواصل حديثنا مع الشيخ سيد سلامة عن عم الحاج مسعد ، فيحكي لنا عما كان له مع الشيخ فور تخرجه من معهد الطيران التابع للجيش وانتظاره لخطاب التوزيع على الوحدات الخاصة بالطيران وكان في أحد هذه الأيام في زيارة للحاج مسعد فقال له الشيخ أثناء جلوسه معه إلى أي مكان تريد أن تذهب؟ ولم ينتظر الشيخ جواب عليه فقال خلاص نوديك الإسكندرية ، وحدث أن جاء خطاب التوزيع في اليوم الثاني وكان فيه أن تقرر أن يكون تعييني في مطار النزهة الإسكندرية ، فذهبت إلى الشيخ فأخبرته بذلك فقال لي لا تنسى أن تزور سيدي المرسي أبو العباس الحقيقي ، فتعجبت في نفسي من هذا الوصف الذي جاء على لسان الشيخ فذهبت إلى الإسكندرية ومنها على مطار النزهة ، وسلمت خطاب التوزيع ثم غادرت النزهة لأزور مقام سيدي المرسي أبو العباس ، ولمَّا ذهبت الى المسجد وجدت شيخ المسجد على وشك غلقه ، فقلت له يا مولانا أنا جاي من مصر وعايز ازور سيدي المرسي أبو العباس الحقيقي ، وقال لي هو في حقيقي و مزيف ؟ فقلت له: الِّي قال لي ، قال قول كده فنظرت اليه ، ثم نادى على خادم المسجد ، واعطي له مفتاحا ، وقال له انزل بهذا الرجل الى المقام الذي هو تحت هذا المقام الظاهر ، ولما نزلت وجدت حجرة مفروشة بالحصير فقال لي الخادم ، براحتك بقي أقعد مع سيدي المرسي أبو العباس براحتك ، فقرات سورة يس ثم خرجت من المقام ، فلما خرجت من المقام وجدت أحد سُقاة الماء حاملا قربته ، فلما رآني بَشَّ في وجهي ، وتقدم نحوي كأنه يعرفني وعانقني ثم سألني من أين ؟ فقلت له أنا من مصر ، فأخذني وجلست معه واعد لي طعاما وجلست معه نتحدث سويا ونتناول سير الشيخ أثناء حديثنا ، ثم ودَّعته و ذهبت الى المطار ، وصارت هذه عادتي فترة طويلة ، أن انزل من مطار النزهة وازور سيدي المرسي أبو العباس والتقى بهذا السقا و نجلس سوياً ، وحدث هذا يوميا وحصل ارتباط بيني وبين هذا السقا و لمَّا سافرت الى مصر تحدثت مع الشيخ في شأنه ، ثم حدثت اخى الشيخ محمد سلامه فقال لي لن يأتي اليك هذا السقا مرة أخرى ولن تراه … فلما عُدْت الى الإسكندرية بحثت عنه فلم أجده ، وأحزنني غياب هذا الرجل عني الى درجة البكاء .

والحقيقة أن طريق الله ومسالكه هي طرق ومسالك موصولة بعضها ببعض وكل طريق ومسلك يؤدي الى الطريق والمسلك الآخر ، والحقيقة أيضا أن أهل الله وعارفيه وأولياؤه هم الآخرون موصولون بعضهم ببعض ومعروفون بعضهم لبعض ولا تفصل بينهم البلدان والأكوان والأبدان، إنما هي أرواحهم في أرجاء الملكوت يتعارفون فيها على بعضهم يتحدثون فيها عن طرائقم وأولادهم وما كانت الرواية التي ذكرناها إلا دليلا على ماستنتجناه في كلامنا... لفضل الله بهم فتلك هي دولة الباطن التي هي مواطن التقاء الأرواح لا الأشباح .

وما دمنا نتحدث عن تربية الشيخ لمريده ، وإعداده لِما هو منوطٌ به ، فإن الشيخ سيد سلامة وهو من أقربهم لديه ، قَصَّ علينا حكاية عن أم جمالات ، وهي احدى الأخوات المقربات من الشيخ والتي عهد إليها الشيخ بإعداد الطعام للإخوان ، وكان الشيخ يحتفل بليلة النصف من شعبان ، وهي ليلة كان الشيخ حريصا عليها، لأنها الليلة التي صادفت أول لقاء له مع عمه الشيخ إبراهيم الدكرورى ، وكذلك كانت الليلة التي فتح الله بها عليه فتحه الأعظم ، فطلب الشيخ من أم جمالات أن تعد الطعام للذاكرين ، وتجعل اللحم في الشونة وتسترها حتى توزعها على الناس بنفسها بأنصبة متساوية ، فلا تميز أحدا على أحد مهما كان هذا الأحد ، فقالت له حاضر يا عم وبدأ الأكل وأعطت أم جمالات لكل واحد نصيبه كما أشار عليها الشيخ.

ثم حدث أن دخل عليها الشيخ باهي و كانت تحبه كثيرا فوضعت له جزءا كبيرا من الكبدة ، وهذا تمييز واضح لا شك فيه ، وإن كانت ترى في نفسها أن الشيخ لن يلومها على ذلك من وجه كون المميز هو ولده ، بل ربما يفرح الشيخ لذلك ، فلما علم الشيخ بذلك منها غضب غضبا شديدا ، وطلب منها ترك إعداد الطعام وتوزيعه وترحل الى منزلها ، فاستغربت ما فعله الشيخ معها ،اذا كان الأمر يتعلق بالشيخ باهى الذي هو ولده والتي سَمَّت ولدها على اسمه ، و أثناء عودتها الى المنزل اصطدمت بها عربة ، وإصابة ابنها بكسرٍ في قدمه ظل معه أثره إلى الإن ، فلما قابلت الشيخ بعد ذلك قال لها :ألَمْ أقُل لك أن توزعي اللحم على كل الدراويش بلا تمييز ؟ فلماذا ميَّزتى وفضلتي باهي على إخواته.

فتلك من المواقف التي تجمع في عباراتها بين تربيه الشيخ لأبنائه وتربيته لولدة خاصه وهو الذي أعده للولاية من بعده وهي قصه أراد الشيخ أن يُخبرنا بها أن نظر الشيخ الى مريديه وولده منهم ، لا ينبغي أن يتصف بالتميز عن غيره ، فان الأمر ليس هو النظر بمنظور الدنيا وإنما الأمر يتعلق بما نطمح اليه في الأخرة في القرب من الله ونوال رضاه علينا ولا شيء ارضى للرب من صفه العدل فان الله هو الحق وهذا من الأخلاق الإلهية ، وهو أيضا من الأخلاق المحمدية التي تخلق الشيخ بها ، إذ كان الشيخ على نهجه وفي طريقه ولقد تجلت هذه الصفة في النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى صورها حين جادله صاحبه في شأن حد من حدود الله فتغير وجهه وقال قولته الشهيرة ( وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ) ثم إنه لو جعل له ميزة على غيره لكان ذلك فتنةً للناظرِ إليه ، وشكٌ في صدقه في دعوته ، ولأصابت هذه الصفة أقرب المقربين اليه ولعمَّت جميع الاتباع السائرين على نهجه ، ولانتفى الطريق من بين يديه وضاع ما كان مأمولا له.

كان هذا هو الشأن في ولده أما الشأن في اتباعه فهو ربطهم بالطاعة وإيمانهم بحكمة الشيخ وراء إصدار الأمر أو الإشارة اليه ، فان للشيخ نظر خلاف نظرهم ولو كان نظرهم كنظره ، فما حاجتهم اليه ؟ ولصاح المنطق من بين أيديهم: علاما تتكبدون المشقة في اتباعه ؟ وعلام تقطعون الكثير من الجهد والمال في سبيله ؟ولا طائل لكم في هذا فإنما هو رجل مثلكم لا يفضلكم في شيء ، لأجل هذا كله كان الشيخ حريصا ألا ينقض أحدٌ ميثاق العدل الذي قطعه على نفسه ، وقت أن بايع الشيخ ، ولا ينقضُ احدٌ ميثاقَ الطاعة التى إرتضاها لنفسه وقت أن أكل طعام الشيخ ، وشرب من مائه ، خصوصا وانه قد بانت له شواهدٌ لا يتطرق اليها الشك في صدق الشيخ وصحة دعوته

ولا يَهُولَنَّك العقاب الذي أصابها في ولدها ونفسها ، فان الأمر يتعلق بجادَّة الطريق وبالقيم العليا الذي يرتبط بها ، من العدل والقسط والقدوة والطاعة ، والعقاب في حقيقته هيِّن بالناظر الى الثمرة التي ينا لها صاحبها به في الجنة من مصاحبة الشيخ فيها ، ونيابته عن أبنائه في مواقف يوم القيامة وهو قول الحق ( يوم ندعو كل أناس بأمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا )

وفي مناسبة الكلام على أن نظرة الشيخ لشيء خلاف نظرة المريد ، وأن علمه بمواطن الطريق ومحاوره هو ما جعله دليلا ومرشدا فيه ، مصداق ذلك ، ما قصه علينا الشيخ سيد سلامة من أنه قد إعتاد في فتره من الفترات أن يرى الكعبة ماثله أمامه بمجرد أن ينطق بتكبير الإحرام في الصلاة ، وقد أسعده ذلك ، واعتبره دليلا لقرب مكانته وعلاء منزله ، واستمرأ هذا الشعور ، إلى أن قابل الشيخ ، وقص عليه الأمر فقال له الشيخ : الشيطان يضحك عليك فلا تفرح أن الشيطان يريد أن يلهيك عن العبادة ، وان يكون الله هو مقصدك وحده لا صوره الكعبة الماثلة أمامك ، فقل لي بربك : من غير الشيخ يدرك هذه الخدعة التي أوقعه الشيطان فيها ؟ والتي لو استمرت معه لتحولت الى امر أخر أشد منه ، لا يمكن له الفِكاك منه ، وهذا هو دور الشيخ من أن يَعْبُرَ بالسالك دروبه ، وأن يُبَصِّرَهُ بأدوائه وأدويته ، وأما دور المريد فهو ألا يُخْفِى شيءً عن مرشده ، مهما بدا له هذا الأمر صغير أو تافها أو حسنا في ظاهره ولا يُداخلك الشيطان بقولك : إن كان شيخي اعلم بما أنا فيه ، فيكون بذلك داعيا لك لعدم الحديث معه ، فلقد حدث مع الشيخ من احد الإخوان مثل ذلك حين قال له: يا عمى أنت اعلم بما أنا عليه فقال له : لا شان لك بما أعلمه عنك وإنما شأنك أن تخبرني به ، ففى القصة التي تلوناها عليكم ، لو لم يخبر الشيخ سيد عمَّه بما راه في صلاته ، لما تمكن أن يعلم أن ذاك هو الشيطان، يريد أن يصده عن سبيله ، ولا خلاف أن الشيخ كان أعلمُ بما كان عليه من قبل أن يخبره به .

وفي مناسبة الكلام عن أدب الإخوان مع شيخهم الذي هو من تأديبه لهم ، ما قصَّة الشيخ باهي على ولده الشيخ ناصر في هذا الشأن يقول الشيخ ناصر :

سمعت من والدي رحمه الله هذه القصة البسيطة في أحداثها العظيمة في فوائدها ودروسها قال ، ارد الشيخ مسعد إشعال سيجارة ولم يكن معه أعواد ثقاب يشعل بها سيجارته ، فنظر إلى الشيخ عبده أبو فهمي وهو من أبناء الشيخ وكان جالسا أمامه فأخرج الثقاب من جيبه ومد يده يناوله إياها ، وهو على هيئته جالسا وإن كان من الأدب أن يقوم ويذهب إلى عمه بها ، يقول الشيخ عبده أبو فهمي : فإذا برجل أمامه قد رفع يده بسيف وانزلها يهوي بها على قاصدا رقبته يفصلها عن جسده ، وما هي إلا طرفة عين بين السيف و رقبته اذا بالشيخ يصرخ فيه بحده بالغه ( قوم اقف يا قليل الأدب) يقول فاختفى السيف وانتفضت واقفا من فوري ثم أردف قائلا : لولا غضبة عمي هذه لفصلت راسي عن جسدي ، و العبرة جليَّةً ظاهرة فان كل أوامر الشيخ ونواهيه وتوجيهاته ونفحاته وهَدْيِهِ وغضبه على مريده ، إنما هى لصالحه وصلاحه ، لا حظَّ للشيخ فيها إلا حرصه وخوفه ورعايته لابنه ، حتى لو لم توافق هذه الأوامر والنواهي والتوجيهات هوى الابن ورغبته ، إلا أنها السبيل إلى السلامة والفلاح وحتى الغضب والحدة فإن ظاهرها العذاب وباطنها الرحمة ، وربما من المناسب هنا أن نستدعى قول الحق سبحانه ( النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ) وإسقاطا للمعنى على المربي الروحي والمرشد المحمدي فهو احرص وأخوف علينا واعطف واحق بنا وارحم وأراف لنا من انفسنا بنا، فحرىٌّ بمن هذا حرصه أن يُطاع وأولي بمن هذه رحمته أن يجاب ، اللهم ارزقنا الفهم عنهم والطاعة والتسليم لهم آمين ، والحقيقة أن الأدب يستدعى من المريد أن يحفظ الحد بينه وبين شيخه ، وهمُ القائلون أقعد على البساط ، وإياك والإنبساط ، فلا يغررك أن تكون معهم فى حضرة ثم تنسى حدك من حدِّهم .

والشيخ المربي هو خليفة الله في مُلْكِ مريديه ، وأوامر الشيخ و نواهيه في مقابل الأوامر والنواهي الشرعية التي جاء بها الشرع ، والتي ينبغي للمريد ألا يكون له فيها خيار مع نفسه ، والشيخ هو الوارث المحمدي لإرث النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي هو الخليفة الكامل الذي ظهر بأسماء الحق وصفاته ، ومن هذا التسلسل تعرف أن الشيخ الكامل هو صورة الله الظاهرة للمريد ، لأن صفات الحق متجلية على ظاهر الولى الكامل ، تلك الصفات المشهودة للمريد ، ونحن نقول الصورة ولم نقل الحقيقة ، وحقيقة الصورة الإلهية تعطي الطاعة لما يصدر عن هذه الصورة من الأوامر والنواهي ، والأمر في هذه القصة ليس ظاهرها أنما الأمر فيها هو دولة الباطن المضيئة بالأرواح ، فان الجسد تُفْنِيه الأيامُ والدهور أما الروح التي تقتضى هذه الآداب فإنها الباقية لدي الحق لأنها منه ، وعليها يقع العذاب والنعيم في الآخرة إما نار وإما جنة ، والشيخ هو الصورة الإلهية المنوطة من الحق بتقديم المريد وإيصاله الى ما يرضى ربه به عنه ، وعار على العارفين أن يضع الحق فيهم ثقته في تربية عبيدة ثم يخفقوا في تأدية رسالتهم إليهم فيتركون أولادهم في غَياهب الضلال وهم في الحقيقة ارزاقهم من ربهم ، ولا بد للمريد المحسوب على شيخه من النجاة باى طريق كان ، لان المريد ماكان رزقا لشيخه ، ولا الشيخ مرشدا للمريد إلا بإنتقاء الله وإختياره ، وحاش لإختيار الله أن يصيبه الإخفاق ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

وما دمنا قد ذكرنا **عبده أبو فهمى** ، فإن له مع الشيخ قصة في أول ارتباطه به ، فقد كان عبده أبو فهمي شيخا هو الآخر ، له مجموعه من الدراويش يسيرون خلفة ولكنه كان كثير الانتقاد لأحوال الشيخ مسعد التي تتوارد على سمعه ، وكان غير مستوعب لكثير من أوضاع وأحوال الشيخ ، وكان من اشد المعارضين له وظل علي اعتراضه هذا إلى أن حدث ما لم يكن له في الحسبان ، فقد كان بينه وبين احد أبناء بلدته مشاحنة شديده وخصومه وكانت هذه الخصومة شديدة إلى الدرجة التي قرر فيها أن يتخلص من هذا الخصم الذي لا تجدى معه المصالحة ، يقول:

وعزمت على أن أقوم بهذه المهمة في ساعة الفجر عندما يكون ذاهبا بمواشيه إلى غيطه من بيته ، فأتربص به واقتله ، وبينما هو على هذا العزم إذا بالباب يطرق في الثانية من فجر ذلك اليوم الذي إنتوي فيه أن يقوم بمهاجمته ، فلما فتحت الباب اذا بالشيخ مسعد ، واقفا علي الباب ، فدخل واغلق الباب خلفه وقاله أنت ناوي على أيه يا عبده ؟، ده أهل البيت كلهم جولي ، وقالوا لي قوم الحق ابنك ، فجتلك يا ابني !! هنالك أمسك الشيخ عبده أبو فهمي بقدم الشيخ وجعل يُقَبلها ، و أخذته نوبة من البكاء ، وتحول قلبه الى حب الشيخ الذي كان من أثره أن صار يحب كل شيء في بلد الشيخ حتى القطط والكلاب ،

ولا ينبغي أن نمر على هذه القصة مرور العابرين ، وأول هذه الأمور أن أبناء الشيخ مُقَيَّدُون تحت حسابه ، معروفون لديه ، محسوبون عنده ، وان اختلفت مواقيت حضورهم اليه.

الأمر الثاني: أن قلوب أبنائهم بأيديهم يوجهونها في الأوقات المناسبة للمريد، فرأيت كيف انقلبت كراهية عبده أبو فهمي واعتراضه عليه الى حب فائق وصل الى محبه القطط والكلاب الكائنين ببلدته .

والأمر الثالث: أنه في سبيل محبة الشيخ وانضوائه تحت لوائه ، قد تخلى في وقته عن رئاسته وشفوقة على أبنائه من مريديه ودراويشه وقيَّد نفسه وهو الشيخ ، ليصبح مُريدا في بلاط شيخ آخر .

الأمر الرابع: رعاية أهل البيت وقربهم من المشايخ لأولادهم وحرصهم عليهم وعدم غياب نظرهم عنهم.

وكنا قد ذكرنا من قبل فيما يختص بالشيخ عبده أبو فهمي انه قبل أن يَرِدَ على الشيخ كان وليا شيخا ولديه اتباع من الأبناء ثم ارتفعت مكانته بعد تبعيته الى عم الحاج مسعد ، ولم تزل مكانته عن مكانته الأولى ، وبحكم هذه التبعية والمكانة كان له إجلال شديد من أبناء الشيخ الذين سبقوه ، وكان له حضور وهيبة حتى انه إذا قدم عليهم قام الجميع له وقوفا لمعرفتهم السابقة ، ومكانته الحالية ، حين صار تابعا للشيخ مسعد ، ولم يزل الشيخ عبده أبو فهمي على هذه التبعية بعد انتقال الشيخ ووراثة باهى لمكان أبيه ، فكان يقف أجلالا لقدوم الشيخ باهي عليه ،فيقف بالتبعية إخوانه له ، ثم يذهب الى الشيخ باهي بهمة ونشاط يقبل يديه ، حتى أن الشيخ باهي قال له ذات مره : ليه كده يا شيخ عبده قال له :… والله ابداً يا عمي ... فقال له الشيخ باهي … لو عايز تريحني ما تعملش كده ، اقعد وارتاح عشان الدنيا بتتقلب لما تقوم ، وكان الشيخ عبده أبو فهمي في بلدته على ذات الهيبة التي قصصناها عليكم ، حتى أن أولاد بلدته قالوا له بعد انتقال الشيخ : يا شيخ عبده بعد انتقال الشيخ مسعد ما ينفعش تمشى ورا الشيخ باهي وهو من سن أولادك ، فقال لهم : عندكم حق أنا فعلا مينفعش امشى وراء الشيخ باهى لكن الأحرى بي أن أمشي وراء حنان بنت الشيخ باهي التي لم تتجاوز بعد خمس سنوات ، فانظر كيف كانت محبته لشيخه .

ولم يكن هذا الأمر إلا لسابق معرفه الشيخ عبده أبو فهمي بمكانه الشيخ مسعد ومكانة وارثه .

ولقد كان الشيخ عبد أبو فهمي أقرب المقربين إلى الشيخ حتى أنه كان يطلق عليه (ترجمان الشيخ بالخاطر ) فإذا أراد الشيخ فعل شيء أو قول شيء وتوجيه أحدٍ إلى شيء ، ألقَى هذا الخاطر في راس الشيخ عبده أبو فهمي ، فيقول به أو ينقله أو يوجهُ الى فعله ، أي ينوب عنه في توجيهه ، ولا يكون ذلك أبدا إلا إذا كانت روح الشيخ عبده أبو فهمى متصلة بروح الشيخ على الدوام وكأنهما روح واحدة .

وكان من كراماته وقت انتقال الشيخ عبده ، وأثناء سير الناس بنعشه ، وقد كان النعش يسير بعادته كما اعتادت نعوش عوام الناس في السير، حتى أن أختنا أم محسب وقد رأت هذا ، إستغربته ، فكانت تعرف مكانته من الشيخ وقربه منه، وكانت تتوقع أن ترى في سير نعشه كرامة من كراماته وخرقا لعوائد الناس فيه ، فقالت مستغربةً ( وكأنها تكلمه وهو فى نعشه ) مالي أراك كعوام الناس ، الم يكن لك قُرباً من شيخك ، الم تشرب من بقايا إنائه ماء أو تشرب فضلة الشاي من كوبه ؟ فإذا بالنعش يرتفع الى اعلى ويدور كالمروحة ، وكان الشيخ باهي من جملة السائرين خلفه فجلس في الأرض وقال : ها قد ظهرت كرامتك ، عشان تعمل إن أنت شيخ ، عشان هما مش مصدقين أن أنت شيخ ، فما لبث النعش أن استقر ونزل من عليائه ، وسار بأقصى سرعته الى مدفنه ، فانظر إليهم كيف يسمعون وكيف يتصرفون كأنهم أحياء ، فتلك إشارة من الله الى غيرهم بحسن الخاتمة وإشارة إلى رضاء شيخهم عنهم ، ومن ثم رضاء ربهم .

وكما كانت بداية الشيخ عبده أبو فهمي بداية دراماتيكية مع الشيخ إذ كان الشيخ عبده أبو فهمي ولياً شيخاً له دراويش من قبل حضوره للشيخ ، وانتظامه معه كدرويش مريد تحت امرته ورعايته ، كذلك كانت بداية الشيخ **عبد المنعم أبو حسين** ، وقد كان هو الآخر وليا له مكانةً كبيرةً من قبل أن يأتي الى الشيخ وينتظم في سلكه درويشا مريدا ، إلاَّ أن الشيخ عبد المنعم أبو حسين كان وليا مطمطما مُعْجَبَاً بولايته ومكانته من ربه ، وقد جعل الله له صفة الكشف ، فكان يرى أنوار الأولياء في وجوههم ، وكان مطَّلِعاً على عطايا ربهم اليهم، وكان الحقُ سبحانه قد أعطاه القدرة على سلب هذه العطاءات الظاهرة على الأولياء ( هكذا كانت مَهَمَّتَهُ من ربه نحوهم )، وهو أمرٌ معروف بين الأولياء ، لا يختلفون عليه **فكان دوره معهم كدَوْر الفاتن** **لهم** ، فمن الأولياء من كان عطاء ربه له عطاء قويا راسخا محميا لا يتمكن أحد من زحزحته أو التأثير عليه أو رصده ، ومن الأولياء من كان عطاؤه اقل رسوخا من صاحبه فكانت مشوبةٌ ببعض ما يشوبها ممَّا يجعلها مخلخلةً غير ثابتة الأركان ، ومنهم من كان عطاؤه عَرَضِياً لا يكاد يأتى حتى يرحل كعطاءات الأحوال ، وكان الشيخ عبد المنعم بعطاء ربه له موكلاً الى هؤلاء الذين بإمكانه أن يسلب عنهم هذه العطايا وهذه الأنوار ، والأمر فى دوله الباطن وشؤون الأولياء يحتمل جميع ما ذكرناه وما ذكرناه كان شبيها بالإيمان ، فمن المؤمنين رجال صدقوا لله في أيمانهم فلا يعتري إيمانهم ما يخالفه أو يزحزحه عن مرصده ، ومن المؤمنين من كان أيمانه على شفا جرف لا يثبت حاله ولا يؤمن ما له،ومنهم من كان إيمانه بالزيادة تارة وبالنقصان تارات، ودور الفِتَن التي جعلها الله في طريق السالكين أنما هو اختبار هذا الأيمان واختبار هذه الولاية ومن هذه الفتن ماذكرناه من سرقة العطايا.

وحدث أن قابل الشيخ عبد المنعم وهو الولي المطمطم ولياً آخرَ أشدُّ طمطمةً منه ، يسعى نوره بين يديه سعياً كاد أن يخطف به عين الشيخ عبد المنعم ، فنظر اليه وحاول أن يسلب نوره منه أو يكشف مداه فلم يتمكن ، واحتار في أمره !! مَنْ يكون هذا الوليّْ الذي لم يتمكن من سلب أنواره ، وهو القائل في نفسه : لم أجد من الأولياء من يجعلني مستمتعا برؤيته معجبا بها ، فإذا به يرى **الشيخ عبده أبو فهمي** الذي كنا قد ذكرنا قصته من قبل ، وأخذته الدهشة من رؤيته ..... فبادرة الشيخ عبد المنعم سائلا إيَّاه عن شيخه فأجابه الشيخ عبده أبو فهمي بما دار في نفسه من أفكار وتساؤلات ، وقال له : سوف اذهب بك الى شيخى فيعجبك نوره وستستمتع به ، قاصداً عم الحاج مسعد.

ونحن إذ نذكر هذه القصة نذكرها بشيء من التصريف ، يغفر الله لنا ذلك حتى نتمكن من حبك سياق قصتنا له.

اخذ عبده أبو فهمي الشيخ عبد المنعم أبو حسين الى الحاج مسعد في الأخصاص فلما وصل إلى أول البلد ، قال له : انتظر هنا حتى آتيك فاستأذن الشيخ في دخولك عليه ، فإن لم أرجع إليك ، فاذهب من حيث جئت ، فلما وصل إلى الشيخ واستأذن للدخول وجد الشيخ يقول له : بعد أيه يا عبده روح هاته ( أىّْ ، بعد ماجبته عايز ترجعه )، وعندما دخل الشيخ عبد المنعم على الشيخ سأله الشيخ عن اسمه فأجابه ، ثم سأله عن ذلك اليوم الذي جاء فيه وكان يوم الثلاثاء ، فأجابه : الثلاثاء ، ثم قال له : يا شيخ عبد المنعم ماذا فعل الخضر في السفينة ؟ ( يقصد السفينة المذكورة فى سورة الكهف ) قال: خَرَقَها ، ثم كرر لفظ خرقها ثلاث مرات ، فكان هذا اللفظ بمثابة خرق سفينة الشيخ عبد المنعم ( وهو سرَّه المطمور فيه والذى يسلب به الأولياء ) وكأنه إيذانا بسلب قدرته على سلب عطايا الأولياء ، فوجد الشيخ عبد المنعم نفسه وقد اُستلب منه عطائه فحزن لذلك ، وآمن بالشيخ على الرغم من حزنه من سلب هذا العطاء ، ولكنه بهذا الذي كان، اطمأن لولاية الشيخ مسعد ، وهو الخبير ، والعارف بالأولياء و بأنوارهم ، وطمأنه الشيخ أن سره معه وسيسترده وقت حضور وفاته ، ومكث الشيخ عبد المنعم في دار الشيخ مسعد سبع سنوات كاملة متصلة ، قال له الشيخ بعدها : اذهب الآن لترى ما تفعله في دنياك ، (فقد كان زاهلا عنها طوال هذه المدة )، وانظر الى حال أولادك فذهب ، وأخذ عائلته ومكث مع الشيخ إلى أن لقى الله عز وجل.

ولعل أهم ما نأخذه من هذه الرواية ما تواتر عن الشيخ أو ممن رووا عنه أن أولاد الشيخ أولياء لا مريدين ، سمعناها من الشيخ باهي وسمعناها من غيره ، فرجال الله أنواع منهم ن يربى المريدين ، ومنهم من يربى من هم فوقهم من الأولياء ، الذين لا يزالون يحتاجون الى بقية سلوك ، فانظر الى مقام مربى الأولياء .

وعرفنا مما ذكرناه معنى سلب العطايا ، ولقد ذكرناها اجتهاداً وبينَّا الغرض منها ورجونا التوفيق فيما ذهبنا إليه.

وعرفنا منها الإشارة في قول الحق (فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا) فقام الشيخ مسعد مقام الخضر في ذلك ، وقام الشيخ عبد المنعم مقام السفينة ، وقام أصحاب السفينة مقام الأولياء أصحاب القلوب ، وقام خرق السفينة مقام السلب المؤقت لعطاء الشيخ عبد المنعم حفاظا عليه وصونا له من المغيرين عليه ، وأمانة لدى الشيخ لحين رجوعها إليه ، وكما ذكرنا من قبل أن ما نذكره من هذا الكلام إنما هو لأهل الحقائق لا أصحاب الرسوم من غير أهل الطريق ، فأنظر في أي الفريقين أنت واختر لنفسك أي الطريقين تسلك.

غير أن هناك أضافة أخرى الى الرواية السابقة ، تلك الإضافة هى إضافة الشيخ سيد عبد العزيز ( وهو من أكابر أبناء الشيخ ) الذي ذكر أنه خلال أقامه الشيخ عبد المنعم في بيت الشيخ ذهب مرة الى المسجد وكان الوقت عصرا ، ولما أراد الصلاة كبَّر تكبيرة الإحرام وما أن قال بسم الله الرحمن الرحيم حتى استغرق في البسملة وعاين معانيها وظل على حاله الى أن اقتربت صلاة المغرب وهو على هذا الحال ولما شعر الحاج مسعد بحاله ارسل اليه ولده الشيخ باهي وقال له : يا باهي هات الشيخ عبد المنعم من الجامع أنه لا يزال في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم ولم يفارقها ولو تركناه لم يغادرها وبالفعل ذهب اليه الشيخ باهى رضوان الله عليه وأتى به الى الشيخ وأدخله عليه ، هنالك قال سيدي مسعد للشيخ عبد المنعم أتريد أن تصلي صلاة لم أصلها أنا بعد (صلاه لسه ما صليتهاش) ، ومن المعلوم أن القرآن بكامله قد اجتمعت معانيه في الفاتحة ، والفاتحة لقد اجتمعت معانيها في بسم الله الرحمن الرحيم ، التي بدورها قد اجتمعت معانيها في الباء ، ثم اجتمعت جميع المعاني في نقطة الباء ، ولا يغيب عن أهل الله علمهم بهذه الأسرار .

والأمر الثانى أن الشيخ قد تكفل بأبناء الشيخ عبد المنعم خلال الفترة التي أمضاها عنده والتي قاربت سبع سنين ، وبعد أن امضى هذه السنوات السبع عاد الى بيته وباشر مسؤولياته نحو أولاده وكان يذهب للقاء الشيخ بين الحين والأخر ، وكنا نراه بين الإخوان و كان من طرائف ما قيل عنه من بعض أحواله ، انه صنع سفينه من ورق وهو بين إخوانه ، ثم قال لها سيرى بأمر الله فسارت بأمر الله .

والأمر الثالث : الذي ذكره الشيخ سيد عبد العزيز عنه أن الشيخ عبد المنعم ، كان ذات مرة في زيارة للشيخ وكان له أخوان في حلوان ، وكان يحب زيارتهم وامتداد وُدِّه لهم ، حيث أن الإخوان لا يجدون راحه إلا في تواصلهم بعضهم البعض ، ولما علم الشيخ نيته في الذهاب اليهم طلب منه ألا يذهب ، إلا أنه بعد انصرافه غلبه حبه لإخوانه فذهب الى حلوان ، و في حلوان اصطدمت به سيارة فانكسرت ساقه ودخل مستشفى دار الشفاء ، ولما عاده الشيخ في مرضه قال له : (يا ابني قرأت على جبهتك أنك قتيل حلوان ، لولا رجائي من الله واهل البيت وسيدنا الحسين ) فكان ما حدث لا بد نافذاً إذ لا راد لقضاء الله في عبده ، وكان دعاء الشيخ له هو تخفيفٌ لهذا المقضيِّ عليه.

وهكذا أمضي الشيخ عبد المنعم بقيت حياته مسلوبا من عطائه بعد مقابلة للشيخ ( وربما كان هذا قصاصا لمن سلب منهم عطاءهم )، إلا أن الشيخ قد وعده بان عطائه سيرتد اليه قبيل وفاته أو قال له: إنني قد فتحت لك عينا من هذا العطاء تجده وقت حاجتك إليه ( فى الدنيا ) فانظر الى أي حد اتسعت علوم القوم.

وللشيخ عبد المنعم علوم مثل تلك العلوم التي كان يقول بها محي الدين بن عربي و عبد الكريم الجيلي ، ولكنه لم يكن يتحدث بها على العموم بل ذكر أطرافا منها في بعض المناسبات وقد ذكَّرنا اخونا محمود بركات ببعض منها حال كلامه عن الشيخ عبد المنعم وكان ذلك بعد انتقال الشيخ الكبير ووراثه ولده الشيخ باهي له ، فكان أول هذه الوقائع ما حدث في مولد سيدي احمد البدوي فقد حدث أن دخل الخدمة رجل من الأولياء وكان من وظيفة هذا الرجل في دولة الباطن ، أن يتحدث في الخدمات ( أماكن إجتماع الشيخ بالمريدين) بأشياء في جوهرها موطنا للاعتراض عند من يسمعها بالرغم من صحتها وحقيقه جوهرها ( وكأنما يتكلم بلسان المعارضين لطريق القوم ، وهو ليس كذلك ) ، وكان يتكلم في هذه الأشياء بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية التى توحى بهذا الإعتراض ، وكأنما كان ذكره لهذه القضايا موطناً للإختبار والفتنة، ليرى تمسك أهل الله بما هم عليه ،أو يرى صدقهم فيما أعتقدوه ، وكان من اثر هذه الفتنة أن أغلقت بعض الخدمات من هذا الوجه عند من اعترض عليها ، وكانت هذه القضايا جميعها لأهل الله في عقيدتهم ، فلما دخل هذا الرجل وكان اسمه الشيخ عبد الراضي وبدا يتكلم في هذه الأشياء والشيخ باهى ناظرا اليه عالما بوجه الفتنة فيها ، فأراد الشيخ باهي أن يَصْرِفَ أسماع الإخوان عنه ، حتى لا يصيبهم ضرر من سمعه ، فلم يجد أحدً لهذه المهمة إلا الشيخ عبدالمنعم ، فناداه وطلب منه أن يختلي بهذا الرجل بعيدا عن الإخوان و يستمع اليه ، و يُجيبه عن كل ما هو سائلٌ عنه ، و طلب من احد الإخوان أن يقيم على خدمتهم ويمدهم بما يطلبونه ، فجلس الشيخ عبد المنعم معه يستمع ويجيب ، ويقول الرجل ، ويقول الشيخ عبد المنعم ، الى أن انقضى من الزمن مانقضى ، وراح الرجل في سُباتٍ عميقٍ وقد إنقضى المولد ، وعاد الناس أدراجهم ، فلما استيقظ الرجل وأفاق ، قال للشيخ باهى : لما أنت عندكم البضاعة دي سيبنى ليه ( يقصد وجود أمثال الشيخ عبد المنعم عنده )… فكأنما يقول له:سايبني ليه أنام فلا استفيد منها، أو كأنه يقول له سايبنى ليه فلا تضمني اليهم.

وشبيه بما ذكرناه ما روىَ عن أحد المريدين فى زمان الحاج مسعد ، وقد جعل الشيخ فى خواطره ، كلَّ خاطرٍ يقدح فى الشيخ ، ولم يجعل همَّه فى كل أوقات إجتماعه بالشيخ إلا التفتيش فيه والنقد له ، والإعتراض عليه ، ولم يكن هذا من حاله ، ولكن بسبب ماوضعه الشيخ فيه ، وظل على هذا الأمر سبع سنوات كاملة ، إلى أن رفع الشيخ عنه هذا العناء وعاد الى أدراجه سالما ، وليس هذا بالأمر الهيِّن ولكن طريق القوم يحتمل ذلك ، ليميز الشيخ بين المريدين ويعلم الصادقين منهم والأكثر صدقا ويعلم خلافهم ممن لم يعطوا الشيخ ولا الطريق حقه ، ولا تحسبن الطريق بلا عثرات ولا كبوات ، فكان مثل ماذكرناه من الفتن والإختبارات ، التى تظهر مَن يقوم من كبوته ، ومن يعالج عثرته .

وفي واقعة أخرى رآى محمود بركات الشيخ عبد المنعم ، وهو يردد بصوت مسموع : أنا الأول والآخر والظاهر والباطن فإستهجن محمود بركات منه هذا القول زاعماً أن هذه الأوصاف لا تكون ألا لله وحده فلما انفرد به شرح له معانيها بكل بساطه ويُسر فسرى في داخله حبا له.

وأما الواقعة الثانية فقد كانت مولد سيدي عمر بن الفارض وقد جمعت المناسبة بين محمود بركات والشيخ عبد المنعم وكان الشيخ عبد المنعم مستلقيا في أحد جوانب الخدمة مستغرقا في النوم، ثم حدث أن دخل في الخدمة رجل طويل القامة رثَّ الثياب يبدو على مظهره المجاذيب ، ثم جلس الى جوار محمود بركات فتحدث اليه وتحدث معه عن أولياء الله وعن أهل البيت وعن سيدي عبد الرحيم القنائي الى أن وصل الى ، من شاهد ربَّه تسع وتسعين مرة ، ثم استرسل قائلا : وجاء في المرة المئة … ، وهنا توقف الرجل عن الكلام وسقط راسه على صدره ، فظن محمود بركات انه استرسل في النوم فتركه على حاله ثم انصرف إلى صلاة الظهر وجاءه بعد الصلاة فوجده على نفس الحالة التي تركها عليها ، فظن أن أمرا قد أصابه، فالرجل تبدو عليه مظاهر الحياة إلا أنه لا يزال غائبا عن الوعي فحاولوا إفاقته بشتي الوسائل ، ولم تُجدي هذه المحاولات ، فلما استيأسوا منه تركوه على حاله ، وجعلوه في ركن من أركان الخدمة وانصرف الناس عنه ، و قبل المغرب بقليل أفاق الرجل وقام معافاً ، وكأن شيئا لم يحدث له ، هنالك نظر الشيخ عبد المنعم إلى محمود بركات ضاحكاً قائلا له : الراجل ده كان فين يا محمود ؟ قال له لا اعرف فقال له : يابُني الراجل ده كان في المرة المئة من رؤية ربه ،(وهى المرة التى فنىَ فيها عن نفسه) فصعدت روحه الى السماء ومن أصعدَ روحَه الى السماء ، قادرٌ على حفظ جثته في الأرض.

وأما الواقعة الثالثة فهي الواقعة التي جلس فيها الشيخ عبد المنعم مع محمود بركات شارحا له معاني كتاب الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي وهو كتاب يتكلم عن الحقيقة المحمدية وعن وحدة الوجود وقد هالَ محمود ما وجده من العلم عند الشيخ عبد المنعم فقد وجده، بالرغم من وعورة ألفاظ الكتاب وعميق أفكاره وغرائب علمه ، عالماً به غاية العلم ، حافظا لأرقام صفحاته ، عالم بفحواها ، وهو بالرغم من هذا كله يشرحه له بسهوله ويُسر ، دون تَقَعُّرٍ أو افتعال أو مجاهدة.

والغريب أن صدور هؤلاء الرجال بما تحويها من هذه العلوم ، مكنوزة فيهم لا يخرجونها مقالا ، إلا فيما نَدَرْ ، ولكن تبدو عليهم أحوالاً تَرِدُ في فلتات ألسنتهم ، وتبدو في تصرفاتهم وفي علاقاتهم مع الغير، بالرغم من عمق قضايا هذه العلوم ، وقد ذكرنا نموذجا منها في هذا الباب ولعل هذه هي السمة الغالبة في دولة الباطن ، فليس التعليم والإفادة لديهم عن طريق الدرس الظاهر ، أو المريد المتلقي ، أو الشيخ الملقى بالقول الظاهر والعلم الصادر ، إنما العلم والتعليم والتعلم هو بأسلوب الحال الذي يضعه المرشد في صدر المريد ، دون أدواته الظاهرة ، وقد يكون وسيلتة في إلقاء هذه العلوم بالنظر أو باللمسة أو الإشارة وهكذا تكون علوم الأحوال عند القوم .

ولم يكن الشيخ عبد المنعم وحده من أبناء الشيخ على علم بهذه العلوم ، بل كان الكثيرون منهم له علم بها ومنهم الشيخ محمد أبو سلامه

يقول الدكتور أحمد موسى عن هذا الأمر : كنت أقرا كتابا عن النفري، اسمه مخاطبات النفري وهو كتاب يتناول حوارات بين النفري وبين الحق تبارك وتعالى وهي مخاطبات مشفرة ملغوزة تشبه ما كتبه الشيخ الأكبر محى الدين بن عربي..

فوجدت صعوبة شديدة في فهم ما يقول الإمام النفري في هذه المخاطبات، ثم حدث بعد ذلك أن التقيت بالشيخ محمد ابوسلامه فسألني: ماذا كنت تقرا ؟ فقلت له في مخاطبات النفري، ولكنى لم أفهم، قال مثل ماذا ؟ فذكرت له بعض الفقرات، ولدهشتي الشديدة فقد فك لي الشيخ رموز هذه المخاطبات بكل سهولة ويسر حتى أذهلني هذا الأمر، فسبحان الله وتعالى فيما كان لديهم من علوم ومعارف لا يمكن إحصاؤها.

وعلى غرار الطريقة التي ابتدأ بها الشيخ عبد المنعم أبو حسين رحلته مع الشيخ من خلال لقائه بالشيخ عبده أبو فهمي كذلك كان لقاء **الشيخ سيد عرفه** رضوان الله عليه بالشيخ مسعد من خلال الشيخ **على سعد** وهو من المقربين للشيخ ، ونقل الينا هذه الرواية الشيخ محمود بركات عن الشيخ علي سعد صاحب الرواية فيقول:

في ذات يوم تقابل الشيخ على سعد وهو من أبناء الشيخ مع أحد المشايخ العارفين بالله بالمطرية وهو الشيخ سيد عرفه رضوان الله عليه فنظر الشيخ سيد عرفه في وجه علي سعد وسأله: أنت ابن مين يابنى؟ فأجابه بانه من أبناء الشيخ مسعد وكان هذا من أثر النور والمعرفة التي راها في وجه الشيخ علي سعد فعرف من هذا النور قدر شيخه ، ثم قال اذهب بي إلى عمك ، وتجاذب معه اطراف الحديث ، واستأذن الشيخ علي سعد من الشيخ مسعد في زيارة الشيخ سيد عرفه له ، فأذن له ، وذهبا إليه ، ولكن سيد عرفة أضمر في نفسه أن يطلب طلباً من الشيخ لا يتمكن من إجابته إلأ القطب الغوث (الواحد وقته) حين يطلبه هو من رسول الله قبل أن يرحل من الدنيا ، فجلس الى الشيخ وأسر بطلبه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبينما هو جالس في مواجهة الشيخ إذ به يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا بجوار الشيخ ، فأخذه حالٌ عظيم ، وأشار للشيخ في لهفةٍ أن يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما طلبه منه، وفي نهاية اللقاء أخذ الشيخ بيده الشريفة رأس الشيخ سيد عرفة ووضعها في حِجْرِه ورَبَتَ باليد الأخرى عليه وهو يقول ، شُفِيت يا سيد ، شفيت يا سيد ، وتم للشيخ سيد ما أراد على يد الشيخ ، فكان إخواننا في تمام القصة يقولون أن الشيخ مسعد رجل محمدي وسجادته محمديه تسع كل أبناء الطرُق على اختلاف طرائقهم ، وإن من نقصه شئ في كماله كان الشيخ كفيلا بكمالهم ، كَمُلْنَا بهم وأنت بحالنا عليم.

وبالطبع نحن لا نعلم ذلك الشيء الذي أراده الشيخ سيد عرفه من رسول الله والذي كان الشيخ سبب فيه ، ولكنا عرفنا من تلك الرواية قدر الشيخ ومكانته لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدى أرباب الطريق وأنه هو رجل العصر الذي هو القطب الغوث الفرد.

ومن صور الأدآب التي لا ينبغي أن تغيب عن بال المريد في معاملته مع الشيخ أن يستشيره في كل امر من أموره سواء كان هذا الأمر أمرا من أمور الطريق ، أو أمراً يختص باهله و بيته أو أمراً يختص بعمله ، ويعلم في يقينه انه منظورٌ بعين الشيخ مسموعٌ به محاط ُبرعايته ، وقلنا من قبل أن ذلك لا يخرج عما شرعه الله لنا فإن الشيخ ينظر بالله ويسمع بالله وان الحق جميع قواه وإن الراعي مسؤول عن رعيتَّه والأمر في تولية الأولياء على مريديهم ليس فيه شك ولا مراء عند من عاينوا ذلك الأمر وذاقوه ، وهم المعنيون بكلامنا هذا ، وليس سواهم من أهل الإنكار .

فلقد حدث أن أرادت بعض الأخوات من بنات الشيخ وهى **الست أمينه والست أم فوزي والست أم محسب** ، أن يذهبن الى أحد الأضرحة فقالت لهم الست أم محسب : لا ينبغي أن نذهب للزيارة من قبل أن نستأذن من الشيخ ، ولكنها رضخت لهن بعد الحاحههن عليها ، فلما ذهبوا الى المقام الذى قصدوه ، تعرض لهن بعض ممن كان في الضريح ولا أدرى السبب الظاهر في ذلك ، فأهانوهم وتطاولوا عليهم بالكلام وقالوا لهن بالنص : لو كنتم متربيِّين ، لكنتم كذا وكذا ، لا بد وانكم لم تتعلموا الرِّباية ، هكذا بدون سبب ، فلما ذهبوا الى الشيخ استقبلهم بقوله لهم : الإبن العاصي يجيب لأهله اللعينة ، فكانت هذه أشاره منه الى معرفته بما حدث لهن في المقام ، وعاقبهم على ما اقترفوه مما لا يجب عليهم فعله ، ولا يخفى على المُطَّلع على هذه القصة ما فيها من عبرة الطاعة الضرورية والمراجعة اللازمة للشيخ في جميع الأمور.

وكانت اختنا **زينب القصيرة** رحمها الله ، منوط بها غسل ملابس الشيخ وإعدادها وكان من فرط حبها للشيخ أن تأخذ منديله وتشطفه ، وتشرب الماء الناتج من شطفه ، ولا تأخذك الأنفة من ذلك ، فقد فعل ذلك الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان الصحابة يزدحمون على ماء وضوئه وغُسله ، وإذا تنخَّم أو بَصَق فانهم يأخذون ذلك ويمسحون به ويدهنون بها أجسامهم ، وكانوا يزدحمون على الحلاق فيأخذون بقايا حلاقته ، ويقسمونها بينهم ، ولقد شرب عبدالله بن الزبير من دمه وقت حجامته ، وشربت أم ايمن من بوله ، وذلك كله لبركه جسمه وشعره ووضوئه وعرقه وبوله ، ويراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ينهاهم عن ذلك ، فإذا قلت أن هذا كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لأحد سواه ، فالجواب على ذلك أن ما يجرى عليه فهو يجرى على و رثته العارفين له ، والعلماء به ، والشيخ المربى هو وارثه في طريقه وفى علمه وفى دلالته وفى إرشاده .

وكان للأَخَوَات في طريق الشيخ مقام لا يدانيه مقام ، وكان أكثرهن من كفر الرفاعي، وكنَّ من ذوات الأرواح العالية ، وكان الشيخ يحبهن فاذا لقينه واجتمعن به، لا تسمعهن يتكلمن معه إلا بالسريانية هي لغة الأرواح من أهل الباطن ( وما أدراهُنَّ بها ؟) فكان الشيخ يضحك ويقول لمن يجاوره هو أحنا قاعدين مع جماعة طَلَيْنَا ولا أيه؟ ولقد سمعتُ من الشيخ باهي قولته: أن المرأة إذا أحبت في الطريق أخلصت وكانت خطوتها كألف خطوة من خطى الرجال ، وكانت في الطريق من السابقين فيه ، وكذلك حالُ العبد الأسود إذا صادفته المحبة انطلق : والمرآه إذا ساءت طويتها انطلقت في الفجور فلا يدانيها في الفجور دان وكذلك العبد الأسود.

ومن الأخوات الفاضلات اختنا زينب القصيرة و كانت شديدة النحافة في بِنْيَتها ، شديدة القصر في طولها ، ولكنها كانت شديدة المحبة لإخوانها ، ولا تكادُ تتصور في خيالها ذلك اليوم الذي ينتقل فيه شيخها الى جوار ربه من فرط حبها له ، وذات يوم وقد كانت في حضرته ، قالت له : يعني هل سيأتي يوم تموت فيه يا عمي : فقال لها يا بنتي كلنا سنموت ، فقالت له عندما مات النبي صلى الله عليه وسلم ما كان حال الصحابة في فقده ؟ قال لها لقد ذقت من قبل نار فقد العَم يا زينب ( قاصدا شيخه إبراهيم الدكرورى ) فلذلك طلبت من ربي أن يجعل ناري بردا على قلوب أولادي ، فلا يشعروا بهذا الفقد ، غفر الله له وجاورناه وجاورناها في مستقر الرحمة .

و في مناسبه الكلام عن أخوات كفر الرفاعي وارتفاع شأنهن ومكانتهن لدى الشيخ ما حكاه الدكتور احمد موسى ناقلاً عن شيخه محمد سلامه ، عن درويشةٍ محبةٍ كانت من أهل الكشف والخُطوة فكانت تقوم من الليل متسللة قبيل صلاة الفجر ، وتتوضأ وتصلى سنة الفجر ، ثم تدخل الى غرفة لها في الدار ،تغلقها عليها ، فاذا أغلقت الباب خَطَتْ بِرِجْلِها من كفر الرفاع بمكان سكنها الى الأخصاص مكان وجود الشيخ ، فتصلي الفجر خلف الشيخ ، فاذا انتهت من صلاة الفجر خطت قدمها من الأخصاص الى كفر الرفاعي ، وواظبت على ذلك فترة طويلة من الوقت ، حتى شعر بها زوجها وإصابه الشك في أمرها ، فتربصَ لها في الليلة التالية ، حتى إذا دخلت ذات الغرفة التي تخطو منها للشيخ فتح الباب في ذات الوقت الذي كانت تخطو فيه وفي هذه اللحظة بدا لها الشيخ أمامها مشيرا إليها ، أن ارجعي ولا تَخَطِّى، فسقطت و انكسرت ساقها ، ولم يُكشف سرها ،.... فهل عرفت أنت أيها القارئ كيف فعل الحبُ بصاحبه وكيف انطوت له البلدان وانخرقت له العادات وكيف استجابت نواميس البدن وأحكام الطبع لحقائق الروح وعوالمها وكيف انطاع الشرع الظاهر لشرائع دوله الباطن فإنما طريق القوم قد أقاموه لأرواح المحبين لا ابدأن العابدين.

لان غاية عبادة البدن هو التخلص من علائقه ، لتنطلق الأرواح في دولتها.

ولا ينتهي الكلام عن أخواتنا من كفر الرفاعي ، وما علمناه منهم لا يكاد يكون قطره في بحر ما جهلناه عنهم ، فهذا اخونا الدكتور احمد موسى ينقل الينا عن شيخه محمد سلامه حكاياته عنه يقول :

كان للشيخ مسعد قدس الله سره درويشه من أخواتنا في كفر الرفاعي وكانت حالها شديد التواضع ، وهكذا الغالب على دراويش الشيخ فلم يكونوا أصحب مال أو ذووا نفوذ أو سلطة أو مكانات إجتماعية مرموقة ، فأراد الدراويش زيارتها والسؤال عليها إءتناسا بها ومحبة فيها ومعرفة منهم بمكانتها عند شيخهم ، ، و كان من عادتهم أن يحملوا شيئا معهم ، إذ كان الدراويش في تمام الفطنة ورقة الشعور ، فلم يريدوا أن يزيدوها عبئا فوق حالها في زيارتهم لها(فهم كُثْر) ، ولضيق أحوالهم هم الآخرون إشتروا كيساً من الشاي وتوجهوا الى دارها ، وكانت قد اشترت شوالا من الدقيق لتخبز لأبنائها ، فلما دخلوا عليها ، وكانت تخبز فرحبت بهم وفرحت لزيارتهم ، فقد كان الدراويش حين يرَواْ بعضهم بعضا فكأنهم قد راوا شيخهم ، وما اشد حبهم لشيخهم، فكأن شيخها في هذا الحين قد جاء لزيارتها ، وهكذا كان الشيخ يقول مراراً ، أنَّه : إذا عجز أحدُكم عن زيارتي لأي عارض قد عرض له ، يزور أخاه في الله فإن زاره وجدني عنده ، نقول أنه لمَّا جاء هؤلاء النفر لأختهم فرحت بهم اشد فرح ، ثم جلست في نفسها تتحدث : لو كان لدي بعض السكر ، إذ كان بيتها خاوياً منه ، فلوا كان في البيت شيٌ منه لصنعت شاياً لإخواني ، وما زالت تكرر هذا في نفسها ، وقد أحزنها خلو البيت ألا من الدقيق الذى هو قوام قوت أولادها ، وبينما يتردد هذا الخاطر في وجدانها ، وضعت يدها في شوال الدقيق فقبضت منه قبضه ،فراعها خُشونة الدقيق المقبوض عليه من الشوال ، فهالها مارأت إذ كان الشوال قد تحول بكامله الى السكر ، فتوقفت عن الخبيز من فورها واستأذنتهم ، وقالت : امكثوا قليلا بينما اقضي أمراً ثم أعود اليكم سريعا ، وتوجهت من فورها الى الشيخ إذ كان لا يمر عليهم خاطرٌ أو امرٌ عرض لهم ألا ويتحدثوا مع الشيخ في شأنه ، مهما كانت الظروف عائقة عن هذا اللقاء مع الشيخ ، توجهت السيدة الى الشيخ لتقصَّ عليه هذا الأمر الخارق ، وتعرف منه ما يجب عليها من تصرف في هذا الشأن ، فأخبرته فقال لها : هذه الكرامة من إخلاصِك فانطاع الكونُ بهذا الإخلاص الى ماتطلبينه في نفسك وهو وجود السكر ، عودي فضَيِّفي إخواتك وسأرسل خلفك شوالا من الدقيق .

ولعلك إزاء هذه القصة لا تملك إلا أن تقول : الله .... فاين إخلاص هؤلاء النفر من أحوالنا ، هم قد اشتاقوا الى أختهم ليزوروها من باب صلة أرحام الأرواح ، فتعاملوا معها بلين القلب والرأفة والرحمة ، وهي قد أحبَت قدومهم إليها فرحبت بهم من باب أنَّهم من ريحه الشيخ، وحضورهم كحضور الشيخ ، وهي بإخلاصها وحبها لإخوانها وحبها لشيخها قد غيَّرت حقائق الأشياء ومعدن المواد ، فانقلب الدقيق في جوالها الي سكر ، والكون قد أطاعها بإخلاصها إلى ما أرادته في نفسها ، ولم تشأ بعد كل هذا إلا أن تخبر شيخها بما وجدته من خوارق العادات ، فلم تتعد المشورة ، و طلبت منه الإذن فى التصرف ، إذعاناً منها بالطاعة في السر والعلانية ، وشيخها كان فَرِحاً بها فوصفها بالإخلاص ، وما اغلى أن يصفك الشيخ بصفه من صفات الحُسن ، فان القول لديهم لا يتبدل ، ثم لم يلبث أن كافأها بأن ارسل لها جوالا من دقيق عوضً لها عن ذلك الذي تحول الى السكر فاجتمع لديها الأمرين فانظر كيف فعل الحب والإخلاص في الأحباب اللهم اجعلنا منهم وإجمعنا بهم أمين يا رب العالمين .

ومن دولة الباطن نسوق صوره فريده من صور عناية الشيخ بالأخوات وهي صوره ربما يكون الشيخ باهي قد نقلها الينا أو غيره ( لا أذكر ) ، وهي صوره مُفادها أن احد أخَوَاتِنا من بنات الشيخ كانت في زياره لأحد المقامات ، وتَطَلَّع إليها أحدُ الزائرين للمقام ، أو أحدُ المجاذيب لِما رآه فيها من نور يدل على مكانتها ومقامها ( وهم كاشفون لهذا النور ) ، فأراد أن يأخذ شيئا منها تَبَرُّكاً بسبب ما رآه فيها ، فإلتقط شَعْرَتَيْن من رأسها ، وكان الشيخ حاضراً مع مريديه في مكان آخر ، فرأوه يلتقط من الهواء ( وهم فى مكان إجتماعهم ) ذاتَ الشعرتين اللتان أخذهما هذا الآخذُ من إبنته ، سابَّاً إيَّاه ، فكان ذلك دليلا على رعاية الشيخ لأولاده ظاهرا وباطنا وانهم تحت عينيه ورعايته مهما كانوا بعيدين عنه ، فهم وإن كانوا بعيدين عنه فهو ليس بالبعيد عنهم ، فنحمد الله أن جعل لنا في الدنيا أسباباً بولايتهم لنا ، فإنها عين الرعاية.

وذات الرواية السابقة ، قد نُقِلت الينا أيضا من طريق آخر وهي إن اختلفت في الكثير من تفاصيلها ألا أنها تحمل ذات الجوهر ، وقد نقل إلينا هذه الرواية الدكتور احمد موسى ناقلا عن شيخه محمد أبو سلامه ، تقول الرواية بكلمات الشيخ محمد ابوسلامه : كنت جالسا الى جوار عم الحاج مسعد رضي الله عنه وكانت احدى أخواتنا تزور سيدتنا السيدة زينب رضي الله عنها وأرضاها ، فأخذ منها احد الدراويش شعره للتبرك بها دون أن تدري فلما رأيت ذلك كشفاً ( والكلام لمحمد أبو سلامة ) استأذنت الشيخ أن يسترد الشعرةَ من هذا الدرويش ويأخذ معها روحه ، فأخذتُهما وسلمتهم للشيخ فقال الشيخ موجها كلامه لتلك الروح : والله يا ابني لولا أننى صاحي لقتلتك أي أن الشيخ لو كان غائبا بحاله لقبض هذه الروح في مقابل أخذه لشعرة ابنته. فأنظر الى أحوالهم وهم ينظرون الى الأرواح المجردة و يتكلمون معها روحا لروح ، فإذا جعلت ذلك فى بالك ، هان عليك فهم خوارق أعمالهم حين تعلم أن الأرواح المجردة مصدرها ، ولا يكون ذلك إلا لمن جاهد نفسه ، فأطلق روحه من أسر بدنه لها ، أو أن الحق سبحانه قد أطلق هذه الأرواح وهباً من أسر النفوس والأبدان .

وقد يرى البعض أن هذا نوع من المبالغة في الحماية ، أو انه نوع من التهويل في السرد ، إلا أن أحكام دوله الباطن تختلف عن هذه الرؤية ، فانه ليس بالشيء الهيِّن أن يتجاوز أحدٌ على محارم الشيخ الكامل المربى ، وينتهك سترها فان مقام العبد من مقام سيده ، وتجاوزك على ولده هو تجاوز على وَليِّه ، وهي رساله لطرفيّْ القصة المتجاوز و المتجاوز عليه ، فالمتجاوز يجب أن يعرف حدَّ غيره ولا يتعداه ، فهو لا يعلم مَن هذا الذي تجاوز على حَدِّه ؟، وهي أمانات وأسرار واجبه الصيانة والحفظ ، فاذا لم تتصف بالحفظ ، فانت خائن لها وللخائن عقابه ، وأما الرسالة المتوجه للمتجاوز عليه ، فهي أن يعلم انه بعين صاحبه وتحت نظره وفي ظلال مدده ، أينما سار فمدد شيخه خلفه يحوطه ويحميه وينظر اليه وهو كما يحاسبه ويربيه فانه في نفس الوقت يمده ويحميه.

ومن صور رعاية الشيخ لبناته المريدات مارَوَتْه لنا **السيدة أم** **حسين ابنه السيدة أم محسب** وهي احدى بنات الشيخ ،قالت أم حسين: كان مجاوراً لنا في منزلنا بعضٌ من أهل السوء القادمين من السويس وقد مكثوا الى جوارنا قُرابه العشرين عام ، وكان احدُ شبابهم قد رأى زينب أختي وأراد أن يتزوجها ، وبالطبع رفضنا ذلك نظرا لسوء سلوكه ، وتكرر الطلب وتكرر الرفض ، فما كان من هذا الشاب وعائلته إلا أن هددونا بالسوء أن لم نوافق على طلبهم ، فلما إشتدت الأزمة وخرج الأمر عن الإستطاعة طلبت أم محسب من زينب أن تذهب لزياره الشيخ وتستشيره في هذا الأمر، والعمل فيه فذهبت زينب الى الشيخ مرتين متواليتين ولا تتمكن من رؤيه الشيخ وفي المرة الثالثة وجدته فأرادت أن تقص عليه الأمر فلم تستطع فقال لها : اذهبي يا زينب ، فعادت الى بيتها فلما عادت اذا بها ترى هؤلاء القوم يأخذون كل مقتنياتهم ويرحلون من حيث جاؤا وقد مكثوا معهم عشرين عاما .

ولا يغيب عنا في هذه الرواية ، معرفة الشيخ لأحوال أولاده ، حتى ولو لم يتكلم فيها ، فانه ينظر اليهم كما ينظر أحدكم الى ساعته ولكنه لا يجب أن يمتنع المريد عن إبلاغ أمره للشيخ حتى وان كان الشيخ عالما به ، فانَّ علمه بالشيء خلاف مقالة المريد له ، لأنه بمقالة المريد ، يميز الشيخ بين مقالة المريد ، ومعرفة الحقيقة بها ، فيعرف منها شطط الراوي أو قصده أو هواه فيما روي أو عدَّله ، ولذا قال الشيخ لمن سأله عن أحواله فرد عليه قائلا : أنت اعلم بها يا عمى، فقال له الشيخ : دعك ممَّا أعلمه و تحدث اليَّ فيما تعلمه ، فان في حديث المريد للشيء مع شيخه إذعان وخضوع وثقه واطمئنان إليه ، وهذا ما يحبه الشيخ في ولده حتى يقيم له الحجه أو يقيمها عليه ، أما إصرار المريد على عرض أمره على الشيخ لثلاث زيارات متكررة فان ذلك دليل على حرصه على إنصياعه تحت مشورته ، وهذا دليل الحب والثقة والاعتمادية عليه ، وهذا مما يحبه الشيخ ويرضاه له ، وأيضا لأن الشيخ يريد من مريده أن يتعامل معه بحكم الظاهر من الأشياء ، أما باطن الشيخ فليس له دَخَلٌ به ، لأنه لا يعرف حدود هذا الباطن فى شيخه ، ولا مايعرفه عنه ولا ما يعرفه عن أحواله ، فهو مستور فيه غيرُ مأمور بكشفه إلا إذا كان مأمورا من الله بذلك ، فهو خاصة الشيخ وسرِّه ، والتى لا يجب على المريد أن يسعى لكشفها ، أو يكشف سرها ، إلا بمقدار ما أراد الشيخ كشفه له ، وذاك من آداب الطريق مع الشيخ ، فكن معه بحسب ما أراده لك لا بحسب ماتريده منه ، لأن الله ولَّاه عليك ، ولم يولِّك عليه .

# وكنا قد ذكرنا من قبل ما كانت السيدة أم محسب وزوجها عليه قبل معرفة الشيخ ، ولكنا نعيد ذكره بشيئ من التفصيل لأهميته فى بسط سيرة الشيخ ، فلقد كانت أم محسب من القائمين على خدمه ضريح احمد حسنين باشا ، وهو ضريح ضخم مرتفع ناحية الدراسة، قام على أنشائه وبنائه المعماري الشهير حسن فتحي ، وهو تحفه معمارية تُبهر الناظرين إليها ، وكانت السيدة أم محسب وزوجها يقضيان وقتهما في تسبيح الله وذكره دون أن يكون لهما دليل أو مرشد في هذا التسبيح والذكر فقد كانا يحصيان عدد مرات التسبيح والتهليل والتكبير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق عد الحصى والأحجار الصغيرة التي يجمعونها خصيصا لهذا الغرض وكانا يتسابقان فيمن يُحصى عددا أكبر من الأخر ( هكذا جعل الله فى قلوبهم هذا الأمر، وجعل لهم متعة فيه )، واستمرا على ذلك فتره قاربت الخمس سنوات.

و حدث بعد ذلك أن زارهم رجلٌ يقال له عبد القادر قد رآهم على ما ذكرناه ، فقال لهم : ما أراكم تفعلان إلا فعل الملائكة إشارة منه الى تسبيحهم وصلاتهم على النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصورة وطول هذه المدة ، ثم أردف قائلا وما أراكما أهلا إلا لإستقبال إخوانكم لإطعامهم ورعايتهم ، فتفتحون داركم لإستيعابهم ، وكان الكلام متوجها منه لأم محسب ، فظنت انه يقصد إخوانها من أبيها وأمها ، إذ كانت في هذا الوقت لا تعلم شيئا عن طريق القوم ولا معنى الدراويش ولا علاقتهم بالمشايخ فقالت له : أن أخواتي في البلد، فقال لها : أخواتك لم يأتوا بعد.... قاصدا بذلك الدراويش.

وظل هذا الرجل قاطنا الى جوارهم لمْ يغادر واستاءت من وجوده وحاولت صرفه فلم تتمكن من ذلك ، ثم بدا لها منه أمورا فيها خَرقٌ للعوائد فقد كان يُمْرِضُها أو يُمْرِضُ أحداً من أبنائها ( أىّْ يكون سببا فى إمراضهم بما لديه من خرق العادة ، أو هكذا بدا لها فاعتقدته ) ، وقيل أنه قد بدت منه أمورٌ يبدو ظاهرها أنها إساءات أدب أو تجاوزات لا تقبلها الأعراف والآداب ، ولا يسوغ لها منطق ، كأن يضع يده على رجلها ، أو كتفها ، أو ماشابه ذلك ، وهى أمور من أهل الله ظاهرها العذاب وباطنها الرحمة ، ولا يعلمها إلا أصحابها من أهل الطريق ، إذ مِن خلال هذه الملامسات الظاهرة تنتقل الأحوال والعلوم ، من الشيخ الى المريد ، ومن الممد الى الممدود له ، أو أن هذه الأمور من قبيل الإختبارات التى تصادف المريد فى أول دخوله الطريق ، وليس لأحدٍ علمٌ بمقصدها بما فيهم أم محسب ، وهى الجديدة فى هذا الشأن .

ولكن هذه الأمور جعلتها تصر على التخلص منه ، وحاولت ذلك تكرارا ومرارا ، فلم تفلح ، .... فلمَّا أعيتها السبل ، سألت عمَّن يُمكنها من التخلص منه ، فقيل لها إذهبى الى الشيخ مسعد فى الأخصاص ، ولم تذكر الرواية مَن أشار عليها بذلك ، أو كيفية علم المستشار ، وربما كان مافعله الشيخ عبد القادر مقصودٌ به تحفيزها على الذهاب إليه ، إلا أن هناك رواية أخرى تذكر أن الشيخ عبد القادر كان له ولد اسمه دحروج واسمه الأصلي مَسْعَدْ( أيضاً) وقد كان الرجل وولده من دراويش الشيخ، فقال له الشيخ مسعد اذهب الى أبيك ( عبد القادر ) وقل له: فيه إثنين وراءك ( يقصد أم محسب وزوجها ) هَاتْهُم وتعالى... ، فذهبوا اليه وكانت هذه هي المرة الأولى التي قابلوا فيها عمى الحاج مسعد.

فلما ذهبت الى الشيخ فقال لها : وعزة الله يا بنتي أن الشيخ عبد القادر الذي تشكو منه ، هو إبني وهو وزير سيدنا الحسين ، وقد ذهب اليك باذن له بذلك ، فاذا كان هذا الذي يدعوه إبنه وزيراً لسيدنا الحسين فما بالك بمكانه الشيخ ، ثم أردف الشيخ قائلا : أنك من بناتي وأنت تحت رعايتي من وقت أن كنت صغيره في بيت أبيك قبل زواجك ، فانتظمت في سلكه وسارت في نهجه وكان له معها مواقف وآيات ، وقد عرَّضنا لهذه الرواية من قبل .

فالشيخ الكامل معروضٌ عليه أبناؤه ومريدوه المحسوبون عليه، يعرفهم من قبل أن يكون لهم حضور في الظاهر معه ، وهم فى غيبة الأرحام وقبل ورودهم عليه ، ويرعاهم من بعد فناء ظاهرهم معه في الدنيا وهم في برازخهم وهو في برزخه ، وهو معهم في جميع مواقفهم دنيا وبرزخ وأخرة ، في الدنيا بهديهِ لهم وإيضاح منهاجهم الى ربهم وتسيير سلوكهم ، وفي البرزخ وقت قبض الروح ووقت ضمَّة القبر ووقت سؤال الملكين ، وفي الأخرة في كل مواقف من مواقفها وقت البعث والنشور ووقت الوقوف في عرصات يوم القيامة ووقت العرض ثم في النهاية يكون أمامهم في دار الخلد، يوم يدع الله كل أناس بأمامهم.

ولقد جاء ذكر **دحروج** في الرواية السابقة وكان اسمه الأصلي مسعد وكان بمثابه رسول الشيخ الى أبنائه الذين لم يأتوا اليه بعد ، وقد عرفنا في الرواية السابقة كيف بعثه الشيخ الى أم محسب وزوجها في الدارسة كي يحضرهما اليه وكذلك بَعَثَهُ الى الشيخ سيد حسين وزوجته أم فايزة في المنيب كي يحضرهما اليه ولم يكونا بَعْدُ من أبنائه ( فى الظاهر ) وكانت من كلمات دحروج مع إخوانه متحدثا عن نوعيات عطاء الشيخ للإخوان قوله : ليت الحلاوة ( يقصد حلاوة السير فى الطريق وهو المعروف بذوق التجليات ) أن تكشف أو تعلم بواطن الأمور ولكن الحلاوة أن تُنِيرَ في داخلك ويظهر على محياك نور الأيمان ، وكان الشيخ حسين أبو عبدالمنعم ( وهو إبن الشيخ عبد المنعم الذى تكلمنا عنه من قبل ) قد رافق دحروج فتره طويله خلال رحلته مع الشيخ، وظهر له في مرافقته كرامات كثيره وآيات عديده تدل على ولايته ومكانته ، وكان من كراماته أن يقول للشيء كن فيكون ، ويحكي الشيخ حسين أبو عبدالمنعم عن أخر لقاء له مع دحروج قبل موته وقد راه جالسا في الطريق الى سيدنا الحسين بجوار مستشفى الحسين الجامعى ، وكان على هيئه رَثَّة وكأنما كان غائبا عن الوعي غير عابئٍ بنفسه ولا بما يخرج منه ، ولا بالمارِّين من حوله ، مجذوبا بالحال القائم فيه ، فلما راه الشيخ حسين على هذا الحال أفاقه من حاله وسلم عليه ، وكأنه قد عرف أن هذه أخر مرة يرى فيها حسين أبو عبدالمنعم ، فأراد أن يوصيه وصيته الأخيرة قائلا له : قل الحمد لله واطلب منه ألا يحرمك من جوار عمك الشيخ مسعد ولا بيته ، فمِلْتُ اليه ( والكلام لحسبن أبو عبد المنعم ) وقبلت يده وذهبت عنه ، وكانت هذه أخر مره أقابله فيها بعدها انتقل الى جوار ربه ، ودُفِنَ في مدافن العرب بجوار سيدي أبو الطرابيش بعرب حلوان ، وقد شهد له من حضر وفاته بالكرامات والمكانة من ربه .

فانظر الى تلك الصلة الباطنة التي كانت بين الشيخ ودحروج والتي من خلالها كان يُعْلِمْهُ بالإخوان المحسوبين على الشيخ ، والذين لم يأتوا اليه بعد ، فجعله وسيله لجلبهم اليه، ومثل هذا العلم، هو علم خاص دقيق يدل على قرب مكانته من شيخه ويدل على الصلة الدائمة القيام بينه وبينه.

ولقد كان الحال الذي يرد على دحروج حالاً شديداً عاتياً، يظهر أثره على نفسه ، وعلى الإخوان من حوله ، ولم يكن الكثير من المخالطين له من الإخوان يتحمل هذا الحال الوارد عليه ، وغِلظة معاملته لهم وقت هذا الورود ، فكان إذا أفاق من حاله وشَكَوْهُ الى نَفْسِه اعتذر إليهم وقال لهم قولته الشهيرة : إن المريد الحق يُغْنيه النورُ الكامنَ في داخله من أن يتصف بحال الكشف للمستور عنه ، فكانوا يعذرونه لمعرفتهم بمكانته من شيخه.

وقد بلغ به شدة الحال أن راه الشيخ حسين أبو عبدالمنعم بهذه الصفة التي ذكرناها قبل موته ، وفي ذلك أشاره أيضا لعوام الناس اذا إرتأوا أحدا على مثل تلك الصورة التي كان عليها دحروج في الطريق فلا يظنوا فيه السوء أو الجنون أو إختبال العقل فربما كان هذا المنظور المخبول ولياً من أوليائه ولكن لا يعرفون ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف هؤلاء الأولياء : رُبَّ أشعث أغبر لو اقسم على الله لأَبرَّه ، وقبل أن نختم الكلام عند دحروج نذكر عنه كرامه يقصها علينا الشيخ حسين أبو عبدالمنعم ، فلقد حدث أن دخل عليه في غرفته ، وكان بها مصباحٌ صغيرٌ يُنِيرُها بالكاد ، فلما دخل عليه وكان قابعا في احد أركانها رأي لهذه الغرفة نوراً شديدً يكاد يأخذ بالأبصار ، ورآه على حالٍ شديدٍ مالكا له ، وإشتمَّ رائحهَ عطرٍ ذكيةٍ تزكم الأنوف ، وربما هذا النور هو نور الإيمان الذى طال ماتحدث عنه ، أو إشارة إلى أرواح من يتواجدون مهه فى ذات المكان .

ولقد كان من كرامته وسر معرفته ومحبته للإخوان أنه كان يأخذ بقايا ما يشربه الإخوان من الشاي (التِفْل) ويضع منه كوبا للشاي لمعرفته بكرامة الإخوان في حقيقتهم ، ولتمكنه من محبه الإخوان من قلبه وان بدا منه ما يسوؤهم من شده حاله ، كما كان يجمع أعقاب سجائر الإخوان (السبارس) ويشربها لذات السبب، وكانت تسعده هذه الأشياء كثيرا.

وفى عودٍ لنا الى سيرة السيدة الفاضلة أم محسب والتى كان لها شأن ومقدار ومقام لدى الشيخين، عمى الحاج مسعد وعمى الشيخ باهي ، ما قصه علينا الشيخ خالد ولدها في قوله: بعد انتقال الحاج مسعد حدث أن هناك امرً شديداً كان قد أهم الست أم محسب وأقلقها وشغل بالها كثيرا وكانت قد تحدثت مع عمي الشيخ باهى في شأنه، ولم يكن لنا علم بهذا الشأن ، وحدث أن نامت فرأت في النوم الشيخ باهي قادما إليها ، وقال لها : أنت عايزة أيه يا أم محسب أنت عارفه إن أولاد الشيخ أثني عشر وأنت واحدة منهم أنت عايزه أيه تاني؟

فلما قابلت الشيخ باهي وقصَّت عليه هذا الأمر ، أكَّدَه لها وتلك الرؤية تكتنفها الأسرار التي تمنعنا من إيضاح مغزاها من الإيمان بها، وأول هذه الأسرار فحوى الهَمْ الذي كان قد أصاب أم محسب وغلبها على أمرها.

وثاني هذه الأسرار ما هو المقصود بإقتصار أولاد الشيخ علي إثنىّْ عشر وهم كُثْرٌ ، فهل قصد رؤساء الأبناء (الدراويش) ، أو أقربهم اليه مكانه ، أو ارفعهم عنده شان … لا علم لنا بذلك ولكننا نتيقن من هذه الرؤية من العلم بقدر أم محسب ومكانتها عند الشيخ ، ولم يبق لنا إلا معرفة أشخاص هؤلاء الاثنىّْ عشر الذين كانت أم محسب واحدة منهم، ولسنا نريد أن ندخل في تخمين ذلك فإن كل الإخوان مقربين من الشيخ نفعنا الله بهم جميعا.

وأما الكلام عن أشخاص هؤلاء الاثني عشر فإن الإخوان يستنتجون من قرب البعض الى الشيخ للدرجة التي تبدو كأنهم وزراؤه وبالإمكان الظن بأنهم : محمد أبو سلامه ، ومحمد أبو سيدنا، وعبد المنعم أبو حسين ، وسيد أبو النصر ، وأم محسب ، وعبده أبو فهمي ، وعبده سعيد، وعبد القادر ، وعلي أبو عبد السلام ، ومحمد عبد الرحمن ، وعلي سعد ، وصلاح طه ، وما عددناهم ثلاثة عشر نفرا فربما يكون منهم هؤلاء الإثني عشر وربما يكون من غيرهم، فكان هؤلاء الإثنى عشر بمثابة وزراء الشيخ الذين كان لهم مهام مع مريدين الشيخ نيابة عنه بأمره، ولقد ورث الشيخ مسعد هذه الخاصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزراء ، هم صحابةٌ ورد عن الرسول بأنه نعتهم بالوزراء ، في عدة أحاديث من عدة أوجه، كحديث الإمام أحمد في مسنده، عن علي بن أبي طالب أن الرسول قال: (إنَّهُ لم يَكُن قبلي نبيٌّ إلا قد أُعْطيَ سبعةَ رفقاءَ نُجباءَ، وزراءَ، وإنِّي أعطيتُ أربعةَ عشرَ: حمزةُ، وجعفرٌ وعليٌّ وحسنٌ وحُسَيْنٌ وأبو بَكْرٍ وعمرُ والمقدادُ وعبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ، وأبو ذرٍّ وحُذَيْفةُ، وسلمانُ، وعمَّارٌ، وبلال)

ومن قبل الشيخ كان لسيدى أحمد البدوى نوَّاب ووزراء يلونه فى حياته فى مهام وكَّلَها الشيخ لهم ، فهاهو يرسل الشيخ حسن القلينى إلى كوم قلين مبينا له أنه سيكون له أتباع ومريدون فى هذه البلدة ، وأنه سوف يختم حياته بها ، وسيكون له مقام فيها ، ومنهم الشيخ أبو بكر الدقدوسى الذى أوفده إلى دقدوس ليكون نائبا عنه فيها ، ومنهم الشيخ محمد الكتانى ، الذى جعله نائبا له فى الواط ، وتمتلئُ سيرة السيد البدوى بهؤلاء السطوحيين العظماء الذين كانوا أئمة فى أنفسهم ونوَّاب للسيد فى الأماكن التى كان يوفدهم إليها ، وكان لهؤلاء الموفودين كرامات فى أماكن وفادتهم ومقامات بعد إنتقالهم .  
وتختلف أحكام دوله الباطن عن دوله الظاهر ويختلف أيضا عالم الملك عن عالم الجبروت ، فالملك الظاهر هو رؤيه الأمر للحواس الظاهرة بصرا وسمعا وذوقا وخلافه ، أما عالم الجبروت فهو رؤيه الأمر بحواس خلاف حواس الظاهر ،فيرون بهذه الحواس المخصوصة بعضاً من عالم الغيب المستور عن الناس ظاهرا عيانا لهم ،فعلى سبيل المثال ،فإن الملائكة والعرش والكرسى من عالم الغيب الذى هو عالم الملكوت ، هذا العالم قد يكون مشهودا لبعض أوليائه ، فذاك هو عالم الجبروت ، ولهذا تسمى هذا العالم بعالم الأولياء ، والعلم الناشئ منه هو علم الأولياء ، وللجبروت عند أهل الله شأن كبير فقد يدركون بعين بواطنهم مايدركونه ، وكأنه من عالم الخيال ، وهو ليس بخيال عندهم ، بل هو حقيقة ولكنها حقيقة مستورة عن العوام ، إذ أن الجبروت برزخ بين الملك الظاهر ، وغيب الملكوت ، تماماً مثل الخيال الذي هو وسط بين رؤيه الحواس و الغيب المطلق ، ومثل المعاني في ذهن صاحبها و هي من علم الجبروت معلومةٌ لا ينكر وجودها ، وهي في نظر صاحبها غير منظور العين ، ومثل الرؤيا التي يراها النائم فهي منظورة له حقيقة لا مراء فى رؤيته لها ، لا شك في ذلك ولكنها ليست منظورة لعين الأغيار ، ومن هذا الباب ما يراه الأولياء من مشاهد هي منظورة لديهم وهي لهم حقيقة ، ليس في ذلك شك ولكنها غير ظاهرة للعيان.... ومن هذا الباب ما سنرويه في الحكاية التالية، فهي مقابلة بين المنظور (مُلْك) من جانب المريد ومنظور (جَبَروُت) من جانب الشيخ لذات الحدث... وما سنرويه هو من عالم الأذواق التي لا يعرفها ألا من ذاقها ومهما يعبِّرون عنها بالكلمات فإنها لا تفي مقصودها فمهما حدثوك عن طعم التفاح ووصفوه لك فلن تعرفه حتى تتذوقه.

تحكى لنا السيدة أم حسين عن والدتها فتقول : كنا في مولد سيدنا الحسين وذهبت السيدة أم محسب لزيارة شيخها في المولد ، ولم يكن قد زارها من قبل فى بيتها ، فالحَّتْ عليه أن يأتي لزيارتها فى المنزل ، وان يتناول طعام الغداء لديها ، فوعدها بالحضور وأكد عليها في ذلك ، فتوجهت الى منزلها وأقامت وليمةً ، إحتفالا ًبالشيخ، فذبحت الطيور واعدت الطعام وانتظرت حضوره ، وكان من عاده الشيخ أن يتناول الغذاء في الثانية من بعد الظهر ، فانتظرته ولكنه لم يأت ، فلما لم يأتي بكت بكاءً شديداً ، وحزنت ونامت على ما حزنت ، فرأت فى نومها أن الشيخ مسعد قد جاءها ومعه سعد أفندي زوج بنت الشيخ ، وتناول معها طعام الغذاء الذي كانت قد أعدته ، ثم استيقظت على صوت احد الدراويش يناديها ويطلب منها أن تذهب للشيخ لأنه يطلبها ، فذهبت اليه فلما رآها قال لها : ما بك؟ وقد رأى إثر البكاء على وجهها وعينيها ، فقالت له : لا شيء يا عمى ، ثم عاودها السؤال ما الذي يحزنك؟ فقالت: كنت أنتظرك فلم تأت ياعمى ، فقال لها كيف لم آتيك ، فقالت له : أنى قد رأيت رؤيا أنك قد أتيت أنت وعمي سعد أفندي .... فقال: لها سعد أفندي مين يا بنتي ؟، وذات الله يا بنتي دا سيدك سعد الدين الجباوي ( شيخ ومؤسس الطريقة السعدية ) ، هو الذي جاء معي وأكلنا من البط والحمام ، ووصف لها الطعام الذي أعدته وصفا دقيقا ، ففرحت لذلك فرحا شديدا ، والحقيقة أن أم محسب كانت تتحدث عن لقائها بالشيخ فى عالم الأبدان الظاهر ، بينما كان الشيخ يتكلم عن هذا اللقاء فى عالم الأرواح الباطن ، ذلك العالم الذى أتى منه سيدى سعد الدين الجباوى من برزخه حين زار أم محسب فى دارها .

فانظر كيف حضرت أرواحهم تلبيه للدعوة وكان صادقا للوعد فيها ، وانظر كيف كان الجبروت في حقهم ملكا منظورا محسوسا ، وانظر الى روح سيدي سعد الدين وهي من أصحاب البرازخ كيف شاركت أصحاب الدنيا في ملكهم ، وانظر إليهم كيف جلبوا لمريدهم رؤيا رآها فعلم بهذا الأمر على ما هو عليه ، وانظر كيف فعل الحب بها وبه، فكان من جانبها عرضا وطلب وكان من جانب الشيخ وفاء للوعد.

وانظر الى مقام الجبروت عند الأولياء ورؤيتهم بالبصيرة ما لم يتمكن البصر من أدراكه فراوا العلم في صورة الماء البارد ، ورأوا الفِطْرة في صورة اللبن الصافي ، ورأوا الموت في صوره الكبش ، مثلما رآه يحيى، فسبحان صاحب الملك والجبروت والملكوت.

ولكم مرت على الإخوان دلائل ، يعرفون بها أن الشيخ يحادثهم بما في خواطرهم ، فهذه أم باهي زوجه الشيخ رفاعي تحكي عنه أنها كانت في زيارة له هي وزوجها الشيخ رفاعي ، وقدَّم لهم طعام الإفطار وجلس الشيخ يفطر معهم ، وكان الطعام متواضعا في كميته فول نابت وقليل من العسل وأرغفة قليلة من البتاو ( العيش المِرَحْرَح المصنوع من خليط من القمح والذرة والحلبة)، وقالت في نفسها أيكفى هذا الطعام لنا جميعا…. الشيخ رفاعي وانا...؟ وهنا نظر إليها الشيخ ، وقال لها: أنت مش ليكي أن أنت تأكلي وتشبعي وتبقى تمام ؟ وقالت له حاضر ياعم ، فلما أتمت طعامها شعرت وكأنها أكلت كمية كبيرة من الطعام ، وعلمت أن المقصود ليس هو مقصود الطعام في ذاته وإنما المقصود هو صحبة الشيخ ، بما يعطيه الشيخ من العطاءات سوآءا كان العطاء مباشراً أو خلاف ذلك ، فانظر كيف كان الخاطر فى باطنها معلوما لدى الشيخ ولم تتحدث به ، وكذلك الخاطر فى داخل الشيخ يلقيه فى جوف مريده ولا يعلم المريد أن أصل الخاطر من شيخه .

ولقد واصلت السيدة أم محسب مشوارها الطويل مع عم الحاج مسعد وبلغت معه شأواً كبيراً في المقام ، حتى انه وصفها بانها من أهل التسليم ، فقال لها ذات يوم: يا بنتي مالك مِسَلِّمَة قوي كده ليه ، وهو قول يدل على إعجابه بحالها لا لومٌ عليها فيه ، مندهشاً من بلوغها له ، وكأنه يمدح نفسه إذ كان مربيها على مامدحها به ، كمن يقول لولده إذا رأى منه ما يحبه : (والله تَمَرَت فيك التربية)!!

وقد بشرها ذات يوم بصفه لها ، حين قال لها أنت مُصانَة من كل شيء يؤذيكى ، وكان السبب في هذه المقولة أنها في احدى الموالد كانت تساعد الإخوان في نصب الخيمة ، فارادت أن تُعِدَ بنفسها المكان الذى يجلس فيه الشيخ فى الخدمة فيكون مكاناً نظيفاً ، فجعلت تُنَظِّفَ الأرض بيديها بحماس دون وعي وتزيل القاذورات العالقة به ، حتى جاء الشيخ وهي على هذا الحال ، فجعلت يديها وراء ظهرها لِئَلاَّ يسلم عليها الشيخ ، فتتسخ يدهها مما كان عالقا فيها من أثر نظافة الأرض ، فاخذ الشيخُ يدَها وسلَّم عليها ، وأعطاها قرش صاغ وهو رمز لعطاء لا يُعْلَمُ كنهه ، وقال لها هذه المقولة التي نحن بصدد الكلام عنها ، فقال لها : أنت مُصَانة من كل شيء ، فظلت على ماتركها الشيخ عليه الى أن توفاها الله .

والسيدة أم محسب من هؤلاء الذين جعل الله لهم وظيفةً في طريق أهل الله ، وكان الشيخ قائماً عليها في أدائها لهذه الوظيفة ، وهو إستقبال المجاذيب ، والمصابون في عقولهم ونفوسهم ، فكانت خدمة الست أم محسب محاطة بهؤلاء الذين وصفناهم ، ولا تدري ما الذي جاء بهم إليها ، ولا من أرشدهم عليها ، فكان يأتيها المجنون المختل في تصرفه ، ويأتيها من كان حالهُ الصُراخُ والصواتُ والغناءُ أو الناطق بألفاظٍ تحملُ مفرداتٍ غريبة على أذن السامع ككلام السُريان ( وهو ما يُعْرَف بالرَطْنْ ) ، أو المُزَغْرِدَة علي الدوام ، أو من كانت رَثَّة الهيئة ، منكوشة الشَعْر ، مُتَّسِخَة الثياب ، تفوح منها روائح ما يخرج منها من العرق والبول والغائط ، ولعل القارئ قد شاهد أمثال هؤلاء تحت الكباري وعلى الأرصفة أو في الميادين ، فكان كل هؤلاء وأمثالهم يأتون إليها، ولا تعلمُ مصدرَ حُضُورِهِم إليها ، وكانت تعلم أن هذا هو رزق ربها إليها ، فإذا أتت الواحدةُ منهن على هذه الشاكلة ، تُدْخِلْها الحمَّام ، وتغسل بدنها و تُلْبِسْها من ملابسها ، أو تَأْخٌذ ملابسها وتنظفها وتغسلها وتطهرها ، وما أشَدَّ هذه المَهَمَّة ، لِمَا كانت تجده من إتساخٍ بها ، ويظل الزائرُ المتصف بما ذكرناه لديها الى أن يرفع الله عنه ما إبتلاه به ، أو يرتد إليه عقله ، أو يعود الى رُشْدِه ، أو يرحل من تلقاء نفسه ، مثلما جاء من تلقاء نفسه ، وكأن خدمة الست أم محسب هى المحطة التى يمر عليها هؤلاء الذين لا يعلم سرَّهم إلا ربهم ، وهكذا كان الأمر معها على الدوام ، قوم يأتون بهذه الصورة ثم يرحلون، ثم يأتي إليها قوم آخرون ، في سلسال لا ينتهي أمَدُه ، ولأيقف حَدُّه ، ولا ينقطع مدده ، واذا كان الوافد رجلاً فإن (جَمِيل) وَلَدَها يأخذه ، فيحلق له رأسه وذقنه ويقصُّ أظافره ، ويفعل له مثلما فعلت امه مع الوافدات إليها ، ولم يَخْلُ أمر هؤلاء الوفود إلى أم محسب من طرائف تظهر لها منهم ، فكان منهم بعد أن تفعل معهم ماذكرنا ، يقذفونها بالحجارة أو يرمونها بالتراب أو يكيلون لها السِباب ، وما كان منها ألا أن تضحك وتقول لمن حولها حين يلومونها على ماكانت تفعله معهم : (أنا راضيه ما حَدِّش ليه دعوه ).

ولم تقتصر رعاية أم محسب للوافدين من الغرباء من غير إخوانهم ، بل تَعَدَتْه الى خدمه إخوانها من أبناء طريقها ، إذا وصلوا الى الحدّْ الذي يستدعى خدمتها لهم ، فهذا هو **محمد أبو جاد** في آخر أيامه وكانت قد استضافته عندها في الغرفة الداخلية من منزلها ، وكان لا يسيطر على نفسه في تَصُرُّفُهُ ، أو أنه كان يتعمد هذا التصرُّف ، أو كان متوجها لإختبارها به ممن دفعه إليها ، فذات مرةٍ نادي عليها وقال : لها سيبي اللي في يدك وتعالى حمِّيني ، ولا ادري أن كان هذا الحادث في حياه الشيخ الكبير أم بعد انتقاله ، وأكثرُ الظن أنه بعد إنتقاله ، لأننا رأيناه بعد إنتقال الشيخ وكان فى كامل وعيه ، وكان تصرفه معقول وإن إتصف ببعض الغرابة ، فنادت على ابنتها أم حسين وقالت لها تعالي معي ... وناولته أناءاً ليَبُولَ فيه قبل الاستحمام ، وأدارت ظهرها اليه هي وإبنتها حتى ينتهي من بوله ، ثم ما لبثت بعد أن أدارت وجهها اليه بعد انتهاء بوله ، حتى قذفها بالأناء الحاوي لبوله في وجهها … فلما رات ذلك منه ، مسحت وجهها وقالت له : مايجراش حاجه … ما أنت زي أبويا … ثم بادرها بقوله : …. (يابنت الكلب يا أم محسب هُوَّة أنا مش عارف حته أخش ليكي منها) .. أنت مقفلة كل النواحي طب أجيلك منين.. أنت كده خَدْتِي كل حاجة !!! ...... وكأن كلامه معها يدل على أن له وظيفة فى إختبار صبرها على أذى إخوانها من أهل الطريق ( إن كان منهم أذى ظاهر ) ، حتى تنال بهذا الصبر مقامها الذى يريدها شيخها له ، وهذا يدل على أن أفعاله لم تكن من نفسه ، وكأنه مأمورٌ بها ، ليستدل به على ماذكرناه ، والأمر فى الطريق عميق المغزى مستور المعالم ، ولا تحسبن الشأن فى طريق الله بالقدر الهيِّن أو عشوائية الأعمال ، إنما هو أمرٌ مقدرٌ لأهله على قدر مايطيقون ، وعلى قد ما أعده الله لهم من مقامات ومنازل سيرونها حال إنتقالهم إلى ربهم ، ولو كان الأمر بهذه البساطة ، فما حمل أم محسب وابنتها على إحتمال ماذكرناه ؟، إلا ماهم فيه من ذوق وقدر ماهم راغبون إليه من قرب وطمعا فيما أعده الله لهم من ثواب .

فلما رات إبنتها أم حسين ذلك بكت من أثر هذا الذي رأته ، من تَحَمُّل أمها الأذى من أخيها في الله ، وصبرها على هذا الأذى ثم توجهت الي أمها وسألتها : قولي لي على شيء واحد فقط يجعلك ترضى عن كل هذا الذي تلاقيه ؟، ولكن أم محسب تذكر وصيه الشيخ لها في شان أبو جاد حين قال لها : يا أم محسب إخواتك كلهم مش قادرين على أبو جاد ، كل اللي يأخذه يزهق منه ويشتكي الى الشيخ من سوء سلوكه معه ، ثم طلب منها أن تستضيفه لأنها الوحيدة القادرة على استضافته وتحمل سلوكه ، فقال لها: تأخذي أبو جاد في ضيافتك يا أم محسب ؟ فقالت له: أخذه يا عمي…. ثم قال لها : تقدري عليه ؟ فقالت له : (بك أنت هقدر لكن مِن غيرك مقدرش …. فإنى لا حول لي ولا قوة ) ، فهذا هو الذي جعلها تحتمل ما تلاقيه منه ، وتلك هى وصيه الشيخ لها بذلك ، وهي التي بها فازت.

والأصل في ذلك كله أن أبو جاد كان من الملازمين لصحبه سيدنا الحسين طوال خمسه عشر سنة ، حين كان قائما على بابه الأخضر، وكان مصاحبا للسيدة زينب على بابها طوال عشر سنين ، ثم صدر له الأمر الباطنىّْ بغير ذلك ، فلم يهنأ له بالٌ بمصاحبه غير ما إعتاد أن يصاحبهم ، إذ كان قد إعتاد مصاحبة سيدنا الحسين والسيدة زينب ، وهؤلاء هم أهل كشف ويعرفون من يصاحبونهم ، كالذى إعتاد أن يصاحب الملك فى بلاطه ، ثم صار به الأمر أن يكون من عوام الناس ، فكان من اثر ذلك ما رويناه ، حتى وصل الأمر به من الضيق ، أن كان في صحبه أحدِ إخوانة وطلب منه أن يشرب شاي ، فلمَّا صنع له الشاي ، ألقاه على وجهه ، فكان هذا التغيير شديداً على نفس أبى جاد ، حتى أنه طلب من الشيخ خلاف هذا المَقْضيّْ عليه به ، فخَيرَّهُ الشيخ بين أن ينال ما يرغب ، ويرتفع عنه ما يكره ، على ألا يكون من أبناء الشيخ في الطريق ، وأن يصبر على ما قضاه الله به عليه ، مع بقاء صحبته للشيخ ، فما كان منه ألا أن إختار صحبه الشيخ مع وجود البلاء ، فإتهم كانوا لا يرجون خلاف صحبة الشيخ بديلا .

وظلت محبته للشيخ على ما هي عليه بعد انتقاله حتى انه كان في مولد الشيخ يطوف البلد على أثرها ماشيا على أطراف أقدامه قائلا: (ورد عليك ... فل عليك) …. كل ذلك من إثر محبته للشيخ .

وأسرار أهل الله في الطريق لا تقف على حد ، فمن أدراك أن هذا السلوك الصادر من أبي جاد ما هو إلا إختبار أجراه الشيخ علي أفراد أبنائه ، أو مسابقةٌ باطنيةٌ ، أراد بها الشيخ أن يختبر أبناءه في مقام الصبر والاحتمال والصفح وتحمل الأذى ، فجعل في أبي جاد ما كان منه ، ثم نظر في أبنائه ، أيٌّ منهم يجتاز هذا الاختبار ، فيتحمَّلُ الأذى على ما ذكرنا ، والإخوانُ درجاتٍ في هذا الأمر ، فمنهم من لم يحتمله، ومنهم من احتمل بعضه ، ومنهم من احتمل نصفه ، ومنهم احتمله كلَّه ، وفازت في هذا الاختبار أم محسب ، كما فاز أبوجاد بإحتمال بعده عن مجاورة أهل البيت وصبره على فراقهم ، ولا يعلم ألم الهجر إلا من ذاقه ، ولعل مقالة أبي جاد لأم محسب : (أنا مش عارف حته اخش ليكى منها... أنت مقفلة كل حته أنت كدة خدتي كل حاجه )... ولعلك ترى فى كلامه روح المنافسة فى نول مقامات الصبر ، ولعل هذه المكانة التى نالاها أبلغُ دليلٍ على صحة هذه النظرة من كونه اختباراً للإخوان ، والذي نجحا فيه أبو جاد وأم محسب ، خصوصا إذا نظرنا الى الوظيفة التي جعلها الله في أم محسب من خدمه المجاذيب وأرباب العلل الباطنية والعقلية والمجانين ، وما كانت تفعله معهم مما سبق شرحه ، ومن احتمالها الأذى في ذلك.

ولا ندري إذا كان الشيخ أبو جاد عالما بفحوى المقصود من هذا الاختبار وبمقصود عمه فيه أم انه هو الأخر في اختبار من شيخه كما كانت أم محسب في اختبار منه، وإن كنا ندرى أن الأمر ليس عشوائياً فى تصاريف الشيخ مع مريديه .

ثم إننا بالنظر الى تاريخ أبو جاد مع الشيخ فأننا نجده في سلسلة متصلة من البلايا والاختبارات والعطايا الباطنية و المنح الإلهية فكان بين البلاء والعطاء ، وبين المنع والمنح ، وبين ذوق النعمة والحرمان منها ، فتجده قد ذاق ذوق الكاشفين ، ولا شك أن الكشف نوع من التقدير الإلهي ، ثم لا يلبث أن يكون الكشف وبالا عليه ، وابتلاء واقعاً به ، وقع بسببه في الجناية التي اقترفها والتي استحق العقاب عليها ولا شك أن العقاب عذاب ثم يصير هذا العذاب نعيما وعطاء ، إذ كان عقابه أن يلازم ساحه أهل البيت و مجاوره السيدة زينب وسيدنا الحسين مده طويله قاربت الخمسة وعشرين سنه فكانوا مكشوفين له منظورين منه ، متحدثا معهم شاعرا بهم ثم انه بعد نعيم الاُنْسْ والوصل بهم ذاق عذاب البعد والحرمان منهم، وبعد أن كان موصولا بالملوك صاره موصولا بالمماليك ، فلا يزال طريقه بين كر وفر وبين نعيم وجحيم وبين وصال وفراق ، ولكنه على قدر ما عاناه لم يزل محبا متفانيا في شيخه ذاكرا له في كل أوقاته ، فكان في ذكرى مولده يعدُوا في المولد وهو الشيخ المعاق فرحا بذكراه منتشيا بمولده يطوف في الطرقات صائحا به …. وَرْدْ عليك ... فُلْ عليك.

وقبل أن نترك الكلام عن الشيخ محمد أبو جاد نتناول بعض ماقيل من الإخوان عن جنايته التى كانت سببا فيما حلَّ به من آلام ونتناول أيضا قضية الكشف التى كان قد طلبها من شيخه وما جناه عليه هذا الكشف .

فلقد روى لنا الشيخ رفاعي رواية تخص أبو جاد رحمه الله مفادها أن الشيخ محمد أبو جاد كان في زياره سيدنا الحسين ودخل الميضة ليتوضأ فلما أدار بصره ، فإذا برجل وامرأة داخل الميضه في وضع مخل بالأداب ، فثار ثورة عارمة واهتاج لهذا الأمر اذا كيف يحدث هذا بجوار سيدنا الحسين ، فأخرج سكينا كانت معه فطعن بها الرجل فأرداه قتيلاً ، وقُبِضَ عليه وتم تحويله للمحاكمة ، وبعد دراسة القضية من القاضي ، أضمر القاضي في نفسه أن العقوبة المناسبة لهذه الجناية هي ستة عشر سنة ، وعزم الأمر في نفسه على ذلك ، فلما ذهب القاضي الى بيته و أخلد في النوم ، رأى نفسه وهو يُسَجِّلُ على ورقة مقدار العقوبة التي انتواها لهذه الجناية ، وكان كلما يكتب سته عشر سنه فإن السيدة زينب رضي الله عنها تبدو له وتقول : لا ، هي فقط ستة أشهر ، وتكرر هذا المشهد فأخذ يناقشها فيما يناسب جنايتة من العقوبة ، وهي رضي الله عنها تُصِرُّ على أن تكون العقوبة سته أشهر فقط ، ولا تزال هذه الرؤية تَعْرِضُ للقاضي يومياً ويتكررُ معها مشهدها ، فلم يجد القاضي بُداً من الحكم عليه بالمدة التي قضت بها السيدة زينب رضي الله عنها .

ولم ينتهى الأمر على هذا الحد بل كان لابد لأهل البيت من تعقيب على ماتجاوزه أبو جاد فى جنايته والنظر فى شأنه بحضور شيخه ، فذهب الى الشيخ في اليوم التالى والذى صادف فيه حضور الشيخ رفاعى لزيارة شيخه.

وفي هذا اليوم كان من المقرر أن يحضر مولانا سيدنا الحسين ومولاتنا السيدة زينب وسيدى أحمد البدوى ليجتمعوا بالشيخ مسعد ويتباحثوا في شأن محمد أبو جاد ويقرروا مايرونه فى أمره ، وذكرأبوجاد للشيخ رفاعي انهم على وصول(يقصد أهل البيت ) وجلسا ( أبو جاد ورفاعى ) يتحدثان قليلا ، ثم ما لبث أن هبَّ أبو جاد واقفا صائحا : وصلوا..… وصلوا ... ثم وجه كلامه إلى الشيخ رفاعي: لقد صعدوا الى الشيخ ، أدعو يا ولَد إن ربنا يستر …. ربنا يستر ياولة ، و مرت فترة قصيرة هبَّ بعدها أبو جاد قائلا : لقد نزلوا من عند الشيخ ، واتفقوا على وقوف الأمر على ما قضى به القاضي في السته شهور ، وبعد أن إطمأن أبو جاد على نفسه انفرجت أساريره، وبشَّ وجهه ، وارتسمت الابتسامة عليه ، وأخذ يسامر الشيخ رفاعي

وما أكثر ما متلأت هذه القصة من مشاهد كان أولها : غِيرة أبو جاد على مقامات أهل البيت وكيف تُنْتَهكُ الحرمات في مقاماتهم ،وماكان الدافع له فيما فعل إلا هذه الغيرة ، فكانت هذه الغيرة التى لم يتمكن من دفعها، سبباً في إنخفاض العقوبة من ستة عشر عاما الى سته شهور ، وأما عقوبة الستة شهور فكانت ثمناً لإراقة الدماء وهتك الستر ، فلو تغاضى عنهم من باب ستر ماستر الله ، لما نالته العقوبة فإن الله ستِّيرٌ يحب الستر ، ولو ترك الأمر لله يقضي به ، لكان أهدي وأصوب.

الأمر الثاني: صلاح القاضي إذا كان القاضي أهلا لزيارة أهل البيت إليه ولو كان خلاف ذلك في الصلاح ما زاروه ولا أطاع ما أشاروا عليه به.

الأمر الثالث: أن فوت عقوبة المريد من أهل الظاهر لا تمنع عنه مرور العقوبة من أهل الباطن والذي يمثله في روايتنا أربعة مولانا سيدنا الحسين ومولاتنا السيدة زينب ومولانا احمد البدوي ومولانا عم الحاج مسعد الذين اجتمعوا على راي السيدة زينب فيما أشارت علي القاضي به فكانت بهذا رئيسة الديوان حقا ، وإكتفوا بمغادرة أبو جاد لساحة مولانا سيدنا الحسين .

الأمر الرابع: وهو إدراك هذا كله من الشيخ محمد أبو جاد ، من أول إدراكه أن المجتمعين أنما جاؤا للقضاء الباطن في أمره ، ثم انتظاره لهم ، ممَّا يدلُ على سبق علمه بحضورهم الى الشيخ ، ثم رؤيته لهم بعد حضورهم وتوقيت إنصرافهم ، ثم عِلمه بفحوى الحكم الذي أقرُّوا به ، فإذا كانت هذه مكانة أبو جاد من العلم ، وهو الجاني ، فماذا تكون مكانته إذا كان بغير جناية ، ثم ماذا يكون حال شيخه من العلم إذا كان المريد بهذا الشأن.

غير أن هناك رواية أخرى فى شأن جناية أبو جاد تختلف فى أسبابها وفى أحكامها وفى نتائجها وفى آثارها ، عن الرواية السابقة ، ولا نملك القدرة على التمحيص بين الروايتين لإنقضاء آجال أصحابها مما يجعل الحكم عليها فى علم الله وحده ، هذه الرواية تنقلها إلينا السيدة أم حسين عن أمها أم محسب ونسوقها إليك كما جاءتنا ، وهى قصة في غاية الطرافة والتشويق تقول فيها :

أراد أبو جاد أن يكون له كشف من الشيخ ، أيّْ يكون له اطلاع على المستور عن الناس فى أمورهم ، فكان له ما أراد إلا أنه كلما خلا بنفسه وجد رجلاً مع زوجته كشفاً ( ولا ندرى إن كان هذا الأمر خيالاً ظَنَّه كشفاً ، أو كان حقيقةً ، أو كان إختبارا من الشيخ لطلبه مالا يجب عليه طلبه ، أو كانت الرواية على غير ذلك ) وتكرر معه هذا الذي رآه فلما ذهب الى منزله وجد أحدهم فيه ، فقيل أنه صفعه على وجهه فسقط الرجل على الأرض مصعوقا من اثر هذه الصفعة ، ولا ندرى أن كانت هذه الرواية في هذا الجزء مطابقةً لواقع الأمر ،أم لا ، فقد تعددت الروايات في هذا الجزء منها ، ووصل الأمر الى الشيخ فقيل له : (الحق يا عم دا أبو جاد أماتَ رجلاً ) …. فلمَّا ذهب الشيخ إليه وقابله قال له : يا ابني أنا إبني مَيِتْسِجِنْش ، تَرْضَ إن أنت تتسجن ، ولاَّ تِبْقَى سجين عمك ، وأنا اللي أحاسبك ، فقال له: لا يا عمي ارضى بحكمك وسجنك ، فان سجنك رحمة بيَّا ، فلما جاءت الشرطة وأحالوا القتيل للكشف الطبي ، تبين أنه قد مات بسكته قلبيه ، لا شأن لها بصفعه أبو جاد له ، فخرج بهذه الصورة من حكم الظاهر ، ولم يبقى إلا حكم عمِّه الباطن فيه ، فعلى الفور وجد ابوجاد نفسه وقد تَنَمَّلتْ يداه وقدماه ، فلم يتمكن من حركة يديه بصورة طبيعية ، ولم يتمكن من المشي على قدميه إلا بالصورة التي : وكأنه يمشى على اطراف أصابع أقدامه ، ولا يكاد يمشي حتى يسقط من عدم تحكمه بالسير ،وهى الصورة التى كان عليها إلى أن توفاه الله ووجدناه عليها . ثم أخبروه أن مده حكمه هي خمسه وعشرون سنه ،يقضي منها خمسة عشر سنة على باب سيدنا الحسين ، وعشر سنوات على باب السيدة زينب ، فهذه هي مدة حكمه ، وهى فى الحقيقة المدة التى قضاها أبو جاد فى جوارهما ، وهى أيضا فى الحقيقة المدة التى لو حُكِمَ عليه فى الظاهر لحُكِمَ عليه بها .

ولما أن أراد الشيخ مسعد أن يبني منزلاً الى جوار منزله الكائن في الأخصاص ليكون سكنا للشيخ باهي ولده بعد زواجه ،أثار ذلك أبو جاد في نفسه ، ولم يكتمها فيه ، بل أبداها له فقال للشيخ : يعني إنت بتقول انك ما لكش في الدنيا ، (ورايح تبنى لباهي بيت ، هوَّه أنا كنت ابن مين، عشان تِقَعَدْنِي محبوس بحكمك ليل ونهار ، فنظر اليه الشيخ وقال له : يا أبو جاد أنت ما انتش عارف أنت كنت محبوس بإية ، أنت نسيت اللي أنت عملته ، يا بني خلاص ، يا أبو جاد القعدة دي اذا كانت مش عاجباك بلاش منها )، وما أن قال الشيخ هذه الكلمه حتى جاءت الشرطة ورفعت حاجته الموضوعة على رصيف مقام سيدنا الحسين ، وطردوه من مكانه القائم فيه ، وكان الشيخ في هذا الوقت لدي ابنته زوزو الساكنة في العمارة المقابلة للباب الأخضر لسيدنا الحسين ، فصعد إليه أبو جاد وقال له : سماح يا عمى فقال له : ( سماح أيه مش أنت اللي قلتلي أزاي تبني لباهي ، وأنت تعلم جنايتك اللي أنت اقترفتها ، وكان الحكم عليك مقابلا لهذه الجناية ، ولا يزال أبو جاد يلح على الشيخ ويستحلفه بالسيدة زينب وسيدنا الحسين حتى قال له الشيخ خلاص ارجع لمكانك يا أبو جاد …. ونزل أبو جاد اللي مكانه فوجد الشرطة وقد أعادته وكأن شيئا لم يحدث منهم ، وسألته : أين حاجتك يا أبو جاد التي كنت تضعها الى جوار المقام؟وكأنهم قد جهلوا ما قد سبق أن قاموا به ، وكأنه صدقهم في زعمهم فأعادوا أشياءه اليه ، ورجع الى مكانه بجوار المقام ، وهو يخاطبُ شيخه في نفسه قائلا: ( يا لهوي أنت ماسك الكون كله في أيدك ، شيل يشيلوا هات يجيبوا ، أنت راجل ماحدش عارفلك أول من أخر ) وهكذا عاد أبو جاد الى سابق مكانه، مندهشا مما عليه عمه من المكانة .

ولما أن أتم أبو جاد فتره حكمه اندرج مع إخوانه وسلك معهم في لياليهم وأيام موالدهم إلا أنه كان قد اعتاد مرافقه أهل البيت طوال خمسه وعشرون سنه قضاها على أبوابهم فلما انتقل الى صحبه الإخوان هاله الفرق بين صحبه الملوك وصحبه المماليك ، فساءت أحوال نفسه ولم يعد يطيق احد من الإخوان ولا استضافتهم له وتكررت شكاوى الإخوان من سوء معاملته له الأمر الذي جعل الشيخ يطلب من أم محسب وهي احدى بناته في الطريق أن تستضيفه في منزلها وبالرغم من سوء معاملته لها ألا انه أقام فتره طويله عندها وكنا قد ذكرنا خبر هذه الإقامة في كلامنا عن السيدة أم محسب حسب ما رَوَتْها لنا ابنتها أم حسين .

ومن هذه الرواية عرفنا أن طلب المريد للكشف أو الكرامة أو خرق العادة دون أن يكون للشيخ رغبه فيها ، هو على الأكثر وبالاً عليه وفتنه وإختبارا له ، فإن الشيخ إذا أرادها له فسوف يُعانُ عليها بربه ،وإذا أرادها المريد بنفسه فسوف لا يأمن شرها ولا يحتاط من مكرها ، تماما كمن يطلب الولاية على المسلمين فان الولاية إذا طلبت منه فانه يعان عليها أما أن طلبها بنفسه فسوف يُتْرَك لنفسه فيها ، وما أسوأ مراد النفس فيها. وكثيرا ممن طلب الكشف والكرامة لأنفسهم ذاقوا مثل ما ذاق منه أبو جاد وتألموا من أثره وربما جرفتهم الفتنه وضل بهم السبيل ، ولولا أن عين الشيخ بأراده الله له عليه ، لغرق في طوفان الفتنه ولضاع في ترهات الضلال. ويُطْلَبُ من المريد على الدوام أن يكون بأمر شيخه فلا يطلب خلاف ماطُلِبَ منه ، ولا يرغب خلاف ما رغَّبَهُ اليه فيه ، فإن الشيخ هو العارف بمسالك الطريق ومطالب السبيل ومهالكه ، وأن يكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسله ، ويكون على ثقة بما يجريه شيخه عليه.

ولا يخل الإخوان من المواقف التي تستدعي تربية الشيخ لهم وتقويمهم لأخلاقهم وإصلاحاً لتجاوزاتهم ، حتى لو كانت التجاوزات في خواطر المريد وليست في أفعاله ، والذي تعارف عليه الناس أن المحاسبة تكون على الأفعال لا على الخواطر، ولكن الأمر خلاف ذلك فيمن هم قائمون على تربيه الأرواح وهم الأشياخ مع مريديهم ، فان الله سبحانه قد أعطاهم المعرفة بالخواطر والمحاسبة عليها ، ومن هذه المواقف ما كان للشيخ من **الشيخ عبد ربه** ، إذ كان الشيخ عبد ربه تاجراً للخضار والفاكهة يأخذ المحصول من المزارع و يتعامل فيها مع الأسواق ، وهي تجاره مُربحة، فحدث في سنةٍ من السنين أن راجت تجارته ، وزاد ربحه لوفرة الخارج من هذه المزارع ، وكان الشيخ في إحدى زياراته للسيدة زينب ، فأصطحب معه الشيخ عبد ربه ، فنظر إليه الشيخ وقال له ، إذا وجدتني قد نفذ منى المال فتولى أنت الصرف ، يقول عبد ربه : فلما إنتهى الشيخ من كلامه خطر خاطرٌ في قلبي ، أنه يستحيل على الشيخ أن يخلو من المال ، وأنه ربما قد علم قَدْرَ ما رَبَحَتْ منه تجارتي ، فحدثنى بما حدَّثني به ، وتكرر علي عبد ربه هذا الخاطر مرة واثنان وثلاثة ، فلما وصلنا الى المنزل كاشفني الشيخ بذلك الخاطر الذي ضرب في صدري مرة ثم مرة أخرى ثم مرة ثالثة ، فعلمتُ من ذلك أن الجالس مع أهل الله ، ينبغي عليه أن يخاف من خاطره اذا خطر له ، بما لا يجب أن يخطر به ، وهذا الأمر من أشق الأشياء ، لأن الخاطر يهجم على الإنسان فلا يملك الإنسان من دفعه ، وأن الخواطر تتباين مصادرها من الخواطر الإلهية والخواطر الملكية والخواطر الشيطانية ، والتمييز بين هذه المصادر هو من أشد الأمور على الناس وعلى أهل الله بوجه خاص ، ولكن الذى يستدعى النظر الخواطر الثابتة التى تكرُّ على الإنسان المرة من بعد المرة ، ولهذا لم يتحدث الشيخ مع عبد ربه فى خاطره إلا بعد تكراره عليه ، ولهذا قالوا أنه إذا جلست مع الولىّْ فحاذر من قلبك ، لأت لهم إطلاع على القلوب ، وإذا جلست مع العالم فحاذر على عقلك ، لأن لهم إطلاع على العلوم .

والشيخ عبد ربه من أولئك الذين كان لهم دلال على الشيخ وكان هذا الدلال يُجيزُ له ما لا يجوز لغيره ، ويقبل الشيخ منه ذلك في حضرته ، فكان إذا غلبه الحال ( وهو مايبدو على أهل الطريق من أحوال )تظهر منه بعض الحركات الغريبة ، كان ينكش شعره ، ويجمع الكراسي في الذكر ، ويقف عليها ويرقص ، والشيخ ينظر اليه في صمت ، وصاحب الحال معذور فيما يرد عليه من أفعال من أثر ما يراه ولم يطَّلِعُ عليه غيره ، فقد يطلع على أمر جميل من أمور الملكوت وما أكثرها ، فتراه يرقص ويغني ويتحرك ويتهلل لما هو في مشاهدات ، ومن يراه من خارج يستغرب فعله ، لأنه محجوب عما يراه صاحبه ، أما الشيخ فانه يرى فعله و يرى ما يراه ، فيعذره على ذلك ، وقد يجد من هذه الأحوال ما يُجَرِّؤُهُ على شيخه قولاً ،أو يزيح بعضاً من الكلفة معه ، مثلما حدث معه حين قال للشيخ : يا عم أنت لست عمي أن عمي هو الشيخ باهي ، كل ذلك والشيخ يضحك ولا تدري ما الذي دعاه الى قول ذلك ولكن شيخه يدري .

وقد يجد من الأحوال ما يجعله غاضبا من طريقة ذكر إخوانه فى الحضرة في حضرة شيخه ، فيهجرهم الى ذكرٍ فى حضرة شيخ آخر مجاوراً لهم وذلك فى أيام الموالد حين تتعدد حضرات المشايخ ، مثلما حدث ذات مره في ذكرى المولد النبوي الشريف ، إذ قال لشيخه : يا عمي أنا لن اذكر عندك ، سأذهب الى حضرة الشيخ محمد أبو جمعه فأذكر فى حضرته ، ولا يفعل ذلك إلا بعد أن يأخذ الإذن من شيخه، فيأذن له الشيخ ويذهب. يقول الشيخ عبد ربه : وكلما ذهبت و انتظمت في ذكرهم شعرت وكان نارا تضرب على خدِّي يمينا ويسارا كلَّما تحركت معهم في الذكر ، فما انفك عائدا الى شيخه ، فيقول له الشيخ : ما بك يا عبد ربه ، فيذكر له ما حدث ويقول له : يا عم أريد أن ارتاح فأنا متعب ، فيقول له الشيخ : عندما نأمرك بشيء فعليك تنفيذه ، وقتها سترتاح ، فيقول له: حاضر يا عمي ولا نعلم أن كان قد سكت عن مناكفة الشيخ أم لم يسكت فقد كان مشهورا بمناكفة الشيخ وجرأته عليه ، ولم يكن ذلك لغيره .

وحال الإخوان مع الشيخ حال غريب فتراهم بالرغم من ثقل ما يعاقبهم به في حال تجاوزهم ، وفي طريق تربيتهم ، يحبونه حباً طائلا يتجاوز محبتهم لجميع ذويهم ، فمنهم من كان عقابه في بدنه ، ومنهم من كان عقابه في ولده ، ومنهم من كان عقابه في أهله ، ومنهم من كان عقابه في ماله ، وحتى منهم من كان عقابه في سُمْعَتِه ، ولكن لم يكن ابدأ عقابه في دينه ، وفي انتظام سلوكه مع شيخه ، فلقد سمعتُ أن أحداً ممن تجاوزوا في حق انفسهم ، أن عاقبه الشيخ عقابا شديداً ، وطال أمدُ العقاب لسنوات طويله ، وكان مما عاقبه به أن جعله مُقَيَّداً مُقْعَداً لا يتمكن من الحركة ، سجيناً في نفسه ، فلما إشتد عليه ألَمُه شكا الى شيخه إشتداد وطأة العقاب ، فنظر اليه الشيخ وقال له : أن الله مكننى أن أجعلك في بلدك عمدة بما في ذلك من المال والجاه ، ولكن اذا نلت هذا فان مقابله أن تنسلخ من عَقْدِي ، وتنفصل عن سِلكي ، فلا أكون لك شيخا ولا تكون لي مريدا ، هنالك قال له : لا يا عم اقبل كل ما تجريه على من عقاب ولا اقبل أن انفصل عنك وقد ذكرنا هذه القصة بالكفاية في هذا الموطن وربما نذكرها صراحه في موطن أخر ، وقيل أن هذا قد قيل فى شأن محمد أبو جاد ، وقد ذكرنا تفاصيل سيرته من قبل .

وشبيه بهذا الأمر علاقة الوالد بولده ، حين يعاقبه على امر ما ، فان هذا العقاب لا يُخْرِجُ محبة الولد لوالده ، ولا يخرج عنايه الوالد بولده ،فمن يكُ حازما فليقس أحيانا على من يرحمُ ، والأمر في الدنيا زائل قصير ، والأمر في الأخرة دائم لا ينقطع ، فالطاعة صبر ساعة.

ولا زلنا مع عبدربه في مناكفته مع الشيخ ولا زلنا في مقام النظر في أثر تربيه الشيخ للإخوان ، فانه باب لا يُدْرِك مداه ألا من وقع عليه العقاب فأحس بعده برد أنامل الثواب.

وحدث أن إتفق الشيخ باهى مع الشيخ عبدربه في أن يحتالوا في إبعاد احد زوار الشيخ عنه وهو **أبو القاسم** لسبب لم يذكره الراوى إلا أنه قد قيل من بعض الإخوان ، أنه كان مستأثرا بالشيخ إذا جاء إليه ، فاذا جاء جلس معه وانفرد به لفترات طويله ، فلا يدع لغيره من الإخوان نصيبٌ من الحديث مع الشيخ أو الجلوس معه ، وكلهم جاء من اجل ذلك ، ولم يجدوا حيلةً أوفق وأوثق من أن يذهبوا الى سيدنا الحسين ويطلبون منه هذا الطلب ، وكان الشيخ قد حذَّر عبد ربه مرارا ، ألاَّ يفعل شيئاً قبل أن يستأذن منه ، ويستشيره فيه ، ولكن عبدربه كعادته كان صعب المراس ، عتياً على الطاعة ، أو ربما شجعه وجود الشيخ باهى معه وهو ولده ، فكأنما كانت صحبة الشيخ باهى حَصَانةً له مِن أن ينال عقاب شيخه ، فذهبا كلاهما الى سيدنا الحسين ، وقرؤا الفاتحة ، وطلبوا منه أن يُبْعِدَ أبا القاسم عن زياره الشيخ في الأخصاص.

فلما عادا من زيارة الحسين ، وذهب عبدربه الى بيته فاجأته زوجته بالصراخ والبكاء فقال لها : ما بكِ ؟ فقالت : سيارة دهست الجاموسة، فأدرك عبدربه في وقتها أن ذلك هو العقاب في مقابل عصيانه لأمر الشيخ، فترك زوجته وذهب للشيخ حزينا منكسرا ، كانِزاً جام غضبه في صدره، فقال له الشيخ : ألم أقل لك لا تفعل أي شي دون علمي ، لِمَ ذهبت مع باهى فيما ذهبتم اليه ؟ فرد عليه مكررا قوله والغضب لايزال في صدره: الشيخ باهى هو عمِّى أنت مش عمى ، وتركه وأنصرف الى حال سبيله، ولا تزال العِقابات تتوجهُ الى الشيخ عبد ربه ، فقد كان تاجرا يشترى محاصيل مزارع الفاكهة ، ويبيعها في الأسواق، فأشترى محصول إحدى هذه المزارع ، ولكن لم يحالفه التوفيق هذه المرة ، ففسدت على آخرها وتبدلت أحواله ، ولم يبقْ لديه شيء ، فذهب الى شيخه وقال له : الآن ليس معي شيء إلا زوجتي وأولادي ، ماذا ستفعل بي بعد ذلك ، فقال له: لن افعل بك شيء آخر.

وكأنما نظر الشيخ إلى عبد ربه ورأى انه لا ينصلح حاله إلا بزوال أثر سطوة المال عليه فلاحقه المرَّة بعد المرَّة ، حتى أزال عنه ماله ولم يبقْ له ألا كفايته منه في الدنيا ، فلما تمَّ له ذلك ، كفَّ عنه ، وكأنما كان هذا هو المرمَى الأول الذي كان يرمي إليه الشيخ ، فكانت العقابات المتتاليات ، هي السبب في تحقيق هذا الهدف ، ولا يبخس ذلك من قدر الشيخ عبد ربه عند الشيخ ، ولا عند الإخوان المعاصرين له ، فهو أخٌ عزيزٌ ودودٌ محبوبٌ لديهم ،له دلالٌ على شيخه ، ولشيخه دلالٌ عليه ، ولو كان الشيخ غير محبوب عند عبد ربه ، فما الذي أصبره عليه ، وبقي معه ؟ ولو كان عبد ربه غير مطلوب لدى شيخه لكان مصروفا عنه ، غيرُ محسوبٍ عليه ، فقلوبٌ الناس بين أصابعهم ، عطاءا من الله لهم بذلك ، ونواصيهم بأيديهم وهبا من الله لهم به ، ولكنه العهد والطريق والعقد الذي رضى فيه الطرفان، أن يكون هذا شيخ له دليل ومرشد له الى الله ، وان يكون هذا مريدا طائعا لشيخه في طريق السلوك .

واستكمالا للرواية التي ذكرناها للتو ... فان ذات الرواية قد رويت إلينا من طرف آخر ولكنها تحمل بعض الاختلاف وان اتفقت في المضمون فقد قيل إن الإخوان لما غاروا من أخيهم أبو القاسم ، وإستئثاره الشديد بشيخهم ، أرادوا أن يَصرفوه عنه ، واحتالوا عليه في صرفه عنه ، وانتظروا الفرصة لذلك وجاءتهم الفرصة ، وكان الشيخ باهي معهم في هذه المكايدة ، فقد حدث أن طلب الشيخ من أبي القاسم أن يُعِدُ له طعاما جيدا كثيرا ، ويأتي به الى بيت الشيخ ، له ولِنفرٍ من ضيوفه ، فقال له : حاضر يعمي …. فقال له الشيخ أنا ذاهب مشوار قريب وسآتي إليك ، …. وفي هذه الأثناء يكون الطعام جاهزا …. فقال له حاضر يا عمي …. وهنا جاءت لعمى الشيخ باهي والإخوان الفرصة لما عزموا عليه ، فذهبوا لأبي القاسم قبل حضور الشيخ بوقت كاف ، ثم قالوا له إحتيالا : إذا أردت أن تعد طعاما للشيخ فاعلم أن الشيخ لا يأكل طعامه طازجا بل يحب أن يأكل طعام اليوم السابق له (طعام بايت) فقط ، إصنع بعض اللحم ، وضعه أمامه وضيوفه مع الطعام "البايت" …. فقال لهم : أنتم شايفين كده ؟ … فقالوا : نعم … فصنع أبو القاسم الطعام بحسب ما أشاروا عليه ... وجاء الشيخ مع ضيوفه وما إن جلس حتى طلبوا الطعام ... وعلى الفور جاء أبو القاسم بالطعام بحسب ما أشار عليه دراويش الشيخ ، فنظر الشيخ الى الطعام ، ثم نظر إلى أبي القاسم بشيء من الغضب قائلاً له : أيه ده يا أبو القاسم ؟ أهذا هو الطعام الجيِّد الكثير الذي طلبت منك أعداده ، فقال له : أنا آسف يا عمي ... معلش سامحني … فقال له : هم عملوها فيك ؟ وكان الكائدون من الإخوان قد حضورا ومعهم الشيخ باهي ، مراقبين لما سيحدث ، فلما سمعوا من الشيخ مقولته : همَّ عملوها فيك ؟ انتفضوا وقاموا وذهبوا بعيدا مستترين عن الشيخ ، فما وجد الشيخ باهي إلا الحَمَّام ليختبئ فيه بعيدا عن عيون الشيخ ، وظل في الحمَّام مراقباً لصوت الشيخ ، فإن ناداه سيخرج من شبَّاك الحمَّام الى خارج البيت ، أما باقي المتآمرين ففرو خارج البيت … أما أبو القاسم فذهب سريعاً لعمل طعام جديدٍ ، فأخرج اللحم ووضعه على النار ، وسَلقهُ سَلْقَاً جيدا … ثم رمى بالماء المغلي الناتج من سلق اللحم في الحمَّام الذي اختبأ فيه الشيخ باهي ، وكان الشيخ باهي لا يزال يختبئ به من شدة خوفه من الشيخ … فأصاب الشيخ باهي من أثر الماء المغلي حرقا شديدا في قدمه ... فقال في نفسه عن شيخه (برْدُو طُولْتِنِي ، أنا عارف أن أنت ما لكش حل ) .

وتكاد تكون العبرة من هذه الرواية ، هي ذات العبرة في الرواية الأولى ، وهي التربية المنوطة بالشيخ نحو أبنائه في الطريق ولم يستثنى فيها الشيخ باهي من العقاب والتأديب ، فإن الرواية الأولى قد تناولت تأديبه للشيخ عبده أبو فهمي ، إذ كان حاضرا مع الشيخ باهي في ذات المؤامرة ، والرواية الثانية تناولت تأديب الشيخ باهي نفسه ، فان التأديب من الشيخ لا يستثني أحدً من أحد ، ناهيك عن مغزى غِيرة الإخوان على الشيخ من استئثار أحدهم به ، والناشئة من شدة محبتهم له.

ولا زلنا مع الشيخ عبد ربه في مناوشاته للشيخ وعراكه معه من باب الدلال عليه ، طلب ذات مرة من الشيخ أن يعطيه الكشف بسبب سنذكره في أخر هذه الرواية ، فلما أعطاه الكشف لم يتحكم فيما كشف له من البوح به ، فكان يتكلم به طوال الوقت ، حتى انه كان يُخبر بحضور الإخوان وغيابهم ، فكان من ذلك ، أنه كان من الحضرة فى الأخصاص ينادي على أخيه سيد عبد العزيز فى المطرية ويقول : يا سيد ، فيسمع الشيخ سيد نِداه وهو في بيته ، وإذا لم يتمكن الشيخ سيد من الحضور يقول الشيخ عبد ربه للإخوان : لن يأتي الشيخ سيد الى الحضرة اليوم ، ويكون كما قال ! فطلب منه الشيخ أن يسيطر على نفسه في هذا الأمر ، فقال له عبد ريه : شيء عطانيه الله فلم احجبه ؟فيقول له الشيخ : ما فائدة بوحك به ؟ فيقول : أن أُعَرِّف الناس ، والسبب فى لوم الشيخ له ، أن هذا الكشف سيؤدى به فى النهاية الى العجب والزهو والغرور والتسامى والشفوف على إخوانه من أهل الطريق ، وهذا سيؤدى به فى النهاية الى المنع بعد المنح والإرتقاء ، ولا يريد له الشيخ ذلك ، بل يريده محافظا على عطاء الله له ، ورأينا من قبل كيف كان الكشف وبالاً على الشيخ محمد أبو سلامة ، ووبالاً على الشيخ محمد أبو جاد ، وحدث في ذات يوم أن جاء للشيخ يزهو فى كشفه وقال له : سيأتي اليك مصطفى عبد الله ،( وهو أحد الإخوان المقربين للشيخ والإخوان وقد ذكرنا جانباً من حكايته مع الشيخ من قبل حين تكلمنا عن أم إبراهيم المجذوبة ) ، وسيأخذك بالسيارة ولسوف أذهب معكم الى السيدة زينب ، فقال له الشيخ : لن يأتي مصطفى عبد الله ، وستحدث له إصابة في قدميه تصيبها بالكسر ، وبالفعل لم يأتي مصطفى عبد الله ، وجاء بعدها وقدمه مكسورة وهنا يظهر الفرق بين درجتى الكشف بين المريد و شيخه ، فمجال كشف المريد محدود ناقص ، ومجال كشف الشيخ مطلق ممدود كامل ، وإن كانت الكشوف في جميعها على الحقيقة ممدودة بمدد الحق لها ، هنالك عرف حدَّه ولزم غَرْزَه ، فكشفه ممنوح من شيخه يطلقه في أشياء و يحجبُه عنه أشياء ، وأما كشف الشيخ فمرهونٌ بعطاء الحق له ، أن شاء أيضا كشف له شيء ، وان شاء غيبه عنه ، ولقد قال الحق بلسان نبيه

( قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَـمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) ، فإذا كان رسول الله لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله له فما بالك بغيره ، وقد رأينا كيف غيَّب الحقُ عن الشيخ مسعد ميقات وفاة صَفِيِّه **الشيخ محمد أبو عبد السلام** ، فلا يُطْلع الحقُ غيبَة على أحدٍ إلا بإرادته ، ....... والسبب في طلب الشيخ عبد ربه للكشف ، أن الله كان قد أطلع الشيخ مسعد على أن حادثةً ستصيرُ لأحد أبناء إخواتنا ، وهو باهي بن أم جمالات ، ولم يكن في مقدور الشيخ أن يمنع قَدَرَ الله في حدوث أمرٍ له ( وكان ذلك في مولد السيد البدوي) فأراد أن يخفف من طبيعة الحادثة حتى يخف أثرها على الولد ، وَرَجَا الله في ذلك ، فاحتال لهذا الأمر ، وكانت صوره التصريف ، أن دَخَلَ في وقت الذكر على الغرفة التي يوجد فيها الأخوات ، فوجدَهُم جميعا مستيقظات ذاكرات ، ثم دخل الغرفة على مريديه من الرجال فوجدهم نائمين ، وبينهم الشيخ عبد ربه يشرب جُوزَة ، فغضب لذلك غضباً شديداً ، إذ كيف يكون الرجالُ نائمون ، والنساءُ ذاكراتٌ مستيقظات، وكانت هذه هي صور إحتياله علي الأمر الذي ذكرناه ، فأخذ الجوزة من عبد ربه وألقاها على الحائط فتكسرت ، وكان باهي إبن أم جمالات نائما تحت الشباك ، وكأنما الشيخ قد خطر في نفسه أن يَنْزِل الزجاجُ المكسور على باهي ، فَيُحْدِثُ به بعض الإصابات الخفيفة، فيكون ذلك عِوَضاً عما إطَّلعَ عليه من حدوث حادثة لباهي قد تكون لها عواقب وخيمة ، وذلك من باب الفداء ( مثل فداء ذبح الكبش بدلا من ذبح إسماعيل ) أو من باب وفاء المقدور على صورة أخرى تكون أقل حِدَّة ، ألا أن الشيخ عبد ربه لما راي زجاج الجوزة قد تحطم ومن تحته باهي أسرع في لمح البصر الى جلبابه ، فأسدله علي باهى ، وإلتقط الزجاج قبل أن يسقُط على الطفل ،( وهو لا يعلم ماقصده الشيخ من ذلك ) ، فغضب الشيخ لذلك فلطمه قائلا له : لماذا ؟ كانت فاتِتْ وعدِّتْ !! ( يقصد ما خططه الشيخ في نفسه من فوات أمر الحادثة الواقعة على باهي ، والتي رآها الشيخ في لوح قدره ، فلو لم يفعل عبد ربه مافعل لأصيب باهى ولكانت إصابة خفيفة مكان إصابة بليغة ) ..... وفي الصباح حدث المقدور ، فتعرض الطفل لحادثَ سيرٍ فأحدث به أصابه بالغه ، فتذكر عبد ربه كلام الشيخ حين قال ( كانت فاتت وعدت ) وأحس بالذنب ، إذ كان الشيخ يريد أن يتساقط الزجاج على الطفل فيصيبه إصابة خفيفة ، بدلاً من هذا الحادث فيكون حادثاً مكان حادِث ، فقال للشيخ : يا عمي أنا أعمى لا أبصر ، وكأنه يقول له: لو أعطيتني الكشف لعرفت الأمر على حقيقته ، فلطمه الشيخ مرة أخرى ، ولكن هذه اللطمة ليعطيه الكشف الذي طلبه وأراده لنفسه ، وليذوق مسؤلية الكشف وثقله على حامله ، فكان منه ماكان من عدم تحمله له ، فلم يسيطر على نفسه فيه.

والكشفُ لدى المريد امرٌ بالغُ الصعوبة وقد راينا من قبل كيف فعل الكشف بالشيخ محمد سلامه ، فقلب حياته رأسا على عقب ، ولم يتمكن من السلامة منه ألا بمعونه الشيخ في ذلك ، وهانحن قد راينا الكشف عند الشيخ عبدربه ، ورأينا من أثره مالم يتحمله ، ولم يَكبح من أثره لِجام َلسانه ، وكنا قد سمعنا في رواية لم نذكر تفاصيلها عن ذلك الذى طلب من الشيخ أن يعطيه الكشف فما لبث بعد ثلاث ليالي أن هرع الى شيخه أن يكف كشفه عنه ، وكنا قد علمنا من قبل المحنة التي أصابت الشيخ محمد ابوجاد من اثر الكشف الذى طلبه من شيخه.

في احدى روايات الإخوان التي تتناول قضية الكشف ، الذى قد يطلبه المريد من شيخه ، نسوقُه في البداية على لسان راويها وهو الشيخ خالد ابن أم محسب ، ثم نذكر بعدها ما يمكن أن يكون مقصوداً من مفهوم الكشف ، من خلال فِعلِ الشيخ مع مريده في هذا الشأن ، تقول الرواية:

أن أحد مريدي الشيخ وهو الشيخ عطية أبو كَحله ، طلب من الشيخ الكشف ، فقال الشيخ له مؤكدا على طلبه : …. أنت عايز الكشف يا عطية ؟ فقال له: ...نعم يا عمي ….. فقال له : خلاص يا ابني هنديك الكشف، فكان للشيخ عطية ما أراده ، وكان الشيخ عطية على إعتيادٍ لزيارة الشيخ في كل أسبوع مرَّة أو مرَّتين …. وكان الشيخ عطية يذهب إلى عمله عن طريق أتوبيس الشركة الذي ينتظره على الطريق المجاور والقريب من بيته ….. فكان كلما خرج الى الطريق منتظراً لأتوبيس الشركة ، يرى وكأن أحدٌ يطرق على باب داره ، ثم يذهب الى عمله فاذا عاد من عمله ورجع الى بيته سال زوجته …. هل جاء أحدُ الى الدار اليوم بعد ذهابي للعمل ؟ فتقول له زوجته لا لم يأتي أحد …. فإستغرب الشيخ عطية من أجابة زوجته له ، وقد رأى بعينه الطارقَ على باب داره ، وتكرر هذا الأمر مرات ومرات ، يرى فيها الطارق على باب بيته …. وتكرر زوجته ردَّها علىه فى ذلك…. فتمكَّن منه الشك في أهل بيته ، وأصبح هذا شاغله الأكبر ، وهمَّه الذي لا ينقضي ، فما كان منه إلا أن انقطع عن عمله متربصا بأهل بيته، ناظرا الى داره ، فلا يَجِدُ طوارق عليه ، وإحتار في أمره وطال غيابه عن عمله حتى قاربَ أن يُفْصَلَ منه ، وإنقطع أيضا عن زياره الشيخ ، وقد إمتد أمدُ إنقطاعه حتى قارب الشهر ، وساءت أحواله ، وانشغل ذهنه ، وغلبه الوهم ، وسيطر عليه خياله ، وفي نهاية المطاف لم يجد بُداً من زيارة الشيخ و شكوته اليه .... فلما قصَّ عليه القصة ، قال له شيخه : وذات الله يا ابني هو ده الكشف اللي أنت عَوْزُه ، وكأنما أراد الشيخ أن يقول له : ليس المطلوب أن تكشف المستور ، ولكن المطلوب أن ينير الإيمان في قلبك وداخلك ، وان ينضح نورُ الأيمان على خارجك ، وهنا نقف على بعض الأمور فى هذه الرواية ونتناول قول الشيخ (وذات الله هو ده الكشف اللي أنت عايزه) فعلمنا من مقال الشيخ ، أن الشيخ عطية إنما يطلب الكشف الذي يظنه في غيره ، وليس له شاهدٌ عليه من خارج ، فإنكشفت له حقيقة خواطره فى غيره ، وهو ماطلبته نفسُه الأمارة بالسوء ، الطالبة للاطلاع على أسواء الغير ، وآفات الناس وأسرارهم ،فلقد كان عطية ظانا بأهله السوء ، وتمكن هذا الظن السيئ من خواطره ، فطلب من شيخه الكشف ليرى صورة ظنه عيانا ظاهرا ، وما كان الذى يراه عطيه إلأ صورة خياله الفاسد الكامن في داخله ، فأراد الشيخ أن يحسم له هذا الخيال في صوره واقعيه ظاهرة فمثَّل له هذا الخيال في صورةِ الرجل الذي يطرق باب داره في غيابه ، وجعل له كشفا لهذا التجسيد فأراه إياه ، وهو من هذه الوجه صادقٌ في كشفه ، وإن كأن ما كشفه صوره مجسده من خياله الفاسد ، ساقها إليه الشيخ تعليماً له ، وقد تأكد لنا هذا الظن في تفسيره من وجهين : الوجه الأول قول الشيخ له : هذا هو الكشف اللي أنت عايزه ولم يقل له : هذا هو الكشف للأمر على حقيقة ما هو الأمر عليه ، أما الوجه الأخر فهو تربص الشيخ عطية بداره ، فلم يجد ماكان يراه حال ذهابه إلى عمله من أحوال بيته ، ولو طلب الشيخ عطية الكشف للاطلاع على أنوار التجليات وشخوص المقربين من أهل الله من الأولياء وأصحاب البرازخ لكان له ذلك ، ولكنه أضمر في نفسه هذا النوع من الكشف الذي طلبه من شيخه ، والذى يطابق فساد خياله ، وهذا هو أحد الإحتمالات التى لم نتيقن منها ، والإحتمال الثانى أنه ربما طلب الكشف للتجليات النورانية التى أشرنا إليها ، ولكن قد لا يطيق الإطلاع على هذه الأنوار ولا هذه التجليات ولا تلك الخوارق ، فيهيم عقله ويغيب ذهنه وينفرط عقده ، فلا عمل له سيبقى ، ولا بيت له سيرعاه ، ولا عقلا له يحفظ عليه تصرفه ، فيكون حاله كحال المُنْبَتْ الذى لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى

والأمر مأمونٌ في وجود الشيخ والمرشد ، الذي يضبط له مقادير هذه الأشياء ، فيجرى عليه الصالح منها ويمنع عنه الفاسد فيها ، ولو كان الشيخ عطية بلا مرشد أو إمام دال له على وجه الخير في الأمور، لانسحب الأمر الى شيطانٍ له ، يُجَسِّدُ له هذا الخيال الكامن في نفسه، الظاهر له في كشفه ، فيرمي أهله بالبهتان ظلماً ، وينقلب داره جحيما من إثر فعله ، ولكن الله سلَّم ، فجعل له مرشداً يقيه شر نفسه ، ومطلوب شيطانه ، وقانا الله شأن السوء .

ولو مددنا نظرنا في هذا الأمر لراينا الشاكِّين في ذويهم ، الظانِّين فيهم سوء السلوك ، القائمين في ليلهم ونهارهم على سوء الظن فيهم، المُتَمَنِين في ذواتهم من ربهم أن يكون لهم الكشف في أنفسهم للإطِّلاع على أحوال من يظنون فيه السوء ، لعلمنا أنهم مثل حال صاحبنا أبي كَحله ، فنجدهم وقد اتصفت دنياهم بالسواد فلا نوم ولا رقاد ، ينامون ولا ينامون ، ولا طعاماً يأكلون ، ولا هناء بالٍ يذوقون ، فخيالهم على الدوام في سوء هذه الأحوال ، لا ينقطع مدده لهم ، فهم الطالبون للمستور المحجوب عنهم ، وقد يكون المحجوب عنهم على غير ما صوَّرَهُ لهم خيالهم ، وقد يكون غالبه مخالفاً له ، فهذا الأمر هو مرتع الشيطان وملعبه الذي يُنَفِّسُ فيه عن نفسه ، فيتناول هذه الأخيلة و يجسدها في أذهان أصحابها ولا يزال به حتى يراها حقيقةً واقعه فتذهب به الى أخر المَرْسَى وتدفعه بهذا الذهاب الى أسوء المآلات ،فتنخربَ البيوت ، وتنهدم الأوكار، وتتشرد الأطفال ، وتضيع الآمال ، وكل هذا من شدَّة الطلب لكشف المستور ، وشدة الرغبة في هتك الأحجبة والأستار ، وكل هذا برغم ما عَلِموه من أن الحق سبحانه ستِّيرُ يحب الستر ، وما ضرَّك لو تركت الأمر لتصريف الله فيمن شككتَ فيه ، وفوضتَ قلبك من داخلك لمراد الله منه ومنك ، وعلمت أن الله شاهدٌ عليك كما هو شاهد على من شككت في سلوكه ، وظننت فيه السوء ، ثم أن الله حاكمٌ عدلٌ حقٌ ، يفصل بينك وبينه ، فما أشهى أن تعلم... أن الله هو نعم الوكيل الذي تتكأ عليه في تصريف أمورك ، وما أحكمك حين تَكِلُ اليه تصريف أمرك ، فهذا هو حسبُك منه ، إذ جعلت أمرك عند من وصف نفسه بانه نعم الوكيل.

وأما قصه **الشيخ بكر** مع شيخه فهي رواية تجمع بين الأمر بالعدل والإنصاف والقسط وتتعداه الى العقاب في حال نقص ميزان العدل ، وهدم ميزان القسط ، والعمل بالجور والظلم ، والأمر الثالث هو علمُ المريد بان الشيخ يعلم ما في خواطره ، ولا يمر عليها مرور العابرين ، وأخر الأمور هو جبر خاطر ولده ورحمته به ورأفته به وخوفه عليه.

تقول الحكاية : أن الشيخ بكر وهو من أبناء الشيخ المقربين كان تاجراً متنقلاً للقماش ( أى يحمل جرابه الذى يضع فيه أقمشته ويطوف البلدان والقرى مناديا على بضاعته ، وهو أمرٌ شائع فى ذلك الزمن ، وإن كان قد ندر فى عصرنا و لازلنا نراه على فترات متباعدة ) وكان أغلبُ زبائنه من النساء ، وكان من عادة النساء الفِصال في السعر(المناقشة فى السعر) والرغبة في زيادة ما تحصل عليه منه ، وهكذا الشأن فى النساء ، وكان يضطر في بعض الأحيان للرضوخ لهن حتى لا يهربن الى غيره ، ولهم خبرة فى ذلك ، وفي أحد المرَّات ، أراد في نفسه أن يعوِّضَ بعضاً من خسارته مع أحدى زبائنه ، فأوهمها انه قد أعطي لها مزيدا من القماش ، والحقيقة أنه قد نقصها منه ، واستخدم أحدُ أصابعه ( إصبع الإبهام) في تنفيذ هذه الخدعة ، فلما عاد الى منزله وجد ذات الأصبع وقد تورم وأصابته الحُمرة، وإشتد عليه الألم ، لدرجةٍ لم يتحملها ، فشعر في باطنه أن في الأمر شيء ، فذهب الى شيخه ( وقد كان هذا دأبهم ) فلما دخل عليه جلس مع الحضور ، ولم يصرَّح للشيخ بما حدث ، ولكن دار فى خاطره لوم الشيخ له ( فقد كانت عادة الشيخ أن يتحدث مع مريديه بالخواطر )، ثم إنتقل الشيخ من لوم الخاطر إلى لوم الظاهر، فلامه بين الحضور ، فأسرَّها الشيخ بكر في نفسه ولم يبدها ، وحزن فى نفسه لكلام الشيخ له أمام الإخوان وظن أنه فضحه بكلامه ، فلما أحس الشيخ بذلك قال له : يا بكر فضيحتك بين أخواتك في الدنيا أهون عليك ألف مرة من فضيحتك في الأخرة ، وما أن عاد إلى بيته حتى إختفت الحمرة من أصبعه وزال عنه الألم .

ومن الروايات التي تتناول ما إعتاده الشيخ مع مريديه وما اعتادوه معه ، ما كان منه من تربيته لهم اذا تجاوزوا ما خَطَّه لهم من قواعد ، ما حكاه لنا الشيخ ناصر عن والده الشيخ باهى وننقله هنا بنصه : -

كنا في مولد شيخ العرب وكان من القوانين التي سنَّها الشيخ مسعد ، ألا يتعدى الإخوان طعام الخدمة الى أي طعام أخر مهما كان مصدره ، وكان طعام الخدمة حينها العيش البتَّاو ( الخبز المصنوع من خليط من الدقيق والذرة والحلبة ) والدُقَّة ( خليط من التوابل ) والجبن والعدس ، وما الى ذلك من الطعام الجاف ، وانا من أول المولد لا اتعدى هذا الطعام الى غيره - والكلام هنا للشيخ باهى - حتى كانت الليلة الختامية فأصابني الإجهاد والهزل فكنت اذا هممت بالوقوف دار راسي وغشيني الإرهاق حتى كدت أسقط ، فحدثتني نفسي أن ذلك بسبب الطعام الذي سنَّه لنا الشيخ ، وأن علاج ذلك أكلة دسمه ، أصلُب بها عودي ، وأستردُّ بها بأسي وقوتي ، وكنت في ذلك الوقت قريبا من محمود القُطْ ( أحد مريدى الشيخ ) ، فعرضتُ عليه الأمر قائلا له : (الرجل ده هيموتنا أنا كل ما أقف روحي تسوخ عليَّ وعيني بتزغلل ، تعال معي نخرج في السِرْ وننال حظا من أكلة دسمه معتبره ونعود ولا يرانا أو يشعر بنا احد فخرجنا نترقب الى أن وصلنا الى محل كباب طلبنا ربع لكل واحد فينا ، فكأننا لم نأكل فطلبنا ربعين أخريين ، ثم أتبعناه بربعي بسبوسة عند الحلواني ، ثم كأسين من عصير المانجو ، ثم إلتفتَ الىَّ محمود القط ، وقد غمرني الرضا والشبع وقلت له : نعود أدراجنا الآن ، وكأن شيئا لم يكن ، وعلى رأس الشارع وجدنا الكهرباء في الخدمة مقطوعه ، فقلت له : أبْشِرْ يا عم ، سندخل خِلْسَه في الخدمة دون أن يرانا أحد ، فلما دخلنا الخدمة ، ونحن أمام الشيخ مباشرة ، وكان يجلس في زاويه من الشارع وهو نفس المكان الذي اجلس فيه أنا الإن ، إذا بالكهرباء المنقطعة تعود ، واذا بالأضواء المنطفأة تُضِيء ونحن في مواجهه الشيخ مباشرة ، فأشار بيده إلينا أن تعالوا ، فذهب محمود وفررت هارباً ، وكأنني لم أرهُ فقال لمحمود : إجلس - وكان كلامه لمحمود القط - فجلس وبادره بالسؤال : أين كنتم ؟ فتلعثم وقال: كنا على راس الشارع ، فقال وحياة عمك أين كنتم ؟ فأجاب مُذْعِناً: كنا نأكل فقال ماذا أكلتم ؟ فرد بنبرة يُهَوِّنُ بها إجابته : كل واحد ساندويتش فقال وحياة عمك ماذا أكلتم ؟ فأجاب مُقِراً : كل واحد أكل ربع كباب ،والدرويش وقتها إذا إستحلفته باي شيء ربما لا يبالي ، إلا إذا إستحلفته بعمه ، فعلم محمود القط انه لا مفرَّ له ، وأن الأمر قد قُضِى ، ونزل على الحقيقة وأقرَّ بها فقال الشيخ : فقط ؟ فرد محمود : فقط يا عم ، فقال: وحياة عمك ؟ فأجاب خاضعا : أكل كلانا ربع ثانياً ، وظل على هذا الحال يستحلفه ويقرره ، حتى أتى على أخر كاسين من العصير ، وكان للشيخ إشارات تعرف منها رضاه من غضبه ، ونيته في العفو والعقوبة ، فلو إستقصى في سؤاله وناقش التفاصيل ، فاعلم أن الحساب عسير ، وأنك معاقب لا محالة ، وإذا كان السؤال عابراً وتجاوزه ولم يدقق ، فاعلم أنك معفيٌّ عنك ، فلما انتهى التحقيق قال له : فيم تميَّزتم عن هؤلاء الناس لتأكلوا خلافهم ؟ إذهب يامحمود ، إنت مضروبٌ بعينك ، والشيخ بتاعنا مضروب ببطنه حتى الفجر ، فنحن نحتاجه في تحميل الخدمة ، ومن لحظتها انقلب الكباب في بطني ( والكلام للشيخ باهى ) الى قطع من جمر النار تحرق أحشائي وتعصرها ألماً حتى انه في أخر الشارع عمارة، فنمت في مدخلها على الرخام الأبيض البارد ، كاشفا عن بطني مُلْصِقاً إياها بالرخام ، حتى يبرد ما في جوفي لعلَّه يطفئ شيئا من هذه النار الموقدة ، أما محمود القط فقد إحمرَّت عيناه وانتفخت ، وكأنك ملأتها بالشطة ، وأخذوا يسحبونه كالأعمى ، وعند الفجر هدأت بطني وكأن شيئا لم يكن بها ، وذهب عنها الألم فقلت لنفسي : يعني لولا تحميل الخدمة ما أخذت أفراجاً ، و أقسمت أن لا أشارك في تحميلها ، ووجَّهتُ وجهى نحو المواصلات قاصداً الى العودة الى المنزل .

فلا فرق عند الشيخ بين ولده صُلبا أو أحدُ أبنائه في الطريق فالجميع في نظره سواسيه ، فضلا عمَّا كان منه من أعدادٍ لباهى في وراثته وإدارة الأمر من بعده . ولا جدال فيما مكَّنَ الله به الشيخ من قدرة وتصريف في الكون ، وإيثاب هذا ومعاقبة هذا ، وتربية وتهذيب لمن هم تحت إمرته ورعايته ، فالأمر ليس بالهزل وإنما هو جِدٌ صِرْف. وهو ترويض أولاده في حركتهم وسكناتهم وأكلهم وشربهم فلا يستثنى فيه منهم أحد.

وفى موضوع آخر كان لأهالى كفر الرفاعي عادة في كل عام ، أن يُقِيمُوا ليلةً يستقبلون فيها الشيخ ويحتفلون به معهم ، وكانوا إذا شاهدوه قادماً إليهم مع الإخوان في مركبهم وهم على الضفة الأخرى من النهر ، يستقبلوه بالدفوف قائلين صلى الله على محمد ..... صلى الله عليه وسلم ، ويحتفون به إحتفاء الفاتحين ، إذ كانوا يُعِدُّون لهذا اليوم العُدَّة كل عام ، وينتظرون قدومه والفرحة تغمر قلوبهم.

وحدث في أحد هذه الأعوام أن إعتذرالشيخ مسعد إليهم لمرض ألمَّ به وحاولوا معه ، فأصرَّ على إعتذاره ، فما كان من الدراويش إلا أن توجهوا الى وريثه الشيخ باهي أن يحل محل الشيخ في حضور هذه الليلة وعرضوا هذا الأمر عليه ، فطلب منهم أن يستأذنوا الشيخ في ذلك ، فإذا وافق فلا مانع لديه ، وذهبوا اليه وأعادوا العرض عليه فأعاد الاعتذار ، فقالوا له : إذاً نأخذ عمَّنا ونذهب لإحياء الليلة .… فسكت الشيخ قليلا ، ثم قال لهم: ألَكُمْ عمّْ غَيْرى ….. فسكتوا وقالوا : لا ، ولكننا نقصد عمي الشيخ باهي … وأمام إصرراهم وافق على ذهاب الشيخ باهي معهم لحضور الليلة …. ثم توجه الى باهي ولَدَة ….. وسأله : تروح يا باهي ؟ فقال له : نروح ياعمي (إذ كان يدعوه : عمِّي كما يدعوه الإخوان ، بإعتباره أحدُ مريديه وإن كان ولده صلبا ) وفي الليلة الموعودة وهُم في وسط النهر ( إذ كان يفصل بين كفر الرفاعى والأخصاص أحدُ فروع نهر النيل ) وأبناء كفر الرفاعي على الضفة الأخرى ينتظرون وصولهم بالدفوف والإنشاد ، فإذا بماء النهر يعلو ويرتفع ، ثم بدأت موجاتُه في التصاعد ، موجة من بعد موجة ، والقارب يرتفع مع كل موجه ، ومياه النهر قد غَمَرَت باطنَ القارب ، وكأنهم فى بحر لجىَّ يغشاهمُ الأمواج من كل فج ، ولا يزال النهر تعلوا موجاته ، ولا يزال القارب يعلوا مع الموجة ، حتى أيقن راكبيه ، بالغرق ولا شك ،وعلا هرجهم ، واخذ القارب يميل تارة الى اليمين ، وتارة إلى اليسار ، وقد إمتلأ بالماء الى آخره ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، وتيقن لهم الهلاك ، وادركوا أن الغرق حاصل لا محالة ….. هناك نادوا بأعلى صوتهم : يا رب …. يا رب …. ثم نظر إليهم الشيخ باهي قائلا : يا إخوان …. قولوا يا عمي …. فاذا قلتموها فستنجون من الغرق ، فإن فعل النهر إنما كان من فعل الشيخ فيه بسبب عطاء ربه له ،وبسبب رضاكم بغيره أن يكون شيخكم فى وجوده ، فاذا توجهتم الى الشيخ الذى هو ولىُّ الله إليكم منه ، فإن النجاة ستصحبكم …. فلما قالوها توقف الموج وهدأ النهر وسكن المركب فعادوا الى أضرابهم من حيث أتوا ، وإنصرفوا عن الليلة التى خَلَتْ من شيخهم وولىّْ أمرهم ، ولا يزال الشيخ باهى يتذكر هذه الليلة ويتعجب من شأن الله فى والده !!! ....... ولما رجع الدراويش بباهي الى الشيخ مسعد: نظر إليهم …. وقال لهم انتو رجعتوا يعني ؟ ثم توجه الى باهي ولده وقال له…. أنت رجعت ليه يا باهي يعني ؟ فتحدث الشيخ باهي الى نفسه وكأنه يتكلم مع والده فى نفسه (يعني أنت مش عارف إحنا رجعنا ليه ولو ما نديناش عليك كنت زمانك مغرقنا واحد واحد في النهر ) قال هذا فى نفسه ، ثم واصل الشيخ سؤاله لباهي ولده : أنت ما كمِّلتش ليه يا باهي ؟ فقال له : (هو أنا عرفت أكمل وما كملتش ) ... الله يسامحك ، ثم قال له في نفسه وكأنه يحادثه ، (أنت راجل ما لكش حل).

والإنسان من أثر الفطرة القابعة فيه ، يعلم أن الله هو الخالق له ،وأنه النافع والضار لا شريك له ، ولا نافع أو ضار غيره ، وهذا ما حدا بالإخوان في أول الأمر أن ينادوا على ربهم ليرفع عنهم ما هم فيه من البلاء ، إلا أن الشيخ باهي وهو المنوط بحمل الراية بعد الشيخ ، عَلِمَ أن الأمر لا يؤخذ من هذا الوجه ، وان الوجه المراد ، هو ما كان يجب على المريد نحو شيخه وإمامه المسؤل عنه ، فإذا أخلَّ المريد بهذا الواجب كان عُرضةً لتأديب الشيخ له ، حتى يَرُدُّهُ الى جادة الصواب ، وكانت صوره إساءة الأدب من الإخوان نحو شيخهم هو مجادلته في شان الذهاب الى هذه الليلة ، وقد أشار إليها بغير ذلك وأعتذر ،وكان الأحرى بهم أن يسمعوا ويطيعوا ولا يحتالوا فى إنفاذ ما ترغب به نفوسهم ، وتكرر الطلب منهم وتكرر الاعتذار منه ،وهم لا يعلمون ماوراء الأمر ، ولا مايريد الشيخ لهم أن يعلموه ، وأن يدعوه فى شأنه مع ربه ، فمثل هؤلاء خطواتهم محسوبة ، وهم مثلكم مُحاسبون من فوقهم ، والأمر فى الطريق : مُرَبِّى ومُرَبَّى ،وعلى المريد الطاعة دونما البحث عن التفسير المنطقى لما أَمروا مريدهم به ، ولم يقف الأمر لديهم بل تعدَّاه إلى تحايلهم في الذهاب بان أشاروا عليه بان يكون الشيخ باهي إمامهم في هذه الرحلة ،وهذا لا يكون مع وجود الإمام ، وما كانت موافقته على هذا الأمر إلا مسايرةً لهم في طلبهم لإقامة الحجه عليهم والنظر فيما هم فاعلون ، فما كان لهم أن يطلبوا ذلك في وجود الشيخ ، وما كان للشيخ باهي أن يوافقهم على ما طلبوه ، إلا أنهم لم يدركوا جوهر هذا الأمر ، وإن ادركه الشيخ باهي في موطن الحاجة العصيبة ، حين طلب منهم أن ينادوا شيخهم ، وهو الأدرى بإمامه لأنه خليفتة القادم والوارث للأمام والحامل للراية من بعده.

وقد يُثْبِتُ الشيخُ من يراه نائبا عنه في أمر ما ، ولكن هذا لا يكون إلا منه لا من دفع له بذلك ، فهو يعرف من يكون النائب وما هو الأمر المناسب فيه ويعرف حقيقة هذا وحقيقة هذا ، أما أن يُشارُ إليه من أحدٍ بإنابة فلان عنه ، فان هذا من سوء الأدب ، فان ثمةَ أمورٍ في الطريق موقوفة على أمام الطريق ، فلا يعرفُ سرَّها ألا هو ، فسَنَّ الشيخُ بما كان منه في هذه الواقعة سُنَّة الطاعة ، وعدم المجادلة ، أو التحايل في أمر لا يريده الشيخ، لأن الأصل في إسم المريد ، أن يكون بإرادة شيخه لا بإرادته ، وأن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسله ، فإن الشيخ هو باب المريد الى الله ، ولا يجب على المريد أن تتخاطفه الأبواب مادام عند بابه ، ولا يجب على المريد أن يطلب المدد من غير الشيخ في حضرته ، لأن الشيخ هو الناظر الى روح ولده ، العالمُ بحقيقته دون غيرة ، ويعلم ما يصلحه مما لا يصلحه ، فالشيخ يَعْلمُ حالك ظاهرا وباطنا ، وما يعرفه فى نفس المريد ، لا يعرفه المريد عن نفسه ، ومهما ابتعدت أو اقتربت منه ، فان حبلا موصولا منك اليه، أو منه إليك ، وكيف تهرب منه وروحك فيه فإذا كنا قد إئتمنا الشيخ علي أرواحنا فماذا تكون بعد أمانة الأرواح .

ولم يكن الأمر في جانب الشيخ وَقْفاً على العقاب والتربية ، فإن مظاهر التربية تتعدى العقاب إلى الإثابة والحفظ ، وهو حفظٌ الهيٌ كان الشيخ له سبب وأداة لعبده به ، والدافع له في كل الأحوال محبته له التى إبتدأها نحو مريده ، فأحبه مريدُه بها ، فلقد أحب لولده أن يسير في الطريق المستقيم فعاقبه حين سار في خلافة ، وأثابه حين أطاعهُ فيه ، وحفظه من تلك الآفات ، التي قد تصرفه عن السير في طريق أهل الله ، الى طريق آخر لا يرضاه الله له ، ومن مظاهر هذا الحفظ الإلهي الذي كان من الحق سببٌ فيه ، ما قصَّه علينا الشيخ ناصر ناقلا الرواية عن **الشيخ محمد أبو روبي** وهو أحد دراويش الشيخ يقول الشيخ محمد :

بينما كنت مُجَنداً أثناء حرب الاستنزاف ، وكانوا ينقلون المجندين وقتها في القطار الحربي الى الإسماعيلية أو السويس ، وبينما كنت راكباً مطلاً بجسمى خارج باب القطار ، مُخرجاً جسدى كله بالخارج إلا اليد الماسكة بقبضه الباب ، والقدم الثانية على ارضيتة ، ففي هذه اللحظة إذا بقطار في الناحية المقابلة يأتي بسرعة كبيرة إلى الدرجة التي تيقنتُ منها اصطدامى به وهلاكى ، فاذا به يرى الشيخ مسعد ، مادً يده الشريفة تلتقطنى من صدرى في سرعة خاطفه وتلقينى داخل القطار ( ولا زال أبو روبى حياً يرزق فيخبرك بما ذكرناه )

فاذا كان هذا حفظهم لنا في الدنيا وهي دار الفناء فكيف يكون حفظهم لنا في دار البقاء وهي الأَوْلَى.

وشبيه برواية الشيخ محمد أبو روبي (في كون الشيخ كان سبباً في حفظ الله له) ما رُوي عن إبنة الشيخ مسعد( زوزو ) ، فقد كانت في قضاء حاجات البيت ، وكان أبيها بجوارها ، إذ دخل عليهم رجلٌ بِجَلَبةٍ وصياح وسرور ، وكان هذا الرجل من أبناء الشيخ المحسوبين عليه ، ودخل مردداً كلماتٍ تُفِيدُ سرَّ الشيخ في حفظه لمريديه ورعايته لهم ،فأستقبله الشيخ متسائلا : ( فيه أيه يا ابني؟) فرد عليه الرجل : ما أنت عارف في أيه يا عمي ، ده أنا لولاك إمبارح كان قَطَّاعين الطرق قتلوني ، لوُلا هَجْمِتَك عليهم ، وضربهم ، وجريك وراهم وإنقأذك ليَّا منهم ، فرد عليه الشيخ مستنكرا ، وكان هذا دأبه : (حَدْ الله يا ابني ما حصل شيء من ذلك )، ونادي زوزو فسألها هل إنتقلت البارحة من البيت ؟ فأجابته : لا ، ثم قال للرجل : (شُفْت بَأة ، مُشْ أنا ) وهنا يبرز إلينا عدة نقاط ، **أول هذه النقاط** ، أن الرجل كان صادقا في رؤيته للشيخ وليس لديه شك في معرفته تلك ، **ثاني هذه النقاط** ، أن الشيخ كان صادقا في قوله فلم يغادر مكانه في ليلته تلك**، ثالث هذه الأمور** أن الصورة التي رآها الرجل إنما هي صوره من تلك الصور التي يتلبسها الشيخ ، إذ أن اللهَ قد أعطاة القدرة على التجسد في صُوَرٍ متعددة ، فتراه في مكان ، وصورته في مكان آخر ، كالذي ذكرناه حين توجه الشيخ الى زيارة سيدي عبد الرحيم القُضَّابِي في بني سويف ، فكانت صورة الرجل الذي استقبل الشيخ في أول البلد ، هي ذات الصورة التي دَلَّتهُ على الطريق ، وهي ذات الصورة التي قابلت الشيخ في زيارته وهي ذات صورة الشيخ القضابى الذى قابله الشيخ ، وهى هياكل متعددة مختلفة وذاك هو المقصود بالروحنة .

وكان أنكار الشيخ للأمر حتى لا يفْتَتِنَ الرجل به وحتى لا يخرج المريد عن حد العقل والاتزان اللازمين له ، فكان لازما عليه أن يرُدُّه الى نصاب الثبات والوقار والعقل ، وهو بذلك مستدعياً خُلُقاً من أخلاق الرسول حين قال : (إنما أنا ابن أمراه من قريش كانت تأكل القديد) والقديد هو اللحم المقطع المجفف.

وشبيه بما رويناه من قصص حماية الشيخ لمريديه ورعايته لهم ، ما ذكره الدكتور احمد موسى ناقلاً روايته عن عمه الشيخ محمد سلامه ، فكان يقول انه في حرب 73 كان جالس يفطر في رمضان فإذا به يبصر أخيه سيد سلامه وقد ضُرِبَتْ طائرتُه ، وسقط منها ،..... يقول أبو سلامه : فرميت كوب الماء من يدي،وصرخت: أخويا،وكنت في كفر العلو ( بناحية التبين )، والشيخ في الأخصاص ، وإذا بي أرى الشيخ رضي الله تعالى عنه راكبا فرسا أبيضا في السماء ، فالتقط أخي سيد بيد واحدة ، ثم ألقى به الىَّ، وقال: (أخوك أهو )…. وبعد إنتهاء الحرب ، حكى لنا الشيخ سيد كيف أصيبت طائرته وسقط منها ، وهو لا يعلم كيف وصل سليما الى الأرض حتى الإن . ولا يكون على هذه الشاكلة التي ظهرت على الشيخ ، إلا ذلك العبد الرباني الذي كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه.

ومن أسباب الحفظ الإلهي الذي كان الشيخ سبب له ، ما رواه لنا أخونا محمود بركات عن أخونا سيد عبد العزيز رحمه الله ، أن أحد أبناء المريدين كان يعمل غفيراً نظامياً ، فذهب بصحبة اثنين أو ثلاثة من الصيارفة لتحصيل بعض الأموال ، واذا بقُطَّاع الطريق يظهرون لهم بَعْدَ جمعهم الأموال ، فنادى الغفير بأعلى صوته : يا عمَّ أبويا (يقصد الشيخ مسعد إذ كان شيخ والده) والصيارفة ينظرون الحدث ، فاذا بفارسٍ صنديد يركب فرسه ، ويُشْهِرُ سيفه ، وإذا بقطَّاع الطريق ، يَفِرُّون من أمامه ، فَنَجُوا منهم ، فقال أحدُ الصيارفة للغفير : لقد ناديت وقلت : يا عمَّ أبويا ، فأكرمنا الله بهذا الفارس ، مَنْ هو أبوك ؟ومن هو عمه الذي ناديت عليه ؟ومن ذلك الفارس الذي حضر بمجرد مناداتك له ؟ لابد وأن نزوره ، وكان الصيارفة نَصَارَى ،فقال لهم الغفير : (ما لكم انتم ومال الحكاية دي )فصَمَمُوا على الذهاب للشيخ ، فذهبوا وبمجرد ما وقع نظرهم على الشيخ قالوا : (هوَّا دا الفارس ) فأظهر الشيخُ إندهاشه و سألهم عمابهم وكأنه لا يعلم شيء فقصُّوا عليه ما حدث إلا أن الشيخ نادي على ولده الشيخ باهي وأراد أن يستشهد به في انه لم يغادر البيت في ليلته تلك ، وأن الذي رأوْه خلافه فقال له : يا ولدي هل إنتقلت من بيتي في هذا الوقت ،فأجابه الشيخ باهي لا ، ولكنهم أصرُّوا على أنه هو الذي رأوْه فارساً أنقذهم من قطاع الطرق ، وكانت هذه الحادثة سببا في دخول هؤلاء الصيارفة الى الإسلام ، وحَسُنَ إسلامهم وأصبحوا من أبناء الشيخ وقد رآهم الإخوان في حضره الشيخ وجوههم مستنيره كا اللبن الحليب.

ولا نزال نقول كما قلنا في سابق الروايات أن هذه الأحداث من صُوَرْ العناية الإلهية التي كان الشيخ سببا لها ، وأن الصيارفة صادقون في رؤيتهم للشيخ ، والشيخ صادق في عدم مغادرته المنزل في هذا الوقت ، وان الصورة التي تَلَبَّسَها الشيخ هي تلك التي رآها الصيارفة ، فمعالم الطريق متباينة وعطاءات الله للشيخ كثيرة ومُلك الله واسع.

ومن مظاهر الحفظ الإلهي للإخوان والتي كان الشيخ سببا فيها انه كان يحفظ أبناءه من أن يدخل في جوفهم طعاماً حراماً لأي سبب كان سواء كان هذا الطعام، من أصل ماله حرام ،أو كان هو في نفسه حرام ،كأن يكون ميْتا أو مخنوقاً أو خلاف ذلك.

حدثنا الشيخ خالد ابن الست أم محسب أن الشيخ قد دُعِي إلى الذكر في احدى الليالي في العياط ، في الجانب الغربي منه ، وكانت هذه الليلة في مناسبة فرح إبن العمدة ، فطلب من الشيخ أن يأتي هو والإخوان على شرف هذه المناسبة لإحياء الليلة ، وفي نفس يوم تلك الليلة وجد الغفر أن الذبيحة المُعَدَّة لهذه الليلة قد نَفَقَت( ماتت ) ، فقال لهم العمدة : ماذا نفعل ومن دعوناهم على الحضور ولا وقت لدينا لأن نحضر ذبيحة خلافها ، فأشار عليه الغَفَرْ أن يتكتم الأمر ، ولا يحمل همَّاً ، فقاموا على الذبيحة الميته فذبحوها ، وقاموا بطهيها ، وعُرِضَ الطعامُ للضيوف وجاء الشيخ ونزل الطعام ، فنظر إليه الشيخ ثم إلتفتَ الى مريديه فقال لهم :

ياولاد النهاردة أبو صيام ، إحنا جايين للذكر فقط ، يريد أن يُعْلِمَهُم ألا تمد أيديهم الى الطعام ، دون أن يذكر سبباً لذلك ، فلما قابلهم العمدة قال لهم (أُمال مين هياكل الأكل ده كله؟) فرد عليه الشيخ : في ناس ثانيه جايه بعد ما نمشي هيكلوه.... وبعد إنصرافهم جاء نفرٌ من المطاريد وقطاع الطرق وأصحاب المعاصي والمحارم فجلسوا للطعام وأكلوه عن آخره ، فيكون بذلك قد أكل الحرام بعضه ، وكانت العبرة من هذه القصة :

**أولا**: حرص الشيخ ألا يدخل في جوف أبناؤه طعام من أصلٍ حرام.

**ثانيا**: أن ما ستره الحق لا ينبغي على المؤمن أن يفضح سِتْرَه فلم يخبر أحدا بحقيقة حرمة هذا الطعام ولم يشأ أن يتم فضح مُضيفه.

**ثالثا**: أن كل شيء وَقُودُه مِن جنسه ، فالحلال لأهل الحلال ، والحرام لأهل الحرام.

**رأبعا**: أن شيئا لم يمنعه مما هو ات لأجله وهو الذكر المدعو له.

**خامسا**: انه هناك لغة خاصه بين الشيخ وأبنائه يعرفون بها مقصده، دون أن يفهمه غيرهم وهي المعروفة في اصطلاح القوم بالإشارة وهم من أهل الإشارة وهذا يدل على الخصوصية الشديدة بين الشيخ وأبناؤه.

ولما كان الاختلاف سنة من سنن الكون ظهرت في كل شيء فيه، مثل التمايز بين الأنبياء والرسل يقول الحق : (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وقال: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض).

وكذلك التمايز في الأماكن والأزمنة وعوام الناس ، ولم يَخلُ الأولياء من هذه السنه ، وكذلك لم يَخلُ المريدون أتباع المشايخ من ظاهرة التمايز والتفضيل ، ونَاسَبَت مقاماتُ الأتباع مقامات أشياخهم ، وكان ممَّن نال التميز والفضل في مكانة مريديهم ، الشيخ مسعد ، فلقد سمعنا من اكثر من مصدر أن الشيخ أنما يربي أولياء لا مريدين ، سمعنا هذه المقولة من عم الشيخ باهي ، وسمعناها من عم الشيخ ناصر ، فكل من كان له نصيب من التربية والتدريب والتهذيب على يد الشيخ مسعد رضوان الله عليه تَنَوَّرَ وتأهَّل للولاية ، ودخل من أوسع أبوابها وهو باب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان فخراً للمريد أن يقول انه من أبناء الشيخ.

ولقد تميز الإخوان فيما بينهم على قدر إستعدادهم الذي خلقهم الله عليها وعلى قدر اجتهاد ملكاتهم وعلى قدر نقاء قلوبهم وعلى قدر صفاء أرواحهم ، وأن كان التميز في أماكنهم فان التميز لا يطال مكانتهم ومنزلتهم فأبناء الشيخ علي تمامهم قريبون الى قلبه في محل نظره وتحت رعايته وعينه.

فمن الأبناء من أعدهم الشيخ لتلقى علومه وإظهار نوره وتثقيف قلبه وعقله ، وهؤلاء جعلهم الشيخ سبباً في ارتفاع مقاماتهم وسببا في تعليم إخوانهم نيابة عن أشياخهم ، كما فعل الشيخ محمد سلامه وهو من الذين كان لهم الأذن من الشيخ في أن يكون لهم مريدون خاصون بهم في وقت وجود الشيخ ، وظلوا على ذلك بعد انتقاله ، وهم محسوبون بجمعيتهم على الشيخ مسعد بالنيابة ، وظل لهؤلاء الخلفاء مريدوهم الذين هم تحت أعينهم ورعايتهم ، ومن هؤلاء الشيخ سيد أبو نصر ، ومنهم الشيخ محمود القط ، ومنهم الشيخ عبد المنعم أبو حسين ، ومنهم أبو سيدنا ، ومنهم أم محسب.

ومن أصفياء الشيخ أيضا أخاً لنا من كفر الرفاعى هو الشيخ محمد أبو عبد السلام وهو الأخ الأكبر لأم فتحي زوجه أبو سيدنا أمدها الله بوافر الصحة والعافية.

يقول عنه الشيخ ناصر أبو باهي حفيد الشيخ ووريث طريقه ، أن الشيخ عبد السلام كان اقرب الناس الى قلب الشيخ وألصقهم به منزلةً وحباً ، ولما حضرت الوفاة للشيخ محمد أبو عبد السلام ، فوجئ الشيخ بذلك فحزن واهتم ، لا لوفاه الرجل وحسْبْ ، وإنما لأن الوفاة جاءت دون سابق علم له بذلك ، وكان يطمع من الله أن يعلم ميقاتها ، فأسرَّها الشيخ في نفسه ولم يبدها ، فاذا بمولانا الإمام الحسين يأتيه بنفسه تطييباً لخاطره وأجلاءً لسرِّ كتمان هذا الخبر عنه ، قائلا له : إنَّا أخفينا عليك هذا الأمر لثقتنا بأنك لو علمت لافتديته بنفسك ، وأنت لازالت لديك رسالةً عليك تأديتها مع مريديك ، ثم ألا يُرضيك أني أنا بنفسي ( والكلام لسيدنا الحسين ) من لقّنْتَه الشهادة ، قبل صعود روحه فأجاب الشيخ : رضيت يا سيدي.

وفي هذه القصة إظهار لمكانه الشيخ في نفسه أولا ، إذ كان لديه العلم بأحوال الإخوان حتى في مواعيد قبضهم من ربِّهم ، وفيها أيضا إظهارا لمكانه الشيخ لدى أهل البيت إذ جاءه سيدنا الحسين رضي الله عنه مُبَرِرَاً ستر هذا الخبر عنه.

وأيضا إظهاراً لمكانة الإخوان في ميزان شيخهم إذ كان حريصا عليهم للدرجة التي كاد بها أن يفتدي نفسه في مقابل حياه ولده ، وفيها أيضا تكريم سيدنا الحسين لمريدين الشيخ الذي هو بالتالي تكريما له ، إذ أنه بنفسه قد لقنه الشهادة قبل أن تفارق روحه وجسده .

ومن الأبناء من نال شرف خدمه الإخوان والقيام على مطالبهم من مأكل ومشرب وخلافه ، كأم جمالات وكامله وأم جمال وزينب القصيرة ، ومنهم من جعله الشيخ لإخوانهم ، يعدون لهم القهوة والشاي وخلاف ذلك مما يتطلبه وجودهم وخدمة الضيوف،كأبو جاد وعمِ سْدَاحْمَد(هكذا كنَّا نناديه) وعم بشير والشيخ رزق، ولقد بلغ الأمر بهؤلاء أن نظروا الى إخوانهم وانفسهم وكأنهم إستقلُّوا أعمالهم ، خصوصاً وان الشيخ لم يُعْطِهِم وِرْدَاً يقرؤونه كما يقرأه إخوانهم ، حتى حدا بالبعض أن يذهب الى الشيخ ويطلب منه ورداً كما لا صحابيهم : فقال لهم: قولوا:

خُدَّام الإخوان ياما ينولوا خير ويدعُو لْهُم

وإذا خدموا بقلب سليم أسيادنا نظرولهم

فانظر الى عطاء الله لهم فان خادم القوم سيدهم ، وسينال من وراء هذه الخدمة خيرا كثيرا ، أقَلَّهُ أن يدعو له الإخوان بظهر الغيب ، فهم المطهَّرُون ،المخلصون في خدمتهم ، ثم اختتم الأمر لهم بأن نظر إليه شيخهم بعين الرضا والسعادة ، ونظر اليهم القائمين بالخدمة من الأسياد والأشراف وآل البيت ، كل هذا نظير الخدمة ،فانظر كيف وصلت بهم خدمتهم لإخوانهم الى هذا الشرف والمدد الكبير ، ولقد رأيت بعينى رأسي بعضهم ، وقد تملكه الحال فنطق بالسريانية التى هى لغة الأرواح ( وهو ما يطلق عليه الدراويش الضرب باللسان ) وهو مقام قلَّ من وصل إليه .

ومن الإخوان من توجه اليى تنظيف المكان وترتيب فرش الخدمة وتركيب أعمدته وإنارته وغير ذلك مما لابد من وجودها والقيام عليها ، ومنهم من جعله الشيخ في مقابلة الآتين اليه ، يُحْسِنُون مقابلتهم ويجالسونهم ويتباسطوا معهم ، وكلهم كذلك ، كأمثال الشيخ إسماعيل(من اطفيح )وعم بشير وولده درويش رحمه الله ، ومنهم من إذا جالسْتَه طاب يومك وسعدت جلستك وإنزاح همك ، يُلاطِفُك بالقول ، ويتحدث إليك عن أحواله وأخباره في الطريق ، يُضْفُون عليك السعادة في مصاحبتهم والتحدث معهم والتودد إليهم ..

ومن الجلساء أيضا المجذوبون ، على إختلاف درجات جذبهم ، فمنهم الغائب الكامل كالشيخ فتحي ، إذا كنت تراه جالسا ساكناً ، ثم فجأةً يطلق ضحكةً عاليه تملأ أركان القاعة ، وحدث أن أطلق مثل هذه الضحكة في نهار رمضان وكان صائما ، فضحك الشيخ باهي من إرتفاع صوت الضحكة بالرغم من صيامه وتعجب منها قائلا : ( أمال لو كنت فاطر كنت عملت إيه ؟) وعلى ذكر الشيخ فتحي فان الشيخ باهي قد قصَّ علينا أمراً في شأنه فكان يقول انه ينام على الرخام المرصوف على باب سيدنا الحسين وهو لا يرتدي من الثياب إلا جلبابا بلا ملابس تحته ( على العرى ) في عز الشتاء في شهر طوبه، ثم تجد الحرارة صاعدة من جسده ، وكان يعانى من ورم أصاب ظاهر بطنه ( فتق ) ، ثم مالبث إلا أن جاء فى يوم وليس هناك أثرٌ له ...... ومن المجذوبين من كان جذبته غير كاملة ، إذ كان لديه بعضٌ من الوعي بنفسه وبمن حوله ،.... ومنهم شيخان كنَّا نَتَنَدَّرُ عليهم حال وجودهم معنا ( من باب الحب ، فلم يك غيرَ الحب بين المريدين ) وهم الشيخ شحاته والشيخ شعبان ، وقد بلغ الأمر بهما أن تنافسا في أحوال الطريق وفى مكانتيهما فيه ، وفى إجتهادهما فى مَرَاقِيِه ، وفى دلائل هذه المكانة بين الإخوان ..... وفي احدى مرَّات هذا التنافس تحدي أحدُهما الأخر في أن يأمر السماء أن تُسْقِطَ ماءاً ( مطراً ) غزيرا في الساحة ( مكان الخدمة ) وبالفعل لم يلبث الوقت يمر حتى غامت السماء وتكاثرت السحاب وأرعدت الرعود وظهر البرق ونزل المطر ، فاذا بالآخر وهو الشيخ شحاته ينهره ، لإرتباك أحوال الخدمة من أثر هذا المطر الشديد ، فأمر السماء أن ترفع ماءها ، وامر الشمس أن تُطْلق نورها ، وتبعث دفئها، وكان بالفعل ماأمر ، فأنظر أي نوعٍ من هؤلاء القوم كانوا ....... ومنهم مجاذيب كنا نراهم كثيرا عند أختنا أم محسب ( وهم كُثْر ) اسمه عبد الرحمن ولا ننس احدهم وقد فقدناه قريبا ، إسمه الشيخ رشاد ، وكنا نأتنس بوجود هؤلاء المجاذيب ،ونفتقدهم ونسأل عنهم ، ونفرح بوجودهم ، ونطمع فى الكلام معهم ، ونتمنى لو نعرف أسراهم التى يضنون بها على غيرهم ، ونتباسط معهم ويتباسطوا معنا .....

وكانت ساحةُ (خدمة ) الشيخ محلاً للأشياخ من كل جانب ، وكأنها أم الساحات ، يجيئون إليها ولايجدون غربةً في وجودهم ، ولا نجد نحن غربةً فى إستقبالنا لهم ، وكان ملاك الأمر فى هذا نظر الشيخ الى ضيفه ومعاملته له ، إذ كان يحسنُ إستقبال الجميع على إختلاف مشاربهم ، وتباين طرائقهم ، وكأنها ساحتهم ، كالشيخ عزت الدهشان ، والشيخ احمد السعدني والشيخ صادق بكير ، وكان للإخوان صلة روحانية بينهم وبين شيخهم ، يحبون مايحب ، ويكرهون مايكره ، وإن كان لا محلَ للكراهية فى قلوبهم على الإطلاق ، وكانت الروح السائدة الغالبة على الخدمة هى روح البسط والفرح والسعادة بوجود الإخوان الى جانب شيخهم ، والحقيقة ونحن نتكلم عن السيخ مسعد ، نجد أنفسنا وكأننا نتكلم عن ولده الشيخ باهى دون أن ندرى ، ويختلط علينا الأمر ، عمّن نتكلم ، ويتوه التمايز فى دواخلنا ، فلا يعجب القارئ مما ذكرناه ، فإن المَعِين واحد ، والجوهر هو ذات الجوهر ، وإن إختلفت الأردية على هذا الجوهر .

ولا يبرحُ بيتُ الشيخ عامرً بالإخوان في كل الأزمان والأحيان فمن كل حدبٍ وصوبٍ يأتون اليه ، ويشعرون أنه بيتهم ، يألفونَه أكثرَ مما يألفون ديارهم ، ويشعرون من الشيخ قرابته لهم ، أكثر مما يشعرون به من قرابتهم لأهلهم ، فقرابة الروح أولى وأشد وأقوى وأعتى واصلب من قرابة الجسد ، فاللهم لا تحرمنا من قربهم دنيا ولا أخره ، ولو أطعنا أنفسنا في الحديث عنهم وعن الإخوان ما سكت عنا ساكت ، ولما كف عنا قلم ، ولكن الأمر يستدعي الاقتصار والاقتصاد والوفاء بالمطلوب.

وفي مناسبة الكلام عن المجاذيب الغائبين بالكلية عن نفوسهم ، فإن هؤلاء لم يكونوا من أبناء طريقة الشيخ على خصوصها ، وإنما كانوا روادا له بما يردُ عليهم من أحوال ، لا ينظمهم سيره ، ولا هم من أبناء سلكه، وهم على عمومهم لا ينظمهم السير ولا يقيدهم السلوك ، فهم غائبون بالأحوال التى ترد عليهم من ربهم .

وكان كثيرٌ من الإخوان يسألون الشيخ عنهم ، ويقولون أننا نجدهم في جميع الطرق ، فكان يقول لهم دائما : **(أنا ما عنديش أولاد تنجذب لأن أولادي لديهم أسَرْ يقومون على نفقاتهم ، ولديهم أعمالٌ يزاولونها ، ولديهم أولاد مسؤولون عنهم ، فإذا إنجذب ذووهم ، فمن يقوم على شانهم ،ومن سينفق عليهم ، فليس في طريقنا ما تسألون عنه ، ونحن محسوبون لكل وارد علينا ، ومحبون لكل الأولياء واهل البيت ، وانا عامل غطاء على أولادي ، وعامل ستر على عيونهم ، فلا يرون ألا مصالح حياتهم، وأرزاق أولادهم ، وأكل عيشهم ، ومصالحهم العامة والخاصة ، وأن يسيروا على شرع الحق ، فينصرفوا عن الشر ، وعن كل ما حرمه الله عليهم ، فهذا هو الطريق السليم الذي ورثناه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن سيدنا سعد الدين الجباوي ،** ولقد لخَّص الشيخ مسعد منهاج طريقته فى هذه الكلمات الموجزة ، وأرسل رسالة لمن يريدون من الطريق الغوص فى تجلياته وروحانياته وأنواره ، فإن هذه الروحانيات تأخذ السالك الى دربها وتجذبه الى حلاوتها ، فيترك لأجل مذاقها مصالحه وأحواله ومصالح بيته فينهدم ركنه ويضيع سبيله ، والأصل فى الإسلام ، الدنيا والدين ، نعيش فى الدنيا ونُعَمِّر أركانها ونحطاط من مساويها ، ونأخذ خيرها وننتهى عن شرورها ، ونسعى الى الآخرة بما أمرنا ربنا به ، ولا تأخذنا التجليات والروحانيات عن عمار العالم وتربية الأولاد ، فالمؤمن الحق هو من يقف فى هذا الأمر بين السبيلين ، فلا يأخذه هذا عن ذاك ، ولا يأخذه ذاك عن هذا ، ولعل هذا هو مايميز طريقة الشيخ مسعد ومن بعده الشيخ باهى ، وهو الإعتدال والإستقامة ، وحفظ الحقوق .

ومن الإخوان من كان يتصف بالتجريد المطلق ، متلبساً بحال الأنفاق وكنا قد ذكرنا واحدا منهم وهو **الشيخ عبد العاطي أبو عبد الحميد** الذي كان ينفق كامل راتبه قبل أن يعود الى بيته،

وكان منهم من هو أشد منه وهو **الشيخ دسوقي** وكان من دراويش الشيخ المقربين ، وكان يعمل حلَّاقاً في القرية ، وكان ملازماً للشيخ لا يكاد يفارقه ، وكان شديد المحبة لأهل البيت ، ويغلق دكانه بالأسبوع أو الأكثر ذاهلاً عن قوته في سبيل زيارتهم ، وكان له بنتان أطلق على أحدهما كريمة ، وعلى الأخرى رئيسة ، وهما من أسماء السيدة زينب رضي الله عنها ، متيمناً بها وكانت زوجته دائمه القول له : ماذا تركت لأهلك وبناتك حتى تترك مصدر رزقك طوال هذه الأوقات ؟ ثم ماذا يكون الأمر بعد موتك ولم تترك لنا شيئا نقتات عليه ؟ فكان يقول لها : تركت لكم الله هو الذي يتولاكم .

وحدث أن ذهب إليه الشيخ في مرضه الذي مات فيه ، وقد علم الشيخ أن موته قد حلّْ فطمأنه على نفسه ، وطمأنه على بناته واهل بيته ، فقال له : إن شاء الله تتركهم على خير ، ولما همَّ الشيخ بالانصراف ، أراد الشيخ دسوقي أن يُشَيعه ، فقال له الشيخ : ادخل دارك فرد عليه : لا تحرمني من أن أموت وانا أمشي خلفك ، فقال له الشيخ : بالله عليك ….. أدخل دارك ، فما لبث أن توفي بعد رحيل الشيخ بدقائق معدودة ، وبعد وفاته أكرم الله بناته أهله وتيسرت عيشهم وأرزقهم.

غير أن هناك درويشا واحداً إتصف بالاستثناء في وصفه ، وكنا قد ذكرنا كلاما كثيرا عن محبة الإخوان بعضهم البعض ، وقلنا إن الشيخ كان يحث على ذلك ، وأن من كلامه (أن سقوط الدرويش من السماء السابعة أهون عليه من سقوطه من قلب أخيه ) وتجلت هذه المحبة في كثير من المظاهر التي سردنا منها جُلَّها..... إلا هذا الدرويش المدعو **عبد الظاهر.**

كان عبد الظاهر مكروها من عموم الإخوان لا يكادون يرونه حتى تنقبض له قلوبهم ، وتشمئز منه نفوسهم ، وكان سبب إنقباضهم منه امرين :

**الأمر الأول** أنه كان ينفرد بالشيخ إنفراداً طويلا طويلا ، فكان بإنفراده دونهم ، يحجب الإخوان عن رؤية شيخهم ، وهم توَّاقون إلى رؤيته ، والحقيقة أنه ما جاء أحدٌ الى بيت الشيخ ، إلا ويحدوه الأملُ في لقائه، والتحدث معه والبوح اليه والشكوى له ، فقد جاؤا بأحمال الدنيا على ظهورهم ، راجين بلقاء الشيخ أن يزيح عنهم هذه الأحمال ، وينضو عنهم هذه الأثقال ، فاذا جاؤا ، وعلموا أن عبد الظاهر مع الشيخ ، يئسوا من لقائه وانتظروا بلا طائل ، وكان يأتي مبكرا وينصرف متأخرا .

**الأمر الثاني** أنه ، لو تصادف أن كان عبد الظاهر ليس في حضره الشيخ، ألا أنه يكون مرابطاً للخارجِ من عند الشيخ ، أو الملتقى به ، فاذا خرج سأله عن فحوى لقائه بالشيخ ، وعطائه له ، أو أنه إستشفَّ منه هذا العطاء ، أيَّا كان هذا العطاء ، علميا أو عمليا أو مرتبةً أو مقاما ، فإذا بِعَبد الظاهر يَسْلُبُ منه هذا العطاء ، ويمنع عنه وصوله اليه ، ( وقد عرفنا من قبل ماهو المقصود بسلب الأولياء وسرقة العطايا ) هكذا كانت قُدْرَتَهُ وهكذا كانت مهمته فى طريق الشيخ ، فربما كان الشيخُ في حالٍ من حالات السُكْر ، و تخرج من فمه كلماتٌ ، يكون بها تصريفٌ لأمر ما في الكون ، فكان عبد الظاهر يلتقط تلك الكلمات ، ولا يدع المريد أن يأخذها ، لحرصه على خزانه العطايا وضبطه لها ، وكأنه كان المصفاه التي تخرج منها عطايا الشيخ ، فكانت وظيفته مراجعة عطايا الشيخ لأبنائه ، التى قد يكون أعطاها لمريده دون قصدٍ منه بذلك ، وهو فى حال سكره ، أو ربما كانت سَكرة الشيخ جعلته يغفو عن أهلية المريد لهذا العطاء ، أو قد يكون إختباراً للمريد فى مدى حرصه على عطايا شيخه فيحطاط من زوالها ، ولا ادري أن كان ما ذكرته موافق لحقيقة الأمر على ما هو عليه أو موافقا لحقيقه ما اتصف به عبد الظاهر . ولهذا كان مكروها بين الإخوان .

فكان الإخوان إذا رأَوْه عرفوا أنهم ، إما أنهم لا يتمكنون من رؤية الشيخ ، أو أن عطائهم منه لا يصل إليهم ، وأرجو أن أكون وفقت في التعبير ، وليس هذا قدحاً فى عبد الظاهر ، ولكنه توضيحاً لوظيفته بين الشيخ والإخوان ، بغض النظر عن كراهة هذا الأمر لدى الإخوان أو رضاهم به ، أو علمهم أو جهلهم به ، ومن ذلك نعلم إنضباط الطريق ، وعدم التهاون فى أنصبة المريدين من عطايا الشيخ ، التى هى فى الأصل عطايا إلهية .

والغريب في الأمر أنه قيل أن الحال الذي كان عليه عبد الظاهر كان تكليفاً من أهل البيت بذلك ، وظل هكذا الأمر مع الشيخ طيلة ثلاثون عاما ، خصوصا وان هذا الأمر كان تحت نظر الشيخ ومعرفته.

والأغرب من ذلك أنه بعد انتقال الشيخ لم يرْ الإخوان عبد الظاهر بينهم أبدا وإنما سمعوا عنه ، وأن الله قد فتح عليه بالرزق بعد ضيق حاله ، فحجَّ الى بيت الله ، وافتتح كتاب أو اشترى أرضا وإنبسطت أحواله ولكنه لم يُحاضر المريدين بعد وفاة الشيخ .

ولا نملك في هذا الذي ذكرناه إلا السكوت عنه ، لأن الأمر الذي يفسر به هذه الظاهرة ، من الأسرار التي لم يطَّلِع عليها أحد من الإخوان ، وخصوصا أن الشيخ لم يتكلم عنها ، أو يتحدث في شأنها ، وإن كان الإخوان قد إحتالوا على صرفه من بيت الشيخ ، ولكن باءت مساعيهم بالفشل ثم أن الشيخ قد عاقب من سوَّلَت له نفسه بالكيد لعبد الظاهر ، مما يُعْلم منه أن الوظيفة التي كان عليها عبد الظاهر بهذه الشاكلة ، كانت من خلال الشيخ وبطريقه ، ولسنا هنا بالبحث في أسرار الطريق الى الله فانك إن فعلت فكأنك تبحث في أعماقِ محيطٍ لا قاع له.

وإلى درويشٍ آخر من دراويش الشيخ ، حدثتنا السيدة توحه إبنة الشيخ عن **السيد احمد ابو قُطَّة** وهو خادم مسجد أبو الطرابيش ومن أبناء الشيخ ، فلقد كان عند الشيخ مسعد ذات ليلة ثم قال للشيخ : (سوف أموت في الصباح ، فإذا مِتْ يجب أن تمشي في جنازتي ) فقال له الشيخ يمشي وراءك الشيخ باهي ، فقال له : (إن لم تمشي ورائي سأدخل في قسم الشرطة حتى يجعلوك تسير بى فى جنازتى رغما عنك ) ، فبات السيد قُطة في منزل الشيخ وفي الصباح وجدوه قد فارق الحياة ، فأذاعوا خبر موته في الصباح ، وجهَّزوا الجثمان في المنزل ، وأرادوا أن يذهبوا به الى الجبانة ، ولم يمشي الشيخ وراءه ، فاذا بالنعش يدخل النقطة ، فخرج الحراس والضباط فقالوا للمشيعين ما الأمر ؟ فأخبروهم بخبره ، فذهب الضابط ومعه العساكر الى منزل الشيخ وطلبوا منه أن ينزل خلفه ففعل.

والشيخ احمد أبو قطه من دراويش الشيخ ، وهو من خُدَّام مسجد أبو الطرابيش ، ويقال أنه قد أخبر عمته جاريه ( إبنة الشيخ ) بخبر موته ثم أخبرت الشيخ بذلك ، والعبرة في هذه القصة أمرين ، الأمر الأول الدلالة على مكانه الشيخ لأنه إذا كان مريده بهذه الشاكلة فعلى أي شيء تكون مكانه شيخه. والأمر الثاني هو تكفل الشيخ بمريديه ، فلقد قام معه بما يقوم الأهل مع أبنائهم ، الذين هم من أصلابهم ، فنجده في منزله ثم سار خلفه هو والإخوان حتى واروه التراب.

ولأبناء الشيخ طرائقَ مختلفة في التَعَرُّف عليه ، وبدء سلوكهم معه ، ولكل واحدٍ منهم مَعْلَمٌ ظريف في شكل هذه البداية ، فهذا اخونا الشيخ صدِّيق الصعيدي ، وكان زميلاً لبعضٍ من أولاد الشيخ في العمل ، من أمثال محمود احمد حسن ، وعلى سعد ، ومحمد عبد الحميد ، واحمد سعيد ، وكان كل كلام الإخوان عن شيخهم الحاج مسعد ، فقد كان حبهم له ، متملكاً فى ، قلوبهم وأرواحهم ، متصلة به ، وروحُه فيهم ، فإستعذب الشيخ صديق حديثهم عنه ، وتاقت نفسه الى رؤيته ، وتمنَّى في نفسه ، لو أنَّه واحدٌ من أتباعه ، وفي احدى الليالي وأثناء استغراقه النوم ، وجد في نفسه وكانه جالس على جسرٍ عاليٍ على طريق النهر ، وكأنما لنشاً قد شق عباب الماء متوجها نحوه بسرعة عالية ، ثم توقف عنده ، وعلى مَتْنِها الشيخ ، ولم يكن قد رآه من قبل ، فقال له (إركب ، أنت يا ابني محسوب علىنا من قبل أن تولد ) فركبتُ معه ثم إستيقظت من النوم ، وكان ذلك في العمل ، وكان إلى جواره زملاءه في العمل ، الذين ذكرناهم وذكرنا أنهم من أبناء الشيخ ، فقلت لهم (الشيخ بتاعكُم اللِّي أنتم بتقولوا عليه، بتروحوا له منين ؟) فقالوا له سوف نذهب اليه الجمعة القادم ، وكان اليوم الذي حدثت فيه هذه الواقعة مساء الثلاثاء .

إصطحبه الزملاء الى الأخصاص في يوم الجمعة المتفق عليه ، فلما دخلوا عليه وقالوا ...الله …. الله (وكانت هذه هى عادة الإخوان قبل الولوج الى الشيخ ) فقال لهم إتفضَّلوا ، فلما جلسوا ، وإقترب منه الشيخ ، تحدث اليه قائلا له : ( أنت جاي زائر ولا مُحِب ؟ ) فقال له : محب فقال له (الصعايدة يبني فيهم الكويس وفيهم الوحش) وأنا ربنا مبيجبليش ألا الطيبين ، دول المُجَنَّدِين بتُوعي ، إدَّاهوملي ربنا ، هما دول المحسوبين عليَّا.… واللي يخشن البيت ده ويشرب مية من الزير ده محسوب عليَّا. وتَشْتَمُّ من كلام الشيخ رائحة الجُنديَّة والقيادات العسكرية المُحاربة ، إيماءا بها الى وظيفته مع ربه ، فلا يعلم سِرَّه إلا من ولَّاه على مريديه ، ولا يعلم سِرَّ مريديه ، إلا من إختارهم فى خدمته .

ومن كلام الشيخ تَشْتَمُّ البُشْرى لأبنائه من أكثر من وجه ، **البشرى الأولى** أن صلتهم بالشيخ حاصله قبل ميلادهم ، ومن كانت صلته بالشيخ حاصلة قبل الميلاد فسوف تبقى بعد انتقاله الى جوار ربه ، وهو وإن كان إمامه في الدنيا ، فهو أيضا إمامه في الآخرة ، وهو القائد له في الطريق مع الله في قبره ، وفي حَشْرِه وفي بعثته وفي حسابه وفي صراطه وفي صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفي جواره في الجنة أن شاء الله.

**والبشرة الثانية** قوله لصدِّيق ( أنا ربنا مبيجيليش ألا الطيبين )وكلامهم صدق ، وحديثهم ميثاق ، وألفاظهم لا تُرَدْ ، وفي ذلك إشارة لنا في أننا من السعداء معهم أن شاء الله.

وأما **البشرة الثالثة** فهي إمتداد فضلهم ، وسعة مددهم ، وإنبساط خيرهم ، من أن مجرد الدخول في بيتهم ، والشراب من مائهم ، جعلهم محسوبون عليهم ، حتى وإن لم يكونوا من أبنائهم أو مرُّوا عليهم مرور العابرين ، إلا أنَّه لا يدخل في دارهم ، ولا يشرب من مائهم ، إلا من رضُوا منه ذلك في قرار نفوسهم ، وكيف لا ، وهم الكرماء في عطائهم .

وفي مناسبة الكلام عن صدِّيق ورفاقه من أبناء الشيخ ، يروى ( صدّيق) لنا حكايةً له مع الشيخ علي سعد ( أحدُ الذين سبقوه الى الشيخ من زملائه ) مُفادها أن يحرص المريد علي لقاء شيخه وأن يقتنص فُرَصْ الإلتقاء به كلما سمحت له الظروف بذلك ، وألا يتكأ على عُذْرٍ يبتعد به عنه ، وأن يجاهد نفسه في رؤيته والنظر عليه ، وأن يتعاون الإخوانُ بعضهم بعضا في التواصل مع شيخهم ، فقد حدث أن إتفق صدِّيق وعلي سعد على الذهاب الى الشيخ ، فلما مهَّدَ صديقُ في نفسه أن يذهب وإستعد للقاء الشيخ ،وفرَّغ نفسه لهذا اللقاء ، رغماً عن ظروف عمله ، إذا بعلى سعد يخذُلُهُ في مصاحبته له فى الذهاب إليه ، فأضطُرَّ صدِّيق ، الى الذهاب الى العمل الذي كان قد تركه ، فلما ذهبا الى الشيخ بعد ذلك نظر الشيخ الى علي سعد وقال له : لو كرَّرْت اللِّي عملته مع صدِّيق أخوك والله العظيم ثلاثة اقطع رقبتك…( أى فى وعده له بالذهاب معه الى الشيخ وخُذلانه فيه )

وكان صدِّيق في تلك الليلة التي كان يريد أن يذهب فيها للشيخ ، وبعد خلوده الى النوم ، رأى وكأنه ماراً على كوبري ، فصادفه شيطان في الطريق قائلا له : مش هخليك تعدِّي ، فلما قصَّ على الشيخ هذه الرؤيا نظر الى علي سعد وقال له: .... إنت الشيطان بتاع صدِّيق .

وعلى هذا وجَبَ على الإخوان بعضهم بعضا ، أن يتعاونوا فى زيارة الشيخ ورؤيته والاغتراف من مدده ، وأن يكونوا موضعَ نظره ، وموطن رعايته ، ومناط فضله.

وكان لتبعيَّة المريد للشيخ معاني كثيره ، في نفس الشيخ ونفس المريد، فلم يعد المريد في سلوكه وأخلاقه كسابق عهده قبل هذه المعرفة ، إذ كان منوطاً مُلَاحَظَاً من شيخه ، حريصاً في عمله ، متفانياً له ، مُراعياً الله في شؤونه وفي شؤون من يتعامل معهم ، وتجده في بيته باذلاً قُصارى جهده متفانيا ، لا يدخل في جوفه أو أجواف أبنائه وأهله مالاً حرامً أو به شبهة ، وقد ذكرنا من الروايات ما يؤيد ما ذهبنا إليه ، فكان يشعر وكأن عقابا سيتبعه إذا تجاوز حده ، وفي المقابل كان الشيخ معه في جميع حركاته وسكناته ، ناظراً اليه مادَّاً له ، مرافقا له ، ويشعرُ المريد بهذه الصحبة في نفسه ، واذا كان مُعَلِقاً صورة شيخة على حائط في غرفته، شعر وكأن عينُ الشيخ تلاحظه وتراقبه وتلاحقه ، من هذه الصورة ، وكثيرا من الإخوان كانوا يلاحظون حركه الشيخ فيها حقيقةً دون وَهْم ، فهذا هو الشيخ صديق الصعيدي ، وهو يعمل في الشرطة ، قد جعلوه هو ونفرٍ من زملائه في حراسة أعمدة التليفونات ، خوفاً من سرقة أسلاكها من العرب المحيطين بهم ، فكان زملائه ينزعون أعواد الذرة من الحقول المحيطة بهم ، ويشوونها على النار ويقضون ليلتهم على هذا الحال ، فاذا دَعَوْهٌ إلى مشاركتهم ، لامَهُم على ما يأكلونه من هذا المال المسروق من حقول الناس ، فهذا مال حرام في عقده ، ولامهم على تركهم مواطن خدمتهم ، وحدث أن كان مُرابِطاً على أحد الأعمدة لحراستها ، أنْ غلبه النوم ، فوضع بندقيته تحت راسه وإستغرق في النوم ، ولم يلبث الأمر قليلا حتى وجد من يوقظه ، فاذا به شيخه مسعد ، مرتدياً ثياباً بيضاء، ومعه سيفَه ، وكأنه يوقظه ليواصل حراسته ، فأخذَ يده وقبَّلَها ، ثم تركه الشيخ سائرا في ضوء القمر حتى اختفي ، فنادُوا أصحابه على البُعد متسائلين عن هذا الرجل الذي كان معه ؟ فقال لهم:(دا واحد ضيف) فقالوا له : هوه ده الحرامي ، إمسكوه ، فردَّ عليهم بتهكم وسخريه: (لمَّا ييجي ثاني همسكه ، عودوا لما كنتم عليه )فهذا جانب من رقابه الشيخ على أبنائه وحرص المريد على معالم وشروط السير في الطريق.

ولم تقتصر ولاية الشيخ على أبنائه من الإنس فقط ، بل تعدَّتْهُم الى أتباعه من الجن ، وهذا أمرٌ عزيز المعرفة على الكثيرين من المقربين لديه ، لأن الشيخ يفصل بين الفريقين في طرائق المعاملة ، إلا إذا كان بين الطرفين علائق مشتركه ، ولم نسمع هذا الأمر من أشياخنا إلا على سبيل فلتات اللسان ، وليس لأنفسهم فلتات ، وهُم في هذا الأمر ، مُقْتَدِين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ كان له اتباعٌ من الجن ، لأنهم وارثين له ، وقد وجدنا هذا الأمر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين كان عائدا من الطائف ، ولقد أثبته ما جاء به القرآن الكريم ، والسنَّة النبوية المشرفة .

ومن تلك الفلتات التي عرفنا منها هذا الأمر ، ما قصَّهُ علينا الشيخ صدِّيق حين قال بتصريف منا : كنت موجود في البلد ( وهو من قنا )وذهبت لأزور أبى وامئ في مقابرهم ، وكان الوقت في عز الظهر ، فأمتطيت ُحمارَ أخي وذهبت وحدي إلى المقابر ، وما أن دخلتُ المقابر وأتممتُ قراءة الفاتحة، حتى وجدت إمرأةً أمامي على البعد ، مرتديه ملابس صفراء ، ولم أعلم لها رأس ولا وجه ، فوقع الأمر في قلبي ، وإرتَعدَت فرائصي ، وإقشعرَّ بدنى ، فقرات الفاتحة لعمى الحاج مسعد ، فإختفت على الفور من أمامي ، و على عجلةٍ ركبتُ دابتي ، وعُدْتُ سريعا من حيث أتيت ، وما أن رجعت الى القاهرة ، حتى ذهبت الى عمى الحاج مسعد ، وكان يوم جُمْعة ، فلما رآني ضحك في وجهى ، وجذبني اليه قائلا : (أحنا يا صديق ما عندناش حد غيرك ، ما الذي أذهبك الى المقابر منفرداً ، لِمَ لمْ تأخذ احداً معك ؟…. إن ما رأيته كانت إحدى الأخوات من الجن ، وهي من أتباعنا وما أن سمعتك حتى اختفت ، ولم تعد تبرز لك ثانياً ، فعلمنا من ذلك أن للشيخ أتباع نمن الجن ، وعلمنا أن الشيخ لا يترك أبناءه فى جميع أوقاتهم ، وأنه معهم أينما حلُّوا أو رحلوا .

وللشيخ اتباعٌ من صالحيى الجن يحضرون معه ويستمعون إليه ويرافقونه في سيره إلى أهل البيت ، ويحضرون موالدهم ، يقول الشيخ صديق في شأنهم: ...... كان عم زوجتي معاشراً لإحداهُن وكان يتحدث إليها من وراء ستارةٍ منصوبةٍ بينها وبينه ، هذا إذا كان في الغرفة من لا يجب أن تظهر له ، وكان لها عَبدٌ يدعى غَسَّان ، وحدث أن جاء محمود احمد حسن ، وهو من أبناء الشيخ مسعد ومن زملاء صدِّيق فى العمل ، فاراد الرجل أن يُحْكِمَ الستارة المنصوبةَ أمامها ، فقالت له : ( أنت خائف من محمود ليه ، دول ولاد سيدك مسعد ، ما تخفش من النوع دول ، لأن لهم عم بطل عظيم اسمه الحاج مسعد ، وإحنا من اتباعه ، وأنا بأحب سيدي علي زين العابدين ، ولا زالت هكذا حتى قالت لي : (والكلام للشيخ صديق) ، والنبي أنا عايزة ازور الحاج مسعد ، وكان الكلام معها من خلف الستار ، فذهبْتُ بها إلى زيارة سيدي علي زين العابدين ، وزياره الحاج مسعد ، فهؤلاء من الجن الصالحين وما أكثرهم .

وفي مناسبة الكلام عن الشيخ صديق ، نروي هذه الحكاية : كان احمد سعيد ومحمد عبد الحميد(وهما من أولاد الشيخ ومن زملائه فى العمل ) قريبا السكن من الشيخ صديق ، وكان بجوار أحمد سعيد ومحمد عبد الحميد واحدٌ من أهل الطريق ، برهانيّْ من أتباع سيدي إبراهيم الدسوقي ، وكان هذا الرجل تابعاً لشيخٍ له في البرزخ ( أى متوفى وله مقام ) وكان كثير المدح لشيخه ، متعصباً له فخورا به ( وهو أمرٌ محمود )ولكنه كان معتقداً أن أحداً لا يضاهيه في المقام ، فلما راي الشيخ احمد سعيد ومحمد عبد الحميد ذلك ، شعرا بالغيرة على شيخهم عم الحاج مسعد ، وعلى طريقتهم ، فأرادا أن يذهبا به الى الشيخ صديق ، فهو أقدرُ منهم على التحدث عن الشيخ ، وكأنها كانت مناظرةً بين أبناء الحاج مسعد ، و أبناء الشيخ البرهاني التابع له صاحبهم ، وكل مريد منهم معتزاً بصاحبه.

ووافق الرجل وذهبوا به الى الشيخ صديق ، فما أن دخلوا ورحَّب صديق بهم ، حتى بادره الرجل بقوله : (إن لي عم في البرزخ و جاي يزورك )يريد شيخه المتوفى الذي يعتز به ويدافع عنه ، فرد عليه الشيخ صديق : هل أتيتَ إلىَّ بإذن ، أمْ أنت قادم إلينا من تلقاء نفسك ( من حالِك ) ؟ ولا يزال هذا الضيف في إعجابه بنفسه ، وإعجابه بشيخه الذي يدافع عنه ، فقال متفاخرا : نحن لدينا إذنٌ على الدوام ، وإشتمَّ منه الشيخ صدِّيق الزهو والفخر والتعالى والتعصب ، ولم تكن الكهرباء موجودةٌ في هذه المنطقة، وكان القوم يستخدمون المصابيح التي تضاء بالجاز ، وبعد أن قال هذا الرجل قولته ، إنطفأ المصباح ، واذا بنورٍ شديدٍ يَعُمُّ الغرفة كلها ، وإذا به عمى الحاج مسعد ، صاحبُ هذا النور ، فقام الجميع وإنتفضوا من جلوسهم ، وهبَّ الضيفُ واقفا ، مؤدياً التحية العسكرية ، والشيخ صديق واقفا يقرا الفاتحة لشيخه ، وإستمرَّ هذا الأمر على ما هو عليه لمدة تقترب من ثلث ساعه ، وبعد ذلك أفاق الرجل من هول ما صادفه ، وجلس وشرب الشاي ، ثم توجه الى الشيخ صديق قائلا له : إني أريد أن تذهب بي الى شيخك فقال له : والله لو جاء الإذن بذلك لفعلنا ، وانصرفوا بعد ذلك.

وبعد إنصرافهم طلب هذا الرجل من الشيخ احمد سعيد ومن الشيخ محمد عبد الحميد ، أن يتوسطوا لدى الشيخ صديق حتى يزوره في بيته ، وألحَّ عليهم في هذا الطلب..... وبعد ذلك بحوالي يومين جاء أحمد سعيد و محمد عبد الحميد وأخ ثالث لنا هو محمود احمد حسن ، الى الشيخ صديق وطلبوا منه أن يذهبوا جميعا الى هذا الرجل في بيته حسب ما اتفقوا عليه ، وقلت لهم ( والكلام لصديق ) : كيف ازوره و لم يأذن لي عمى بذلك ، فلو أذن الشيخ نذهب اليه،ولو كان في أخر بلاد المسلمين. ولما ذهب الجميع الى الشيخ ، وقصُّوا عليه القصص، وذكروا له رفض الشيخ صديق أن يزوره ، قال لهم :(صديق عنده حق وهو صَحْ وأذكى منكم ) هذا الرجل قد جاء اليكم غيرُ معترفٍ بكم ، لا أنتم ولا شيخكم ،ولا يرى غيرَ شيخه القائم تحت قبَّته ، المباهي بها غيره ، و لأجل هذا السبب أظهرنا له أمرا بسيطاً إشارةً الى وفود الشيخ في نوره عليكم في منزل صديق ، وما أظهرناه كان من أثره أن وقف ثابتا على أقدامه ، مؤديا لنا التحية العسكرية ، ولو عايز أَلِفُّه كنت لَفِّيِتُه (يريد أنه لو أراد أن يضمه الى دروايشه لفعل) ولكن بيتي مفتوح على الدوام لجميع المشايخ والطرق الصوفية على اختلاف طرقها ، ومن يريد أن يُشَرِّفُني منهم ، فعلى الرحب والسعة ، مع وجود حب شيخه فيه ، قبل كل شيء إنما اذا كان الأمر بهذا الصورة التي جاء بها اليكم ، و محاوله جَذْبُكُم له، وظهوره بمظهر قوة شيخه عليكم ، فلا ، فبيتُ الشيخ مسعد يسع الجميع ،منا ومنهم ، ولا يتمكن احد من أولاد الشيخ أن يذهب الى مكان أيَّاً كان، ألا بأذن الشيخ ، حتى اذا ذهب اليهم في زيارة بأي طريق كان ، فإنه يجلس بينهم ، و يقرا الفاتحة لعمه.

وما قاله الشيخ مسعد يضبط العلاقة بين أبناء الشيخ وبين أبناء الطرق الأخرى، فأول هذه الضوابط ألا يتحرك نحوهم إلا بإذن شيخه ، مدعوما بمدده ، غيرُ متهافتٍ عليهم بقلبه ، غيرُ منبهرٍ بما يظهر عليهم ، وإذا جاؤا إليه ، فالشيخ يسعهم ، لأن طريق الشيخ طريق عامٌ واسعٌ يطالهم مع وجود حب شيخهم فيهم ، بلا عدوان من الشيخ على هذا الحب الذى يُكِنوه نحو شيخهم وإمامهم ، والدليل على سيادة الشيخ ماكان من الرجل حين رأى نور الشيخ ، فأدى له التحية العسكرية ، وهو دليل القيادة والغلبة ، ولو كان الأمر بالغلبة لغلبوهم ولضموُّا مريديهم إليهم ، فإذا جاء لك الإذن بالذهاب إليه ، والإذن حماية وصيانة ، فاجعل شيخك فى بالك ، فليس الشأن كثرة المريدين ولكن الشأن جوهر الطالبين ، فإقرأ له الفاتحة ، حماية لك من جذبهم لك ، وصونا لك من عدوانهم عليك وعلى شيخك ، إن تجاسروا عليك ، فاجلس كما شئت معهم ، ولكن بإذن شيخك ،فإنك تسعهم ولا يسعونك ، ولهذا أثنى الشيخ على فعل صدِّيق معهم .

وفى موقفٍ أخر،حدث أن جاء رجلٌ من قوص (وهي إحدى مدن قنا) وكان هذا الرجل تابعا للطريقة البرهانية من أتباع سيدي إبراهيم الدسوقي أيضا ، لزياره واحدٍ من إخوانه كان قاطنا في الدور الأعلى في المنزل الذي فيه الشيخ صديق ، وكانوا يقيمون حضره في ذلك المنزل ، فلما حدَّثوه عنى وعن شيخي ، (و الكلام للشيخ صديق )أصرَّ شيخُهُم أن ينزل الى داعياً إيَّايَ أن أشاركهم في المجلس ، فلم أجدْ بُدَّاً من قبول الدعوى ، ولم تكن الفرصة مواتية لأخذ الإذن من الشيخ ، وصعدتُ معهم ، وكُلِّي حِرْصٌ وحرجٌ ووجلٌ من هذه الزيارة ، لأني أعلم ضرورة إستئذان الشيخ في مثل هذه الأحوال ، ولما جلست بينهم ، قلت في نفسي ، ما لي وما يقرؤون، فجلست اقرأُ الفاتحة لسيدي مسعد و سيدى سعد الدين الجباوى وهم يقرؤون ما يقرؤون في مجلسهم ، وذهبوا ونزلتُ الى شقتي ، وكان شيخُهُم قد أسرَّ فى نفسه أن يجذبنى إليهم ،وأن يجعلني في سلكهم وأتباعهم ، لِما يرونه من أثر نورانية شيخى فىَّ ، ولكنهم لم يتم لهم ما أرادوه ....... ثم علمت من شيخي بعد ذلك ( والكلام لصديق ) أن الرجل قد حُوكِمَ فيما قصده من زيارته لى، وإصراره على وجودي بينهم ، وما علموا أن للبيت ربٌ يحميه ، وعلمت من شيخي أن هذا الرجل كان له تسع وتسعون درجة ، ( وهى درجات فى طريق القوم ) فكان الحكم عليه أن ينزع منه ثمانية وتسعون درجة ، ولم يبقى عليه إلا درجةً واحده، وقال له حُكَّامُه : (هذا أدبٌ لك لأنه قال لك أنه إبن فلان ، فكان عليك إحترام عمِّه ولا تحاول جذبه اليك)...... وبعد يومين جاءنى هذا الرجل الى منزلي ، محمولاً منهم بناءاً على طلبه أن يزورني ، فدخل وجلس وقال للشيخ صديق : هل حدث لك عندما جالستنا في المرة الأولى شيء ، فقلت لا ،ثم سألته ( والكلام لصديق ) : هل حدث مني أنا شيء ؟ قال نعم يا سيدي ، عمك تاج راسنا ، وسيِّدي، وانا من أولاد سيدي إبراهيم الدسوقي، ولم يذكر أكثر من هذا . ثم حدث بعد ذلك أن ذهبت الى الأخصاص وبعد أن استأذنت على الشيخ بالدخول بقولي : الله …. الله …. وهي من عاده الإخوان قبل دخولهم على الشيخ فبادرني الشيخ قائلا :........ (يعني يا صديق هو أحنا نبقى فتوَّات) قلت له: ليه يا عم ؟ فقال: يعني أنت مش عارف حاجة ، الناس بتاعت سيدي إبراهيم الدسوقي (قاصدا ما ذكرناه من قول شيخهم : سيدي إبراهيم الدسوقي عمنا وتاج راسنا ) فقلت له: ( والله اللي يعمل غلط يا مولانا يتحمل ، أنا إختاروني على أنى أهبل أو غبي ( أى ظنوا أنى سهل الجذب ) وأجلسوني لاقرأ معهم وِرْدَهُم ، وما كان ينبغي لهم أن يدفعوا بى الى ذلك ، وهم يعلمون مرجعى ، فجلست أقرأ فواتح عمي فقط وشيخ الطريقة ، سيدي سعد الدين الجباوى ) فقال لي الشيخ (هوَّ ضَيَّع نفسه بمحاوله جذبهم لك ناحيتهم ، لقد كان معه تسعه وتسعين عُقْدَة ( أى درجة ) فأزالوها عنه وبقيت عُقْدةً واحدة ، ثم سألت الشيخ هو أنا عملت حاجه غلط ؟ ولم يدخل هذا الرجل الى البيت مرة أخرى.

ولا ينبغي علينا ، أن تمر علينا هذه الرواية دون أن نستخرج منها أموراً هي في غاية الأهمية في طريق أهل الله.

**أولا**: لا ينبغي للمنتظم في سلك الطريق أن ينابذ غيره من أرباب الطرق الأخرى فاذا كان الحق قد حذر من المنابذة بالألقاب فان الحذر أولى في خصوص أهل الله لان الطرق مهما تعددت فأنها تنتهي إلى مورد واحد وهو مورد رسول الله صلى الله عليه وسلم والكل الى رسول الله منتسب مهما تعددت مشاربه..... والمريدون وان تنابزوا وتنافسوا وتفاخروا ، فإن شيوخهم لا رضا لهم بذلك ، فالسعدى والشاذلي والدسوقي والرفاعي والقادري جميعهم إخوان على سرر متقابلين ، وكما لا فرق في الأنبياء بين نبي ونبي ، فانه لا فرق في الأشياخ بين شيخ وشيخ ، وان تفاضل بعضهم على بعض فإنه كتفاضل الأنبياء بعضهم على بعض ، ولكن وجب على الجميع أن يحفظ بعضهم مراتب بعض ..... وعلى العموم فان التنابز من شيم الجاهلية التي نحن أولي من غيرنا بالإعراض عنها .

**ثانيا** : أن هذا التنابز لا يتعارض مع الغيرة في الطريق ، فان التنابز مصدره الكراهية ، أما الغيرة فمصدرها الحب ، والتنابز يدعو الى الصدود والمحاربة، والغيرة المحمودة تدعو الى إظهار الحب والاجتهاد في المحبة والمنافسة الشريفة ، والتنابز يجر المريد الى القهقرة ، بينما الغيرة تدفع بالمريد الى الأمام ، خصوصا أن الذي نغار فيه هو الحق ولا فرق لديه بين مخلوق ومخلوق ، فالجميع منه ومحبته للجميع ، (ولله المثل الأعلى) كمثل محبة الوالد لأولاده وان اختلفت صفاتهم وأخلاقهم ومذاهبهم ، وهو فى محبته لهم يقبلهم جميعا ، وأن تقريب احدهم من الأخر اليه ، لا ينفي على الإطلاق محبته للجميع ، وما حصل في رواياتنا هو غيرةٌ من جانب أبناء الشيخ مسعد ، وتنابُز من جانب غيرهم ، وان كنا نحسن الظن بهم.

**ثالثا**: لا يجب أن يجتهد طرفٌ في كسب مريد هو من أرزاق طرفٍ آخر ، فان المريدين للأشياخ أرزقهم التي قَسَمَها الله لهم ، ولعل أشد ما يعاني منه الأنسان هو النظر الى أرزاق الآخرين ، وليست القسمة في الرزق منوطة بأحد ، إنما هي لله الواحد الرزاق ذو القوة المتين....ويتعارض الطمع في ارزاق الآخرين مع ما اصطلح عليه أهل الله من الأخلاق الإلهية والطبائع المحمدية.

**رابعا**: أن المريد يجب أن يحتاط لنفسه ، وأيسر أدوات الحيطة هي ألا يكون لك تصرف من تلقاء نفسك ألا بمشورة شيخك، فانه أدرى منه بدروب الطريق وآفاته ومعارجه ومزالقه ومنحنياته ومتطلباته وسقطاته وعيوبه وتفرعاته، وأدرى منك بأسباب النجاة فيه ودواعي الهلاك فيه ، فلا يغيب عنه ذلك ، وذلك لا يكون إلا بإرتباطه بالمرشد له في جميع حركاته وسكناته فالأولى لك أن تقف في السبل ، فلا تجنح الى طريقٍ يكون فيه إختلاف حتى يكون لك من الله فيه شاهد .

**خامسا**: الثقة في الشيخ ، والإيمان به والقبول عليه والإعتزاز بصحبته والانصياع لأمره والصبر على طاعته ، وإحتمال دواعي تربيته لك ، فانه ما عاقبك ألا لأنه يحبك ، وما آلمك ألا لأنك تحت وصايته ، فلو كنت غريباً عنه لتركك لنفسك ، وما أشدَّ نفسك هلاكا عليك ، فأحذر المخالفة وأدم على الطاعة والموافقة.

**سادسا**: العلم بان شيخك أقرب اليك من نفسك وهو معك في حركاتك وسكناتك ناظرا اليك شاهدً عليك ، معك في كل أوقاتك بمدد الله ومعونته.

**سابعا**: العلم بأن الطريق جَدٌ لا هزل ، ولا يحسبن أحدُكم أن الطريق مسامرة ومجانسة وملأً لفراغ ، بل هو أمرٌ له أول وله أخر ، أوَلُه نفسٌ عاصيةٌ معاندةٌ لسلك طريق الترويض والمجاهدة ، وأخره نفسٌ راضيةٌ مطاوعة ناجية ، يسوقُها الى الحق شيخُ مرشدُ عارفُ بطريق القوم ، مسؤولٌ أمامَ الحق من رعيته ، إمامٌ مدعوٌ من الله ، حاكياً له عن أولاده، متحملا عنهم ما عجزوا عن تحمله ، قائداً لهم إلى غيابات الفلاح في الأخرة .

**وأخيرا**: ألا يغتر أحدهم بقربه من الله ونول الدرجات ، فما أشد على العارف من السلب بعد العطاء ، وما أشدَّ عليه من فوات الدرجات والمقامات بعد حيازتها ، وما أشد عليه من دركات الهبوط بعد إعتلاء الدرجات ، وما أشد أن يعود الى أول الطريق بعد أن قارب الى الانتهاء منه.

ولقد ذكر الشيخ صدِّيق رواية يؤكد بها رعاية الشيخ لأولاده في الطريق ننقل عنه قوله :

بعد وفاة زوجتي ... أرسل الىَّ أخي في البلد... يعرض على أحداهن للزواج منها .... وهى من أقاربنا ... فسافرت اليه ... وهناك سمعت أن ابن عمها لا يريد لهذه الزيجة أن تتم ...وهو رجل عنيف شديد المراس... وكان قد توعد لمن يقترب منها أن يضربه بالنار ... فسكت ... فلما ذهبت الى اخى ، اخبرني بالأمر الذى كنت قد سمعته ..فقلت له: بلاش منها ... مادام فيها ضرب نار ... بلاش منها ... وأخلدت الى النوم ... فرأيت في نومى ، عمى الحاج مسعد قادما الى على حصان ابيض ... قائلا لي : لِمَ لمْ تذهب لتنظر الى عروسك ؟...فقلت له : يا عمى ...قالوا أن ابن عمها شقى وبيقول ، هضرب بالنار من يقترب منها ، فقال له : لا مش ها يضرب بالنار. ... دا أنا اخليه يجيلك لحد عندك.

في اليوم التالي وفى الساعة السابعة صباحا، سمعت طرقا على الباب، فلما فتحت وجدت رجلا على الباب وعرفت انه ابن عمها الذي كان الكلام عنه ... فلمَّا رأى الجيران قدومه علىَّ ظنوا انه قادما للشجار والمعاركة ... وظنوا أن أمراً ما سيحدث وتجهزوا بالسلاح ، فلما صعد الى اعلى، قال لي: يا صدِّيق ... ألف مبروك عليك، والله ... والله .... واحد غيرك كنت هضربه بالنار ... هي مبروك عليك ...وأنت تستأهلها ... وبعد ذهاب الرجل.. كتبنا الكتاب... وفى أخر اليوم أخذتها ورجعت الى القاهرة... وتصادف أن كانت هذه الليلة مولد سيدنا الحسين ... فذهبت الى الخدمة في المولد المُقَام فوق سطوح العمارة المقابلة للباب الأخضر ، فلما رآنى الشيخ قال لي : تعالى يا صديق ... عملت أيه مع عروستك؟ فقلت له: هوة إحنا لينا بركه غيرك ... أنت أبويا وأخويا ... ثم توجه الى عروسته وقال لها: تعالى يا فتحيه.. فتوجهت الى الشيخ صديق وقالت له ... وعرفت أسمي ؟ فطلب كوب من الشاي، شرب منه رشفة، ثم ناولها لفتحيه وقال لها اشرب الباقي، ثم قال لها: صديق ده أمانه ... خلى بالك منها.

ولقد ذكر الشيخ صديق هذه الحكاية تصديقا لرعاية الشيخ وعنايته ونظره لأبنائه في الطريق، ثم قال قولته التي ذكرناها في أول هذه الرواية ... إذا كانت هذه رعايتهم لأبنائهم في الطريق، فكيف يكون رعايتهم لأبنائهم الذين من أصلابهم.

ولم يكن عطاء الشيخ مقصورا على أبنائه من دراويش أهل طريقه ، أو أبنائه من أصلابه ، وإنما تعداه الى من ليسوا من أبناء الطريقة من المعارف والجيران من أهل بلدته ، أو مَن تصادفَ أن قابله في طريقه ، أو في أي مكان زاره ، أو ماطالته عينه من الأشخاص والأماكن والأحوال والمواقف ، فقد كانت رؤيته والكلام معه و الاطلاع على نوره خيرٌ لكل من تعرَّض له ، وعن ذلك حدثنا الدكتور احمد موسى نقلاً عن شيخه محمد أبو سلامه، أن الشيخ قد أصابه بعضُ مرضٍ ، إستلزم دخوله مستشفى حميات حلوان ،فأصبحت المستشفى كخلية نحل من كثرة المترددين عليه من الدراويش والمعارف والأقارب ، حتى علم أهل المنطقة كلها بوجود شيخ كبير في المستشفى ، وكان الشأن في إجلال أهل الله وتوقيرهم ، في زمانهم ، خلاف ما الحال عليه في زمننا هذا ، وكان بجوار المستشفى دكان بقالة صغير ، إزدهر حالُه وربحت تجارته فى وقت وجود الشيخ فى المستشفى ، من كثرة تردد الدراويش عليه ، وكان صاحب الدكَّان وزوجته إقتربوا من سن الكهولة ، ولم يكن لديهم أولاد ، فجعلت زوجة صاحب الدكان تتردد على غرفه الشيخ ، لطلب لقائه ، ولكن لم يصادفها التوفيق، حتى كانت ذات ليلةٍ ، والشيخ مُجتمع ٌفي غرفته و معه بعض أحبابه ، وحالُ الشيخ في غمرةٍ روحانيةٍ عالية ، وفي هذا الوقت تسللت هذه السيدة الى غرفة الشيخ فدخلتها ، والشيخ على هذا الحال ، فلما جاءته قال لها : أيه ده ؟ من أنت؟ وكيف دخلتِ ؟ فبادرته السيدة دون مقدمات وكأنها تريد أن تقذف ما بداخلها قذفاً ، وهي لحظه قد لا تتكرر في حياتها، بعد ذلك قالت : (أنا عايزة أخلِّف) فرد عليها الشيخ قائلا : (ما تروحي تخلفي يعني هيَّ قِلِّة خَلَفْ) وكأن الناطق لها لسان حال الشيخ لا لسان مقاله ، ومضت فتره من الزمان وشُفىَ الشيخ وعاد الى بلدته ثم فوجئ بالسيدة وزوجها يزورونه في بيته ، حاملين كمية كبيرة من الهدايا فقال لها الشيخ من أنت؟ فقصت عليه القصة كلها ، فاستغرب الشيخ وقال: أنا قلت كده؟ فقالت نعم وقد حَمَلْتُ من ليلتي تلك ، وأنجبت غلامً ، فجئت أشكرك ، فانزعج الشيخ انزعاجا كثيرا ، ثم قال لها : يا ستي روحي اشكرى الله ، هو اللي أعطاك ، أما أنا فلا أعطي ولا أمنح ولا أهب ولا أمنع ،وهديتك أخرجيها لوجه الله ، أو خذى ثمنها ، أما أنا فلا أتقاضى أجرأ عن شيء لم أفعله.

ومفتاح هذه القصة هو الحال الذي كان عليه الشيخ والإجابة التي صدرت منه ، وهو على هذا الحال ، فإنه كان في هذا الوقت عبداً ربَّانياً يقول للشيء كن فيكون ، ولا حرج على فضل الله في عطاء أوليائه ، وفي أن يكون هذا العطاء سبباً في عطائهم لخلق الله ، ومنهم هذه السيدة التي كانت تتوق لعطاء الولد والجميع من أقدار الله في خلقه.

أما الكلام عن **الشيخ رفاعى** وحكايته مع الشيخ فقد رواها لنا ، وأول هذه الروايات مايخص أبو جاد ، وقد تكلمنا فيها ، حين الكلام كان على أبو جاد ، وعن جنايته ، التى أُتهِمَ فيها بقتل رجل ، وإنتهت بالحكم عليه بستة أشهر ، ودور السيدة زينب فيها ، ودور سيدنا الحسين وسيدى أحمد البدوى ، فى تأكيد هذه العقوبة ، وكان ذلك التأكيد فى منزل الشيخ ، وفى ذات اليوم الذى كان الشيخ رفاعى فى زيارة للشيخ فى منزله ، إلتقى بأبى جاد وتحدثا معا فى شأن هذه القضية .

وأما سبب مجيئ الشيخ رفاعى فى هذا اليوم فيحكيه لنا الشيخ رفاعى قائلا ً:

لقد جئت فى هذا اليوم لا ستشير الشيخ في أمر زواجى فقد عزمت على أن أخطب جارةً قريبةً منا ، ولكنِّى أخشى الرفض من جانبها وجانب أهلها لكونها تعمل مدرسة ، بما قد يوشى بالتباين في المستوى بيني وبينها ، إلا أنني أرغبُ في الإقتران بها ، ولا أعرف اذا كان الشيخ سيوافق على هذه الزيجة أم لا ، لنفس السبب الذي أخشاه منهم ، هنا قال الشيخ أبو جاد له : (يا ولا هيوافق أن شاء الله بس اقرأ معايا الفاتحة لسيدنا الحسين وموضوعك مقضي أن شاء الله ) وقرؤوا الفاتحة ثم قرؤها مرة أخرى .

وبعد قليل أرسل الشيخ كاملة (وهي احدى أخواتنا ) ، لتُعْلِمَ الشيخ رفاعي أن الشيخ يريده ، فلما دخل على الشيخ وجد رجلاً جالسا معه، فجلس الشيخ رفاعي بجوارهما ، وظل( رفاعى ) ساكناً ، وسمع الرجل يكلم الشيخ قائلا : هو شَطَح مرة واحدة ليه كده ، مش كان يمشي على قده ؟ فرد عليه الشيخ: زي بعضٌه ، ما هو على قدُّه برضه ، وده إبننا واحنا مش هنسيبه . ثم سكت الرجل ..... ثم توجه الشيخ الى عم رفاعي أيه يا ولد يا رفاعي ، قال : أنا عايز أخْطُب والعروسة مدرسه ، قال له طب وماله على بركة الله ، فقال له بس أنا خائف تعمل علىَّ مُدَرِّسة ، فقال له : (ما عندناش مهندسه ولا دكتوره معندناش الكلام دا كله فتوكل على الله ) ...... وبعد أن تمت الموافقة طلب عم رفاعي من الشيخ أن يذهب الى طنطا لزيارة سيدي احمد البدوي … ُثم أردف قائلا ً: ( ما سيدك احمد البدوي قاعد أهو ) إذ كان هو الرجل المجاور للشيخ في الجلسة .

ومما رويناه نرى خضوع المريد لِمَا يشيرُ به الشيخُ إليه وهو ما تمثل في إمتثال الشيخ رفاعي لأمر الشيخ بالموافقة وزوال خوفه فيما يخافه ولو أشار عليه الشيخ بالرفض لأمتثل للأمر طائعاً.

ورأينا أيضاً تلك المشورة القائمة بين سيدي أحمد البدوي والشيخ في شان زواج الشيخ رفاعي من خشية سيدي أحمد البدوي من أن يكون مثل هذا الزواج نوعا من الشطح لاختلاف المستوى بين الطرفين ثم طَمْأَنَة الشيخ لسيدي احمد البدوي ، من أن هذا لا يُعَدُّ نوعٌ من أنواع الشطح، وانظر الى مساحة التسامح بين الشيخ وسيدي احمد البدوي.

ثم أنظر الى كرامه الشيخ رفاعي حال نظره في يوم واحد لسيدي احمد البدوي والشيخ مسعد وحضوره وقت حضور مولانا سيدنا الحسين والسيدة زينب ثم مرافقته للولي الصالح محمد أبوجاد ثم انظر في آخر الأمر الى كرامه من نحن بصدد سيرته وهو عم الحاج مسعد إذا كان مجالسا لسيدي أحمد البدوي ومحادثا له وكان مرافقا لمولانا سيدنا الحسين ومولاتنا السيدة زينب واجتماعهم في بحث حال أحد أبناء الشيخ.

|  |
| --- |
| من نور احمد قبله الأحباب ذو القلب النقي |
| والزهرة العصماء فاطمة وسيدنا علي |
| وأميره فتيان الجنان حسين والحسن النقي |
| قد كان نورك مَسْعَدٌ قبضاً من الفضل الجليّْ |

وكان الشيخ في إحدى موالد سيدي علي زين العابدين وكان الشيخ رفاعي الى جواره فمر عليه نفرٌ ممن أطلقوا على أنفسهم سُنِيِّين (من أهل السنة) أصحاب اللحي والجلاليب القصيرة ، ثم عرجوا عليه فرحب بهم وأجلسهم ، وكأنهم كانوا يريدون أن ينتقدوا سيره ويدعونه في زعمهم الى الصواب في نظرهم ، فبادرهم بسؤالهم : ما الذي جعل كلب أصحاب الكهف ملازم لهم طوال هذه الفترة ، فسكت الجميع وطال سكوتهم فأجابهم الشيخ ، إنه الحب فقد كان حبُه لهم هو الدافع لملازمته لهم . فكأنه يقول لهم أن محبتنا لأهل البيت وارتباطنا بهم هي التي جعلتنا نقوم على الاحتفال بهم والحضور في موالدهم واستحضار سيرتهم وأخبارهم.

ولعل العلاقة بين الكلب وصاحبه توصفُ بصفات في غاية الغرابة ، فإنه لا شيء بين صاحب الكلب والكلب ، إلا حسن معاملة صاحبه له وتقرُّبُه إليه، ،ثم التقدير والمحبة من جانب الكلب له ، فلم يدفع الكلب الى محبة صاحبه ألا إحسانه عليه ، ومن هذا الإحسان تعلق بصاحبة وآثر مرافقته ، فكان ذلك إشارة الى مذاق أهل الله لإحسان أهل البيت ، والأمور في هذه العلاقة أمور ذوقية قائمة على مشاهدات حسية مشهودة بالظاهر ، وتجليات قلبية مدركة بالباطن ، لا يدري بها من ليس من أهلها ، فمن ذاق عرفها ، وليس المقصود هنا الكلب بالذات ، ولكن المقصود إخلاص الكلب نحو من أحسن عليه ، والكلب أظهر مثال على ذلك ، وطواعية إحسان صاحبه عليه...... ثم أن الكلب لا يزال ملازماً صاحبه ملاصقا له ، فأجعل هذا في بالك إن سألت عن إلتصاقنا باهل البيت ، وزيارتنا لمقاماتهم وحضور مناسباتهم ، وكأنه يريد أيضاً أن يقول ( من باب التهديد ) أن الكلب يزود عن صاحبه ، ويدفعُ عنه من يقدح فيه ، فليحذر من يقدح في طريقنا أن نعقره كما يعقر الكلب مُناهض صاحبه.

وإذا كنا قد تحدثنا عن أحوال الشيخ مسعد مع أبنائه في الطريق ، وأحواله مع أهل بيته ، فإن حفيده الشيخ ناصر ، ناقلا لنا عن والده ، يتحدث إلينا عن **أحواله مع أهل قريته ،** يقول الشيخ ناصر : - موقفُ بسيط إستدعته ذاكرتي ، ربما لقوَّة دلالته وجلاء خطوطه ، التي قد تساعد في رسم شخصيه صاحب السيرة الطيبة ، سمعته بنصِّه من والدي رحمه الله قال: جاء للشيخ أحدهم من جيرانه ، وهو صاحب البيت الذي عليه المقام الآن ، يعرض عليه أن يشتري منه بيته بصفته الجار الأول ، فإبتدره الشيخ متسائلا : ولما تود بيع بيتك؟ فأجابه بانه يمر بضائقةٍ ماليةٍ خانقة ، فسأله الشيخ : وكَمْ من المال يفرج عنك هذه الضائقة هذه ؟ فقال كذا وكذا من المال فرد الشيخ : خُذْ المال الذي تريده تَسُدُّ به ضائقتك حتى ييسر اللهُ عليك ، وامكث في بيتك ولا تبرحه ..... فأخذ الرجلُ المالَ وشكر الشيخ، فقال أحدُ أبناء الشيخ له ، وكان حاضرا للحديث : لماذا لم تشتريه وأنت لم تعرض عليه شراؤه ، بل جاءك بإختياره دون قصد منك أو طلب ، فردَّ الشيخ : بيعةُ المضطر ، تكون منزوعة البركة ، لأن في جوف صاحبها غُصَّة وتفريج كرب المسلم له ما له عند الله .

والحقيقة أن الشيخ وقد سبق له أن أنفق ما لديه في سبيل الله وفي طريقه ، لم يكن همُّه الدنيا أو جمع المال أو إقتناص الفرصة ، بل كان همه السبيل الذي توجه اليه وعمد على الوصول الى مآله ، وما كان لصاحب هذا النظر ، أن يأخذ مالاً منزوعَ البركة تكون سرعه ذهابه اكبر من سرعه الحصول عليه ، ثم لا يبق له بعد نفاده أثر ، بل آثرَ أن يكون الأمر لله بكامله، ووجدها فرصةً سانحةً له لمزيد من القرب الإلهي الباقي له في الدار الآخرة ، وهو إجابته للملهوف وتفريجه للمكروب ، وذلك من الأخلاق الإلهية التي إتصف الحق بها في قوله : (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ) وقوله سبحانه : (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ) فأراد أن يكون بعرضه الذي عرضه على هذا الرجل ، أن يكون متخلقا بأخلاق الحق ، وهذا هو دأب الشيخ ومِلاكُ صفته ، وهو حتى بمنظار الدنيا ، وطلب المصلحة ، كان تصرُّفه أقربُ من هذا الوجه ، فإنه آثر الجزاء الباقي الوفير ، الذي هو على قدر صاحبه وهو الحق ، علي الجَناء الحاضر الضنين ، الذي لا يبقى له أثرٌ بعد نفاذه ، وهو ما سيأخذه من مال هذا الرجل ، فالشيخ بهذا التصرف كان عبدً ربانياً متخلقا بصفة الحق ، وكان عبداً محمدياً كاملاً إجتمعت فيه صفات الحق ، سائراً بهذا النهج على نهج النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي لا يكاد خاطره يغيب عنه .

بقى أن نقول أن للشيخ وراداتُ عليه من عالم الغيب تُعلمه أشخاص المريدين القادمين اليه ، وقد يمتد العلم بهم لسنوات طويله قبل ورودهم عليه ، حتى قيل عنه ، أنه يعرف أبناءه وهم فى أرحام أمهاتهم .

وكنَّا قد رأينا من قبل كيف عرف الشيخ إبراهيم الدكروري (شيخ الشيخ) مَنْ سَيَخْلُفُه في وراثة الطريق،في الوقت الذي كان فيه هذه الخليفة (الشيخ مسعد ) غارقا في المعاصي والذنوب ولم يلتقي به بعد ، ولم يكن قد رآه فى عالم الظاهر ، حتى أنه أجاب زوجته حين سألته : من سيرثك في طريق القوم ؟ فقال لها: أن من سيرثني لا زال الكأس في يده!!، ومثل ماكان الشيخ إبراهيم يعرف أبناءه الذين لم يأتوا إليه بعد ، كذلك كان الشيخ مسعد يعرف أبناءه الذين لم يأتوا إليه بعد .

وعلى مثل هذه الشاكلة من المعرفة ، تلك الرواية التي قصَّها علينا الدكتور احمد موسى نقلا عن شيخه محمد أبو سلامه تقول الرواية:

كان الوقت إحدى ليالي مولد السيد البدوي ، وكان من عاد الشيخ مسعد أن يخرج الى الساحة ( ساحة الإحتفال بالمولد ) متفقداً أحواله ، وفي إحدى هذه المرات وهو ينظر الى خدمته من الخارج ، نظر فكأنما نورٌ موصول من مقام سيدي احمد البدوي ، الى خدمه عم الحاج مسعد ، ثم راي نورً فرعياً اقل درجه من النور الأول ، صاعدا من خدمه الحاج مسعد ، ونازلا الى إحدى الخدمات المنتشرة في المولد ، فتابع الشيخ هذا النور ببصره ، ومشي معه ليعرف المكان النازل اليه ، فإذا به يراه خيمةً كبيرةً، منصوبةً لهؤلاء القادمين الى المولد على سبيل التسلية والترفيه ، كما هو الحال في السيرك المنصوب في المولد والجامع للمطربين والراقصين والحواه ، واذا بالنور الذي يتبعه بنظره ينزل على احدى راقصات هذه الخيمة ، فإستغرب في نفسه مما رآه ، ومما رآه علم ، أن هذه الراقصة ستكون في لاحق إحدى بنات الشيخ ومريديه بعد أن يتوب الله عليها مما هي فيه ... وتمر الأيام ثم تأتي هذه المرآه الى الشيخ ولم يذكر الراوي الطريق أو الوسيلة التي وصلت بها اليه ... وكانت لا تزال تعمل في عملها الذي راها الشيخ عليه حتى الصاجات التي تستعملها في عملها ما زالت في حقيبتها وقد اطلعت عليها زوجة الشيخ ، وكانت هذه المرأة تقوم على أيتامٍ تربيهم وتنفق عليهم ، فلما جاء وعدها من ربها أتت اليه وتابت على يديه وصارت من مريديه .

ونحن إذ نسوق هذه الرواية أنما نسوقها لأمرين **الأمر الأول** هو علم الشيخ بأبنائه الواردين عليه قبل مقابلته الظاهرة لهم ، فالأمر بين الشيخ ومريديه إنما هو التقاء الأرواح لا إلتقاء الأشباح والأبدان ، وأن الأرواح لا تتقيد بأحكام الزمان والمكان ، وروح الشيخ مطلوقة على من حولها من الأرواح ، وإن كانت الأرواح من حوله مقيدة بأبدانها ، فهو يراهم بروحه المطلقة ، وهم لا يرونه لقيد أرواحهم فى أبدانهم ، والروح المطلقة ليس لديها مفهوم القبل والبَعد فى الزمن ولا القرب والبُعد فى المكان ، فهى أرواح مطلوقة في عالم المطلق ، ولهذا تراها فى الأماكن المختلفة فى ذات الوقت ، وتراها فى الأزمان المختلفة فى المكان الواحد ،

أما **الأمر الثاني** فهو ألا يتعجل الأنسان الحكم على أنسان أخر بالضلال وسوء الخاتمة فقد تكون الأوقات التي تراه فيها هو المراحل الأولي من حياته تتلوها مراحل أخرى تتصف بالتوبة والصلاح ، وقد يكون الناظر أو اللائم هو أيضا في مرحلة أولى صالحة تتلوها مراحل من الفتنه والمعصية والفسوق ، فلا أحدَ يطَّلِعُ على مقادير الله في خلقه ، ولا احد يتألَّهُ على الله في حكمه ، فلقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدُ المُصابين في إحدى غزواته ، و قد إشتدت عليه إصابته ، فقال الرسول لأصحابه إنه من أهل النار ، فتعجب الصحابة من مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، وهو الجريح في سبيل الله ، فقال أحدُ الصحابة في نفسه ، لأتتبعن هذا الرجل حتى أعرف مآله ، فأعرف منه سبب هذه المقولة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، ولايزال يتبعه حتى شاهده يَقُتُلُ نفسه بحديده من عدم قدرته وعدم صبره على تحمل الألم ، فعلم أن هذا الرجل لم يكن مؤمنا ، لأنه لو كان مؤمن لما قتل نفسه ، وأن حربه مع رسول الله أنما كانت لغرضٍ ما في نفسه ، فلا يجب على الأنسان أن يحكم بظاهر الأشياء ، أو يحكم على مرحله من مراحل الحياه قد تتلوها مراحل لا يعلم الأنسان ما الله فاعلٌ فيها .

ومرَّ رجلٌ ظاهره الصلاح ، في زمان عيسى عليه السلام ، على رجلٍ ظاهره الإثم ، فطلب صاحب الصلاح من الله في نفسه ألا يحشره مع هذا الآثم ، فإستجاب الله له ، وفى ذات الوقت ، طلب صاحب صاحب الإثم من الله التوبة وأن يحشره مع الصالحين ، فاستجاب له ومرت الأيام فإفتتنَ الأول وخرج عن صلاحه فدخل النار ، وتاب الله عن العاصي فدخل مع الصالحين فى الجنة ، فحُشِر الأول مغضوبٌ عليه ، وحُشِر الثاني مغفورا له ، وحصلت الإستجابة من الله لكليهما ، فلم يجتمعا معا فى الآخرة ، فلا يَغْرُرْكَ صلاحُك ، فتكون بغرورك من الخاسرين ، ولا تيأس من نجاتك فيرديك يأسك فى الهالكين .

ثم إننا بعد ذلك ، نذكر السمت والصفة التى إجتمع عليها أبناء الشيخ ومريديه وأتباعه ونذكر بعضا من أحاديثهم فيما بينهم .

فلمَّا كان الشيخ بهذه المكانة التي ذكرناها كان اتباعه ومريديه كذلك ، فأبناء الملوك ملوك ، إذ كانوا وارثين لحاله متخلقين بأخلاقه ، سائرين على نهجه مرتقين في المقامات ، بما جعله فيهم من أسباب الوصول ،

ذكر محمود بركات وهو احد أبناء الشيخ باهي الذي اخذ مكان أبيه فى ولايته على مريديه ، أن الشيخ سيد مِقْبِل ، لمَّا وافتهُ المنية وساروا به الى مكان دفنه ، رأوا النعش المحمول على أكتاف حامليه يدور بهم في مكان معين دوراتٍ كالمروحة ، حتى أن حفرة في الأرض قد نتجت ، من أثر هذا الدوران ، وكأن يطلب أن يقام له ضريح في تلك البقعة ، إذ أنه رقص طرباً لِمَا رآه من حُسْن الخاتمة ، فأخذه الحال وهو فى نعشه ، ففعل ما فعل ، للدرجة التي أحدث حفرةً في مكان دوران النعش .

ولم يزل الأمر كذلك ، مما حدا بالشيخ باهي أن يجلس في الأرض ، وكأنه يخاطبه ، أو انه بالفعل يخاطبه : (ها أنا جالس في إنتظارك حتى تنتهي مما أنت عليه ، وانا أعهدك طيباً صالحاً فاذهب الى حال سبيلك حتى نواريك مدفنك)، فما كان من التابوت إلا أن إستقر ولم يعاند سير حامليه ، وسار بهم الى حيث مثواه.

فانظر الى أيِّ مقام كان فيه هذا المريد ، حتى يطلب الضريح والمقام أو يأخذه الحال ، وانظر الى الخطاب الذي دار بينه وبين شيخه باهى ، فأجاب شيخه الى ما طلبه منه ، وكأنه لا موتٌ ولا فناء ، إنما هي حياةٌ أخرى من نوع أخر ، ومشهدٌ جديدٌ ‘ فاذا كان الشأن في المريد هكذا فما هو الشأن في الشيخ المربي الذي قام عليه ، تُراه في أي مقام هو ؟

وشبيه بذلك ما قصَّه علينا الشيخ صلاح طه ، وهو من أبناء الشيخ مُتَحدِثَاً عن إحدى الأخوات في أثناء حملها في نعشها ، فقد حدث أن بالغت المحمولة في الإسراع بالنعش ، الى الدرجة التي بدا منها ، كأنها تسيرُ طائرةً ، فأرهقت السائرين خلفها ، والمشيِّعين لها ، وكان زوجها ممن هم خلفها ، فأرهقهُ أمرها ، فما كان منه إلا أن أمرها أن تهدأ في السير ، فقال لها (مهلا.. مهلا ) فإنصاعت لأمره وأبطات في سَيْرِها نحو ما كان قد دفعها الى الطيران اليه ، فانظر كم كانت طائعه لزوجها حتى بعد انقضاء أجلها ، ولكم تكررت هذه المشاهد في الصالحين حال موتهم ، واختلفت مشاهدهم في ذلك ، فعلمنا من ذلك انه لا موت ولافناء في شأنهم ، وإن البرزخ هو نوع من أنواع الحياة وإن إختلفت صفته ونشأته عن ذلك النوع من الحياة التي نعرفها وندركها ونعيشها.

وماذكرناه إنما هى أمور تعنى أصحابها ، ولا يطلبون من ناقديهم تفنيدها أو تفسيرها ، إنما هى مشاهد عاينوها هم لا غيرهم ، وإنما قالوها بحسب ما شاهدوها ، فإن كانوا صادقين فلهم ، وإن كانوا كاذبين فعليهم ، والله فى آخر الأمر حكمُ بين هؤلاء وهؤلاء ، خصوصا أنه لم يرد من الشرع ماينقدها أو يؤيدها ، وإن كان فيه ما يومى الى صدقها أكثر مما يومى الى نقدها ، ولكنه لم يجزم بها ، فعلى الناقد أن يتبع الشرع فى تعامله معها فيقف كما وقف الشرع بين التأييد والنكران ، ويحيل أمرها الى علم الله ، وما أيقنهم بكذبها ؟، ولم ينكرها الشرع مثلما لم يثبتها ، بينما هم تألهوا على الله فأنكروها وأكدوا تكذيبها ، فما أجرأهم على شرع الله ، وقد علموا أن الله قال فى كتابه ( لقد كنت فى غفلة من هذا ،فكشفنا عنك غطائك ، فبصرك اليوم حديد ) واليوم هو يوم إنتقالك من قيد البدن إلى إنطلاق الروح الناظرة الى مآلاتها .

ولقد اجتهد أبناء الشيخ في الوقوف فى مواطن تجليات أنوار الشيخ عليهم والتعرض لهذه الأنوار طمعاً في زيادة أسباب القرب ونوال التجليات ، ومن هذا الباب ماحكاه الشيخ محمد سلامه ورواه عنه الدكتور أحمد موسى من أنه كان يحب أن يرى عمه الحاج مسعد في أول لحظات إستيقاظه من نومه على التوْ ، حيث يكون عائدا من رحلة الروح ، دون أن يلتقي بأحدٍ فتضوى شدة الأنوار الخارجة منه ، والمستهلكة فيمن يقابلهم ، إذ يقل منه هذا النور تدريجيا مع كثره الاختلاط ، ويدل على ذلك كلام النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : (إن عيني تنامان ولا ينام قلبي) لأن قلبه قد كان فى موطن التجليات الألهية ، مستقبلا بها أنوارها ، لهذا كان رسول الله صلى الله وسلم اذا قام من نومه لا يحتاج الى وضوء ، لأنه لا يجرى عليه مايجرى على النائم من الغفلة التى تستوجب الوضوء ، وكذلك حال الأنبياء ، تنام عيونُهم ، ولا تنام قلوبهم ، فإن قلوبهم على الدوام في حضره الأنوار ، فإذا استيقظوا إختلطت حضره الأنوار بحضرة الأغيار ، فيضوى النورُ الذي كانوا عليه في نومهم ، و الأولياء المحمديين هم ورثه الأنبياء وهم على سمتهم في هذا الأمر.

والإخوان فيما بينهم ، في حياة الشيخ ، لديهم إرتباط شديد ، وان كانت الظروف التي كانوا عليها خلاف ما نحن عليه الآن ، وقد كان هذا الأمر بادياً جلياً ظاهراً فيهم ، ولقد حدثنا الشيخ باهي عن طرائف هذه الخاصيَّة ، فكان من طرائفها أنه لو إجتمعت همَّة الإخوانُ على أمرٍ ما ، فإن هذا الأمر لا بد واقع ، ومتحققا في الحال ، فلو إجتمعوا مثلاً على أن يُحضِروا فلاناً ، ترى فلانٌ هذا وهو في بيته ، قد إستبدَّت فيه الرغبة في التوجه الى الشيخ ، ولو إجتمعت على رحيل فلان ، تجده متململا في جلسته ، ولا يلبث إلا أن يرحل ، وذلك معروفٌ في الطريق على إصطلاحهم( الفعل بالهمة ) وهو أن تنفعل أرادتهم لأمر ما ، فتقوم أرادتهم مقام لفظ التكوين (كن) فيكون هذا الأمر في الحال.

وبالإمكان أن ننظر الى هذا الموضوع بالمنظور الروحانى ، فهؤلاء المجتمعين ، قد إتحدت أرواحهم ، (وهم قادرون على إطلاقها من أغلال أجسادهم )، فتمازجت ، ثم إتجهت الى من يريدون توجيهها إليه ، فعملت فيه مثل مافعلته فيهم ، فيصير حاله كحالهم ويسير مع مايريدونه منه ، فمَكْمَنُ السر هنا إنما هو فى هذه الروح المنطلقة ، وهم القادرون على توجيهها والتحكم فيها ، ومكمن السر عند أهل الله على العموم ، هو تلك الروح التى يريدون تخليصها من أغلال الجسد فتصير الى ماصدرت منه وهو الملأ الأعلى الذى منه أتت ، وماتراه من خوارق أفعالهم ، إنما كان السبب فيه ماذكرناه ، فلا يغيب ذلك عن بالك ، فإن كثيرا من أفعالهم يفسرها ذلك .

يقول ابن عربي عن الهمَّه : أن همه المريد هي دليل على صدقة فيما أراده ( لأنه بصدقه تمكن من إرسال روحه عن أغلال جسده فسارت مع صفتها المطلقة ) فسمُّوا هذه الهمه همة الإرادة ، وهي همة جمعية يستجمع فيها المريد طاقته ، ويكون لها القيادة على نفسه وبدنه ، فتنحصر نفسه عليها ، فلا يقاومها شيء ، حتى أنه لو تصور شيئا في خيالة وإرادته ، لوقع في الحال والحين ، والروح لو استجمعت قوَّتها وكانت لها القوه والملكة ، إنتقلت لها أجرام العالم ، وإنتقلت هى إليها ، ولا قصاصَ عليها في شيء ، وليس من شروط هذا الاستجماع الإيمان ، ولذلك ظهرت آثارها على بعض الكفار من الهنود وأصحاب اليوجا ، فكان لهم في الكون أفعالٌ وتصرفات عجيبة ، ويزعمون انهم أهل الترويض وهو تجسيد الأرواح في قوالب هيكلية كاستجلاب أرواح الموتى في صورة حسية مرئية وهو ما يطلق علية تحضير الأرواح ، وماوصلوا الى ماوصلوا إليه إلا من خلال الرياضات البدنية والترويض الروحى كالصيام وخلافه ، فهذا هو سبيلهم به إليه، أما طريق أهل الله فقد وصلوا إليه بطريق الزهد والصبر وترويض النفس من سفاسف الأخلاق والإرتقاء بالروح الى الأخلاق والصفات الإلهية وإتباع ماأمر الله به خلقه ، الواردة فى كتابه وعلى لسان رسوله . .

**الشيخ**

**مع إخوانه من الأولياء**

**ومع الطائفين من أهل البيت**

وكأنما مقام الشيخ لا يرتفع الى مقامه مقام ، ولا يعلو فوق بنائه بناء ، وفي القصة التي سوف نتلوها عليكم دليل على ذلك وعلامةٌ عليه فنحن وإن كنا تحدثنا عن الشيخ وأحواله مع أبنائه في الطريق ، وأبناء صلبه، وتحدثنا عن الشيخ مع العوام من غير طريقه ، إلا أننا نريد أن نتحدث عن الشيخ مع إخوانه من الأولياء في طريق الله ، ولكنا قبل أن نسرد هذه الرواية ، نتحدث عن إصطلاح أدهش أهل الله في معلومه والمراد منه ، وان كنا نجتهد عقلا في توضيحه ، إلا أننا نظن أن توضيحاً أخر يراد به ، ذاك أنه من علوم الأذواق ، ولكن لن يمنعنا عجزنا عن التفسير عن عرض ما ذهب اليه اجتهادنا وفكرنا .

هذا الاصطلاح هو **أصطلاح سلب الأحوال** ، فالأحوال بإختصار هى مذاقات أهل السلوك فى طريقهم الى الله من تجليات ومشاهد ، هى لهم ولا يدركها غيرهم ، وأما السلب فهو رفع هذه المذاقات عنهم ، وجعلنا له عدة إحتمالات في المعنى :

**المعنى الأول**: ربما كان معناه أن حال السالِب أقوى من حال المسلوب فحالُ السالب بقوته يستطيع أن يبطل حال المسلوب فلا يجعل له أثرا كالضوء الساطع الذي يُبْطِلُ أثر الأضواء الأقل منه في القوة ، والتى إشتركت معه في المكان الواحد يقول الشاعر عن الشمس : إذا طلعت لم يبدو منهن كوكبُ ، ( لأن الشمس إذا طلعت لا يبدو لنور الكواكب أثر) ولكن على هذا المعنى فان حال المسلوب يعود اليه اذا غاب عنه حال السالب ، وإنصرف عنه ، ومثال ذلك الوجود الإلهى إذا كان مع الوجود الخلقى ، فإن الوجود الخلقى يفنى فى الوجود الإلهى ، ( لمن الملك اليوم .... لله الواحد القهار)فهذا النوع من السلب،سلبٌ طبيعى تلقائى .

**أما المعنى الثاني**: أن يكون السالب مُمَكناً من الله بسلب المقصود سلبه ، فيرفع عنه ذوقه ، فيكون قوة السالب بسبب تمكين الله له بذلك ، ولو لم يكن له من الله هذا التمكين ، لما تمكن ، كأن يجعل بين الحال وبين صاحب الحال حجاب فلا يراه ، مثال ذلك ما حدث من الشيخ مسعد حين حجب عن الشيخ عبد المنعم ذوق عطائه ، حماية له من فتنته ، وصيانة له من سلب السالبين ، ومثل ما حدث من الشيخ مسعد حين حجب عن الشيخ محمد أبو سلامة ذوق كشفه فى أول طريقه معه ، وكان الأمر شبيها بخرق السفينة الواردة فى سورة الكهف ، الرامزة الى خرق سفينة أحوالهم ، بمعنى أن الممكن من الله يكون أقوى حالا من المسلوب منه ، أي أن الله قد جعل الأقوى حالا سببا في سلب من هو أضعف منه في الحال ، أو سببا فى كفِّ إدراكه عنه .

**والمعنى الإحتمالى الثالث**

أن سلب الحال أو العطاء ممن ليس لديه شيخ ولا مرشد لا يعنينا تفصيله أو تحقيقه ، أما اذا كان السلب يخصُّ المريد الذي له شيخ ومرشد ، فإن هدف السالب هو اختراق الشيخ والاطلاع على سره فى ولده وإستيعابه ، وبلوغ غايته نظرا وعلما والتفتيش فيه ، والشيخ أو المرشد فى هذه الحالة هو الذي يقف ويحول بين السالب ، والمراد سلبه فيمنعه من ذلك ، فيصاب السالب بالمفاجأة من عدم قدرته على اختراق صاحب الحال و يظن أن هذا طعنا في قدرته المتوهمة، مما يدعوه الى سؤال صاحب الحال عن حكايته ومن هو وراءه كما حدث مع الشيخ عبده أبو فهمي حين سأله الشيخ عبد المنعم عن ذلك وما حدث مع الشيخ علي سعد حين سأله الشيخ عبده عيد عن ذلك فقال : أنا فلان من المكان الفلاني وعمي فلان فبادرهما بالقول : خذني الى عمك ثم يحدث اللقاء ... وهي أمور رتبت في الأبد غايتها سعادة صاحب القصة ( الذى هو السالب) واختيار الله له ليأخذ من نور الشيخ ويشرب من كوثره ، ولا تنس أننا نتكلم عن الأولياء الذين هكذا حالهم ، ولا نتكلم عن عوام الناس .

والأحوال هي نوع من أنواع العطاء الإلهي فى صورة ذوقية ، ومن الأحوال من تكون من الله لوليه بالمباشرة دون سبب أو تكون من شيخ مرشد يزودُ عن مريده آفة السلب ، إما بالحجاب أو بصيانة الحال من الإختراق ، وهذا النوع من الأحوال لا يتمكن أحد من سلبه على الأطلاق .

وقد تكون الأحوال عطاءاً ، جعل اللهُ الخلقَ أسباباً فيه ، فهو عطاء من خلقه لخلقه ، كالحال الذي يضعه الولي في أتباعه وأولاده مريديه ، أو الحال الذي يضعه الولي الأقوى في الولي الأضعف ، وهذا النوع من الأحوال هو القابل للسلب ، إذ جعل الله عبادَه أسباباً له ، بعضُهم لبعضٍ في العطاء والسلب ، مثالُ ذلك حالُ الكشف الذي يضعه الشيخ في مريده ، وله أن يسلبه منه ، وله أن يثبته عليه ، وهكذا حال الأولياء بعضهم لبعض .

ولهذا وجدنا من الأولياء من يرى أنوارَ وليٍ آخرٍ له حالٌ فى نفسه ، فاذا تمكن الولي من سلبه فهو أقوى منه ، وإذا لم يتمكن من سلبه، فأما أن يكون حاله اقوى منه ، فيكون السالب أضعف من المسلوب ، أو أن يكون حاله من الله بالمباشرة ، ومن كان بالمباشرة المطلقة عن السبب فلا يتمكن أحدٌ من سلبه ، أو أن يكون الحال بسبب شيخ أو مربى قد جعل له صيانة فى ولده فلا يتمكن أحدٌ خلاف شيخه من سلبه .

وهذا ما شاهدناه في قضية الشيخ عبد المنعم أبو حسين في محاولته سلب حال الشيخ عبده أبو فهمي وما شاهدنا في محاوله الشيخ سيد عبده من المطرية في محاوله سلب الشيخ علي سعد ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك من قبل .

وكل ماذكرناه إنما هو إستنتاجات لما هو معلوم بالذوق عن أربابه والله بأذواق عباده أعلم ، ونحن نعود بالأمر فيها إلى الله ، فإن كان صوابا فإننا نطلب من الله التوفيق ، وإن جانبنا الصواب فإننا نطلب من الله المغفرة ، والإرشاد الى الصواب منه ، ونعوذ بالله من إصرار أنفسنا وإدعاءات ذواتنا .

وبعد ..... فإنا نسوق الرواية التاليه ، وقد علمنا إحتمال العلم بمصطلح سلب الحال ، والرواية قصَّها علينا الدكتور أحمد موسى عن شيخه محمد أبو سلامه إذ يقول:

أن الشيخ مسعد كان جالسا في إحدى ليالي القطب الملثم سيدي احمد البدوي (باب النبي وصاحب المدخل ) وكان الصالحون والأولياء يأتون ليسلموا عليه من مختلف المحافظات ، وجاء اليه أحد العارفين من أهل الكشف والأحوال فجلس الى جواره ، وخشي على حاله من شده حال الشيخ رضي الله عنه ، فقال العارف في نفسه:

أن حال القطب من القوة أن يسلب منى أحوال روحى ، أو حاجبا روحى عنها ، وكان يمسك في يده بطفل صغير في السادسة من عمره فهرب بحال روحه( الذى يخشى سلبه ) في الطفل الصغير حمايه لحاله من السلب ( أى يندمج وتتحدَ حالُ روحه فى روح الطفل وهو أمر يتمكن منه الأولياء ويعرفون سبيله ، ولكن لا نعلم نحن كيفيته ، وننقله على ماسمعناه من راويه ، وهو أمر شبيه بإستحضار الأرواح والتحكم فيها، وهو من عالم الروح الذى قد يطلع الله الولى عل بعض أسرارها ) فأدرك الشيخُ حيلته فاحبَّ الشيخ أن يمازحه ويلقنه درسا في نفسه الوقت ، مُفَادُه أنه لا يتمكن احدٌ من خداع القطب ، فَغَيَّبَ الشيخُ روحَ الطفل ومعها حال الرجل الصالح ، فاستغرق الطفل في نوم ٍعميق لم تفلح معه محاولات الرجل الصالح في إيقاظه حتى طلعت الشمس، فلما إستسلم العارف مسح الشيخ على راس الطفل بيده ، وقال له : قُم ، فاعتدل الطفل في جلسته وأفاق ، فقال الشيخ للرجل : خذ الطفل وإنصرف الآن في سلام ، ولا تَعُدْ (ما تعملش كده ثاني ) .

وبقى من هذه الرواية معنى هروب العارف بحاله في كذا وكذا ، وكأنما الحالُ الروحانى أمراً مادياً بلإمكان دَسُّه في الأشياء ، كما دسَّ العارفُ حاله في روح الطفل ، ولا نتمكن من فهم ذلك إلا من خلال فهمنا لمفهوم الجبروت و هو التعامل ، أو ادراك مالا يُدْرَكُ ظاهره بحواس خاصه خلاف الحواس الظاهرة ، فالحال أمرٌ معنويٌ معلومٌ عقلاً لاعيناً ، هذا الحال قد جسَّدَهُ العارفُ في صورةٍ حسيةٍ تقبل الولوج في روح الطفل ، كتجسيد العلم في صوره الماء ، والعلمُ شأنٌ معنوىٌ يُدْرَكُ بالعقل ، والماء شأنٌ حسىٌ منظور للعين يُدْرَكُ بالحواس الظاهرة ،وقد ورد فى السنة تشبيه العلم ببرودة الماء ، ومثل ذلك تجسيد الفطرة باللبن ، وقد ورد فى السنة تشبيه الفطرة باللبن ، وهما أمرين أحدهما معنوى والآخر حسىّْ ، وكذلك تجسيد الموت في صوره الكبش وقد وردت السنة بهذا التجسيد ، وهي علوم لا يتمكن منها إلا الأولياء ، فإنَّا نعلمها منهم ولكن لا نتمكن من تفسيرها ، وليس لنا مدخلٌ إليها إلا مدخل إيمان المريد بشيخه ، أما العوام فهمْ بالخيار ، والأسلم لهم أن يقفوا بين السبيلين ، إى بين التصديق وعدمه ، حتى يأتيهم من الله شاهدٌ به ، ولم يطلب منهم أحدُ الإيمان به ، ولهذا قالوا عن الجبروت أنه علم الأولياء ، ونرجو من الحق اللطيف أن يكون قد وفقنا الى إيضاح الأمر ، والحق هو ولي التوفيق والقادر عليه .

وانظر كيف أن هؤلاء الأقوام يتحكمون في أرواحهم فيغيبونها ويخبؤوها ويحضرونها ،ويسترونها ويكشفونها ، ويلبسونها صورا ظاهرة ، وترى هناك من هو أقدر منهم فى ذلك ، فيتحكم فيماهُم فيه متحكمون .... وتراهم رغم ذلك يخشونهم ويحبونهم ويتبعوهم ، إنهم قومٌ تجردوا من مطالب أجسادهم فانطلقت أرواحهم.... وعاشوا في عالم الأرواح .... وملكوا الملك والملكوت.

ومن ذلك ما ذكرناه في قصه الشيخ عبد المنعم مع الشيخ عبد ربه التي رويناها من قبل ، وكذلك ما ذكرناه من قصه الشيخ عبده عيد من المطرية مع الشيخ علي سعد وما رويناه في هذه القصة ، والتي اشتركت جميعها في قضية سلب الحال عن المريد .

وهذه القضية ( قضية سلب الحال ) تشبه الى حد بعيد ما سمعناه وقرأناه في قصة سيدنا احمد البدوي مع فاطمه بنت بري ، وقصه سيدنا سليمان مع ملكه سبأ ، إن أردت أسقاط أحوال العارفين على أحوال الأنبياء والرسل ،فلقد كان لفاطمة بنت برى قوة روحانية خارقة تستطيع بها أن تسلب من تقابلهم من الأولياء أحوالهم وتجعلهم خاضعين لها ،أو أن أحوال فتنتها لهم ، كانت أشد من تأثير أحوالهم عليها ، فكان يطغى حالها على حالهم ، فيزول من أثر هذا الطغيان أحوالهم ، ويبدو وكأنها إستولت على حالهم ، ولم يقف حدُّها إلا على أعتاب السيد البدوى ، وكذلك ملكة سبأ فلقد كان لها مثل هذه القوة الروحانية على قومها ، فلما قابلت من هو أشد منها فى هذه الخاصية وهو سليمان ، خضعت له ، والعارف المحمدي يتقلب في الأحوال والمقامات حتى يصل الى القدم المحمدي مستقرا عليه ويلبث فيه حتى يأتيه اليقين ، هكذا قال الشيخ ناصر وريث طريقهم .

ولعلنا نكرر بالنص ماذكرناه من قبل من أن قضية سلب الحال أو العطاء ممن ليس لديه شيخ ولا مرشد لا يعنينا تفصيله أو تحقيقه ، أما اذا كان السلب يخصُّ المريد الذي له شيخ ومرشد ، فإن الهدف منه اختراق الشيخ والاطلاع على سره وإستيعابه ، وبلوغ غايته نظرا وعلما والتفتيش فيه فان الشيخ أو المرشد هو الذي يقف ويحول بين السلب والمراد سلبه فيمنعه من ذلك فيصاب السالب بالمفاجأة من عدم قدرته على اختراق صاحب الحال و يظن أن هذا طعنا فيه قدره المتوهم، مما يدعوه الى سؤال صاحب الحال عن حكايته ومن هو وراءه .

ولكننا قبل أن نترك هذا الجزء نريد أن نلقى مزيدا من السرد على قصة فاطمة بنت برى ، وذلك لأهميته لما نحن فيه من كلام عن أهل الله ،ومن ثم كلامنا عن الشيخ مسعد ، ولم نجد ، خيراً مما ذكره الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه عن السيد البدوى ، فنذكر ، ما يقوله بنصه وحواشيه :

إن التاريخ يحدثنا عن محاولات كثيرة ، من الصالحين ، أو من المصلحين ، لهداية بعض الفاتنات المنحرفات ، فالتاريخ يتحدث عن مريم المجدليةالمقدسية التى إهتدت على يد المسيح .....

فلقد حدث أن واحدا من الفريسين سأل المسيح أن يأكل معه ، فدخل بيت الفريسى ، وإتكأ ، فإذا بامرأة فى المدينة ، كانت خاطئة ، وقد علمت أن المسيح فى بيت الفريسى ، فجاءت إليه وفى يدها قارورة طيب ، ووقفت عند قدميه من ورائه باكية ، وإبتدأت تبل قدمه بدموعها ، وكانت تمسحها بشعر رأسها ، وتقبل قدميه وتدهنها بالطيب ، فلما رأى الفريسى ذلك ، قال فى نفسه : لو كان هذا نبياً ، لعلم من هذه المرأة التى تلمسه ، وما هى إلا أنها خاطئة ، فأجاب المسيح وقال له ، ردا عما دار فى نفسه :

ياسمعان ، عندى شيئ أقوله لك ، فقال : قل يامعلم ، فقال : كان لمدايِن مديونان ، على أحدهما خمسمائة دينار ، وعلى الآخر خمسون ، ولم يكن لهما ما يوفيا هذا الدين ، فسامحهما الرجل ، فقل لى ، أيهما يكون أكثر حبا له ، فقال سمعان : أظن الذى سامحه بالأكثر ، فقال له : بالصواب حكمت ، ثم إلتفت الى المرأة وقال لسمعان : أنظر الى هذه المرأة ، إذ دخلت بيتك ، ولم تغسل رجلى بالماء ، وإنما غسلته بدموعها ، ومسحتها بشعر رأسها ، ولم تقبلنى قبلة ، ولكنها لن تكف عن تقبيل رجلى ، ولم تدهن رجلى بزيت ولكنها دهنته بالطيب ، من أجل ذلك أقول ، قد غفرت خطاياها الكثيرة ، لأنها أحبت كثيرا ، والذى يغفر له قليل ، يحب قليلا ، ثم قال : مغفور لك خطاياك ، فإبتدأ المتكئون يقولون فى أنفسهم للمرأة : إيمانك قد خلّصك .

ولم تكن فاطمة بنت برى ذات ماض منحرفٍ كالمجدلية ، وإنما كانت عفيفة عفة ، تشبه أن تكون عصمة من الله لها .

و لم تكن فاطمة فقيرة ، وإنما كانت ذو ثراء عريض ، ثراء كفيل بأن يلبى كل ما تشتهيه النفس من ترفٍ وأبهة ، وكانت مثلا رائعا فى الجمال

وكانت تثق بنفسها ، بحيث لا تخشى أن يفلت منها الذمام ، ولهذه الثقة كانت تقابل الرجال ، وتستضيفهم وتكرمهم ، وتتحدث إليه ، وكانت ذات كبرياء وأنفة ،

وكانت كأمثالها شقية بكل ذلك ، لأنها ككل إمرأة من نوعها ، تحب أن تسكن الى رجل ، وهى لا تحب أن تسكن الى رجل تافه ، فالرجل التافه ، يكون مثله بجوارها ، كالمرأة الضعيفة ، وكان فؤادها يهفو الى أن يجد شخصية قوية ، طاغية آمرة ناهية ، شخصية تجعلها تسكن وتهدأ ،

ولقد بلغت ربيع عمرها ، وإكتملت أنوثتها ، فهل سيفوتها الركب ، فهى تريد رجلا يناسب ماهى عليه ، وهى مع هذا تستقبل الرجال،ويفتتنون بها ، ويتهافتون عليها ، وتوقعهم فى شباكها ولا تقع فى شبائكهم ، ولا يزداد حالها إلا أسفا وحيرة .

وأصبحت هواية بنت برى ، أن تجعل من أشباه الرجال عبيدا عند قدميها ، بفتنتها وإغرائها ، ثم تركلهم بقدميه دون أن ينالوا منها ، بعد أن تسلبهم حالهم ..... فيمر عليها من يتسمون بالصلاح والتقوى ، دون أن يكون الصلاح والتقوى قد تمكنا من قلوبهم ، فتلتقى بهم وتتحدث إليهم ، فيجدون ذكاءً ولباقة وجمالاً ، وثراءً عريضا ، وإغراءً شديدا ً ، وفتنة ساحرة ، فيتهافتون عليها ، وإذا بهم يقعون على صخرة منيعة لا تُرام ، وإذا بهم يخرجون من عندها فى خزىٍ ومذلة ، فقد فقدوا فى سبيلها أحوال صلاهم ، ولم يفوزوا منها بشيئ ، إلا نقص صلاحهم وتقواهم ، لأن قلوبهم أصبحت مرتعاً للهواجس والفتنة والإغراء .

وأصبحت هذه المرأة ، وكأن إقليمها به شيطان مارد ، هوايته الإغراء والإغواء ، وهى فى نفسها مسكينة ، تنظر للرجال .

ثم وفد عليها السيد البدوى ، فوجدت فيه ضالتها ، مما تطلبه فى الرجال ، فملك عليها جميع أقطارها ، فخضعت ودانت وزلت ، وتأهلت للإستجابة بكل ماتملك ، وعرضت عليه الزواج ، وكان السيد البدوى قد نذر نفسه للدعوة ، فهو لا يحرم حلالا ، ولا ينفر منه ، ولا يحل حراما ، ولا يدعو إلى الرهبانية التى تعاف الزواج ، فالزواج شريعة الإسلام ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن هكذا وجد حاله ، فعزم على عدم الزواج والتفرغ للدعوة ، ولم يجد القوة التى كانت عند رسول الله فى الجمع بين الأمرين ، ولذلك لم يقبل السيد ما عرضته عليه ، ولكنها دانت له وخضعت بتوفيق الله ، واخذ السيد العهد عليها ألا تتعرض لأحد من خلق الله بمثل ماكانت تتعرض به عليهم ، وأن تصرف هواها إلى مايقربها فى سبيل الله،

وخلاصة ماذكرناه من هذه القصة ، أن فاطمة بنت برى إنما ترمز الى الفتن والإختبارات التى تعرض لأهل الله فى طريقهم إليه ، وكأنها كانت مدفوعة بهذا الحال لهذا السبب ، فلما ظهر السيد المرشد القادر على حفظ أحوال العابدين السالكين ، لم يكن لرسالتها مناسبة فى وجوده ، فهو القادر على إحتضان هؤلاء الناقصين ، وإكمال مراتبهم ، وتقوية أحوالهم ، فلا يتعرضون لمثل ماتعرضوا له فى غيابه ، وكان الشيخ مسعد مثله فى هذه الوظيفة ، فى المحافظة على مراتب أبنائة ممن يمنكهم سلب أحوالهم منهم ، إذ كان هو الذى يلوذ عن أحوال أبنائه .

وأما فاطمة بنت برى فقد كانت تعلم أن هذه مهمتها فى إختبار الأولياء ، وإختبار مدى قدرتهم على ماوهبهم الله من مراتب القرب الى الله ، فلما إطمأنت على المرشد الذى جعله الله لهذا الأمر إستقالت وإنتمت إليه ، وظهر للناس مقامها فيما كانت وأصبحت فيه .

وفيه أيضا رسالة إلى أصحاب القرب الإلهى أن يكون لهم مرشد كامل عالم ٌ ، بوهدات الطريق ومعالمه وثغراته ومواطن الإختبار فيه ، حتى يسلموا مما وقع فيه غيرهم ، فإن الشيخ قد جعله الله لهم لمثل هذه الرعاية والعناية

ورسالة الى من نظر بعين الظاهر إلى هذه الرواية فلا يسئ الظن فى أولياء الله ، كما أساؤا الظن فى السيد البدوى ، وكما أساؤا الظن فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما أساؤا الظن فى المسيح عليه السلام وحكايته مع مريم المجدلية ، وكما أساءوا الظن فيما بدا لهم من أحوال الشيخ مسعد .

ثم نعود الى رحلتنا المباركة مع سيدى مسعد السعدى ، فنقول وبالله التوفيق :

**وأما لقاءات الشيخ مع أصحابه الأولياء من أهل البرازخ** :

وأهل البرازخ هم الأولياء المنتقلون بالموت ، وقد إعتاد أهل البرازخ على اللقاء به في أوقات سُكْرِه فكان أول ما يسألهم عليه : كيف خرجتم من الدنيا ، وقد عرفنا من قبل ، كيف كان يتواصل مع أهل البيت فى برازخهم ، وكيف كانت أرواحهم تتجسد فيلاقيهم ويلاقونه ، ويجتمع بهم ويجتمعون به ، وكيف كان لقاءه مع سيدى شبل الأسود ، وتكلمنا عن حكايته مع سيدى مِسَلَّمْ ، الذى أراد أن يضم أحد مريدى الشيخ مسعد إلى أولاده ، وكيف إلتقى بسيدى عبد الرحيم القضابى بعد إنتقاله ، وكيف كان يجالس سيدى أحمد البدوى ويجالسه ، وعرفنا قصته مع السيدة فاطمة أم الغلام ، ولقاءاته مع سيدى سعد الدين الجباوى وتواصله معه وإجتماعه به ، وقد ذكرنا تفاصيل كل ماذكرناه من قبل ، والكلام فى هذا الوضوع يطول ولا ينقضى ، فأردنا أن نقتصر على ذكر نماذج منه على وجه المثال .

**وأما لقاءات الشيخ مع الطائفين من أهل البيت على خدمات الأولياء** **فى المناسبات**:

فان الرواية التاليه تجلي لنا حقيقة تبعية الخدمة ، هل هى للشيخ أم لأهل البيت ؟...... والحقيقة تعطي أن الخدمات في الموالد إنما تنسب لأهل البيت ، وأن المشايخ إنما هم نواب لهم فيها ، فقد حدث أن كان الشيخ مسعد ، جالسا في مولد مولانا سيدنا الحسين وكان الشيخ في حالة من حالات التجلي الروحانى ، وبينما هو على هذا الحال إذ دخل الخدمة رجلان وأمرأة من الأجانب ( السائحين )، ومعهم مترجم لهم فساءل المترجم الحاضرين عن تبعية هذه الخدمة ، فقيل لهم أنها خِدمة الشيخ مسعد ثم إنصرفوا ، فشعر الشيخُ أن شيئا ما قد حدث ، فذهب مسرعاً وإستعلم منهم على الأمر ، فقيل له : (اذا كانت هذه خدمة مسعد أمال أحنا بنعمل أيه؟)..... إذ كان الطائفون هم ، سيدنا الحسن وسيدنا الحسين والسيدة زينب ، وكان المترجم سيدي شبل ، والإجابة النموذجية التي يجب أن يُجاوَبُوا بها هى ، ... أن هذه الخدمة هي خدمه أهل البيت، وقد قيل إن الشيخ أخذ حكما من أهل البيت على هذه المخالفة .

وبعد حدوث هذه الحادثة بسنوات طويلة ، وفي خدمه السيدة فاطمة النبوية ، فوجئ الشيخ باهى ( وريث الشيخ مسعد ) السيدة فاطمة النبوية بوجودها فى الخدمة لتفقدها ، فلما عرفها غطى وجهه بالملفحة ( الكوفية أو غطاء الرأس ) حفاظا على ستر وجودها عن الغير ، فلم يشأ أن يظهر منه ماينم على وجودها ، فينتبه غيرُه إلى ذلك ، لأن الأصل فى الطريق الستر ، وأظنها تلك الحادثة التي تعرف فيها واحد من الدراويش عليها ، وسألها: (وحياه جدك يا ستنا ، أنت مين من السيدات فقالت أنا فاطمة النبوية وحسابك على عمك) لأن هتك السر فى الطريق من المحظورات التى تستدعى الحساب فكان حسابه على وليِّه المباشر ، ولهذا قالت : حسابك على عمك .

**رحله الشيخ الى الشيخ عبدالرحيم القضابى**

أتى للشيخ إذن من سيدنا الحسين بأن له عند الشيخ عبدالرحيم القضابى أمانه فاذهب وخذها منه، تحرك الى بلده بنى سويف مركز الفشن التي يقطن بها الشيخ القضابى وأثناء ذهابه في تلك الرحلة تعرض لمشكلات وأشياء صعبه من الأولياء ، أثناء تحركه طوال الطريق فلما وصل الى الزراعية وجد رجلا بانتظاره ، ويقول له اذهب في هذا الاتجاه فمشى وبعد ذلك قابله أخر وأشار اليه الى المنزل ، وبعد ذلك وجد أخر ينتظره على باب المنزل ويقول له الشيخ بانتظارك ، والمفاجأة أن الذى كان على أول الطريق الذى أشار هو هو الذى على باب المنزل هو هو الشيخ ، فذهب الشيخ وجالسه، وهذا الرجل الذي لا يقوى أكابر الأولياء على النظر في وجهه أو مصافحته فضلاً عن الجلوس أو الحديث معه ، وخادمة الشيخ حينئذ أمرأةً كانت في حاجة للشيخ تقضيها له من خارج ، فلما أن عادت وجدت شيخنا يجلس إلى جوار شيخها فأخذتها دهشة عظيمة ، وقالت بلغة أهل بني سويف: وهي تشير إلى شيخنا ، إيش ده ، إيش ده يا سيدنا الشيخ ؟ هل هذا حي أم منقول ( أى متوفى) ؟ فأجابها شيخها: "حي ومتوصى عليه من سيدنا الحسين"، وقد قالت ذلك لعدم إعتيادها من الشيخ القضابى لقاء الأحياء من الأولياء ، بل إقتصرت لقاءاته معهم على المنقولين ، ثم أخذ صاحبنا منه مسبحة ثم ذهب ، وفي ليلة من لياليهم ، رأى الشيخ مسعد وهو مستلقٍ على ظهره ، الشيخ القضابى طائرا فى السماء ، فسأله الشيخ : هل إنتقلت ؟ فأجابه : نعم، فسأله : وماذا أعطاك الله؟ فأجابه : كل من صافحني أضمن له على الله الجنة ، فيرد الشيخ : فقط؟ فيعود قائلا : كل من نظر في وجهي أضمن له على الله الجنة ، فيرد الشيخ: فقط؟ فأجابه: لي ثالثة إدخرها الله لي ولا أبوح بها.

**حال الشيخ مع أولاده فى برازخهم**

لقد ذكرنا من قبل أن علوم أهل الله هي علوم ذوقيه موقوفة عليهم لمعاينتهم لها شهودا وذوقا ، فلا يلزم من ليس من أهلها أن يخوض فيها ويطلب الدليل عليها ، ولن يستطيع صاحب الذوق أن يعطيه الدليل عليها ، لأن دليلها هو ذوقها ، وهو ليس من أهلها ، فما له ذوق من ذلك فيها ، فعين الدليل هو عين الذوق .

ومن هذه العلوم ما كان منها من لقاء أهل الله لأهل البرازخ ( القبور والمقامات) التي إنتقلوا إليها بعد موتهم ، وحديثهم معهم ، والتأثر بهم والتأثير فيهم ، وكما كان أهل الله يتواصلون مع أبنائهم في حياتهم الدنيا ، فان لهم أيضا القدرة على التواصل ، ولقاء أبنائهم بعد انتقالهم الى برازخهم فيكون حديثا بين أهل الله و أهل البرازخ بعضهم لبعض، وإذا كان لهم التأثير عليهم في الحياة الدنيا فإن لهم التأثير عليهم في برازخهم بدءاً من أول لحظات خروج الروح ، إلى ما تلاها من المواقف التي يتعرض لها المريد بعد إنتقاله ، فلقد ذكر الشيخ محمد أبو سلامه أن الشيخ يحضر مع أولاده لحظات خروج الروح ، فيحارب معه الشيطان حتى لا يفتنه في هذه اللحظات ، وهي التي يطلقون عليها فتنة المحيا والممات ، ثم يكون معه في فتنه القبر من ضمة القبر عليه ومن سؤال الملكين ، فلا يزال الشيخ مع أولاده في كل هذه المرائي وكل هذه الوقفات.

وقد يكون من معانى قول الحق(النبي أولى بالمؤمنين من انفسهم) أن ملكية نفس العبد لشيخه أولى من ملكيه نفس العبد لنفسه ، لأن الشيخ هو ولىُّ هذه النفس ، أو أن ..... مايدعو النبىُّ العبدَ إليه يجب عليه أن يكون أقرب مما تدعوه نفسُه إليه ، فطلب النبى أو الشيخ أولى بالقضاء من طلب النفس ، فالنبىُّ أولى به من نفسه ، وهو أقرب إليك من نفسك التى بين جنبيك ، ومن ثَمَّ فهو أولى أن يتحمل عنك ، تبعات هذه النفس وما اقترفته من مخالفات ، ولكن هذا ، من باب أن النبي يطلب ويتشفع ويرجو من الله أن يتجاوز عن سيئات من إنتسب إليه ومن هو تحت ولايته ، كالأب الذى يتحمل عن ولده تبعاته ، والذى لا يستطيع أن يتبرأ منه لإنتسابه إليه ، لا من باب ( ألا تزر وازره وزر أخرى ) ولا من باب (قل إني لا املك لكم ضرا ولا رشدا) ولا من باب (يا فاطمة بنت محمد إعملي فاني لا أغني عنك من الله شيئا) ولكن من باب أن النبي صلى الله عليه وسلم يرجو ربه ويشفع له عنده ، أن يعفو عن أمته ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويغفر لهم ذنوبهم ، ويقضي عنهم ما قصَّروا في أدائه ، لا أنه الفاعلُ في المغفرة ، وهو يطلب ذلك من رصيد جاهه عند ربه ، وان كان حديثه لفاطمة قد نُسِخ بحديث أخر مفاده : ( كلُ نسب وسبب مقطوع يوم القيامة إلا نسبى وسببي) فنحن بما قلناه نجد طاقةً من النور نَدْلُف منها الى ما ذكرناه من وقوف الشيخ الى جوار ولده وقت طلوع الروح ووقت سؤال الملكين.

والأكثر من ذلك ما ذكره الشيخ محمد سلامه ونقله الينا الدكتور احمد موسى حين قال بالنص :

توفي واحد من إخواتنا فسأل الشيخ عنه باطناً ، فقيل له أن عليه صلاة قد حجبته عن الجنة فقال الشيخ : أنا أصلِّيها عنه ، فقيل له أن هذا لم يعد يصلح ، فألحَّ الشيخ ُ على الله في طلبه ألا يدع مريده ، هذا ، فقيل له أن إستطعت فلتصليها على بلاط جهنم ، فقال الشيخ أفعل ذلك أن شاء الله تعالى ، وهنا أوقف الشيخ فعله على مشيئة الحق لذلك ، وهو نوع من أنواع الطلب والرجاء ، وقيل له أن ماطلبته لن تستطيع أن تتحمله ولكن ستظهر لك نقطة واحدة فقط من جهنم ( وليست جهنم كلها ) وهذه النقطة هى موطن سجودك ، فلما نوى للصلاة ظهرت له هذه النقطة ، فارتفعت درجه حرارته الى درجه لم يتحملها جسده ، وسقط مغشيا عليه ، وظل عاما كاملا يعالج من اثر هذه النار في جسده ، بما خلفته من صديد والتهاب ، فلما تم شفاؤه وكان ذلك في تمام العام سال عن مريده فقيل له ، ما زال محجوبا عن الجنة بصلاته ، فعاود الطلب وقال أصليها عنه ، فقيل له مثل ما قيل في شان النقطة ، ولما نودى للصلاة ظهر له سيدي احمد البدوي فقال له : ماذا تفعل يا مسعد؟ قال له يا سيدي لن أترك إبني في النار ، ولو هلكت ، قال له : إنك لن تقوى على ذلك ، فسأصلي أنا عنه ، وصل أنت من خلفي ، فلما نوى للصلاة خرج من سيدي احمد البدوي صفوفا كثيرة جدا هي أبداله ، وهى صور تحمل وجودها فى النار ، واصطفوا خلفه فصلى بهم .

.ولسنا نزايد في هذا الأمر ولكننا نحاول جاهدين فهم الوجه الذي منه ما ذكرنا وقد ذكرنا وجهه ، ولعل وجها أخر بإمكاننا أن نضيفه إليه وهو قول الحق (يوم ندعو كل أناس بأمامهم) فانهم ما دعوا الأمام ألا ليسالوه ، وما سألوه ألا ليحاسبوه عن خطايا أتباعه لمسؤليته عنهم و إمامته لهم والمحاسَبُ ربما يقع عليها الثواب والعقاب ، وربما كان العذاب الذي ذكرناه من هذا الباب لكونه الأمام ، ونحن وان نقول ذلك فإننا نرجو من الله ثواب ما ذكرناه ونطلب من الله المغفرة إن تجاوزنا حد الأدب أو حد الفهم أو حد العلم ولكننا إذ نقول ذلك نرجو من الله باباً الى رحمته التي وسعت كل شيء ، فنحن من هذه الأشياء التي وسعتها الرحمة ، وما قلناه هو من باب الرجاء في الذي لا تخيب المرجوَّات عنده ، والذي نعلم أنه يحبنا كما نحبه ، فان قَصُرَت عنا طرائق حبنا اليه ، فلا تقصُر عنهم طرائق حبهم لنا ، فالأمر من جانبنا كبير إذ أن الشقاء هو متعلق ذنوبنا ، والأمر من جانب الحق يسير إذ أننا قد علمنا أن الحق سبحانه لو أعطى كل واحد من مسالته ما نقص ذلك من ملكه شيء ، فنساله بحبه للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبحبه لوارثيه ومن هم على قدمهم ، أن تغفر لنا وترحمنا وتعافينا وتتجاوز عن سيئاتنا انك على كل شيء قدير .

ولعل هذا يفسر ما قصَّته علينا إبنة الشيخ ، السيدة توحة من أنه ، كان في ليله من الليالي وقد انتابه حال من القبض ، وقعد يردد يا رب : يا ساتر يا رب ، أفرجها يا رب ، أفرجها يا رب ، وظل يردد هذه القول مرات عديده ثم طلب منهم أن يصبوا عليه ماءً فوق راسه ، فلما أبطأوا عليه طلب من الله أن يفرجها عليه بماء من عنده ، فما لبث إلا و الماء قد اإنصب من فوق راسه خارجاً من سقف حجرته ، فأغرقها ، هنالك هدأت نفسه وذهب للنوم ، واستغرق أهل البيت في مسح الماء الذي ملا جوانب الغرفة ، ومن هذه القصة ومن ما ذكرناه من قبل نستنتج أن هذا الوقت العصيب جدا الذي ظهر على الشيخ ربما كان سببه ما قصصناه عليكم من قبل، فقد يكون واقفا مع ولدٍ من أولاده قد اوشك أن يفارق الحياة، فوقف في مقابلة الشيطان الذي يريد أن يفتتنه ، أو قد يكون واقفا معه عند سؤال الملكين ، أو قد يكون في الموطن الذي يقضي عنه ما فاته من صلاته كما ذكرنا من قبل ، أو انه أراد بالماء أن يخفف عنه صهر النار التي قابلها بوجهه في سبيل نجاه ولده ، و تمييز ذلك من الأمور الشديدة التي قد تصادفه في طريق التربية والإرشاد ، وما أكثر وأشد هذه الأمور.

ولقد روى لنا الشيخ خالد رواية من باب ما ذكرناه وهي رواية تخص إحدى حفيدات الشيخ بعد موتها ، ففي الوقت الذي توفت فيه كان لها أخ ، فلما علم بوفاتها وعدم استطاعته حضور مراسم الدفن لوجوده بالخارج ، وقع في نفسه أن يقوم بعمره لها ، فلما ذهب الى منزله و أعد ملابس الأحرام وجلس يستريح قليلا أخذته سنه من النوم ، فرأى أخته في الرؤيا تخبره أنها لا تحتاج الى هذه العمرة ، فلما سألها عن السبب ، أخبرته أنها حال دفنها ونزولها القبر وحضور الملائكة لسؤالها رات جدها الحاج مسعد الى جوارها في القبر ، فلما راوا الملائكة الشيخ مسعد سألوه عنها فقال لهم : أنها حفيدتي وهي تحت تبعي... فانصرفوا بسلام.

وكل ماذكرناه من باب ولاية الشيخ على أبنائه فى الدنيا والبرزخ والآخرة ، ولم يكن ذلك بدعا منهم ، بل كان إرثاً ممن سبقوهم من الأولياء المرشدين ، وهو فى الأصل إرثاً نبوياً أعطاهم الله لهم بسبب هذه الولاية على أبنائهم ، ألم تر إلى سيدى أحمد البدوىّْ حين قال :

إن الفقراء ( يقصد مريديه ) كالزيتون ، منهم الكبير والصغير الضعيف ، بحسب كمية الزيت الكامن فيه ، ( ويقصد بالزيت مقدار إخلاصه فى طلب الوصول إلى الله ، ومقدار إلتزامه وعمله بالكتاب والسنة ) ومن لم يكن له زيت ، فأنا زيته ، أساعده فى جميع أموره ، وقضاء حوائجه الدنيوية والأخروية ، لا بحولى ولا قوتى ، ولكن ببركة النبى صلى الله عليه وسلم ، التى هى فى الأصل من مدد الله له .

وكذلك فإن مدد رسول الله لأتباعه من المؤمنين مازال قائما فى الدنيا والآخرة ، ألم تر قول الحق فى شأنه (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ، فاستغفروا الله وإستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ) ولم يقتصر هذا الأمر على ماقبل إنتقال رسول الله أو مابعده ، فإن الآية أرسلتها على الإطلاق ، ولم يقتصر الأمر أيضا على الدنيا دون الآخرة ، لأن ألآية أيضا أرسلتها على الإطلاق ، فمازالت رعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأتباعه قائمة فى الدنيا والآخرة ، حال وجوده وبعد إنتقاله ، ثم إنتقل الأمر من بعده بالنيابة لورثته من الأولياء القائمين على شئون مريديهم وأبنائهم ،وقد ذكرنا من قبل معنى قول الحق ( النبى أولى بالمؤمنين من أتفسهم)

بسبب أنهم محمولون عليه .

# 

# انتقال الشيخ إلى ضريحه

# وأحداث ماقبل الإنتقال

# 

# كان الإستعداد قائماً لحضور مولد السيدة نفيسة فإستدعى الشيخ مسعد الشيخ باهي وقال له:

يا باهي استلم أنت بقي من أول السيدة نفيسة ... أنا خلاص سلمتك يابني من أول السيدة نفيسة.... وتوكل على الله... فقال له: ليه يا بابا ... مش ها تروح السيدة نفيسة ... قال له : لا أنا سلمتك السيدة نفيسة من بابها ... بعد كده أنت بقي اللي ها تروح الموالد.

فكانت السيدة نفيسة هي أخر المواد التي حضرها عم الحاج مسعد دون أن يذهب فيها الى الخدمة وناب عنه فيها الشيخ باهي وكانت السيدة نفيسة هي أول الموالد التي حضرها الشيخ باهي بالصفة الرسمية وكانت السيدة نفيسة هي الفاصل بين الحاج مسعد والشيخ باهى.

وخلال العام السابق لانتقال الشيخ كان همِّ الشيخ أن يعد الشيخ باهي لوراثه الأمر من بعده فكان منها أن أنابه في حضور موالد أهل البيت عنه ، وفى حضور ليالي الإخوان وفي أداره شؤون الطريق وأخبره بما يجب ومالا يجب عليه وأعطاه سرَّه وسيره ، وجُلِّ هذه الأمور إنما هي من أسرار المرشدين ووارثيهم وأسرار دوله الباطن العلية ، وقد يكون الإنتقال بصورة ظاهرة عينية ، أو بصورة باطنة يجدها الشيخ الجديد فى نفسه دون إلقاء أو تلقى ظاهر ، فإن الشأن فى ذلك شأن أرواح ، لا شأن أبدان ، وللروح قوانين هم أدرى بها ، لأنهم عاينوها ، وعرفوا حدودها ، ثم أوصاه بوصاياه التي وصل الينا طرق منها:

فأوصاه بإخوانه من صلبه واهل بيته بان يرفق عليهم ولا يغضب منهم ولا يضِّيق عليهم ، كما أوصى أخواته عليه ، فقال لابنته توحه ، لا تغضبي من باهي فمهما حصل (ما تزعليش من باهي) ثم وضع يده على يد الشيخ باهي وابنته توحة ، وقال لها أقرئا الفاتحة ألا يغضب أحد من الأخر في شيء ، وقرؤا الفاتحة على ذلك ، وكأنما الشيخ قد علم أن أمورً ستحدث بعد انتقاله ، سيكون للشيخ باهى فيها مواقف ، قد تغضب توحه في جانب ما ، ولا يستطيع الشيخ باهي إلا اتخاذ هذا القرار في شانه ولهذا طلب من ابنته توحه ألا تغضب منه.

ثم طلب من الشيخ باهي أن يكون كما كان الشيخ عليه من ملازمه بيته مستقبلا زواره من الإخوان والا يخرج منه إلا للضرورة فلا يكون له خروج من البيت إلا لزيارة أهل البيت في موالدهم ، وذلك لأن إرشاد الشيخ يستدعي وجود الشيخ علي الدوام في المواطن الذي يجده المريد فيها فإن من أشد الأمور على المريد أن يتفقد الشيخ في موطن طلبه فلا يجده ، هكذا يجب أن يكون الأمر عليه ، لان الشيخ هو الملاذ لمن جعله الله لاجئاً اليه.

ثم أوصاه على بعض الإخوان في رعايتهم وحسن معاملاتهم لهم ومنهم الشيخ شحاته وقد ذكرنا طرفا من سيرته مع الشيخ ، ومنهم احدى الأخوات في كفر الرفاعي.

ثم أوصاه الوصية الكبرى في أن يكون متسامحاً مع كل من حوله ولا يؤذي احداً في حياته مهما كان الحاصل منه ، هكذا كان الشيخ الكبير في تعامله مع المحيطين به فلا يستخدم ما أعطاه الله من سرة في أذى من حوله ومن ذلك ما نسوقه على سبيل المثال لا الحصر ما كان منه في تعامله مع احد قاطني المنزل الذي يقيم على سطحه خدمه مولد سيدنا الحسين وهو المنزل المقابل للباب الأخضر والذي كانت تقيم فيه ابنته زوزو وكان هذا الرجل يعمل محاميا و كان يحارب الشيخ في ألا يقيم المولد على سطح المنزل ولما قيل له : يا عمي أنت قادر تقرا عليه الفاتحة أن ربنا يزيحه من هنا ... فقال لهم لا استطيع عمل ذلك ولكن استطيع أن ادعو له بالهداية ويفتح له الأبواب بعيدا عنا ، هوه يرتاح ، واحنا نرتاح ... ثم حدث بعد هذا العام أن سافر الى السعودية للعمل فارتحنا منه وارتاح هو منا.

والسبب فى كراهيته لأذى الغير من طريق إستخدام ما أعطاه الله له من قوه في التأثير على من حوله ، وما أعطاه الله من سره وعلمه ، بأن هذا النوع من الأذى لا يمر بغير حساب في ميزان الأولياء ، فإنهم موصولون بقضاء أهل البيت ، و محكومون بأحكام أهل البرازخ من حولهم ، وقد علم أن وراثه الطريق في أهل بيته قد تنقطع عنهم إذا كان منهم أذىً لغيرهم من هذا الطريق ، فلهذا آثر السلامة لكف الأذى حتى يظل الطريق مفتوحا له في ورثته واهل بيته ، وكان له في سبق الأحداث شواهد له على ما رآه ، فقد رأى شيخه الشيخ إبراهيم الدكروري وقد انقطعت وراثه الطريق عن أبنائه من بعده بسبب ما كان منه في قتل أربعه من الاشخاص بهذا السر ، فكان ممَّن قتلهم العمدة ، وزوجة إبنه ، و أحد دراويشه ، ولم يذكر الراوى السبب في قتلهم بسرِّه وان كان بسبب ما ألحقوه بالشيخ من الأذى ، ولسنا هنا بصدد تمحيص الداعي الى هذا الأمر ، لأننا لا نملك أدوات تمحيصه ، ولكن يعنينا انه لم يتمكن من الصبر على الأذى منهم ، وإنتقم منهم ، فكان حكم قضاء دوله الباطن عليه أن يظل محبوسا لمده اربعين عاما ، ولا ندرى طبيعة هذا الحبس ولا صورته ، هل كان حبس ظاهرا أم حبسا باطنا جعله رهينا لهذا الحبس لا يستطيع أن يغادره ، ولقد انتقل الشيخ مسعد الى جوار ربه وقد بقى على عمه إبراهيم الدكرورى ، عامٌ من هذه الاربعين ، والارجح أن يكون هذا الحبس من النوع الباطنى ، بدليل أن الشيخ مسعد رضوان الله عليه كان يتردد عليه ويتلقى منه مدده ، ولقد أوصاه الشيخ إبراهيم بأن لا يؤذي احداً لئلا ينال ما ناله ، فقد إنقطعت وراثه الطريق عن أبنائه من بعده ، بالرغم من محاولاته المضنية في نول شفاعه أهل البيت و مسامحتهم له ، ولكن لم تجدى هذه المحاولات ، ثم أوصاه بان يقرا له يوميا سوره يس والرحمن والواقعة وان يهب اجرهم له.

وكما اوصى الشيخ إبراهيم الدكرورى ولده مسعد بذلك ، كذلك أوصى الحاج مسعد ولده باهى بذلك وحذره من أن يلحق الاذى بأحد ممن حوله وسار الشيخ علي هذه الوصية حتى أخر يوم من حياته ، ولقد أوشك وريثه الشيخ باهى أن ينتقم من أحد معارفه بسبب إفترائه عليه وعلى ذويه ، وعقد العزم على ذلك ، وإنتوى أن يقوم بذلك فى الصباح الباكر ، فرأى فى ليلته أبيه ، وهو يعنفه تعنيفا شديدا على ما إنتوى على فعله ، وأمره بالذهاب الى هذا الرجل فى بيته بعد صلاة الفجر لمصالحته ، ففعل الشيخ وذهب إليه ، فلما فتح له الباب بكى الرجل ، إذ وجد منه مالم يتوقعه من السماح ، وهو يعلم فى نفسه مقدار جرمه نحوه ، وتحمل الشيخ باهى مالا يوصف من الأذى من أقرب المقربين إليه ، الخائضين فى عرضه، والشائعين عليه بما خاضوا فيه ، وما هو ليس بأهل له ، فلم يدفعه خوضهم الى الإنتقام منهم ، ولا التشنيع بهم ، ولا حتى لومهم ، وتمر الأيام ويرى الشيخ باهى أثر جناينهم من ربهم ، ولا يقف أمر الأذى من أقاربه وجيرانه وأهله ، بل إمتد الأذى من شانئيه وحُسَّاده فى الطريق ، سواء من أهل طريقته ، أو من أهل الطرق الأخرى ولم ينتقل الشيخ باهى الى ربه إلا وقد رأى بعينيه أثر جنايتهم عليه فى الدنيا ، ولم ينس فى لحظة واحدة وصية أبيه له بذلك ، ونحن فى حلٍ من ذكر أشخاص هذه الخطايا ، لأن الطريق مبناه على الستر .

و قبل انتقاله الشيخ مسعد إلى جوار ربه ، أوصى زوجته الست أم باهي بان تستمر في قراءه يس والواقعة والرحمن ، ثم تهب ثواب هذه القراءة للشيخ إبراهيم الدكروري كما كان يفعل هو ، وإذا كان إرتباطا شديداً قد شعر به المريد نحو شيخه ، فإن ارتباطاً اشد منه قد شعر به الشيخ نحو مريده ، وهو البادئ بالحب ، فما أحب المريد شيخه إلا بسبب حب شيخه له ، واذا كانت حياه روح المريد بشيخه فان حياه روح الشيخ في ولده وقد علمنا من قبل أن المريد هو رزق الشيخ الذي قسمه له لتقتاتَ عليه روحه ، تماما كما كان الشيخ هو رزق المريد الذي يقتاته للوصول الى ربه ، ولا يكون المريد مريدا إلا بشيخ يقوم على أرادته ، ولا يكون الشيخ شيخا إلا بوجود المريد الذي يقوم على تربيته وإصلاحه ، فلولا الشيخ ما كان المريد ولولا المريد ما كان الشيخ ، ولهذا قلنا أن حيات أحدهما بالأخر.

ظهر ذلك جليا في قصه قد قصصناها عليكم من قبل حين تجاوز الشيخ في أمر من أمور الطريق ، إستدعي أن يعاقب بحرمانه من استقبال مريديه لمده شهر كامل ، ولم يكن في حياه الشيخ أشدُّ عليه من هذا الشهر ، فقد كان كئيبا حزينا خالي الوفاض ، وكأنما الحياه قد إمتنعت عنه ، تلك الحياه التي لم يتنسم عبيرها إلا بعد انقضاء هذا الشهر ، وعادَ أولادُه إليه ، وارتباط الشيخ بالمريد وارتباط المريد بالشيخ هو صوره من صور التخلق بالأخلاق الإلهية ، لأن الحق سبحانه مرتبط بعباده على هذه الشاكلة، فإن الحق سبحانه يتصف بصفات الهيه وأسماء قدسية ، هي من ذاته وليست زائده عليه ، ولكن هذه الصفات والأسماء ، لم تظهر إلا في وجود العبد الذي تظهر عليه هذه الصفات ، فأين هو الرحيم الذي لا يجد مرحوما تتجلى فيه صفه الرحمة ، وأين هو القادر الذي لا يجد مقدوراً عليه تتجلى فيه صفه القدرة ، وأين هو الوهاب الذي لا يجد موهوبا له ، تتجلى فيه صفة الوهب ، فعلمنا من ذلك أن العبد هو المرآه التي يجب أن يرى فيها الحق صفاته ، وتجليات أسمائه ، وكذلك العبد في وجوده لا ينفك يحتاج الى صفه الوجود التي تُبقى عليه صفه الوجود ، ولا يزال ينفك محتاجا الى الرحيم الذي يرحمه ، والعاطي الذي يعطيه ، والمنعم الذى ينعم عليه، ولا يزال الحقُ يحب عبده الذي لولاه لما ظهرت صفته ، ولا يزال العبد يحب مولاه الذي لولاه ما كان وجوده ، وكذلك الشيخ فان الشيخ يحب مريدة الذي يرى صوره إرشاده فيه ، والمريد يحب الشيخ الذي كان سببا في هدايته.

ولقد ذكرنا كل ذلك وهو لازم الذكر لفهم لمحه من حياه الشيخ في أخر أيامه وهو في مرضه فلقد تورمت قدماه وإعتلت صحَّته ، الأمر الذي إستدعى الطبيب أن يطلب منه ألا يُسَلِّم عليه أحد من دراويشه حفاظا عليه ، فقال الشيخ للطبيب : كيف يأتي الىَّ المحبون ويريدون أن يسلموا على وانا أمنع يدي عنهم ، فإن لأَهونُ علىَّ أن تُقطع يديّْ من أن أمنع سلامها على الإخوان ، وكأنه غضب من الطبيب لما طلبه منه ، فقال له: لا تكشف عليّْ.

فان اليد التي يريد الطبيب أن يمنعها عن أبناء الشيخ هي يد العطاء الذي لا يستطيع أن يمنعه عن أولاده ويد الرعاية التي يحوطهم بها الى أخر لحظه من لحظات حياته وإذا شئت الحقيقة فهي أيضا بعد وفاته فلا تزال هذه اليد ممتدة الى اتباعه.

وكان الشيخ قد هيأ الأمور للشيخ باهي قبل إنتقاله بسنة ، فكان يرسله في ليالي كفر الرفاعي ، وكان يُعلِّمُه ويوضح له السلوك تمهيدا لحمل الراية من بعده ، وأوصاه ألا يذهب الى أحد كان ما كان ، إذ كان من عادات الشيخ ألا يخرج من بيته وأن الكل قادمين عليه ، فضلا على أن إنتقال الشيخ الكبير لن يكون سببا فى منع مدده عن وريثه ، فإنه كما قال لن يفصله شبرٌ من التراب عن أولاده .

ولقد قصَّ علينا الدكتور احمد موسى ناقلا لما قصَّه عليه شيخه محمد أبو سلامه: ..... أنه كان قبل إنتقال الشيخ بفتره وجيزة وحدث في مولد سيدي احمد البدوي أن طلب الشيخ مسعد من أهل البيت أن يحصل على بركة لأولاده( وكأنها مكافأة نهاية الخدمة ، وإن كانت الخدمة لم تنتهى ) ، فأُجيب له منها بالموافقة على خُمْسها فقط ( جزء من خمسة ) فأحزنهُ ذلك في نفسه ، فجاءه سيدي احمد البدوي وقال له : يا مسعد ... لماذا أنت غير راضي ؟ يا مسعد إنك مريض منذ ثلاثة ليالي وجسدك لا يتحمل ، والست السيدة زينب تَقْطُرُ لك هذا الخُمْسْ قطرةً قطرة ، وأنت غيرُ قادرٍ على تحمله ، فما بالك لو أجيب الى ما طلبته بالكامل ؟ ولا نملك تعليقا على هذه الرواية ألا أن نتساءل وإن أعوزتنا الحاجة إلى أجابتها لكونها مجهولة لدينا : -

أولا: ما هي البركة التي كان قد طلبها الشيخ لأولاده؟

ثانيا: إذا كان الشيخ قد أجيب الى خُمسِها فمعني ذلك أنها بركه معلومة المقدار والبركة أمر معنوي لا يقاس بالمقدار والكم؟

ثالثا: إذا كان قد نال منها الأبناء خُمسا، فما هو محتوى هذا الخمس ،أى ماهى مظاهر هذه البركة عليهم ؟

رابعاً: ما هو مصير الأربع أخماس الباقية هل ما زالت مُعلَّقةً أم وصلت الى أولاده من بعده عن طريق وارثيه ، أو من صورته في برزخه وقد علمنا بوجوده بيننا؟

خامسا: أننا قد علمنا أن هذه البركة تكون للشيخ عطاء في أوله ثم ينقل هذا العطاء الى بنيه من بعده ، وانه لابد وان تكون طاقة الشيخ قادره على تحمل هذا العطاء فهل تحدث الشيخ عن مثل هذا العطاء، أم أن هذا العطاء قد انتقل الى بنيه بصوره غير مباشرة، أي أن يجدوه في أنفسهم دون أن يعرفوا طريقة وجوده فيهم ؟

سادسا: ما هو أثر هذه البركة في بنيه؟ أما أنها موجودة الأثر ولكننا لا نعلم أن هذا الأثر من هذه البركة؟ فهل من ، وهل من قارئ يكون له منالعلم بها شيئ فيخبرنا بها فنضمه الى هذا الكتاب ليستفيد بعلمه بها ؟

واشتد على الشيخ المرض في أخر يوم من حياته رضي الله عنه فحضر سعد فندي حجازي وهو زوج ابنته الكبرى زوزو رحمها الله ومعه طبيب من القاهر وكان اليوم ،وقفه رمضان ، ففحصه الطبيب واستأذن للخروج ونزل معه الشيخ باهي وسعد أفندي حتى وصلا الى باب سيارة الطبيب ، وإذا بالطبيب تأخذه الدهشة للحظات ممسكا راسه بيده سارحا في امر جلل وهم يسألونه ولا يجيب ، كأنه لا يسمعهم فلما أفاق رفع رأسه ونظر إليهم فأعادوا عليه السؤال : خير يا دكتور الشيخ ماله؟ فأجابهم : هذا الرجل لم أرى له نظير في حياتي ، إن ما به من الألم والأوجاع ما لا تقوم له الجبال الرواسي ، وله همة وعزيمه لا مثيل لها في كل البشر ، ولكن ما السبب الذي دعا الطبيب الى أن يقول ذلك بالرغم من عدم سبق معرفته به ؟ وهنا أجابت زوجة الشيخ باهى ، عن هذا السؤال فقالت : السبب في ذلك أن مقابلة الشيخ للطبيب ، كانت بصوره توحي بان الشيخ لا يعاني من شيء ، فقد كان معتدلا في جلسته ، مالكا لجوارحه ، مناديا على أهل بيته أن يحضروا مشروبا للطبيب بعد عرض الطعام عليه ، وكأنه شخص صحيح لا يعاني من شيء مرضي كل ذلك بالرغم مما عاينه الطبيب من شده ما يعاني منه من وطأة المرض .

ذهب سعد أفندي مع الطبيب وكان مقررا أن تذهب إبنته مع زوجها لولا أن أشار الشيخ عليها بان تمكث معه هذه الليلة ، وهنا تواصل أم ناصر حديثها عن هذا اليوم قائله:

في هذه الليلة نادى الشيخ مسعد على من في البيت وكانت الساعة الثانية عشر ليلا وسال : لسه بدري على الفجر؟ فردوا (لسَّة بدري) فقال : إذاً تَسَحَروُا الآن ، فأعدوا طعام السحور وتسحروا ، فسأله والدي : ألن تتسحر ؟ فأجاب : ( قُنِعَتْ ) وهو لفظ يدل على الإكتفاء من زاد الدنيا ، ثم إستلقي على ظهرة في فراشه ، واخذ يردد كلمه واحده (الله ... الله... الله ) حتى سكت ، من الساعة الواحد الى أذان الفجر ، وهكذا انتقل الى رحاب ربه في أول ليله من ليالي رمضان عام 1392 هجريا الموافق التاسع من أكتوبر عام 1972 ميلاديا بالغا من العمر 62 عاما ، و بعد الوفاة و الغسل والكفن حُمِل على النعش ، ومكث أمام منزله مُكْثاً طويلا ، ولا يتمكن أحد من المشيعين أن ينقله من مكانه إلا بعد جهد جهيد ، وقيل أن النعش قد التف حول نفسه في ذات مكان ضريح الشيخ ، ثم بعد ذلك حُمِلَ الى مدفنه في الجبل .

والمسافة من جسر البلد حتى مكان قبر الشيخ في الجبل هي على اقل تقدير ثلاثة كيلو مترات وهي صحراء قاحله جرداء لانبت فيها ولا ماء ، كانت هكذا وقت إنتقال الشيخ الى مدفنه فيها ، وتقاطر الإخوان لزيارة الشيخ عده أشهر بعد مواراته التراب حتى تفاجأ الزائرون بان هذه الأرض التى كانت جرداء ، قد إنقلبت وإكتست بالخضار من الجسر حتى مرقد الشيخ ، وكان هذا امر عجيب إستدعى صاحبة الرواية وهي السيد أم حسين إبنه أختنا أم محسب أن تسال عنه زوجه الشيخ ، فقالت بيتا جميلا من الزجل ، تقول فيه :

(أرض خطا فيها النبي صَبَحِت نَداها عوم)

أي أن تلك الأرض التي كانت موطأ خطوات النبي صلى الله عليه وسلم قد تكاثف عليها الندى حتى صار الندى من كثرته كالنهر الذي يعوم الناس فيه ومن إثر هذا الماء اخضرت الأرض ونما فيها العشب.

وهو معنى رمزي يشير به ناظمه الى بركه الخُطا النبوية الشريفة وهي أشاره الى أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أم جنازة الشيخ مسعد وشيعه الى مرقده ولا يخفى علينا المعنى الرمزية فيما ذكرناه.

"

يا ارض من أثر النبي .... طالت بفرحتها النجوم

لمَّا خطا نور النبي ...... عامت عيون الأرض عوم

والزرع قابل دمعها ...... يشرب نداها بعد صوم"

والحقيقة أن الإخوان بعد إنتقاله ، ونقله الى مدفنه في الجبل ، لم ينقطعوا عن زيارته في مرقده بذات العدد الذي كان يرتاده حال حياته ، وظلوا على هذه العادة خلال السته اشهر التي سبقت نقله الى ضريحه المقام أمام منزله ، فكانوا يجتمعون ثلاثين أو أربعين فرداً ، ويصحبوا معهم أمتعتهم وأفرشتهم وما يشربونه ويأكلونه ، ويجاورونه في مرقده يتسامرون كأنهم معهم ، ويتحدثون في شأنه وسيرته ، وكل واحدٍ منهم يدلي بدلوه ، وإعتاد الناس من سكان هذا الطريق ، مرورهم منه ، فانتعشت أحوالهم في البيع والشراء ، وعمر الطريق ، واخضرت مسالكه ، واصبح هذا الطريق مأهولا بعد ما كان مهجورا متروكا ، ولكن لما طال على الإخوان الأمر ، تمَنَوْا من داخلهم أن يكون شيخهم قريبا منهم ، في متناولهم قرباً وزيارةً ، وكانت هذه الرغبة من الإخوان هي أول بذور الأمل ، الذي علا صداه مع الوقت ، في أن ينقل الشيخ من مرقده الى ضريحه وتم لهم ما أضمروه في أنفسهم وعاد شيخهم اليهم.

مكث الشيخ فى مدفنه بالجبل 6 اشهر ، حتى كانت واقعة نقله الى ضريحه الكائن أمام منزله ، بعد أن رآه المحبُّون في رؤاهم طالباً منهم نقله الى مكان ضريحه ، مُطَمْئِناً إيَّاهُم ، أن جسده على ما مات عليه ، سليم لم يتغير ، قائلا لمن رأوه فى رؤآهم : (فإن رأيتم تغيرا فيىَّ فلا تنقلوني) وأخذ أصحاب الرؤى من الإخوان ، يترددون على وارثه الشيخ باهي قاصِّين عليه رؤاهم ، لينقلوه الى مكانه الحالي ، وأيد ذلك رؤيا عظيمه راها الشيخ باهي وتكررت معه كثيرا .

و لقد تواترت الروايات في قصه المقام : - فمن الإخوان من قال إنهم تحدثوا الى الشيخ فى حياته ، في شان المقام فقال لهم: (لو ليَّ حاجه عند ربنا هاتتعمل).

واشتدت رغبه الإخوان في أن يكون لعمِّهم مقام وضريح يزوروه بين الوقت والأخر وبلغت شده هذه الرغبة أن جعلت أم محسب ومحمود القط يذهبون الى سيدنا الحسين ويطلبون منه أن يجعل لعمهم مقام.

وتحدثت في هذه الأمر السيد توحه ابنته فقالت:

في الوقت الذي حملناه فيه متوجهين به الى المدفن رأينا النعش يدور في مكان المقام الحالي ثم إستقر على الأرض ثم ظهرت أربع حمامات تطوف مع النعش في ذات مكان المقام.

وتعددت الرؤى لدى الكثيرين وجميعها تشير الى طلب الشيخ نقله الى المقام الموجود حاليا، وقيل إن محافظ الجيزة راي الشيخ يطلب منه هذا الأمر ووصف له المكان والاسم ، وكان لدي المحافظ أمراً يهتمُّ له فى شأن زوجته ، فبشَّرهُ الشيخ بزوال هذا الهم في هذه الرؤيا . وقيل أن احد المسؤولين في المحافظة قد جاءه الشيخ بذات الطلب ، فذهب الى الشيخ باهي وأخبره بالأمر وقال له : (أبوك طول الليل مانيمناش ، يقول روح الي باهي ، أبوك عايز ينتقل من الجبانة ، وينتقل الى المكان الموجود حاليا ، ويتعمل له مقام ) واجتمعت هذه الأفكار في راس الشيخ باهي، ولم يعد يعرف ماذا يصنع ، فاستشار إبن عمه الدكتور محمود في هذا الذي يدور في فكره ، فإن الضغوط تتزايد عليه ، والحيرة تتمكن منه فقال له : (ما تِحْرِجْش نفسك يا شيخ باهى ،إحنا واخدين في العلم أن الجسم يبدا في مراحل تحلله بمجرد خروج الروح من الجسم ، وهذا معروف لدي الجميع ، وأنت والدك توفى في الصيف والتحلل مع الحرارة يكون سريع ... إرجع عن هذا الأمر) ، وكان الشيخ عبده أبو فهمي ، وهو من الدراويش المقربين للشيخ مسعد موجود ، فقال له ؛ غائرا علي عمه (0وحياه ربنا أن عمي لو مكث في المقابر سبع سنين سيخرج مثلما كان ، طلَّعه يا شيخ باهي على مسؤوليتنا ).

وكان الشيخ باهي يعلم صدق ما قاله الشيخ عبده أبو فهمي ، ولم يكن به شك من هذا الأمر ، ولكن هو يعلم هذا في نفسه ، وليس ما في نفسه معلوم لدي العوام ، فأراد أن يأخذ بالأسباب الظاهرة ويسير مع عوام القوم في سيرهم.

وعزم في نفسه أن يذهب الى محافظ الجيزة ويطلب نقل الجثمان من المقابر في الجبل الى الضريح المعد لذلك ، ولكن قبل أن يذهب الى المحافظة ، طلب من بعض الإخوان أن يذهبوا ليلاً وسراً ، ويفتحوا المقبرة وأعطاهم كيس وقطن ، وقال لهم : إذهبوا الى الجبانة ، فان كان الجسد بخير أعلموني ، وان كان على غير ذلك ، فضعوه في الكيس وانا أتصرف .

فذهب عدد من الإخوان يقال انهم : إسماعيل من إطفيح والشيخ صديّق ومحمد أبو جاد ، ومنصور ، وعبده أبو فهمي ، وبركات ، وآخرون لا أتذكرهم ، وفتحوا الجبانة وتأكدوا من سلامه الجسد الشريف وأعادوا غلق المقبرة عليه.

وجاء عم منصور الى الشيخ باهي في الثالثة فجرا وقال له : أخرجنا الجسد وجلسنا نذكر حوله فسال الشيخ : هل به أي شيء؟ فقال : زي ما هو وحتى يده اليمني التي كان بها ورم ، كان الورم زي ما هوَّ وكان على وجهه بعضٌ من قطرات الماء ، وكان وجهه ندياً ، وكان مدفون معه طفلان ، إلا أن الشيخ صديق أضاف الى هذه الرواية ، أنه كان ممن ذهب الى المهمة ، وكان معهم الشيخ محمد أبو جاد ، فلما نزل الشيخ محمد أبو جاد الى المقبرة ، وأزال أحد الأحجار الساترة للقبر ، خرج من القبر نورٌ شديدُ ذاهلا ، أضاء الجبل علي كامله ، فاطمئنوا الى سلامه الشيخ فزحف الشيخ محمد أبو جاد على الأرض ذاهلا مما رآه .

ولما اطمأن الشيخ باهي على ذلك بدأ في إعداد الضريح ، وفي نفس الوقت انتوي أن يذهب الى المحافظ يطلب منه نقل الجسد الشريف من المقابر الى مكان الضريح الذي يتم أعداده ، وكان المحافظ في هذا الوقت هو عبد الفتاح عزام ، وكان علي معرفه تامة بالحاج مسعد والشيخ باهي. فبادره المحافظ قائلا : (أنت متأكد أن الجسد لم يتغير؟ ) فسايرهُ الشيخ باهي في سؤاله ، وقال له (أنا لا اعرف في هذا الأمر ) إذ لم يكن يريد أن يخبره بما تأكد به منه في سلامه الجسد الشريف ، فقال له المحافظ: سيتم تشكيل لجنه متخصصة من الأطباء وموظف الصحة ، فذهبت هذه اللجنة ، وفحصت الجثة ، وتأكدوا من سلامه الجسد ، وكتبوا التقرير ووقعوا الأذن بنقل الجثمان .

وفي لحظه نقل الجثمان الى مقرَّه الجديد في الأخصاص ، إزدحم الناس وتوافدوا على الطريق من الجبل الى الأخصاص ، وكان مثل وقفة عرفات من ازدحام الناس عليه ، وكان هناك حصير مفروش على الأرض ووضعوا النعش على الحصير وكشفوا وجهه الكريم ، لكل من يريد أن يراه ، وجلست أم محسب بجوار الشيخ ، وجعلت تقبل يديه وقدميه ، وجاورها في هذه الجلسة الشيخ محمد أبو جاد الذي قال لها : هذا والدك ليس به شيء يا أم محسب ، وحدث لها في هذا الوقت إنجذاب ، الى أن وصل الأخصاص ، ووصفوه في مقامة الشريف الكائن بجوار بيته في وسط قريته وأهله.

وكان أخر من نزل لرؤيه الشيخ في ضريحه بعد نقله ،هو سعد أفندي حجازي زوج ابنته ، فقد جاء متأخرا بعد تمام النقل وغلق مدفن الضريح، فلما جاء أصر إصرارا شديدا أن ينزل قبر ضريحه ، ففتحوه له ونزل اليه وراه وقبله.

هذا ما أخبرت به هذه الرواية ،إلا أن هناك رواية أخرى فيما يختص بأعيان الإخوان الذين ذهبوا الى المقبرة للنظر الى أحوال شيخهم فيها ، وقلنا في الرواية الأولى أن الشيخ أوفد بعض الإخوان اليه ولم يذهب هو إلا أن الرواية الأخرى تقول ، إن الشيخ باهي بنفسه قد ذهب الى المقبرة ليلاً ومعه اثنين : الشيخ إسماعيل من اطفيح والشيخ عبده أبو فهمي فقال لهم الشيخ باهي: والله ... إحنا هانفتح ونبص على عمكم أن كان سليم ،دي حاجه تشرفنا ... ولوكان عكس كدة نأخذ شويه العظم من سكات.

ثم تشاوروا في أنفسهم عمن ينزل الى المقبرة ليخبرنا بما راه لان الموقف جِدُ عصيب ، والجميع في خوف ووجل ، والقلوب يكاد يعصرها الرهبة.... فتقدم الشيخ إسماعيل وابتدأهم بقوله : أنا اللي هانزل... فلما نزل سمعوه من الخارج يصيح صارخا ، ثم خرج من المقبرة ساعيا في الجبل يمينا ويسار قائلا : (عمكم حي عمكم صاحي ... عمك صاحي ) يقول الراوي وهو الشيخ رفاعي : أن الشيخ إسماعيل بدلا من قوله : عمك سليم قال: عمكم صاحي عمك حي . فهدأوه وأجلسوه الى جوارهم قالوا له:

طب ... اهدأ... دا شيء كويس وشيء يشرفنا ولنا في هذه الرواية خاطرين مرا بنا: -

**الخاطر الأول**: انه لا نناقص بين هذه الرواية والرواية السابقة فربما أراد الشيخ أن يتأكد بنفسه من سلامه الشيخ في نظر قليل من أصحابه قبل أن يوفد بعضا أخر لا يكون معهم ، درءاً للشبهة في رؤية الشاهد الذي هو من صلبه ، وهو ولده ، فيتحقق صدق المشهد من غير أهله صلباً ، وهم الإخوان ، خصوصا وأن الأمر قد تعداه الى غير الإخوان ، وعلى هذا الخاطر يكون الكشف على سلامه الشيخ جاء من ثلاثة مصادر : المصدر الأول هو ذهاب الشيخ مع قليل من الإخوان ، ثم ذهاب الإخوان في نفر منهم من غير وجود الشيخ معهم ، ثم المرة الثالثة حين زاره الوفد الرسمي من الأطباء وموظفي الصحة والمحافظة.

**الخاطر الثاني**: هو صدق الشيخ إسماعيل في قوله عمك صاحي.... عمك صاحي عمك حي ، لأن قُصارى ما كان يتوقعه الشيخ إسماعيل أن يرى الجسد الشريف سليم ، وهو ما كان يتوقعه ، أما أن يشاهدوه حي مستيقظ ، فهو مالم يتوقعه ، وهو الأمر الذي أفزعه والذي خرج من أثرة الى الجبل ساعيا يمينه ويساره حتى طمأنه من كانوا معه.

ولم يخل الأمر من المشككين فى سلامة جسد الشيخ بعد إنتقاله وقبل نقله الى مكن ضريحه ، وإن كانوا من المقربين لديهم ، ولم يقف الأمر على المناهضة فى نفسه ، بل تعداه الى الحديث مع الآخرين فى تشككه من هذا الحدث ، فقد حدث بعد وفاه الشيخ ، أن توسط الشيخ باهي لأحد معارفه في إيجاد عمل له وتمت الموافقة وما بقى إلا إجراءات التعيين و إستكمال الأوراق، وكان هذا الرجل ممن قدح في حقيقه نقل الشيخ من مقبرته في الجبل الى ضريحه الحالي ، ومِمَّن قدح في زَعْم من قال أن بدن الشيخ كان سليما وقت نقله ، ومِمَّن قال : أن ما نقلوه هو بضع عظيمات جاؤا بها من المقبرة ، إلى مكان الضريح ، وأشاع ذلك مع من تحدث معهم في هذا الشأن ، ووصل هذا الخبر الى زوجه الشيخ الكبير ، فتحدثت الى ولدها لائمةً إيَّاه على مساعدة من قدح في والده ، فقالت له : (إنت مش شايف اللي يقولوا على أبوك مع الناس ... والله إنت لو متصرفتش معاه .... لانت ابني ولا أعرفك ) فوقعت كلمات أمه على قلبه وقعاً أليماً ، خصوصا وأن صراعا في نفسه كان يدور بين الثأر من جنايته على أبيه ، وبين مسؤوليته الجديدة من كونه شيخا وارثا لأبيه ، وأن من صفات الأئمة تحمل الأذى من الأخرين ، وإنتهى الى قرار في نفسه ، هو أن يتصل بمن هو قائم على قرار موافقته على العمل ، الذي توسط لهذا الرجل فيه ، بطلب منه ألا يقبله في العمل ، وأن يلغى إجراءات تعيينه ، ونام وقد عقد العزم على ذلك ، فاذا به في رؤياه يرى أباه قادما اليه قائلا : (يا باهى... أنا مش طول عمري بقول عليك أن أنت مش نافع .... يا ابني .... أنا مش قايل لك آدى دقنى لو نفعت ... والله .... إذا ما كونتش تروح للراجل ده وتبوس على دماغه وتشغله لا أحاسبك!!! )

فلما أفاق الشيخ باهي من نومه وكان الوقت فجراً ، وفي وقت قيام الناس بالصلاة ، خرج من بيته متوجها الى الرجل في منزله ... وطرق بابه عليه... فلمَّا رآه الرجل اُسْقِط في نفسه ، وأخذته المفاجأة ، وهاله طرق الشيخ باهي عليه ، وظن في نفسه انه قد جاء اليه في هذا الوقت ليقتله على ما قاله في حق أبيه ، وفي غمرة هذه الدهشة ، دخل الشيخ باهي الى منزل الرجل ، وجرَّ الرجل وراءه ، وأغلق الباب خلفه ، حتى لا يعلم أحدُ بقدومه ، ولا يزال الرجل في ثوران خوفه ، حتى قال له الشيخ باهي: (إهدأ... يا أخي إتنيل على عينك أنا جاي أبوس على دماغك ، ومش هامشي ألا أما أبوس على دماغك،الراجل (يقصد الشيخ الكبير) منيمنيش طول الليل ، وقال لي أن ما كنتش تروح ليه ، وتبوس على دماغه وتشغله ... لا حاسبك !!! )، و نظر الرجل في نفسه ثم قارن بين قدحه في مقام الشيخ وفعل الشيخ فيه.

فلا يزال الشيخ بعد إنتقاله متحملا قدح القادحين فيه ، مِمَّن لا علم لهم بحقيقته ، ومربياً ولده القائم على الأمر من بعده ، في وجوب الصبر وسعه الصدر والعفو ، وألا نؤآخذ أحداً بالجريرة ، وعدم الثأر ممن تطاولوا عليه أو قدحوا في شانه ، فهذا هو سَمْتُ الأولياء العارفين ، ثم بعد كل ذلك علاجاً لأدواء القلب من جانب ذلك الرجل ، الذي صادفه حسن معامله الشيخ فيه ، مقابل سوء معاملته ، وصادف الإحسان في مقابل إساءته، فإن الإنتقام والثأر لا يكون من ورائه إلا الندم والعداوة وتكاثر الإساءات ، في سلسالٍ لا ينتهي ، أما العفو والمغفرة فلا يكون من ورائه ألا كسب المحبة ، بعد سبق العداوة ، فينقلب العدو اللئيم الى الصديق الحميم.

ولعلنا بعد إنتقال الشيخ ، وتواريه خلف أنظارنا ، وأمام بصائرنا ، ننظر إليه فى مجمل أحواله وصفاته ، وكأننا ننظر الى البناء بعد إكتماله لنكشف من هذه النظرة أسرار جماله ، وبهاء صورته ، فإن الإنسان لا يتمكن من إدراك الشيئ وهو داخله ، فدعنا ننظر الى الشيخ من خارج لندرك ما ذكرناه ، فإن مكمن السر فى سمت الشيخ ، في خضوع من حوله له ، في خضوع أبناء طريقه وخضوع الأولياء من حوله ، ولم يبق إلا الأشياء في الكون ، فهذا هو الشيخ سيد سلامه يتحدث عن خضوع النار له حين رأى أن لفح نار الموقد (المنقد) في برد الشتاء لا يتجه لهيبه إليه ، ولا يصيبه دخانها ، فلقد كانت النار تتأدب في حضور الشيخ .

وكان للشيخ مهابة تفوق الوصف ، وكان لا يتمكن أحدٌ من الإخوان أن يجالسه منفردا باي حال من الأحوال ، إلا إذا مكَّنهُ الشيخ من ذلك ، ومن هيبته أن الحلاق إذا جاء ليحلق له ، تراه يحمل هم هذا الوقت ، ولا يتم له ذلك ألا بجروح يتركها في وجه الشيخ ، وكان الشيخ باهي يضحك كثيرا ، حينما يتذكر أو يحكى عن لقاء الحلاق به ، ومن إثر هذه الرهبة كان عمى الشيخ باهي لا يجتمع معه على طعام أبداً ، ولا أن يتحدث معه حديث الولد مع أبيه بالرغم من شده حبه له وحنانه عليه.

ومن أحوال الشيخ في نفسه ما سمعه الدكتور أحمد موسى من الشيخ محمد أبو سلامه ، وقد صدَّقه في ذلك كل من تعامل مع الشيخ وعايشه ،

أن الشيخ كان إذا حضر حاله ، وهو تعبير يعني به اتصال الشيخ بالوارد الروحاني ، وتعامله مع هذا الوارد على حقيقته ، فكان إذا حضر هذا الوارد إتقدت عيناه وإنتفخ أنفه ، وصار من الصعب مواجهته ، وكان الإخوان يفرحون في أنفسهم لما يرونه من حال الشيخ ، لأنهم يعلمون أن وارداً روحانيا قد صادف الشيخ فينتظرون أن ينظرون من الشيخ آثأر هذا الوارد ، لأنه عادة ما يعقب هذا الحال أو أثناءه ، عطاء ما أو كشفا لأمر هو من الأسرار والغيوب.

ولقد سأله الشيخ محمد أبو سلامه ذات يوم وهو في حال من حالات البسط ، (يا عم هو أنت بتبقي زعلان أنك هتدينا حاجه ولا أيه؟) يقصد أبو سلامه العطاء الصادر من هذا العارض الروحاني ، والذي يصاحبه قبض الشيخ وتجهمه بالصورة التي ذكرناها ، فضحك الشيخ رضي الله عنه وقال له : **(أتعلم يا محمد ، أنِّى أبخل الناس بالسرّْ ، وأكرمهم في عطاء الدنيا للمريد )**، إذ كان الشيخ واسع الكرم فيما يختص بأمور الضيافة ، وفيما يختص بفتح معايش الحياه على المريد ، أما اذا كان الأمر مرتبطا بالأسرار الموصولة بعلوم السادات، يقصد الأسرار الباطنية ، فان ذلك مما يستدعي الخوف على المريد ،والحوادث الموثوقة في هذه كثيره ، فلربما انكشف للمريد ما هو فوق طاقته من السر الى الدرجة التي قد يغشى عليه أو أن يصيبه الجذب فى جوارحه ، ولذلك كانوا يَقْطُرون العطاء تقطيراً على مريديهم ، بحسب إحتمالهم ، وكنا قد علمنا من قبل أن طريق الشيخ مع أبنائه ، الحرص منه على عدم دخولهم في عوالم الجذب والشطح ، التي تأخذهم عن أسباب معايشهم في الدنيا ،وارتباطهم بمن يعولونهم ، فكان لهذه الأسباب كما يقول عن نفسه ، مُقْتِراً في بثه لأسرار العلوم على مريديه.

ولعل ذلك يُذَكِّرُنا بحال رسول الله صلى الله وسلم وقت ورود الوحي عليه ، فكان إذا نزل الوحي عليه ، كَرُبَ ، وتربَّدَ وجهه ، وكان في هيئةٍ كهيئة السكران، ويثقل جسمه ، ويتفصد عرقه ، وترتعد فرائضه ، وغيرها من الأوصاف التي توشى بشده ما هو فيه ، ومع هذه الشده على كان عليها النبي وقت نزول الوحي ، إلا أن الصحابة كانوا في شغف لسماع وارد الوحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تماما كما كان أبناء الشيخ شغوفون لسماع وارد الحالة معه رضي الله عنه.

ولعل القدر قد ساق لنا مَلمَحا رقيقا من صوره وجه الشيخ وقت تجلى الوارد الروحاني عليه (وقد جعلناها في أول الكتاب لتكون أول التقاء له مع القارئ، وهي احدى الصور التي وردت الينا منه ، وعن هذه الصورة روى لنا الشيخ محمد أبو سلامه أن الشيخ رضي الله عنه قد إنزعج كثيرا من هذه الصورة وكان ذلك في مولد سيدي احمد البدوي لأنها ربما ترصد وقت ورود الحال عليه ، و عرض على المصور أن يعطيه كل ما يريد ، شريطة أن يمزق هذه الصورة ويحرق النيجاتيف ، إلا أن المصور رفض ذلك ، وقال له لو أعطيتني مال الدنيا فلا افعل والحمد لله انه لم يفعل.

ومن الأشياء التي إنفرد بها الشيخ رضي الله عنه ما رواه الشيخ محمد أبو سلامه ، ونقله لنا الدكتور احمد موسى وهي قوله : أن الشيخ في حال حضوره قال : ( أن من رأى وجهي فله على الله الجنة ) فقال أبو سلامه يا عم أي وجه ؟ وجهك هذا ، أم وجهك على الحقيقة ، لأن أبو سلامه قد رأى الشيخ في حُلَّتِه الرسمية يوم أن زاره أول مرة ، فرد الشيخ رضوان الله عليه قائلا : (يا محمد باقول وجهي هذا الذي تراه في الدنيا) .

ومن أحوال الشيخ أنه كان لا يحب الانقطاع عن الدراويش لأي سبب كان ، حتى في أيام مرضه الأخير ، وقد ذكرنا من قبل مقالته حين أوصاه الطبيب بالا يجهد نفسه بالسلام على الدراويش حفاظا على يديه التي أصابها الورم من أثر المرض فقال له : كيف أمنع أحداً من السلام علىّْ ، فإنه أهون علىّْ أن أقطع يدي قبل أن أمنع أبنائي من السلام عليّْ .

وكان الشيخ نادر الجلوس مع أهل بيته ، إذ كان جُلُّ وقته مع الدراويش ، وكان يخصص فتره الصباح للأخوات حتى العاشرة ، وبعد ذلك يجلس مع الإخوان طول الوقت .

ومن الأحوال إختلاف زيارة الشيخ لأهل البيت عن زيارة أبنائه لهم ....... وهو أن الشيخ كان لا يدخل الي المقام ويقول: (إن البلاط وأحجار الرصيف والحوائط كلها منيرة وكل شيء منوَّر ، أزَّاي أقدر أواجه النور ده كله) فإذا أراد أن يزور يركب كارِتَّة(وهى عربة يجرها حصان لها مظلة تخفى الراكب فيها من الظهور) ويلُفُ بها حول المقام ، أما الدراويش فكانوا يدخلون المقام للزيارة ،

ومن أقوال الشيخ في هذا الشأن أن سيدنا الحسين لو غاب عني طرفه عين لاغتسلت من الجنابة.

ومن أحواله التي قيلت عنه ، ما حدَّثنا عنها الشيخ ناصر وارث طريقه عن والده الشيخ باهي قوله:

في أيام الصيف نعد السطوح وننظفه لاعتياد الشيخ الجلوس فيه منفرداً ، وهي خاصيةً من خواص سيدي احمد البدوي (السطوحي) ولا عجب في ذلك في قول شيخنا : أنا سعدي الطريقة أحمدي المشرب والعطاء.

ومن اشد ما يحزن الشيخ وتتألم له نفسه له ، تكون هناك خصومه بين الإخوان بعضهم البعض، ولهذا لم يكن الشيخ محباً أن تكون هناك علاقات مادية بين المريدين بعضهم بعضا ً ، كأن يقترض أحدٌ من أحد ، فربما ماطله فى السداد ، فيحقن على أخيه من أثر ذلك ، لأن الغرض من الطريق أن يهرب الناس من مطالب دنياهم ، لا أن يدخلوا الطريق بها .

ومن الأمور الشخصية التي اعتاد عليها:

أن يلبس الأبيض في المنزل

وكان لا يلبس ساعات أو خواتم وكانت معه فقط ساعة جيب

وليس له موعد محدود في النوم واليقظة

وكان يستريح بعد ذهاب الدراويش ويستيقظ في الفجر يتوضأ ويشرب الشاي ويجلس إستعداداً لمقابلة الإخوان ، فان منهم من يأتوا اليه مبكرين خصوصا الأخوات.

وكان خُلُقُه الصدق والتصديق ، الصدق في نفسه والتصديق لمن حوله.

وكان متواضعا في جميع شانه.

وكان إذا تحدث ، أخذ الحاضرون حديثه ، وأخذ بمجامع قلوبهم ، وسرى من كلامه تأثير شديد على نفوسهم.

وكان الشيخ قليل الكلام ، كثير الفعل في شجاعة وأدب.

وكان من كلامه لأولاده: ترديده مقوله :

إذا العناية أدركتك عيونها ..... نَمْ فالمخاوف كلهن أمأن

(ومن يدخل داري ، ويشرب كوباية ميَّه من تحت الزير اللي تحت السلم فهو محسوب عليّْ )

وكان يقول : لو ربنا كرمني وعديت على خير ، هتعدُّوا كلكم على خير أن شاء الله.

وكان يقول: (أقول لكم ... اطمئنوا.... لان الله يحب الخير ، وأوصانا رسول الله صلى وسلم بالأمانة ، إوعوا حد فيكم يخون الأمانة).

وما حدش يقول أنا أكره أخي أو لا أحب زوجه أخي كل ده كلام بعيد عنا.

طريقنا زي السيف الى يميل عنه ينتهي ، واللي عايش عليه يبقى سليم مع الله ورسوله وسيدي سعد الدين الجباوي.

اللي مش معاه فلوس يخليه جالس في بيته ، أو يزور اخوه في الله.

وكان من دعاء الشيخ إذا تعثر عليها امر يقول: ( **اللهم بحق الحسين وأخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه والقران وما فيه فرج عنا ما نحن فيه)**

وكان من أقواله رضي الله عنه وقد سمعها منه الشيخ صديق قوله:( من لم يتمكن من زيارتي لضيق ذات اليد فليذر أخاه فإذا زاره وجدني عنده)

وهذا بالإمكان أن نفهمه من وجهين أن الشيخ لا يترك ولده في أي لحظه من لحظات حياته ، ومن هذه اللحظات وقت زيارته لأخيه ، فانه سيكون ثالثهما (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة ألا هو سادسهم) .

أما الوجه الثاني أن مِثْل الحاج مسعد كان عبداً ربانيا يرى بالله ويسمع بالله وكان الحق جميع قواه ... فاذا ذكر المريد شيخه مع أخيه ، وهذا لابد و أن يكون، لأن جُلَّ كلامهم عن شيخهم ، فيتحقق فيه قول الحق : أنا جليس من ذكرني فهو يسمع أبناؤه حين يذكروه وهو يراهم خلف أحجبه الأماكن وهو معهم أينما كانوا .

وأما الأمر الثالث فهو التأكيد الدائم من عمى الحاج مسعد لأ هميه الأخ الصادق في طريق الله ، وجميعهم صادقين للدرجة التي قال فيها:

(أن سقوط المريد من السماء السابعة أهون عليه من السقوط من قلب أخيه)... وقد رأينا في سيره الإخوان ما يؤكد هذا الشعور لديهم.

ومن تلك الروايات التي تناولت الشيخ في ذاته ولم يكن لأحدٍ من أبنائه ارتباط بها ، ما قصُّه علينا الدكتور احمد موسى ، نقلا عن شيخه محمد أبو سلامه رضوان الله عليه ، أن الشيخ كان قد إعتزم ذات يوم زيارة سيدتنا السيدة نفيسة رضي الله عنها ، فلما بلغ المقام واتخذ مجلسه شرع في قراءه سوره ياسين كعادته ، وبينما هو منشغل بالقراءة ، إنتابه جوعٌ شديد ، فأخذ يطرد هذا الخاطر عنه كلما هم به ، فلا يلبث الخاطر إلا أن يعاوده ، فيقطعه هذا الخاطر عما هو مستغرق فيه ، وهاله ذلك فنظر الى قلبه مُقْسِماً عليه ، أهكذا يا قلبي...؟ أنت في حضره كتاب الله وفي مجلس السيدة نفيسة العلم ، ثم تنشغل بهذا الطعام ؟ و كان قد أضمر في نفسه وقت هبوب الخواطر عليه ، أن يخرج فيشترى بعضا من لحم النيفة الساخنة التي يحبها ، من احد المطاعم القريبة، فلما إشتد عليه هذا الخاطر ، و لم يستطيع أن يطرده ، أقسم أن يخلع نعليه، ويمضي حافيا الى مولانا سيدنا الحسين ، فيشتكى قلبه من قساوته وتعلقه بالدنيا ، فلما خرج من المسجد خلع حذاءه ، وسار حافياً ، حتى بلغ ميدان السيدة نفيسة ، واذا بسيارة بيضاء لؤلؤيه تتوقف أمامه ، وبينما هو يتفحصها، وجد كل ما هو داخل السيارة من فرش وتابلوه ودركسيون من نفس اللون ، كما أن السيدة التي تقود السيارة هي الأخرى متوشحه بثوب ابيض جميل، فأنزلت السيدة زجاج السيارة ، وتناولت من جوارها لفه ورقية ، وناولتها له وقالت له : خذ يا مسعد قال : ما هذا يا سيدتي؟ قالت الطب اللي طلبته جوة، فاذا به ما طلبته نفسه من النيفه ذات الرائحة الشهية ، ثم أردفت قائلة: خذ الطلب أهو .. وما متشتيكيش قلبك لسيدنا الحسين ، وأعلم أنك إن دخلت علينا بالأدب ، فأنت في منتهى قله الأدب .... فسال الراوي شيخه من عن معنى ما قالته ، فقال له : ينبغي لكل ولي مهما بلغ من الولاية أن يدرك مقامه من مقام أهل البيت ، دون تسامي أو تَرَفُع ،فكلنا ملتمسين من أهل البيت ، ولا ينبغي أن نكون في مقام الترفع في حضرتهم ، و معنى ذلك انك إن بالغتَ في درجات تشددك وحرصك وتكلفك وإجهاد نفسك في حضرتهم، فأنت بذلك تكون قد تكلَّفت في إظهار ملكتك في السيطرة على نفسك ، وكأنك تقول لهم : ها أنا ذا قدرت على نفسي ومَلَكْتَها ، وهو نوع من أنواع الزهد والفخار والترفع ، فما دمت في حضرتهم ، وقد جاءك الخاطر الذي جاهدته في هذه الحضرة ، فلتعلم أن هذا الخاطر منهم ، وأنه من قبيل البسط والرضا منهم عليك ، فلا تتسامى على هذا النوع من الخاطر ، وسِرْ مع طبعك فيه، ولاتتشدد ، فان المُنْبَتْ لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى ، ومهما بالغت في إظهار هذه السيطرة على مطالب النفس ، فهل هذا سيكون وافياً بالمقام الذي لأهل البيت ، وهذا النوع من المعاملة والتربية ، هو نوع دقيق ورقيق يصعب على أهل العقول أدراكه ، وعلى أهل القلوب الشعور به ، فقد دخل رجل على سيدنا علي بن أبي طالب يعوده من مرض ألمَّ به ، فرآه يتوجع من شده آلآمه ... فاستغرب هذا الرجل تَوَجُع الإمام على فقال له : اتتوجع من ألم قد أصابك الله به ، و أنت من أنت في مكانتك من رسول الله صلى وسلم ، فقال له أنا لا اشجع على الله ، أي ، لا أكون معه شجاعا.

وكان احد العارفين قد حدثته نفسه بأنه قد بلغ من شدَّة العبادة ، ومن فرط القرب من الله ، ما يتمكن به من تحمل أيُّ واردٍ يرد اليه من ربه ، فتوجه الى الله وقال مخاطبا إيَّاه : كيفما شئت فاختبرني ... وهذا من سوء أدبه مع الله ، وكانه يتيه على الله بقدرته على تجاوز اختباره معه ، فاختبره الله باحتباس في بوله ، وظل صابرا متشجعاً دون أن يشكوا ، إلى أن وصل الأمر الى مداه ، ولم يتحمل اكثر من ذلك ، فعرف حينئذ سوء أدبه معه ، وأراد أن يكفر عن نفسه سوء أدبه حتى يرفع عنه الله بلائه ، فخرج في الطرقات ينادي أولاده واتباعه قائلا لهم : (ادعوا لعمكم الكذاب ) فلما دعوا له فك الله أسر بوله وعلم من ذلك أن الأولى من طلب البلايا ، أن يسال الله العافية فيكون مصداقا لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم (ولكن عافيتك أوسع لي).

وأما الكلام عن **مقتنيات الشيخ** ، فإن مقتنيات الشيخ تضم :

مكتبه كبيره، ألا أن هذه المكتبة تبدو كأنها موقوفه على رضاء الشيخ علي من أراد قراءة مافيها أن يقرأها.

وفي هذا يتحدث الشيخ سيد أبو سلامه فقد أراد أن يقرا أحد الكتب ، فألحَّ على زوجته رضوان الله عليها (وهى إبنة الشيخ ) أن يقرا كتابا منها ، وبعد إلحاحٍ شديد وافق ، فأخذت كتاباً وذهبت به الى منزلي ، وإبتدأتُ في قراءته، فما أن نظرت اليه إلا وجدت حرقا شديدا في عينيّْ ، وتساقطت الدموع منها، فلم أتمكن من قراءته ، فاذا توقفت عن القراءة عادت عيني الى طبيعتها ، وزال حرقانها ، وفي النهاية لم أتمكن من قراءته وأعدته الى زوجه عمي.

ومن مقتنياته ، وسادته التي كان يجلس عليها على الدوام وبعد انتقاله غلَّفَها الشيخ باهي ، وحفظها في المنزل.

وقصَّت علينا السيدة توحه إبنه الشيخ ، أنه كان للشيخ دفترً بنيَّاً (أجندة بنيَّه) كان الشيخ قد سجل فيها الكثير من الكلام والملاحظات المخصوصة بالطريق، وكانت هذه الأجندة في المكتبة ، وكان الشيخ باهي يعرف مكانها ، ويطلع عليها بين الوقت والأخر ، وكان الشيخ ناصر قد وعدنا باستعراض مقتنيات الشيخ في الدولاب ، واستجلاء محتوى هذه الأجندة وهذه الأشياء ، فربما نجد فيها أمرً يختص بسيرته وسنته الشريفة ،

وكذلك من ضمن مقتنياته ما حصل عليه من عمه الشيخ إبراهيم الدكرورى وهي:

شعرتين من ذقن عمه.

عقبى سيجارة.

مكتبه عمة الشيخ إبراهيم. (ويقال إن هذه المكتبة كان قد اشتراها بما قيمته فدان ارض)

دولاب يحمل كتب كثيره.

سبحتان اخذ أحدهما عم الشيخ عزت الدهشان.

عباءه وكان قد أخذها الشيخ أبو سيدنا.

وعباءة أخرى أخذتها إحدى أخواتنا ( الحاجة وفية )

الخاتم الخاص بعمه إبراهيم.

وكان الشيخ بين الوقت والأخر ينظر الى هذه المقتنيات ويقلب فيها ويتأكد من أن أحدا لم يراها إذ كان يخاف عليها من مجرد النظر ، ويتأكد في ترتيبها ألا يطالها أحد بالبحث والنظر والتنقيب. ومن المقتنيات أيضا علبه سجائر صفيح.طاقيه الشيخ الدكرورى وعمته. نظارة الشيخ.

**مابعد إنتقال الشيخ** **مسعد**

لم يكن الإخوان على علم بما سيكون عليه الأمر بعد إنتقال شيخيهم الى ربه ، هل سينفرط عقدهم ، هل سيجدون من الشيخ الجديد الوافد (وان كانوا على علم سابق به ) ما كانوا يجدونه من شيخهم .. هل هو على نفس مقامه أم انه مجرَّد وارث له في القيام على مريديه ؟ هل سِرُّه هو ذات سِرِّ أبيه وهل مقامة هو ذات مقامه؟ وكيف سيكون شأننا معه إذا كان خلاف ذلك؟ ... واضطربت الأمور على عقول الإخوان رغم إطمئنان أرواحهم ، ولم يجدوا إجابة للأسئلة التى طرحوها فى أنفسهم ، بسبب أن الطريق مبناه على الستر والخفاء ، فلم يروا الشيخ الجديد يخرج إليهم ويقول ، أنا كذا وأنا كذا ، ومن ينتظر ذلك فهو واهم ، ولا يعرفون الأصول التى يكون عليها الطريق ، ولكن كانت هناك قاعدة غابت عن البعض ، وهى أن ذات الشيخ المنقول ، الواثقين فى ولايته ، هو ، ذاته الذى أناب عنه الشيخ الوافد ، ولم يكن غريبا عنهم ، بل كان واحدا منهم ، درويشا مثلهم ، حتى أنه كان ينادى أباه مثلما ينادونه فيقول ( ياعمِّى) وهو فى الواقع الظاهر أباه ،وسبق أن قادهم فى الليالى التى كان الشيخ يعتذر فيها عن الحضور ، خصوصا فى العام الذى سبق إنتقال الشيخ ، وكان الكثيرون منهم يعرفون أنه هو القادم إليهم ، للدرجة التى قال فيها الشيخ عبده أبو فهمى ، وهو من أكابر الإخوان ، يقول للشيخ مسعد صراحةً ( أنا عمى الشيخ باهى وانت مش عمى ) وقد كان يقولها على وجه الدلال عليهم ، ولكنه قد قالها !! ، وربما أجراها الله على لسانه تمهيدا لهذا اليوم الذى نتكلم عن أحداثه فيه ، وكانت كل الشواهد تدل على مايطمئن الإخوان إليه ، ويطمئن بالهم له ،

والأمر فى إنتقال الولاية ، ليس بالأمر الظاهر لنا فى العيان ، بل هو أمرٌ يخص أرباب الطريقة على عمومهم ، من صاحب الطريقة ( وهو هنا سيدى سعد الدين ) إلى من تولى بعده ، ومن قبل ذلك إلى من سلك منهم ، إنتهاءا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإتصال ذلك بما يراه أهل البيت فى هذا الشأن ، وما يقررونه فى دوواينهم ، وكذلك الأولياء على عمومهم وأنواعهم ومراتبهم من الأقطاب والنوَّاب والأوتاد والنجباء وخلافهم ، والأمر أيضا يتوقف على تاريخ الوارث الوافد وسيرته مع من سلفه ، وأيضا يتوقف على سيرة الولى المنقول ، وقد رأينا فى سيرة سيدى إبراهيم الدكرورى ، كيف أن وراثة الطريق قد تجاوزت بنيه وبيته ، بسبب بعض التجاوزات الحادثة منه أثناء ولايته ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك من قبل ، وخلاصة ما ذكرناه أن الأمر فى وراثة الطريق ليس بالأمر الهيِّن الظاهر ، وإنما هى أمور تجرى فى الخفاء بحسب ضوابط يعرفونها ، لا مكان للعشوائية فيها ، وأن ولاتنا وإن كانوا ناظرين إلينا ، فهم منظورون من أوليائهم ، مُحاسبون على أفعالهم ، بل على خواطرهم ، لقد ذكرنا ماذكرنا من فيض قلوبنا ، لا من خزائن أفكارنا ، وندعو الله أن نكون أهلا للصحبة الطيبة لهم ، وأهلا لحسن العطاء منهم .

ورغم ماذكرناه فإن من الإخوان من ظل أيمانه على حدته في القوة والثبات ، ومنهم من وقف في الحكم ولم يحكم بالنفي ولا الإثبات ووقف على الأعراف بين السبيلين وترك الأمر للتجربة والزمن ، فالتجربة والزمن هي الحاكمة في هذا الأمر ... ومنهم من زلَّ في الطريق وجعل إنتقال الشيخ علامة على انتقال حاله من سلكه في طريق القوم الى الانفراط عنهم ، ومنهم قد زاغت عيناه الى أشياخ غيرة وأعدَّ العُدَّة للتحول نحوهم.

ومنهم من ترك نفسه للتيار لا يعرف الى أي طريق سيسلك ، ومنهم من عادى الشيخ وكان فى نفسه طامعا فى الولاية ، راغبا فيها ، حاسداً شيخه عليها ، ونسى أن من طُلِبَ لها يُعان عليها ، وان من طلبها فهى فى شأنه خزىٌ وندامة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لأبى ذر حين طلبها ، ومنم من ظن باطن الأمر كظاهره ، ومنهم من نصب العداء وجاهر بالشقاق وسوء الأخلاق وأظهر النفاق وتجاوز بالإدعاء فحكم على نفسه بالفراق ، وكل ماذكرناه هو ظاهر الأمر .

... أما الأمر على حقيقته فهو أن الشيخ حين قبل مريده في بادئ الأمر أن يكون مريدا له ... كان يعلم أن تقاطر الأشياخ على المريد الواحد في الطريق الواحد لن يضره شيء ، فإن جراح الفراق سريعا ما تندمل ، وأن السر لا يزال قائما ، وأن الوافد هو عين الموفود واللاحق هو عين السابق الملحوق ، فالجوهر واحد وان تعددت الأردية ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وصاب الشيخ صديق ما أصاب القوم ، فقال في نفسه : ( ها هو الشيخ قد إنتقل الى جوار ربه ، فمالنا والذهاب الى الأخصاص بعد انتقاله )، وأردف قائلاً : ( وبعد الأربعين رأيت عمي الحاج مسعد فى الرؤيا قائلاً : شوف يا صديق.... قلت له: نعم يا عمي ... البيت في الأخصاص.. ده يا صديق بتاعكوا ... وبتاع عيالكم الى يوم القيامة ، أنا قلتلوا ... طب يا عمى ، الشيخ باهي هيعمل أيه بعدك ، فنظرت فكأنما مؤتمرً جامعاً لأهل البيت على تمامهم ، وبينهم عم الحاج مسعد ، وعمي الشيخ باهى ، وكأنما الحاج مسعد مرتدياً تاجاً ... ثم ما لبث الحاج مسعد أن خلع التاج وألبسه الشيخ باهي ، ثم توجه الحاج مسعد الى عمي صديق ، وقال له :... (كده أمنت بالله ، آدى أهل البيت ، وآدي عمك الشيخ باهي ... البلد بلدكم والبيت بتعاكم ... لو حد جار عليكم... متخافوش )

..... ليكم عم صاحي( يقصد الشيخ باهى) يعرف يَخَلَصْ كل واحد فيكم ....

ولم يكن إنتقال الشيخ وغيابه عنهم بالأمر الهيِّن على الإخوان ، فلا يكادون يجتمون ألا وتكون سيرته الغالبة عليهم ، فمنهم من لم يفارقه، ومنهم من لم يزل يراه رؤية عين ، ومنهم من يراه في رؤياه ومنهم من لم ينقطع بأفكاره عنه.

والجميع يلتقون في مجمعهم على الحب والمودة والإخاء ، تنتعش أرواحهم بما اكتسبوه من محبه شيخهم ومحبتهم له ، فهمتهم عالية وأرواحهم فى السماء ، تسبح في الأنوار ، يتحادث بعضهم بعضا فيما يتعرضون له من تجليات ، وفيما تبدوا منهم من أحوال ، كلُ ذلك وهم تحت نظر الشيخ ورعايته وعينه ومدده ، يتعلمون منه ويعلمهم ، يتحدثون اليه ويحادثهم ، ينظرون اليه ويلتمسون المدد منه ، يُبَاسِطُهُم ويمازحهم، وكأنما حازوا الدنيا وما فيها.

إجتمع نفرٌ منهم في أول مولد من موالد سيدي أحمد البدوي بعد إنتقال الشيخ ، وجلسوا كعادتهم يتكلمون عنه ، فيتذكرون أقواله وأفعاله وكراماته ومحبته ورعايته ، إجتمعوا وقد أطبق الحزنُ عليهم من أثر فراقه ، وأخذ أحدهم الحال ، وهو سيد عبد العزيز ، إنتفض من أثره قائلا ومرددا : (إن الشيخ لم يره أحد ولم يعرفه أحد)، أخذه هذا الحال ، وظل يردده في نفسه إذ وجد نفسه قائلٌ به ، فتغير عليه بعض أصحابه من أثر كلامه، إذ أوَّلوه على غير قصده ، واخذوا الكلام على ظاهره ، ووقع كلامُه عليهم علي جَرْح فقده ، وكيف لا يعرفونه ولايرونه ؟ وهم الذين عاشوا معه وعاش فيهم ، حتى بعد إنتقاله عنهم ، لا تزال صورته قائمه بين أبديهم ، فمنهم من لم يفارق خاطره ، ومنهم من لم يفارق حتى نظر عينيه في ظاهره ، ثم إنتاب أحدَهم السكوتُ والصمتُ لبُرهه (وهو الشيخ عبده أبو فهمي ) ثم أفاق من صمته قائلا للشيخ سيد ، (هتوديني في داهية لولا لحقنى الشيخ رضوان الله عليه) وقال له: (ما الذي أغضبك من كلامه ،إن ما قاله حق ، فلم أجد أحداً رآنى ، ولا عرف حقيقتى).

وهنا بالإمكان أن نفسر هذا الكلام على محملين: المحمل الأول ، إذا نظرنا الى مقام المريد ونقصه عن مقام شيخه ، فان المعرفة والرؤية تعني الإحاطة ... ولايتأى للأدنى أن يحيط علماً بالأعلى ، ولا يتمكن الناقص من إدراك الكامل ، والحق هو أن الكامل الأعلى ، وهو الذي يعرف الناقص الأدنى ، وليس العكس ، ولو أحاط المريدُ بشيخه ما إحتاجه ، فإنما يحتاجه حتى يتمم به ما نقص عنده من كماله.

وإذا نظرنا في المحمل الثاني الى مقام الشيخ مقارنه بمقام المريد ، وجدنا انه ربما يكون الشيخ في مقام القطب الغوث الفرد ، وهو أعلى مقامات الأولياء ، وهو مقامٌ مستورٌ حتى عن كبار الأولياء وعن نوابه ، فان نائب الأمام يعرف أن الأمام غيره ، وأنه نائبا عنه ، ولا يعرف مَن هو ؟ ولا ما هي حقيقتة ؟هكذا علمنا من الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي.

وفي كلا الحالين لا يتمكن لنا أن نرى الشيخ أو نعرف مقامه أو نعلم حقيقته باي حال من الأحوال ولكن عرفنا من القصة التي ذكرناها أن الشيخ مع أولاده في خاطراتهم وأحوالهم ، لا يفصل عنهم فاصل وهو في رعايته لهم لا يترك شاردة ولا واردة ، وهو في نجواهم ثالثهم إذا كانوا اثنين ، ورابعهم إذا كانوا ثلاثة وخامسهم إذا كانوا أربعة ، وهو معهم إذ إزداد عددهم أو كثُر ، والمريد في تبادله الحديث مع أخيه يزداد علماً ، ويزداد قربًاً ويزداد مدداً ، فيصبح أهلاً لتلقي الأنوار الربانية ، والنفحات القدسية والعلوم الاصطفائية.

ومن مظاهر عدم معرفتنا بالشيخ ما حكاه الشيخ محمد سلامه ونقله الينا الدكتور احمد موسى ، إذ سأل شيخه بعد عودته من رحلة الحج عن أحوال الرحلة ، فقال له الشيخ يا ابني يوم أن حجيت كان الحجاج في هذه السنة ستة فقط ، هم من رأيتهم يطوفون حول البيت المعمور ....... ولنا في هذا الحديث اتجاهين في النظر ، وكلا النظرتين تقومان على معنى البيت المعمور ، لأن الشيخ لم يقل البيت الحرام وإنما قال البيت المعمور ، والبيت المعمور هو البيت الذي أقامه الحق على سطح السماء السابعة وجعله فوق البيت الحرام للناظر من فوقه وهو البيت الذى يطوف حوله الملائكة وهو ما يطلق عليه (الضراح) وهو على سمت الكعبة وعلى موقعها من السماء الى الأرض و لو سقطت منه حصا لوقعت على الكعبة ، والبيت المعمور له بابان يدخل من أحداهما في كل يوم سبعون ألف ملك ثم يخرجون من الباب الذي يقابله ولا يعودون اليه ابدأ ، وهؤلاء الملائكة يخلقهم الله في كل يوم من نهر الحياة من تلك القطرات التي تقطر من جناحىّْ جبريل عليه السلام حين يغمس نفسه في هذا النهر ، فيخرج من قطرات ماء غمسه هذه الملائكة ومن هذه الملائكة تكون خواطر بني آدم.

فربما قصد الشيخ أن طوافه كان حول هذا البيت الذي ذكرناه فإنه موطن طواف الملائكة والمقربين من ربهم.

أما قوله إن الطائفين حول البيت المعمور ستة فقط فربما أرجعنا ذلك الى كونه القطب الفرد الغوث فاذا أضفنا اليه نائبيه والأولياء الأربعة فيكون العدد ستة خلافه ، ولسنا على يقين مما أشرنا إليه ، إذ لا يتعدَّى الأمرُ ترجيحاً للنظر وتفسيراً للقول فهو على محمل الظن ، ولا يعرف الحقيقة ألا الله ، لان جُلَّ كلامهم جاء على سبيل الإشارة ، وجُلَّ علومهم كانت على سبيل الكشف الذوقي ، ولا نملك إلا أن ندعو الله أن يمن علينا بحسن الخاطر ، حتى نشيرُ به إلى جاده الصواب ، والعلم بالأمر على ما هو عليه.

فانظر يا أخي الكريم الى مقام هؤلاء ، أين كانوا بأرواحهم فى حَجِّهم ، وان كان ملايين الحجاج في توقيت حجهم كانوا بأجسامهم هناك ، نفعنا الله بهم في الدارين.

وهناك رواية أخرى نرويها عن الدكتور أحمد موسى نقلا عن شيخه محمد أبو سلامه توضح لنا بالكاد أسرار مقام الشيخ مسعد ، وعدم إحاطة مَن دونه بهذا المقام ، يقول الدكتور أحمد موسى : حدث أنني كنت أقرا في كتاب يتناول سيرة أهل الله ، فوقع نظري على حديث بين سيدي أبي العباس المرسى و سيدي أبو الحسن الشاذلي ، ولم يتذكر الراوي على اليقين إن كانا هما المقصودان في الرواية أم غيرهما ، و في هذه المحادثة قال احدهما للأخر : (أتعرف يا فلان ، أنا أعرفك منذ نيف وعشرين سنة)، يعني قبل أن يكون هناك لقاء بينهم لسنوات طويله ، ثم غلبني النعاس (والكلام للدكتور احمد موسى) وقبل أن أنام جال في خاطري سؤال : هل كان الشيخ محمد أبو سلامه يعرفني قبل لقائي به ؟ ... وما أن غفوت حتى رأيت الشيخ أبو سلامه جالسا الى جواري ، ويقول لي : أنا أعرفك منذ اثني عشر سنة تقريبا ، ثم لم تلبث أن غابت صورته ورأيت مكانها صوره عم الحاج مسعد ، فرايته يقول لي : وانا أعرفك منذ ثلاثين عاما …. ثم غابت الصور ، وفتحت عيني وانا أقول لا إله ألا الله ، لقد أجاب الشيخان سؤالي بمجرد أن جال في خاطري … وكنت في هذه الأيام شديد الانبهار بالشيخ محمد أبو سلامه ، فلما قصصت عليه رؤياي ضحك ، وقال لي: يا احمد إن ما أخذته من الشيخ مسعد ، مثله كمثل المخيط إذ أخذ من البحر حين يغمس فيه ...بالله …. كل هذا العلم والعطاء والتصريف كأنه نقطه في بحر علم الشيخ...؟ ... ثم تساءلت عن قدر الشيخ ومقامه؟ فقال له الشيخ محمد : أن الشيخ كان قطب عصره وقد نال درجة القطب الغوث الفرد الجامع وهي لا تتكرر الأ كل 400 عام ويظل القطب خلال هذه السنوات قائما على هذا المقام من القطبانية الفردية الجامعة…. ومعنى ذلك أن أننا مازلنا في عصره وأنه سيظل قطب العصر والى السبع أجيال القادمة ، مر منها جيلين فقط وقد كان لدي الشيخ من العلوم والمعارف مالا يُعَدُّ ولا يُحصى ، وأشياء قد لا تخطر لنا على بال ، ولو قيلت لما صدقها عقل ، وكان الشيخ رضي الله عنه قد وضع قاعدة لسريان السر في أولاده، هذه القاعدة هي قانونها ، وقد كان الشيخ يعطى ، ولا يزال يعطي هذه الأسرار على أقدارهم ، حتى لا يَغْلِبْ عليهم الجذب أو الشطح ، وبهذا نكون قد علمنا أن حقيقة الشيخ يصعب على العقل إدراكها ، ولهذا قال من قال لا أحد يعرف حقيقة الشيخ.

وأما تعليمه هو في نفسه ، أي ما يتلقاه من العلوم ، فقد كان على يد العديد من كبار القوم وأهل البيت ، كلٌ في مجاله ومداه ، ومن المُسْتَغْرب أن نعرف ، أن تحصيله للعلوم لم يقتصر على ما تلقاه من العلوم في خلوته، بل تعداه الى ما بعدها ، ولم يقتصر على ما إستفاده من شيخه سيدي إبراهيم الدكروري ، ولم يقتصر أيضا على ما نقلناه من سيدي سعد الدين الجباوي ، ولقد استمر تلقيه للعلوم حتى بعد انتقاله لسنوات عديدة ، لأن هناك من علوم السادات ما يتم بعد الانتقال ، حتى يحصل التحرر المطلق للروح من علائق الجسد ، و تصبح بلا شبح يثقلها ، أو مكان أو زمان يحددها ، فاذا أردنا أن نستنتج مما سبق بعض الحقائق التي لا ينبغي أن تغيب عنا فهي ، أننا مازلنا في عصر عم الحاج مسعد ، وان الوارثين له أنما هم نوابه علينا منه ، يأتي على يديهم مدده ونظره ، وسريان سره وحفظه ورعايته وعنايته بأبنائه ، وتأتى على يديهم خواطره التي وضعها في أبنائه ، فهو الفاعل من خلالهم ، وهو الناظر ببصرهم ، وهو السامع بسمعهم ، وهو المتعامل معنا بما يعاملونا به ، فلا تظن في نفسك أن هذا خلاف هذا ، ولا هذا خلاف ذلك ، فاذا حدث في خاطرك مثل هذا، فاعلم أن هذا ليس هو الحق الذي عليه الأمر ، فلتراجع نفسك ولترجع الى حيطتك ، ولا يذهبن بعينيك اختلاف الأردية عن ذات الجوهر الواحد ، ولا ينبغي عليك إلا أن تحمد الله الكريم ، أن جعلتك العناية في طريقهم، فيقع عليك نظرهم ، و يصل اليك منهم نظرهم ، وتكون محل لمددهم ولا ينبغي أن يغيب عنك ما ذكرناه ، فقد جاءك منا شاهد على ذلك ، ووصلك الأمر ، فلا تقل لم يصل، وعلمت حقيقة الأمر فلا تقل لم تعلم.

وفي مناسبه الكلام عن مقادير ومقامات وعلوم أهل الله يتحدث الدكتور عمرو أبو السعود عن حكاية له مع الشيخ محمد أبو سلامه ، وهو كما قال عن نفسه نقطه من بحور علوم عم الحاج مسعد ، يقول الدكتور عمرو أبو السعود بتصريف لكلامه معنا: إنه حدث أن كان في الكلية مع زملائه الطلاب في انتظار لمحاضرة يلقيها عليهم رئيس القسم تخص علوم وظائف القلب ، وكان موضوع المحاضرة : نشأة ما يسمى بضربات القلب المتلاحقة ، وما السبب فيها وهو موضوع يتناول الكهرباء الداخلية للقلب وكيفية تأثيرها على عمل القلب ، وكان الطلاب في أشد الشوق لمعرفة هذا النوع من العلم ، وجاء رئيس القسم وبدا يشرح الموضوع ، ولكنه للأسف تعالى عليهم بعلمه ، ولم يتحدث إليهم بالطريقة التي يفهمونها بها ، وتناول شرحها بمصطلحات معقدة ، لم يكونوا قد تعودوا عليها ، فأصاب الجميع من شرحه إحباط و اكتئاب و خيبة أمل في ما كانوا يرجونه من هذه المحاضرة ، وعاد الدكتور عمرو الى البيت محبطاً ، وكان الشيخ محمد أبو سلامه في زيارة للدكتور أحمد موسى الذي كان يرافقه في السكن ، ولما دخل دكتور عمرو لاحظه الشيخ محمد وسائله ماذا بك ...؟ فشرح له الأمر على ما قد علِمْنَا ، فما كان من الشيخ محمد إلا أن طلب منه أن يحضر ورقة وقلم ، فاستغرب عمرو من هذا الطلب لكنه أحضرها، ثم قال الشيخ للدكتور عمرو : أنت تعلم أنني أفهم في الكهرباء ، والكهرباء مثل كهرباء القلب ، فهناك محطه رئيسيه في القلب تبعث بطاقتها الى محطتين فرعيتين ، وكل محطه ترسل طاقتها الى كامل عضله القلب، فينقبض القلب ، فتنشأ الضربات ، و من الضربات تنشا حركه القلب المعروفة ، ورسم الشيخ محمد للدكتور عمر ما قاله على الورق ، فأخذت الدهشة الدكتور عمرو من كيفيه علم الشيخ بذلك ، وهو الغريب في الظاهر من علوم الطب ، ثم قال له ، ولكنى أزيدك علم لا يعلمه رئيس القسم ، وهو أن الروح الإلهي ، هي التي تمد من هذه المحطة الرئيسية بالطاقة ، و منها الى باقي المحطات ، فاذا إنقطع مدد الروح عن هذه المحطة الرئيسية ، توقف القلب ومات الأنسان ، وهذا الشرح بالرغم من بساطته الشديد ، إلا أنه قد دخل في قلب وعقل الدكتور عمرو ، وكان به سِرٌ فَهِمَ به كامل المحاضرة ، التي لم يكن قد فهمها من قبل ، وهنا أدرك سر هذا الشيخ ، الذي جاءت كلماته على شكٍ سابق في قلب الدكتور عمرو عن حقيقة أهل التصوف ، ونظرته لهم ، وظنه فيهم عدم الالتزام نحو الشرع الظاهر في علوم الفقه ، إذ كان أزهريا محضاً ، وكان كلام الشيخ معه في هذه المناسبة هو الباب الذي دلف منه الدكتور عمرو الى صحبه الشيخ.

ونحن نقول إذا كان الشيخ محمد بهذه الشاكلة وهو أحد أبناء الشيخ مسعد فكيف بالشيخ الذي يماثل علمه بحر إذا قورن بعلم الشيخ محمد الذي هو نقطه في هذا البحر ، ولسنا نقول ذلك من باب التعصب لهؤلاء الأشياخ ، ولكننا نقول لِما علمناه منهم بالقدر الذي سمحوا لنا به بعلمه، فهؤلاء هم العُبَّاد الربانيين النورانيين ، الذين كان الحق سمعهم وبصرهم وجميع قواهم.

وانتقال الشيخ وان كان مؤلما إلا أنه كان بردا وسلاما على قلوب الإخوان ، فقد كانوا في خَدَرٍ من أثره لا من باب عدم تأثرهم بالحدث ، وبمثل هذا الوقع كان حالنا وقت إنتقال الشيخ باهى رضى الله عنه وأرضاه .

وكنا قد ذكرنا أن أختنا زينب القصيرة رحمها الله نظرت الى عمها قبل انتقاله وقالت له يا عمي هل سياتي اليوم الذي تموت فيه فقال لها يا بنتي كلنا هنموت فقالت له ، عندما مات النبي ماذا فعل الصحابة؟ فقال لها يا زينب لقد ذقت من قبل نار فقد العم وكان هذا الفقد مؤلما علىّْ ، فلذلك طلبت من ربي أن تجعل نار فقدى بردا على أولادي فلا يتضرروا منه ، وتحقق ذلك بالفعل فكان الإخوان بعد انتقاله في خدر من مشاعرهم ولم يدروا ماذا حدث ، ولا كيف انتقل شيخهم ، ومن اثر خدرهم هذا لم يشعروا بان الوقت رمضان ، إذ انتقل الشيخ في أول ليله منه ، فغفلوا عن صيامه واستمروا على هذا الحال الى أن جاء اليهم الشيخ باهي في صباحيه اليوم التالي فقال لهم : نقرا الفاتحة أن بكره تصبحوا صائمين ما ينفعش مشايخ ونفطر ، فمنهم من عاد الى رشده ، ومنهم وافق الشيخ في طلبه، ومنهم من ظل على غيبته وزوال ملكته على نفسه ، فاقسم ألا يصوم طوال الشهر ، كالشيخ محمد أبو سلامه ، والشيخ عبد العاطي حتى أن الشيخ محمد سلامه افطر على ماء غسل شيخه ، وكذلك فعل بعض الدراويش.

ولا تسالنا أيها القارئ عن مشروعيه عدم صيامهم أو مشروعيه شرب ماء الغسل ، ونحن لا نجيبك لأننا لا نعرف ، نحن وأنت ، شيئا عن حال أرواحهم وقت الحدث ، فلا بد وأن تكون عقولهم قد غابت من عقدها ووثاقها ، فكان هذا ضربا من ضروب العرض المفاجئ ، الذي أصابهم ، فابطل ملكات الحس فيهم ، فكانوا تحت غطاء قول الحق : (ليس على المريض حرج) ولم نكن نحن معهم وقت الحدث ولم تكن أنت معهم ، فليس لنا ولكم حكم في هذا ، فالشيخ في عرف المريد هو الولي الظاهر في أمره ، عن الحق الباطن فيه ، فلما إنتقل زال هذا الدليل الظاهر لهم ، ومن اثر الخطب غاب عنهم الولي الباطن الذي هو الحق ، فكانوا في هذا الشأن كمن غاب عقله وذهب جنانه وذهل عن منطقه ، فلما هدأت الخطوب وعادت الأحوال عاد معه عقله وادرك بباطنه رعاية ربه ، فلا أذاقنا الله مكروها في عزيز لدينا.

والحقيقة أنه لم تنقطع صلة الشيخ بأبنائه بعد إنتقاله فناهيك عن تلك الرؤى التي يراها مريدوه في منامهم ، وتلك المشاهد التي يرونها له حال يقظتهم ، وهي رؤية عينيه لا يشوبها شك فيها عندهم ، وناهيك عن تلك الخواطر ، التي تخطر عليهم ، من أثر مروره بها عليهم ، وناهيك عن كل ذلك ، ما روته السيدة توحه إبنته عن أحد أبناء الشيخ ، وهو سليم العربي وقد كان يسكن بجانب القرافة ، بالجبل الذى كان مدفونا به الشيخ ، قبل إنتقاله الى مقامه الحالي في بلدته ، فكان يقول : كنت أمرُّ على عمي واُلقِى عليه السلام ، وعمى يرد عليه السلام ، واجلس وأتكلم معه.

ولما سمعه الشيخ عبد ربه ، وقد كان صاحبُ دلالٍ على الشيخ ، قال في نفسه: ( أشمعنا أنا ) وكأنه يقول: لم لا يُسَلِمْ علىَّ أنا الأخر ، و أنا اُلْقِى عليه السلام ، أو ربما دخله الشك في صدق الراوي سليم العربي ، وأراد أن يتأكد من صدق قوله ، فذهب مع الشيخ سليم العربي ، ثم تركه وذهب وحده وجلس بجوار القبر ، فما إن جلس حتى وجد يدً تَرْبُتُ على كتفه ويقول له : (أنت جاي تستشهد بعمَّك وتعرَّفْ عمك ، إن كان كلام سليم حق ولا لأ.... قوم رَوَّح يا عبد ربه!) وكأنه يستبعد هذه الكرامة على شيخه فأراد أن يتأكد منها ، أو أنه أراد أن يذوق مثلما ذاق سليم العربى سلام شيخه عليه .

وذكرتني هذه الرواية برواية يرويها الرفاعية عن شيخهم احمد الرفاعي، يقولون فيها عن شيخهم ، أن الله ناداه : قم يا أحمد وزُرْ بيتَ الله الحرام ، وذُرْ النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال الرفاعي سمعا وطاعة. فسافر معه جَمٌ غفير الى مكة ثم المدينة ، ووقف عند قبر النبي وقال : السلام عليك يا جدي فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام يا ولدى فتواجد الرفاعي وقال

في حالة البعد روحي كنت أرسلها

تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دوله الأشباح قد حضرت

فأمدد بيمينك كي تحظى بها شفتي

فانشق تابوت ، ومد النبي صلى الله علية وسلم يده الى الرفاعي يقبلها أمام جمع كبير من الناس يزيدون عن تسعين ألف ومن بينهم سيدي عبد القادر الجيلاني.

وتذكرني هذه الرواية بقصه الأعرابي الذي جاء الى باب مسجد رسول الله صلى الله وسلم ، وأناخ راحلته ثم دخل المسجد حتى أتى القبر وحاذى وجه رسول الله صلى وسلم ثم فقال : ..... السلام عليك يا رسول الله ثم سلم على أبي بكر وعمر ، ثم أقبل على رسول الله فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، جئتك مثقلا بالذنوب والخطايا متشفعا بك على ربك، لأنه قال في محكم كتابه (ولو انهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) ثم انشد يقول:

ياخير من دفنت في الأرض أعظمه

فطاب من طيبهن القاعُ والاكمُ

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه

فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف ، يقول الراوي : ..... فرقدتُ فرأيت النبي صلى الله وسلم في نومي وهو يقول : (إلحق الرجل فإن الله قد غفر له بشفاعتي) فخرجت أطلبه فلم أجده .

ولسنا هنا بصدد تمحيص هذه المقالات ، فإنا قد أوردنا جميع ما في هذا الكتاب من روايات ، على عُهْدة صاحبها الذي رواها ، والأمر موقوف على صدقه فيها ، والأمر لدينا أيمانا بصدقه فيها ، لأن لنا ذوقاً مثل ذوقه ، وكان لنا على صدقها شاهد في النفس ، وكما ذكرنا أن هذا الكتاب لم يكن ابدأ للناقدين أو المناهضين أو الخارجين عن الطريق ، وإنما هو لمن ذاق ذوقهم ، وشهد شهودهم ، وعرف صدقهم ، والأجدر بك أيها القارئ إن كنت من غيرهم ، أن تقف على أعرافهم ، فلا تكذبهم أن كنت لا تصدقهم، ولا تصدقهم أن كنت لا تكذبهم ، عسى الله أن يأتي إليك شاهدٌ من الله فتشهد معنا بصدق هذه الأقوال ، اللهم أمين يا رب العالمين.

وقريب من هذا الذي ذكرناه ما حدثتنا به السيدة أم حسين إبنه اختنا أم محسب حين قالت: كنت في مولد الشيخ مسعد وكنت مع أمي فاذا بصداع شديد يكاد يشق راسي فطلبت من أمي أن اذهب الى المقام فذهبت الى المقصورة وأسندت راسي على المقام فما شعرت ألا ويد الشيخ تخرج من المقام وتضع مصحفا على راسي وخرجت من المقام وذهب عني ما كنت اشكى منه وكان شيئا لم يصبني.

وعندما دخلت الخدمة وجدت عم محمود القط رحمه الله وكان من المقربين للشيخ وقد ذكرنا طرف عنه في رواياتنا السابقة فقال لي حطلك المصحف على دماغك يا ستي فنظرت اليه أم محسب وقالت: استر وكأنها تقول له: لا تبيح ما كشف لك.

وكأنما القوم والأملاك في يدهم

هم الملوك بلا عين تشاهدهم

إلا عيون محب ذاب في حب

والحب يرفع في الأقوام صاحبهم

فلذ به أن أردت وصالا أنت طالبه

ما ضل قوم إذا ما الحب رائدهم

ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما رواه لنا الشيخ إسماعيل من اطفيح ( وهى إحدى قرى الصف ) وقد سمعت هذا منه شخصيا يقول الشيخ إسماعيل: انه قبل انتقال الشيخ مسعد طلب منه طلبا خاصاً وهو أن يرد عليه السلام إذا ألقاه عليه في قبره ، ولا ادري أن كان قد أجاب بالنفي أو الإيجاب ، ولكن الذي حدث بالفعل ، أني سلمت على الشيخ في قبره ( والكلام لإسماعيل ) ، فما لبثت أن سمعت رد السلام من كل جزء من اجزء الكون ، فكأنما الأرض تسلم عليّْ والشجر والبيوت والسماء والماء ، وكل ما أبصرته عيناي ، ولكن كان رد السلام بصوت جهوري عالي لم تتحمله أذني ، وأثر على ذلك كثيراً ، وظل معي فتره من الوقت الي أن رفعه الله عني ، غفر الله لإخواننا فقد كانوا رياحين قلوبنا.

ومن تلك اللمحات التي هي مظهر من مظاهر رعاية الشيخ لأبنائه بعد إنتقاله ما روته الست أم حسين عما حدث في إحدى ليالي مولد الشيخ الذي يعتاد الإخوان الاحتفال به بعد انتقاله ، فقد إعتاد الشيخ سيد عبد العزيز أن يصنع مهلبيه ، وهي نوع من الحلوى لرواد المولد ، ويوزعها عليهم، وفي إحدى هذه المرات رآه الناس يبحث في المولد عن نهله بنت أم محسب وينادي عليها ، فلما قابلها قال لها : وحياه حضره النبي .... وحياه سيدنا النبي ... الشيخ جالي وقال لي دوَّر على نهله فين وإديها طبق مما تصنعه ، ونحن إذ نقص عليك أيها القارئ هذه الرواية ما نقصها ألا لإظهار أمرين :

الأمر الأول: تلك الرعاية التي إستمرت من الشيخ لأولاده بعد إنتقاله للدرجة التي يكافئ بها محبيه بما يحبونه ، فكأنه بينهم يطَّلع على أحوالهم ، وينظر الى أعمالهم ، ويكافئهم على صنيعهم ، ويعاقبهم على تجاوزهم ، وكأنهم مازالوا فى عهده وتحت رعايته ، وربما أراد على وجه الخصوص ، أن يُطْلِع الإخوان بعضُهم بعضاً على مكانتهم فيما بينهم ، فيزيل عنهم سوء التقدير فيما يعتقدونه فيما بينهم عن بعضهم لبعض ، وهو نوع من تأليف القلوب بين الإخوان ، وربما أراد أن يعرفهم أنه مازال بينهم ، فربما سوَّلت نفس أحدهم غيابه عنهم ، ومضاء عصره ، وإنقضاء زمنه .

والأمر الثاني: هو نقاء ولده ( وهو هنا سيد عبد العزيز ) الذي كان محل لمحادثه شيخه وأمره له بما أراده منه بعد انتقاله ، وكأنما الرعاية لم تنقطع ، وكأنما الشيخ لم ينتقل ، وكأنما حياة متصلة لا تنقطع ولا تتبدد ، ولما ذاقت نهله ما ذاقته من هذا الطبق الذي أعطاها لها سيد عبد العزيز رأت فيه طعم لا يمكن وصفه ، ولا يمكن التعبير عن حلاوته، وكانه قادم راساً من الجنة ، ولم تجد له بعد ذلك ما يعادله في الذوق، فقال لها سيد عبد العزيز بعد أن ذاقته : (ده من عمك الحاج مسعد يبقى هتلاقى زيُّه فين ؟ ) وظلَّا يتذكران هذه الحادثة في كل مرة يلتقيان فيها ويقول لها : (فاكرة طبق المهلبية ) وكانت أم حسين بعد انقضاء المولد ومن فرط إرتباطها وفرحتها به ، وبعد عودتها الى المنزل ، إذا فتحت حنفيه الماء تجد الماء ينطق قائلا : لا اله ألا الله لا اله ألا الله ، فإذا حدَّثَت والدتها في هذا الذي سمعته ، كانت تقول لها (لا تتكلمي في هذا مع أحد ولا تنطقي به).

وكانت تنظر الى هذا الذي يحدث لها وكأنه مكافأة لها من الشيخ علي ما بذلته من جهد طوال أيام المولد ، إذ كانت في بعض الأحيان تقضي اكثر من 20 ساعه متصلة في صنع الشاي للإخوان ، دون فاصل في الوقت ، فاذا إشتد بها الجهد ، وضعفت مقاومتها نامت في ذات المكان الذي تعد فيه الشاي ، ولا نجد تعليقا على هذه الوقائع ألا أن نقول : أن الله لا يضيع اجر من أحسن عملاً ، ورضاء الله على المريد يتجلى في رضاء شيخه عليه ، فان الشيخ هو الآمر بالله فيه، فالطائعُ للشيخ ، هو الطائع في الحقيقة لله ، والفاني في حب الشيخ هو الفاني على الحقيقة في الله ، فما كان الشيخ إلا دليلا الى الله للمريد والدليل الى الله هو عين المدلول عليه ، وما ثمَّ على الحقيقة إلا الله .

وكذلك لم يترك الشيخ بعد إنتقاله من هم محسوبون عليه ، بسبب ماوهبه الله من ذلك ، وبما مكنه من تصريف لأحوالهم من باب ولايته عليهم ، ولأهل الله إعتقاد فى ذلك لما عاينوه من أحوالهم معهم ، والإنسان رهين شهوده ، ورهين ما ذاقه من آثاراهم فيه ، وليس بعد العين أين ، فالحماية الإلهة للإخوان والتي كان الشيخُ سبباً لها لم تنقطع هي الأخرى بعد انتقاله ، فلا يزال الشيخ مسعد يظهر للإخوان في حال إحتياجهم اليه حتى بعد إنتقاله

عرفنا هذا من رواية روتها لنا اختنا الكريمة الحاجة صباح وهي من بنات الشيخ باهي في الطريق ولم تكن معاصرة للشيخ مسعد ، بل إنتسبت الى الطريق بعد إنتقال الشيخ ، وذلك فى زمان الشيخ باهى وريثه المباشر ، تقول الحاجة صباح :

حدث أن دعاني الشيخ باهي لحضور ليلة في العياط وكانت وسيله الشيخ باهي والإخوان في الوصول الى مكان الليلة أن يركبوا مركبا ويعبرون بها الى الجانب الأخر من النيل ، وكان الاتفاق أن تأتي الحاجة صباح الى الأخصاص وتذهب معهم الى مكان الليلة.

ولكن حدث أن تأخرت الحاجه صباح وتجاوزت الميعاد فإنتقلوا من دونها ، فلما حضرت ، قابلت أحدُ أبناء الشيخ ، وهو محسب إبن أم محسب فصاحبها في ذهابها الى الأخصاص ، فلما وصلوا تأكد لهم أن الشيخ قد غادر الأخصاص في طريقه الى تلك الليلة ، فأرادا الذهاب الى المكان بتلك الطريقة التي ذهب بها الشيخ باهي اليها ، وهى أن يركب قارب ، يعبر به الى الجانب الآخر من النهر ، فذهب والحاجة صباح ، ليركبا المركب لتلحق بهم ، ولكنهم لعدم معرفتهم بالطريق ، سلكوا طريقاً خاطئاً كان مأواً لقطاع الطريق واللصوص ، وأن من يدخل هذه المنطقة لا يخرج منها سالم، والذي جعل الأمر أكثر خطورة ، أن الحاجه صباح من عادتها أن تتزين بكثير من الحلىّْ حال خروجها من المنزل ، إذ كانت ميسورة الحال ، وكان محسب مرتديا ملابس يبدو منها يُسر حاله ، وفي يده حقيبة توحي بان فيها ما يبحث عنه هؤلاء القوم ، ثم حدث بعد ذلك أن قابلت احد القاطنين في هذا الطريق ، رجلٌ ومعه طفلٌ صغير ، فسألاه : نريد أن نذهب الى الجهة المقابلة ، فنظر الرجل إليها نظرة ، وجد بها أنها مقصوده هذه الليلة ، وأنها صيد ٌ ثمين ، فقال لهم : إجلسوا ريثما أحضر لكم المركب الذي ينقلكم الى الجهة المقابلة ، هنالك أدركا خطر ما هم فيه ، وتيقنا أنه لا فكاك لهما منه ، حتى أن الحاجه صباح سالت محسب : (ما رأيك فيما نحن فيه) فرد عليها محسب وكأن قد أدركه اليأس من نجاته : (أحنا خلاص ضعنا !!) ... وكان أيمان الحاجة صباح قوياً ، فقالت له : اقرأ الفاتحة لعمك وأهل البيت ، إن ربنا ينجينا ، وما أن أتما قراءه الفاتحة ، حتى ظهر لهما الحاج مسعد ، وكان قد إنتقل الى جوار ربه ، ولم يشاهداه من قبل ، فجاء الشيخ ساعيا إليهم وفى يده عصاً ، ثم توجه الى الرجل الذى كان جالسا الى جوارهم ، وسبَّهُ وعنَّفَهُ ، فإرتعب الرجل ، وأخذ يَدورُ حول نفسه ، وإرتمى على الأرض ، فقالت الحاجة صباح لمحسب: دعنا نهرب من هذا المكان بسرعة ، فمرَّا خلال غيطان (حقول) الذرة بسيقانها العالية ، وكان الظلام بكامله قد غم َّ على المكان ، فوجدا على البعد مصباح مضيئا ، فذهبا في إتجاه هذا المصباح ، فوجدا رجلاً كان قد رآهم عند الشيخ وتعرَّف عليهم ، فقال لهما : ما الذي أتى بكم الى هنا ؟ فقالا : نريد أن نذهب الى الأخصاص ، فقال المسافة من هنا بعيده ، فأوقف لهما سيارة على الطريق ، ورجعا الى الأخصاص ، فوجدا السيدة زوزو إبنه الحاج مسعد في المنزل ، وأحضرت ماءاً دافئا يضعون فيه أقدامهم ، من أثر وطأهم على أرض الغيضان الوعرة ، وفي أثناء ذلك جاءت سيارة من عند الشيخ باهي لأخذ شيء من المنزل ، فركبا فيها ، ووصلوا الى الشيخ في مكان الليلة ، وكانت الساعة قد تجاوزت 12 في منتصف الليل، فعندما راهما الشيخ أحس بهما وحكيا له الواقعة ونجوا بفضل بركه الشيخ.

وناهيك عن مغزى الحماية الإلهية فان الحماية الإلهية جاءت فى صورة الشيخ البرزخية بعد انتقاله فكان ذلك دليلا على أن ولاية الشيخ على أولاده لهم لم تنقطع بعد إنتقاله ، وقد رأينا من قبل كيف تواصل الشيخ من برزخه بأولاده بالسلام عليهم ، والحديث معهم ، وقد يقولن قائل أن خيالاً قد ألمَّ بهما من أثر ماكانوا فيه من الخطر ، ولكن ينفى هذا أن صورة الشيخ تمثلت للإثنين ، ولم يكونا قد شاهدا الشيخ من قبل ، وقد إتفق الإثنان فى هذا المشهد ،ولو كان الأمر خيالا لما توحد خيال واحدٌ لشخصين فى ذات الوقت ، ثم مابالك بقاطع الطريق الذى إرتعب من هول ما رأى فدار حول نفسه ثم سقط مغشياً عليه ، ثم ماهذه المصادفة التى جعلت أحد معارف الشيخ يظهر لهم ، ولم يتركهم إلا بعد أن إطمأن على وسيلة إنتقالهم للشيخ ، فإذا كان الأمر لم يكن على ما ذكرناه ، فقل لى بربك ، ماهو تفسير ماحدث ؟، إلا أن تصدق أن لهؤلاء القوم سبيل مع الله فى رعاية أوليائهم لهم ، حتى بعد إنتقالهم ؟ ولم يبق لك إلا أن تكذِّب الرواية من أصلها ، فيكون الرد ، ما المصلحة التى يجنيها الراوى من إختلاقها ، وقد إتفق راويان عليها ؟ إلا أن تكون بالصدق قد حصلت .

والأمر الأخر الذي نريد أن نستخلصه من هذه الرواية ، أن العقبات المتواليات التي وردت في هذه الرواية من ذهابهم الى الأخصاص في وقت متأخر ، لم يتمكنوا فيه من اللحاق بشيخيهم ، ثم ضلالهم في طريق الذهاب ، ثم مقابلتهم لقاطع الطريق ، ثم حال الرعب والخوف الذي أصابهم من جراء ما حصل لهم ، ثم مرورهم وسط حقول الذرة العالية المخيفة ، الجافه ، وتعثر أرجلهم من وطأها على أرض الغيطان الخشنة ، ثم رجوعهم الى نقطه بدايتهم في الأخصاص ، ثم فواتهم وقت الليلة ، إذ لم يصلو اليها إلا بعد منتصف الليل ، وقد أوشكت الليلة على الانتهاء ، كل هذه العقبات إنما هي نوعٌ من تربيه الشيخ لمريديهم بسبب أمر قصده بهم ولهم ، هذه التربية لا نعلمها ولا نعرف ما هو المقصود منها ، فمرور هذه العقبات على المريد تستدعى أن يبحث المريد فيه عن حاله مع نفسه ، فالأمور لدى الأشياخ ليست من قبيل الصدفة ، ولو شاءوا لأتوا بالمريد الى مكان الليلة في طرفة عين ، فطريق القوم سبرٌ لأغوار القلوب وحساب لها واستقبالا لآدابهما ، هذا لأبناء الطريق ، أما غيرهم فلا إلزام عليهم بقانونه ، ولاهم فى الأصل محسوبون عليه .

ولم يدعنا الشيخ طويلا نحتار في أمرنا وفي سؤالنا : هل الشيخ مسعد حيٌ في برزخه أم لا ؟ حتى فاجأنا بكلام لا يحتمل الَّلبس ولا يحتملُ التأويل ، والقيل والقال ، بل جاء الكلام باتاً من مصدره ، بما يُبَرِدُ به جوف أبنائه من أهل الطريق والباحثين عن إجابته ، ولقد جاءت هذه الرسالة من خلال الرواية التي نقلها الينا الدكتور احمد موسى ناقلا إياها عن شيخه محمد أبو سلامه ، ناقلا أيها عن أحد أبناء الشيخ محمد ، وهو المهندس عصام رحمه الله ، حين سال شيخه قائلا له :(هل الشيخ مسعد حي في برزخه) ؟ فما لبث الرجل وقد إختلى بنفسه في غرفته ، حتى دخل عليه الحاج مسعد قائلا له : (طيب أنا قُدَّامك أهو لحم ودم ، عايز تسال عن إيه تأني ) ثم أعطاه الشيخ عطاءً مباشراً ، فصار من أهل الكشف ، وصار من أهل علوم الحروف والأرقام ، وصار من أهل علوم الفلك والغيبيات ، ونفذت كلمته في العوالم ، وكان رحمه الله تعالى محيط بقدر هائل من العلوم الروحانية( نقصد المهندس عصام ) .

وبعد ما ذكرناه لم يعد لدينا شك في حياه الشيخ في برزخه وإنما الأمر موقوف على صفاء روحك في أن تشاهد هذه الحياة أم لا :

فالشأن شانك إن أردت لقاءه

فاخلع حجاب الليل عن عينيك

سترى الضياء ، وقد أضاء بنوره

جل الغياهب والغيوب لديك.

وأنَّا لنا الشك ؟ ، وقد أخبرنا الحق بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فهم شهداء الأرواح التي فنيت ذواتهم في مولاهم فانطلقت أرواحهم في أملاكهم يسوسونها كما كانوا يسوسونها في دنياهم.

وهم خزائن علوم الله التي أودعها فيهم ، وهم أيضا مفاتيح هذه الخزائن ومصارفها ، فتراهم يطلقون سلاح الكشف لمن أرادوا حمله ، وقد ذكرنا من قبل أطرافا من ذلك ، وتراهم يُوردون عليهم علوم الحروف والكلمات والأرقام ، وهي المعروفة لدي القوم بالسيمياء وعلوم الأولياء ، وتراهم يطلعونهم عليهم أسرار الأملاك والأفلاك والكواكب والمدارات والأوفاق ، وغير ذلك من أسرار هذه العلوم ، التي تُذْهِلُ الناظرَ إليها ، وتراهم بهذه العلوم يتحكمون في الكون بأمر الله لهم فيه ، بما جاءهم من أسرار الأسماء الإلهية ، والحروف والكلمات والأرقام والأشكال والأسرار الإلهية الكاشفة ، فالحق سبحانه ، هو الواسع في ملكه ، وهو الواسع في عطائه، وهو الواسع في رحمته ، فقف على حد العبودية تشاهد أسرار الربوبية ، فباب علم الرب هو إعلان عبوديتك له ، وكلما إقتربت من عبوديتك ، فتح الله لك بابا الى ربوبيته ، وكلما نزلت لمكانك ، تطلعت إلى مقامه ، ولا تزال تصعد حتى تدرك أنه لا سبيل إليه منك ، ولا محيط له بك ، ولو نظرت الى نفسك لوجدته فيك ، ولكن من فرط قربه لا يتمكن لك إدراكه ، فهو القريب البعيد ،الشارق لك ، الغارب عنك،الساكن فيك، الخارج منك .

وتصديقا لما ذكرناه فقد كان للشيخ محمد أبو سلامه جاراً وصديقً في المرازيق ، تلقَّى منه أوارد الطريقة السعدية ، وطلب من أبي سلامه أن يأتيه بصورة من صور الشيخ مسعد ، ووضعها في بيته ، وذات يوم أخطأ في شيء ، ففوجئ بالصورة تهتز وتكلِّمه قائله له : هو أنت فاكرني صورة متعلقة هنا على الحيط .... يا سعودي ...؟

والحقيقة أن الشيخ لا يزال مراجعا أولاده في أورادهم وأذكارهم ، حتى وان كانوا من أبناء أبنائه في الطريق ( فهم فى مقام أحفاده ، وهم أعزاء عليه كمعزة الحفيد للجد ) فهذا هو الأستاذ محسن يقص علينا حكايته مع الشيخ مسعد بعد انتقاله ، والأستاذ محسن من أبناء الشيخ محمد أبو سلامه ، الذي هو من أبناء الشيخ مسعد ، ولم يعاصر الشيخ ، ولم يجلس معه بالطريق المباشر ، ولكن الشيخ مسعد يعرفه تمام المعرفة، ويعرف ما يقوله من أوراد ، وما يتغير عليه من أحوال ، ثم يتابعه في هذه الأوراد ، فيُعَدِّلُ فيها ، ويزيد عليها ، ويوقفه عن بعضها ، يقول الأستاذ محسن عن هذه التجربة:

كنت ادرس في جامعه أسيوط عام 1997 وكنت في بداية معرفتي بالشيخ محمد أبو سلامه ، وكنت ملتزما بالأوراد اليومية التي أمرني بقراءتها ، وفي إحدى الليالي رأيت الشيخ مسعد في بيته القديم بالأخصاص ، واقفا ًبجواري ولم اكن قد رايته من قبل ، فسلَّم عليّْ ، وأعطاني ملابس له ، وقال إنتظرني حتى أغتسل ، ثم تناول مني ملابسه بعد خروجه من إغتساله، وجلس الي جواري وسألني عن أورادي ، فقلت له : اقرأ كذا وكذا ، فقال له : (أوقف هذا كلِّه ، وأقرأ كذا وكذا ) ، ولما استيقظت من النوم تذكرتها كلها ، ما عدا الورد الجديد الذي ألقاه علىَّ الحاج مسعد، وإتصلت بالشيخ محمد أبو سلامه ، فذكَّرَني بذات الورد الذي كنت قد نسيته ، فقال له : هو ده فعلا ، ..... فانظر كيف كانت الصلة الروحية بين الحاج مسعد والشيخ محمد أبو سلامه ، تلك الصلة التي أعلمته بوردٍ حصُلتُ عليه عن طريق الرؤيا من الحاج مسعد ، وتعجب معي من هذا الأمر ، ومن هذه الحياه القائمة بين واحدٍ من أهل الحياه الظاهرة ، وأخر من أهل البرازخ ، ثم يواصل الأستاذ محسن حديثه قائلا : ثم إنفردت بنفسي في هذه الليلة ، تالياً ذلك الورد الذي ذكرني به الشيخ محمد أبو سلامه ، فاذا بي أرى أنوارً في السماء تقترب من شرفه الغرفة التي اقرأ فيها الورد ، ثم لم تلبث هذه الأنوار أن تدخل الغرفة ، ثم رأيت الغرفة و قد اتسعت 10 أضعاف ما هي عليه في المساحة ، ورأيت نورً يطوفُ في دائرةٍ من حولي ، واذا برائحةٍ ذكيةٍ عطرةٍ قد فاضت في أرجاء الغرفة ، تلك الرائحة أخذتني من نفسي و لايزال شذاها في أنفى الى اليوم ، وبعد الانتهاء من وردي ، رأيت لساني ينطق بلغه غير اللغة العربية ، ولعلها اللغة السريانية التي هي لسان الحال ولسان الأرواح ، ثم خلدت الى النوم وصحوت في الصباح ولم تزل اللغة تلازمني و تصاحبني ولم يزل لسان الحال معي ، ثم اتصلت بالشيخ محمد أبو سلامه الذي كلمني بذات اللغة ، ولا يزال يكلمني حتى عدت الى طبيعتي ، وتكلمت بلغتي التي اعرفها ، هنالك ضحك الشيخ محمد ضحكه عالية ، وارشدني الى قراءه للصلاة على النبي بصيغه معينه ، أقرأها بعدد معين ، بين كل مائه مرة من ذلك الورد الذي أعطاه لي الحاج مسعد.

وأشد ما يعنينا من هذه الرواية ، هو العلم بهذه الصلة الروحية الرابطة بين المرشد الأعلى ووارثه ( والمرشد الأعلى فى هذه الحالة هو الحاج مسعد ، والوارث هنا هو الشيخ محمد أبو سلامة )هذه الصلة قد تحدث في أي وقت يطلب فيه أحدهما الأخر ، وكذلك العلم المنقول خلال هذه الرابطة ، وهي فوق كونها كرامه للمرشد ووارثه إلا أنها إطمئنانٌ للمريد أنه على نفس المدد ، فمدد الشيخ محمد أبو سلامه موصول بالشيخ مسعد ومدد الشيخ ناصر موصول بالشيخ باهي ، وهى ذرية بعضها من بعض ، فعلى ماذا ينتابُ المريد المخافة والقلق والتردد في أنه على نفس الطريق ونفس النهج.

وبعد انتقال الشيخ الى مقامه القائم بجوار منزله بدأ شوقُ الإخوان في أقامه مولد لشيخهم ، فقد أرادوا أن يكون المولد مناسبه الإحتفال بذكرى شيخهم ، والوفاء له بما كان له فيهم من عطاء ، والذي لا يزال يتوالى عليهم بعد إنتقاله ، وتتوالى عليهم بركة ، معرفتهم به والموالد عند أهل الله ببساطه هي مناسبات يتجمع فيها المهتمين بشان أصحابهم، فيتذكرون فيها سيرتهم ، ويذكرون الله فيها على الطريق الذي ارشدهم اليه مرشدهم ، فتشرق بهذا الذكر أرواحهم وتسمو به نفوسهم ، وكأنهم يغتسلون بها من دنس المادة ومطالب الأبدان ، فتتحرر أرواحهم الى معارج التجليات والعرفان ، ولا يعرف أثارها ألا من ذاقها على هذا النحو و تلك الطريقة ونفس الكيفية.

وبدا التفكير في أقامه المولد و تم لهم ذلك وتحدد موعده وتسابق الإخوان في الإستعداد له طعاما وشرابا وأقامةً ، وإبتهجت القلوب لحضوره و التفرغ له ، وتعددت مشارب المحتفلين به ، وكل فرقه لهم صفةٌ مشتركةٌ تجمعهم ، والجميع في خدمه مطالب المولد ، و إستقبال الزوار ، ولهذا أطلقوا على هذه الفِرَقْ (خدمات المولد) فهذه خدمة الشيخ احمد السعدني ، وهذه خدمه الشيخ سيد أبو النصر ، وهذه خدمه أم محسب، وكانت تستأجر لهذا الغرض بيت فى الأخصاص وهو بيت ( حقَّانية ) ، وهذه خدمه أولاد كفر الرفاعي ، وهذه خدمه الشيخ صادق بكير ، وهو من أبناء الولي أبي القاسم ، وهذه خدمه جماعه طرفان ، وكانوا يستحضرون معهم مُنْشِداً خاصاً بهم ، بخلاف المنشد العام للمولد ، الذي هو فى غالب الأوقات الشيخ إبراهيم الدسوقي المنشد الصوفى رحمه الله ، و هذه خدمه أولاد المطرية و أبناء الفيوم ، أمثال الشيخ احمد سعيد ومحمود احمد حسن والشيخ صلاح طه والشيخ بركات وولده محمود والشيخ رفاعي والشيخ علي سعد والشيخ محمد عبد الرحمن والشيخ صديق ، وخدمه أولاد التبيِّن ، وغير ذلك من الخدمات التي إمتلأ بها المولد ، والذي يستمر لمدة خمسة عشر يوماً متواصلة تبدا بليله الافتتاح وتنتهي بليله الختام وهي الليلة الكبيرة ، كل هذا تحت متابعه وعين وبصر الشيخ باهي وارث الطريقة والجميع تحت نظر ومدد صاحب المولد والذي لا يزال مدده متصلاً بعد انتقاله إذ هو الشهيد المرزوق من ربه.

ولكل واحد من المريدين الذين يرتادون المولد ، ذكرياتٌ له فيه ، وهي ذكريات محفورة في ذاكرة قلبه ، لا يطرأ عليها نسيان ، ولا يعتريها غشيان

وكأنما هذا المولد هو مؤتمر للبحث والمذاكرة فى سيرة الشيخ ، يجتمع فيه الإخوان ، كلٌ مع من يشاربه فى الرأى ويتذاكرون فيما بينهم ، كيف كان الشيخ بينهم ، وكيف جاؤا إليه ، ولكل واحد منهم كرامة مع شيخه ، فى ترتيب الوصول إليه ، ولكل واحد منهم حكاية معه يحفظها عن ظهر قلب ولا تغيب عنه ، ويذكرون حكاياته معهم وكلامه لهم ، وإثاباته إن أحسنوا ، وعقاباته ، إن تجاوزوا ، ويتبادلون مع بعضهم مشاهد الرؤى الى رأوها ودلالاتها والعبرة من ورائها ، ويأخذون ممن سبقوهم فى الطريق ، نصائحهم التى لا يبخلون بها عليهم ، ويعطون للوافدين الحادثين عليهم ، ما يعينهم فى سلوكهم .

فاذا أردنا أن نعيش في روح هذا المولد فأننا نورد نموذجاً يحكي فيه ما شاهده صاحبها في أحد هذه الموالد ، فإخترنا تلك الرواية التي تقصها علينا السيدة أم حسين بنت أم محسب والتي نقصها عليك أيها القارئ بتصريف واختصار في العرض واللفظ...

فلقد كانت أم حسين تخشى أن يفوتها لحظةٌ من لحظات المولد ، تكون فيها غافلةً عنه لإنطلاق روحها فيه ، وكان من عادة والدتها أم محسب في الخدمة ، أن تظل مستيقظةً حتى الثالثة قبل الفجر ، ثم تنام قدر ساعه أو ساعتين ، تستيقظ بعدها في الساعة الخامسة لترتيب طعام الإفطار لمرتادي المولد ، وكانت تطلب من كل من حولها أن يناموا وقت نومها ، ويستيقظوا معها ، فكانت أم حسين تسايرها في طلبها ، حتى اذا ما أخذ النومُ والدتها ، تسللت من جوارها الى خدمات المولد الأخرى، أو الجلوس أمام المقام ، وهكذا تستمر طوال أيام وليالي المولد دون راحه أو نوم ، وقد إستبد بها الإرهاق الشديد دون أن تشعر به ، وكانت في بعض الأوقات تذهب الى خدمه الشيخ صادق بكير ، والتي كانت في ذات المنزل التي تقيم فيها والدتها الخدمة (منزل حقانية) ولكن كان في الناحية الأخرى ، فكانت تجلس الى جوار الشيخ صادق ، ويبسط عليها رداؤه فتغطُّ فى نومٍ عميق ، لمدة لا تزيد على ثلث ساعة ، تقوم بعدها وقد استعادت كامل جهدها ونشاطها ، لتتابع والدتها خدمه الإخوان من المولد.

أو كانت تذهب الى خدمه أولاد طرفان ، وتتابع المُنشد الذي كانوا يحضرونه معهم من أول إنشاده حتى أذان الفجر ، وهي معه في حاله الذكر ، ما دام هو في حال الإنشاد دون انقطاع ، وبعد إنتهاء الليلة الختامية وبعد إنتهاء المنشد يتجمع الإخوان وهي معهم ، في الإحتفال بالزفَّة الختامية للمولد ، وهي (صباحيِّة ليلة المولد) فيودِّعون المولد بالذكر والدعاء للشيخ ، في مشهد تهتاج فيه المشاعر من رؤيه محبه الإخوان بشيخهم وإحتفالهم به ، وكانوا يرددون قولهم ( صباحية مباركة يا سيدنا ) وصاحبتنا في كل هذه المشاهد ، لا تزال يقظه تشارك بروحها فى كل لحظه من لحظات الاحتفال ، حتى إذا انتهت المراسم ، أطبق عليها الإرهاق ، وخانتها قواها ، وإنهزم الجسد أمام انطلاقه روحها ، فاذا ذهبت الى منزلها غابت في نوم عميق يستمر لأيامٍ وليالي متواليات.

ولقد ذكرنا هذه الرواية على هذه الوجه ، معايشة لما عليه الإخوان من أحوال في المولد ، مُظْهِرين به فرحهم بالمناسبة ، متفانين في الخدمة، ذاهلين عن مطالب أبدانهم ، وكل ما ذكرناه أنما هو من إثر محبتهم لشيخهم التي لا يقف أمامها قانون اوناموس ، ولعل هذا هو مشهد واحد من تلك المشاهد التى تعصى على الحصر من مشاهد المولد .ولازلنا مع مشاهد الشيخ مع أولاده بعد إنتقاله ، فلقدكان أحد المترددين على خدمه الست أم محاسب في منزلها بالدراسة رجل ٌ، يقال له عبد الباسط كان يبدو على ظاهره منتهى المخالفة ، فقد كان يشرب الخمر ، وكان مجرد حضور هذا الرجل الى الخدمة مثار إستياء الجميع ، ولهمُ الحق فى هذا الإستياء ، إذ كيف يكون هؤلاء القوم محسوبون على أهل الله ، ويؤون فى دارهم عُصاته المرتكبين لكبائره ؟ ، حتى أن الأستاذ جميل إبن أم محسب رحمها الله يقول لوالدته: ( هذا الرجل بهذه الشكل كيف يتأتي له أن يدخل الخدمة؟ ، كيف تطلقون عليه درويش وهو يشرب الخمر ؟ وأقسم جميل في نفسه ألا يدَع هذا الرجل يدخل الى الخدمة ، وبالفعل أمسك جميل بعصا غليظة (شومة) ووقف على باب البيت متربصا لقدومه لضربه ، وكانت أمه غائبه عن البيت ، في زيارة لعمها الشيخ باهى في الأخصاص ، وفي الوقت الذي وقف فيه على باب البيت تحسبا لقدومه حضرت أم محسب فمنعته ممَّا هو عازم عليه.

وتمر الأيام ويذهب عبد الباسط الى الحج ويعود منه ، و يذهب لزياره الشيخ مسعد في مقامة في الأخصاص ، وتصادف في هذا اليوم أن تذهب السيد أم حسين إبنة أم محاسب في زياره للشيخ في الأخصاص ، و استأذنت الشيخ في زياره المقام ، فأذن لها ، فقَبَعَتْ في ركنٍ من أركان المقام ، وما لبثت أن شاهدت عبد الباسط يدخل مقام الشيخ ، وهى فى مكان من المقام لا يراها فيه وهى تسمعه ، فوجدته واقفا فى مقابلة المقام ، متحدثاً الي صاحب المقام ، وكأنه أمامه وجها لوجه مع الشيخ ، قائلا: ...... (السلام عليكم يا عم ، وحياه حضره النبي سيدنا الأمام علي بعتلك السلام ، وسيدنا الأمام عمر بعتلك السلام ، وسيدنا النبي إبتسم وقال لى: سلملى على عمك ، يا عم وحياه حضرة النبي دا اللي حصل يا عمي أنا مش بكذب ... وحياه سيدنا النبي همَّا بعتينلك السلام سيدنا الأمام علي و سيدنا عمر وسيدنا عثمان كلهم بعتينلك السلام ، ووقفت قدام رسول الله صلى الله وسلم وقلت له : مش ده إبنك مش ده حبيبك ، مش أنا اللي أعرفه أن دَوَّةْ حبيبك ،طيب أنا مش هامشي إلا أما اسمع منك السلام ، أمال أحنا على دينه أزاي ، )وأحسست (والكلام لأم حسين) إن الشيخ مسعد يتحدث اليه ويرد عليه ، وكأنها محادثه بين إثنين ، فأذهلني ما شاهدته ، واُسْقِط في يدي ، وغاب في تفسيره ذهني ، أهذا الذي أعلم أنه شاربٌ للخمر ، معاقرٌ للمخالفات ، أيكون هذا الرجل بهذا الشأن الذي سمعته به ، دون أن يراني وانا قابعةٌ في ركن من المقام ، ثم نظرت الى وجه الرجل ، فاذا أنوار مشرقه في وجهة ، أهذا هو الرجل الذي كنت أرى وجهه أسودً كالحاً ، كيف غدا في لحظه ابيض الوجه منيرا هكذا ، ثم إختتم الرجل حديثه مع عمي الحاج مسعد قائلا (الحمدلله إنني ذهبت الى الحج وأبلغتك بسلام من يسلمون عليك ... أنا يا عمي ... ماشي بقى ، يقصد( أنه سوف ينتقل الى ربه) ثم يواصل حديثه مع الشيخ : وحياتك يا عمى وحياه حضره النبي ، لتجيلي وقت طلوع الروح ، إوعى تسيبني يا عمي ، أنا ماليش غيرك وحياه سيدنا النبي أوعى ما تجيش) .

وبعد هذه المقابلة بحوالي ستة شهور ، قيل أن عبد الباسط قد مات ، وكان لظروف موته كرامةً عجيبة له قيل فيها : أنه في يوم وفاته قال لزوجته : قومي أحسن أنا هموت النهاردة فردت عليه : (جتك خيبة. ... أنت كل شويه تقول هتموت ) فرد عليها (والله العظيم هاموت النهاردة ، قومي هاتي الشنطة اللي فوق دي ، وهاتي غيار نظيف من تحت ومن فوق، وامسحيلي الاُوضه كلها بالمية والورد ، عشان كلهم هييجوا ) فقالت له: (أيه الجنان ده) فقال لها : (قومي سخني لي المية ويلا عشان تخلصي البيت ، ففعلت ما قال لها ، وفرشت سريره أبيض في أبيض ، ولم تجعل على السرير سوى ملايه بيضاء ، ثم صعد على السرير وإستلقى عليه، ثم انتفض وصاح مرحبا ... (مرحبا يا سيدنا الحسين ، إوعى يا وليه من على الباب ، مرحبا ... مرحبا برسول الله مرحبا ... مرحباً بعمي )وكان من قبل قد قال لزوجته : لن تطلع روحي إلا بعد حضور عم الحاج مسعد ... ثم قال (أخيرا جئت يا عمي جئت يا عمي )وصعدت الروح الى بارئها ، وكل هذه المشاهد قصتها زوجته على السيدة أم حسين ، التي اجتمع عليها جميع مشاهده ، المشهد الذي رأته فيه يشرب الخمر ، ثم المشهد التي سمعت منه ما سمعته في مقام الشيخ ، ثم أخيرا المشهد الذي حكته لها زوجته دون ملابسه أو مواربة.

ونحن لا نمتلك من تفسير هذه الظاهرة ألا الوقوف بين احتمالين

الاحتمال الأول: أن هذه الراوية قد جمعت بين مرحلتين من مراحل سفر هذا المريد نحو الله ، ففي المرحلة الأولى كان مجاهدا لنفسه في أمرٍ يحاول الفكاك منه ، وهو معاقرتة الخمر ، وهو في ذاته يحمل نفسا طاهرة تعلم مقدار جرمه ومخالفته ، وتجتهد وتطلب العون من الله في شفائه منه ، و دليل صدق النية ، أنه كان يرتاد مواطن الصالحين ، مستعيناً بصحبتهم على تجاوز محنته ، فلما تجاوزها وتاب عنها وعمل صالحا وأدى الفريضة ، إنقلب حاله من تلك المرحلة الثانية ، وبان عليه نقاء سره ، وهو ما ظهر لنا في لقائه بعمه الحاج مسعد في برزخه ، وفي كرامته وقت موتة وطلوع الروح منه.

أما الاحتمال الثاني: فهو أن يكون هذا الرجل من أكابر الأولياء الذين يطلقون عليهم الملامية ، أو الملامتية ، وهم طائفةٌ من الأولياء، إستحوذ عليهم الحق ، وصانهم من معرفه الناس بهم ، وظنهم السوء فيهم ، فصانهم من الأغيار ، وحبسهم في صون الغيرة الإلهية ، في زوايا الكون ، فلا تمتد اليه عين من عيون الخلق ، لشغلهم بالحق ، وليس في وسع الخلق أن يعرفوهم على حقيقتهم ، فيقوموا بما يجب عليهم نحوهم من التقدير والعرفان ، فإن الحق سبحانه قد حجب ظواهر صورهم في ما هم عليه من المخالفة ، وأطلق بواطنهم في معرفته ، فهم عند ربهم كالحور المقصورات في الخيام عن أعين الناظرين ، فهم بما هم عليه فى ظواهرهم من المخالفة ، يأمنون على انفسهم من زهو الولاية ، وشفوفهم على الناس بها ، فضلا على صيانه الله لهم ، وحفظهم إيَّاهم ، من باب الغيرة الإلهية ، ولسنا في صدد ترجيح احتمال على احتمال ، أو نفى أو إثبات أحدُ الإحتمالين، والحقيقة متروكه للحق العارف بهم ، الساتر لحقيقتهم، فكم من صالح ظاهر الصلاح بين الناس ، وهو فى حقيقته من أهل الشقاء ، وكم من عاصي ظاهر المعصية ، وهو في حقيقته من أهل السعادة ، فاللهم ارزقنا خاتمة السعادة أجمعين يارب العالمين.

وبعد إنتقال الشيخ رضوان الله عليه لم ينفرط سلك الإخوان ، ومضوا على ذات النهج الذي كان قد رسمه لهم من قبل ، وإلتفُّوا حول الشيخ الجديد الذي لم يكن غريبا ولا وافدا حادثا عليهم ، بل كان أخا لهم من قبل أن يكون شيخا مرشدا لهم ، وشعروا أن شيئا لم ينقصهم ، فروح الشيخ الكبير بادية في روح ولده الشيخ باهي ، وأصحاب الأسرار الكاشفين ، يرون سرَّ الشيخ فيه ، وإن كان مستورا عن عوام الإخوان ، إلا أن الشيخ باهي كان متصفا بالخفاء الشديد، فلا تبدو على ظاهره كرامه ، إلا ما ندر منها ، بخلاف الشيخ الكبير ، الذي كانت تقطر الكرامات منه ، أينما حلَّ، ووقتما إلتقى به أحد ، وتظهر منه ، وكأنه يتنفس ، وكان الشيخ الكبير ظاهر الإثابة ، وظاهر العقاب ، يُعَرِف أولاده بجلاء ، أن الإثابة منه والعقاب منه ، ولا يساور أولاده شك في مصدر هذا الثواب، ومصدر هذا العقاب ، أما الشيخ باهي فقد كانت له مع الإخوان أثابات جمَّة، وعقابات جمَّة ، ولا يبدو على ظاهر الشيخ أنه هو المصدر لها ، وإن كان هو الفاعل فيها ، ثم يكاد المريد بعد حينٍ يستشعرها في نفسه ، وتأخذه الخواطر في شأنها ، ثم يتم له بعد ذلك جلاء المصدر ، بعد فوات الأثر ، والشيخ الكبير كان ظاهر الرضا ، و ظاهر الغضب ، ففي مرة يفاجئك بحنان ياسرك وبكلمات تنفذُ في سِرِّك ، ثم لا يلبث أن ترى منه ، إن أساءه شيئ منك ، أن تراه ظاهر الغضب ، ثابت النظرة ، وكأن سهما قد صابك منه في قلبك ، فلا تدري الى أي مكان تذهب ، وفي أي ملجا تختبئ فيه ، وفي أي طريق تهرب ، وباي كلام تنطق ، فلا تجد نفسك إلا فاقد الشعور ، غائب الفكر ، ثابت الجسد ، غائر النظر ، ولا يمنع هذا المظهر ، من محبة الإخوان له وفنائهم فيه والإلتفاف حوله وانفطار قلوبهم عليه ، أما الشيخ باهي فلا يتذكر احد من الإخوان عبوس وجهه ، ولا اضطراب ملامحه ، ولا حِدَّة نظراته ، فهو على الدوام ظاهر الحنان على من حوله ، وكانه حنان يعيش على قدمين ، تجلس الى جواره وكأنما قد حُزْتَ الدنيا وما فيها ، يتحدث إليك بصوتٍ رؤوف شجي طروب ، يمازحك ويسألُ عن ذويك  ، ويعرف من نفسك أي الاحاديث تروق لك ، فيتحدث لك فيها ، ويعرف من نفسك أي الاحاديث تتأذى من سماعها ، فلا يقترب منها ، وتجلس اليه فتشكو اليه ، وقد أثقلت شكاواكَ ظهرك ، ثم تغادره وكأنك طائر في سماء سعادتك ، يسال عنك إن غِبْت ، ولا يطيل هجره لك ، فيرسل في طلبك أو يتصل بك ، فاذا ذهبت اليه وجلست معه ، فكأنما لم يغادرك ولم تغادره ، تنظر في وجهة وملامحه ، فيخطر فيك أن تسبح ، في بحر صفاء وجهه ، ويخطر لك أن تغوص في بحر جماله ، وتقف فيه وقد عجزت المفردات عن وصفه ، وليس ماقلناه من قبيل الإنشاء ولا لسان المقال ، إنما هى الحقيقة ولسان الحال .

وكان الشيخ الكبير وقت ورود الحال عليه ، وكأنما جبلاً قد جثم على رأسه، فتراه  مفتوح العينين ، ومتسع الأنف ، متلاهث الأنفاس ، وكان الإخوان وإن أخذهم المشهد إلا أن البعض منهم كان يفرح لهذا الحال لعله أن يكون عطاء فينالهم منه نصيبه ، وكان البعض منهم ، يفرون من حضورهم إلى جواره ، وهو بهذا الحال ، خشية أن يكون حال قبض ، فينالهم منه نصيبهم ، وكلٌ بحسب ما يرد عليه من الخواطر ، أما الشيخ باهي فيأتيه هذه الحال وهو على ظاهر سمته ، لا تكاد تعرف أن الحال فيه ، فهذا الذي إعتاده الناس منه ، فلا يعرفون وقت وروده عليه من عدم تأثر ظاهره به ، إلا من كان له كشف به ، ...... فقد حدثني الشيخ ناصر ولده ووارث طريقه ، أنه كان في مولد شيخ العرب ، وكان قد أخذه حال( أقصد الشيخ ناصر ) مُفاده أنه نظر الى جميع الإخوان في شيخ العرب ، فوجد حقيقه كل مريد باديةً عليه ، ثم إسترق النظر الى الشيخ باهي فوجده هائما في الملكوت ، سابحاً في السماوات العلا ، أخذا من عطاء ربه له ، فكان هذا حالٌ مستترٌ فيه ، لم يَطَّلِعَ عليه إلا صاحب كشف ، وحدثني الشيخ صلاح طه ، أنه دخل على الشيخ باهي في وقت مرضة ، وكان الإخوان قد ذهبوا الى مولد شيخ العرب ، ولم يذهب معهم الشيخ لظروف هذا المرض، فلمَّا دخل عليه ، حصل للشيخ صلاح طه بارقٌ من كشف ، فرأي سيدي احمد البدوي مجالسا للشيخ ، متحدثا معه ، فقال له بالمعنى (الإخوان …. راحوا لشيخ العرب وشيخ العرب عندك!)

 فلقد كان الشيخ باهي خفياً تقياً ، لا يحب الظهور ولا الشفوف على من حوله، ولا التباهي والتفاخر بالولاية ، حتى في قلبه ، فلم يتخذ رداءً مخصوصاً أو عمامةً أوشالا له مظهر خاصً طاغياً ، مثل ملك الأردية التي يرتديها البعض إيجازءً منهم بارتفاع شأوهم في الطريق ، بل كان ملبسه من ملابس عوام قومه ، وغطاء رأسه مثل أغطية عوام قومه ، يقوم للقادم وهو الأعلى مقاما منه ، ويتواضع للوافد وهو الأرفع في الرتبة عليه ، يسامر الصغير ويحنو عليه، ويلاطف المرأة ، وهي المهيضة الجناح ، لا يحب أن يسير في الطريق وخلفه الرهط من الاتباع ، فلقد حدثنا الشيخ خالد إبن أم محسب ، ونذكر روايته بنفس لفظه :

في إحدى الليالي ، وكانت الليلة الختامية لمولد سيدي الزعفراني ، وكنت معه في العربة التي كانت تقله الى مكان المولد ، ثم نظر الشيخ من العربة الى المكان الذي سينزل فيه ، فرأى رهطا كبيرا من أبنائه يقرب من الثلاثين أو الاربعين فرداً ، منتظرين إيَّاه حتى يدخلون معه الى ساحه المولد ، فلما نزل ونظر اليهم فقال ... (أيه ده ... أحنا داخلين نخوف الناس ولا أيه ؟ لا مش هينفع كده كل خمسه أو سته يتوكلوا على الله مع بعض ويدخلوا المولد )... ثم وقف الشيخ الى أن صرفهم جميعا مجموعات مجموعات كما أشار ، ولم يبقى إلا الشيخ وخمس أفراد معه ... فدخلوا المولد وكنت أنا من صحبه الأفراد الذين دخلوا معه ، والكلام للشيخ خالد ، هكذا كان حال الشيخ ، لا يحب الظهور بكثرة الاتباع ، ولو كان الأمر بيده لمشى وحده

ألا أن المريد الجديد الوافد على الشيخ باهي ، والذي لم يكن له حظٌ من رؤية الشيخ الكبير ، والذي في كل جلسة من جلساته مع الشيخ ، أو مع الإخوان، وفي كل أحاديثهم معه ، لا حظَّ لهم في الكلام ، إلا عن الشيخ الكبير ، وعن كراماته التي لا تحصى معهم ، وعن إثاباته الباهرة ، وعن عقاباته الظاهرة ، وعن آثاره فيهم ، التي لا تُخْطِئها عين ، يَسْمَعُ هذا كله ، ثم لا يلبث أن ينصب مناظرة في نفسة بين الشيخ القديم والشيخ الحادث ، وهو بَعْد لم تَحصُل له الفطنة الواعية ، أو الدرجة العالمة ، أو المقام الكاشف ، التي يفرق بين زمان الشيخ الكبير الذي يستدعي الظهور بالكرامة ، المأذونُ له فيها ، وبين مقام الشيخ الحادث ، الذي يتصف بالستر والخفاء ، واللين الظاهر والرحمة الهادرة، والحنان الأخذ ، والكرامة الخفية ، التي لا تظهر إلا لمن كشفت له ، ومن هو من أهل العلم بها ... هذا المريد تحصل في نفسه نوعاً من أنواع الغيرة ، وإن توحدت جواهر وذوات من يغار منهم عليهم ، وكأنه يغار من ذات الشيخ علي ذات الشيخ ، وهو يتمنى لو أنه قد سمع خبر هذه الكرامات عن شيخه الوافد، حتى يبنى في نفسي فخراً به ،..... حدث هذا لأخينا محمود بركات وهو في جلسة مع الشيخ باهي ، وكان معهم الشيخ صلاح طه ، وهو من دراويش الشيخ الكبير المقربين ، وكان الشيخ صلاح قد أفاض في ذكر مناقب الشيخ الكبير وكراماته وآثاره في الإخوان ، وكان ذلك في مولد السيدة نفيسة ، فحصلت في نفس محمود بركات هذا النوع من الغيرة التي شرحناها ، فوجد نفسه قائلا للشيخ باهي على بغتة من نفسه : (الشيخ صلاح عمَّال يقول على سيدنا الشيخ مسعد ، قول لنا حاجة عن حضرتك عشان نعرف تقول ... فتبسم الشيخ رضوان الله عليه ، و أشار اليه أن تعالى ، فأقترب من الشيخ فقال له : (هات ودنك ) فأعطيته اُذُنِي ، فقال رضوان الله تعالى عليه ، (ألا يكفيك أن كل أولاد الشيخ باهي أولياء) فقال له يكفيني ياعمي .... فقال لي: طب قوم.

ونوع الغيرة التي ذكرناها هي الغيرة الصحيحة ، المصحوبة والمتعلقة بالحب فانت تغار منه وتحبه ، وتتمنى أن يكون لديك ما عنده ، وفي نفس الوقت تفرح له وتتمنى له المزيد ، بل و تفتخر به وتتقرب اليه وتسعد بهذا القرب ، مثل الذي يحدث بين الإخوان ، فتستشيره في ما هو أعرف به منك ، ومثال ذلك ما قيل عن الشيخ الشعراوي والشيخ عبد الحليم محمود في القصة التالية: كان فضيله الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله يذكر في إحدى دروسه يقول : رأيت في منامي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء وأعطى شيخى ومعلمي الشيخ عبد الحليم محمود مفتاحاً ، ولم يعطني ، فحزنت فى نفسى ، ثم قمت الى صلاه الفجر ، وكنت معتاداً أن أصلي الفجر مع الشيخ عبد الحليم محمود ، فلما رآني حزين ، سألني لماذا أنت حزين ، فأصاب الشيخ الشعراوي الحرج من ذكر السبب الذي ذكرناه .... ولكن الشيخ عبد الحليم محمود ، كان رجل ربانياً عارفاً ، فوضع يده على كتفي وقال : (لا تحزن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سيعطيك مفتاح مثلي)ولا شك أن ما شعر به الشيخ الشعراوي هو نوع من أنواع الغيرة ، ولكنها الغيرة المحبوبة المطلوبة التي تستدعي مزيد الفضل ، وهناك نوع من أنواع الغيرة على الشيخ من أن بناله أحدٌ بشيء يؤلمه عند سماعه منه ، وقد ذكرنا في سيره الشيخ عندما أقام لأحدٍ من كبار الظاهرين في الطريق ، مأدبةً كبيرةً في إستقباله ، وكان لهذا الظاهر بالطريق ، رأيٌ في سيدي إبراهيم الدكروري ، وهو شيخ عم الحاج مسعد ، فنال منه ومن سيرته ، ووصفه بما لا يجب أن يتصف به ، فساء ذلك الشيخ مسعد وآلمه في نفسه ، وهو الولي العارف بأقدار من حوله ، و يعلم قدر المساء فيه ويعلم قدر المسيء ، فاقسم على هذا الضيف ألا يطعم من طعامه ، ولا يشرب من شرابه ، وأقصاه من جلسته وظل هذا الأمر حاجزا بين الشيخ مسعد ، وهذا الظاهر في الطريق ، ولم نرد أن نذكر اسمه ولا لقبه كنوع من أنواع الستر الذي امرنا الله به ، لأن أبيه من كبار رجال الطريقة ، وظلت هذه العداوة قائمه من هذا الظاهر في الطريق حتى في أولاده من بعده لأولاد عم الحاج مسعد ، ولقد نال الشيخ باهي من أولاد هذا الشيخ ، شيئا من هذا الأذى المضمور في نفسه ، حتى أن الشيخ باهي حين هم أن ينتقم من أثر إنالته منه ، رآه في الرؤية وهو مريض لا يقوى على السير ثم رأى احدهم يقوده من جانب والأخر يسنده من الجانب الأخر ، فاذا الذي يقوده من الجانب الأيمن سيدى سعد الدين الجباوى ، وأما الأخر فلا اعرف إن كان سيدي يونس الشيباني أم غيره ، فهذا الذي ذكرناه من أثر الغيرة على الشيخ ممن يناله أحدٌ بأذى في نفسه وعرضه.

وقريب الشبة من ذلك تلك الواقعة التي حالت بين حضور الشيخ باهي وأتباعه مولد السيدة نفيسة في عام من الأعوام ، فقد نشأ خلافٌ شديدٌ بين أولاد الشيخ باهي وبين هؤلاء المؤجرين الذين يؤجرون لهم المكان الذي يقيمون فيه الخدمة ، و تفاقم الخلاف للدرجة التي قد يصاب فيها أولاد الشيخ بالأذى ، وهنا آثر الشيخ باهي السلامة ، فعاد من حيث أتي ولم ينصب خدمته في هذا المولد ... ولما رأى احد الشانئين الحاسدين للشيخ رجوعه في هذا اليوم ، أشاع فيمن حوله أن السيدة نفيسة قد طردت الشيخ باهي من حضور المولد هذا العام ، وكانت هذه المقولة مسكوتة الذكر عند البعض ، يسمعونها ولا يتكلمون فيها ، يتحرجون من الخوض فيها ، رغم ما يصيبهم من الألم بشأنها ، وكان ممن تَكَلَم فيها الشيخ صديق رضي الله عنه ، غيرة على شيخه من هذه الدعاوى ، وكان لهذه الحادثة اثر كبير في الإخوان فلم يكن أولاد الشيخ علي تمامهم ممن يأتلفون مع أبناء الطرق الأخرى ، وإن كان غيرهم يألفوهم ، هكذا وجدوا انفسهم بما جعله الشيخ في نفوسهم ، ولما جاء مولد سيدي علي زين العابدين التالي للمولد الذي غاب عنه الشيخ والإخوان ، و حضره الشيخ صديق الذي لم يغب عنه تلك الحادثة ، ولم يغب عنه مقوله هذا الشانئ فيه ، وجعل في نفسه عن كيفيه التأكد من صدق أو كذب هذا الذي سمعه عن الشيخ ، فجاء في خاطره أو ربما جِيءَ به في خاطره أن يأخذ الشيخ في زيارة للسيدة نفيسة ، فإذا قبلت السيدة نفيسة زيارته ، كان كلام هذا الشانئ كذباً ، وإذا لم يتمكن الشيخ من زيارتها ،فمعنى ذلك أنها رفضت زيارته أيضا ، ومن ثم فقد صدق حديثهم وثبتت دعاواهم ، لأن الأمر في حقيقتة أن زيارة أهل البيت لا تكون إلا بإذنهم ، فلما عرض على الشيخ باهي هذه الزيارة وكان الوقت قبل الفجر ، وافق الشيخ باهي على هذه العرض وكأنه علم ما في نفس صديق ، فأراد أن يُطَمْئِنُه على شيخه ، فلما ذهبا صليا ركعتين ، وكان لا يزال باب المقام مغلقا ، فوضع الشيخ باهي راحتيه على باب السيدة نفيسة من خارج ، وقرأ ما قرأ وتلا ما تلا ، وفي لمح البصر وضع الشيخ صديق يده مكان راحة الشيخ باهي اليمني بعد رفعها ، فما كان منه ألا أن شعر بيد السيدة نفيسة التي كانت مقابله لكف الشيخ باهي ، فضحك في نفسه وعلم قدر كذب الشانئين ، هنالك نظر الشيخ باهي الى عم صديق وقال له ، ألِهذا جئت بي الى هنا ؟ ولم يكن تصرف الشيخ صديق إلا غيرةً على عمِّه ، بالرغم من الثقة واليقين فيه ، ولكن كان حاله كحال سيدنا إبراهيم الذي قال لربه (ولكن ليطمئن قلبي ) ولقد إطمئن وإطمأننا جميعا معه ،رحمهم الله ونفعنا بهم .

ولكم نال من نال وخاض من خاض في ثوب الشيخ باهي ، فقال فى أخلاقه، ونال من عرضه ، ووصفه بما لا يجب أن يوصف به ، وجعله ممن يلهثون خلف مطالب الدنيا وشهوات نفسه ، وكان الشيخ قادرٌ على الرد ولكنه كان على الدوام ذاكرا لوصية أبيه في ألا ينتقم ممن نال منه ، وليصبر وليحتسب وليسامح ، فكان على هذا الحال الى أن لقى ربه .... رحمه الله ورضي عنه.

ولقد مضت قافله الطريق بالشيخ باهى تسير بعد رحيل الشيخ مسعد رضوان الله عليه ، يقودها على ما رسمها له والده من قبل ، وإلتف الإخوان حوله ، وعاهدوه على ما كانوا عليه مع والده ، فكان ردة عليهم دائما ، : نعم تسير هذه القافلة ولكن بكم أنتم لا بي ، فتجمعوا عليه وأنضموا تحت لوائه ، وأطاعوه وكانوا تحت إمرته ، وسار الشيخ باهي على ما سار عليه والده وكانت كلمته الشهيرة في ذلك : أن ثمار الطريق هي من أصل زرع الشيخ الكبير ، ولا يتعدى دورنا في الطريق إلا حصاد هذه الثمرة ، والذوق منها ، فمضي بهم الى الاحتفال بذات الليالي والموالد التي كان الشيخ الكبير يقيمها بدءً من المولد النبوي الشريف الذي كان يقيمه في إحدى ضواحي حلوان ، و بالمولد النبوي تبدا موالد أهل البيت من الست فاطمه النبوية الى سيدنا الحسين الى السيدة نفيسة الى سيدي علي زين العابدين الى السيدة زينب وكذلك الاحتفال بمولد سيدي احمد البدوي في مولده المولد (الكبير والمولد الرجبي) وكذا حضور الليالي التي إعتاد الشيخ حضورها ، وقيام خدمه بها ، كليله النصف من شعبان ، والتي كان لها عند الشيخ إهتمام كبير بها ، وكذلك ليله الرابع من شعبان ، وهي عيد ميلاد سيدنا الحسين ، وكذا ليله القدر التي كان يقيمها بجوار سيدنا الحسين ، وذلك خلال ليالي التي كان يقيمها الإخوان بمناسبات لهم ، وكذا الموالد غير الراتبة التي قد يقتصر الاحتفال فيها على حضور الشيخ وبعض من الإخوان ، على سبيل الزيارة ، كمولد سيدي إبراهيم الدسوقي ، ومولد السيدة سكينه ، ومولد سيدي شبل الأسود ، ومولد أبو الحسن الشاذلي ، و السلطان أبو العلا ، والسلطان الحنفي ، والسيدة رقية، وسيدي حسن أنور ، والمرسى أبو العباس ، وسيدي يونس الشيبانى ، و سيدي علي البيومي ، و سيدي عبد الرحيم القنائي ، و سيدي عمر ابن الفارض ، و سيدي احمد الرفاعي ، فكل هذه الموالد غير الراتبة كان للشيخ الكبير زيارات لها وحافظ الشيخ باهي على حضوره هذه الاحتفالات مع نفر من إخوانه.

وإعتاد الشيخ باهي حضور الاحتفال بسلطان الصعيد سيدي الفرغل في ابوتيج بأسيوط ، ولقد حدث في أول احتفالات الشيخ باهي بسيدي الفرغل أن أراد الشيخ باهي ذلك فصاحب معه الست أم محسب و حوالي 35 نفرا من الإخوان ، وإبتدأ بزيارة عم صديق في قريته الشعَّانية من أعمال قنا ، ثم إصطحبوه معهم الى زياره سيدي الفرغل في مولده ، وكان للشيخ باهي صولة وجولة عند أبناء الصعيد ، إذ كانوا يُجِلُّونه ويقدرونه ، فكان كلما يدخل إحدى خدمات المولد ، حتى يهب الجميع وقوفاً ، ويتركوا الخدمة بكاملها تحت تصرف الشيخ ، إذ كان هو والذين معه قرابة الاربعين فردا ، وتكرر هذا الأمر في خدمات متعددة ، فما كان من الشيخ إلا أن قال لام محسب : القطار اللي أحنا جئنا فيه نرجع فيه ... أحنا زورنا والحمد لله فقالت له أم محسب : (ليه هوة الفرغل فقير...؟ أنا هاقعد يعني هقعد ، وهو يشوف لنا مكان ... نقعد فيه فقال لها الشيخ باهي : ما ينفعش يا أم محاسب ... دا إحنا كل ما ندخل خدمه أصحابها بيقوموا .... ولا زالا في هذا الجدال ، حتى بدا لهم أحد المجاذيب فقال لهم مُوَجِّهْ كلامه الى الشيخ باهي ... ( تمام يا فندم ... المكان موجود) فكان هذا المجذوب هو رسول الفرغل الى الشيخ باهي بإيجاد مكان خاص بهم لضيافتهم في المولد ، فذهب الشيخ باهي خلف المجذوب ... فاذا به يفتح شقه كبيره في قلب أبو تيج ، مواجهه للساحة التي يقام فيها الذكر العام للمولد ، فاذا بها شقه مجهزه بالمفارش والمساند ، فأحضر لهم موقد يوقدون عليها طعامهم ، وأدوات للطبخ ، وأمدهم بالشاي والسكر وخلافه من مستلزمات الإقامة.

وتكررت زيارة الشيخ الى سيدي الفرغل سنوات عديدة بعد ذلك ، على هذه الشاكلة ، وكانت الست أم محسب حريصة على حضورها مع الشيخ لمدة قاربت العشرين عاما على التوالي ، حدثتنا بهذا الحديث السيدة أم حسين ابنة الست ام محسب : والتي كان لم يتجاوز عمرها في ذلك الوقت خمسة عشر عاما ولقد حدثتنا أنها في احدى أيام هذا المولد ، طلب منها الشيخ وهي على هذا السن الصغير ، أن تذهب الى السوق وتشترى له جِدْيْ (وهو الذكر من الغنم ) وتشتري ما يلزم للطبخ من الخضار وأمثاله ، وأعطاها 40 جنيهاً ، فذهبت وروحها تسبقها الى السوق ، وإختارت جِدْيَاً ممتلأً وسمينا، وسألت التاجر عن الثمن فاخبرها أن ثمنه 35 جنيها ، فلازالت تساومه حتى أخذت ذات الجدي بسبعه عشر جنيها ، وهي في ذاتها مندهشة من طريقه مساومتها للبائع ، وكيف تَأَتَّي لها أن تكلمه بهذه الطريقة ، فعلمت أن الأمر ما هو إلا مدد الشيخ لها ، وطلبت من التاجر أن يذبحه ويقطعه ، وفي هذه الأثناء أحضرت الخضار ، ثم عادت اليه فأخذت الجِدْىْ مذبوحا مقطعا ، ورجعت الى خدمه الشيخ ، فنظر إليها الشيخ باهي مبتسماً ، وكأنه قد رضي عن جهدها فيما تحب أن تجاهد فيه ، وهكذا كانوا يمضون أيامهم في سعادة غامرة مع صحبه أولياء الله ، وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونحن وان كنا نسوق هذه الروايات ، وهى ليست من الكرامات الظاهرة أو خوارق العادات ، فإنما نسوقها لنعايش هؤلاء القوم فيما تمرح فيه أرواحهم ، فإن هذه المناسبات والاحتفالات هي مسارح أرواحهم ، وانطلاقات أسرارهم ، فيها تلتقي الأجساد الحاضرة في الظاهر ، وفيها تلتقى الأرواح الهائمة في الباطن ، وفيها يلتقي الأحياء بأصحاب البرازخ ، وفيها يلتقي أصحاب البرازخ بأصحاب البرازخ ، وفيها يلتقون مع أهل البيت ، وفيها يلتقون مع الملائكة المقربين ، وفيها يرتقون الى عوالم الملكوت ، و ينظرون الى العرش والكرسي والأفلاك والأملاك والأسرار والغيوب ، وما كان ذكرنا لهذه الرواية إلا لتَصَوُّر تلك المشاهد في الأخيلة ، وان كانوا يرونها على حقيقتها ، فلم يكن سردنا لها لمجرد السرد والألقاء ، وإنما هي محاوله منا لرؤيه ما يرَوْنَه ، أو لرصد هذه الررؤية وتوثيقها ، عسانا نحن المحجوبون أن نعاين ما عاينوه ، ونشاهد ما شاهدوه ، حتى يجمعنا الله بهم في مستقر الرحمة ، فنلقاهم ويلقوننا ،ونحن جميعا في صحبتهم ، وتحت لوائهم و بين أيديهم .

ومما سار به الشيخ باهي على نهج والده أمر الدلائل ( دلائل الخيرات ، وهو كتاب يحتوى على صيغ مختلفة للصلاة على النبى ) ، فلقد أجاز الشيخ مسعد من قبل الشيخ محمد عبد الرحمن وهو من أبناء الفيوم أن يقرأ هو وإخوانه أمثال الشيخ بركات والشيخ محمود احمد حسن والشيخ علي سعد والشيخ صلاح طه وسيد عبد العزيز ، الدلائل لمده قاربت الاثنى عشر سنه وبعد انتقال الشيخ الكبير سار الشيخ باهي على نهجه ، فكان يقرا الدلائل في منزل محمود احمد حسن ، ثم إنتقل بها الى شقه أخرى في المطرية ، ومازال ملازما لها حتى انتقاله رضي الله عنه.

 ومن طرائف سيرة الشيخ باهى تلك الرواية التى تتناول أسرار الفواتح ، فدعنا نرويها لنعلم مالمقصود منها ، وهذه الرواية بطلها ، أحد المترددين على الشيخ باهى ، وهو الشيخ إبراهيم ، وكان أحد أئمة مسجد الإمام الشافعى ، وكنا نرى الشيخ إبراهيم على الدوام ، أحد ثلاثة ، إعتادوا زيارة الشيخ باهى ، وهم الحاج نعيم ، ومحمد الوردانى ، والشيخ إبراهيم بطل قصتنا ، وكان الشيخ يحب زيارتهم ، ويحب أن يسامرهم ، وينشرح صدره لمقابلتهم ، بسبب مايتصف به الشيخ إبراهيم من خفة الظل ، وروح المرح الذى تلازمه ، والمحبة التى كان يكنها للشيخ ، وكان الإخوان يحبون حضورهم ، لمحبة الشيخ وبشاشته بهم ، كان هذا الرجل طويل القامه مستقيم البنيه قمحي اللون مرتديا عمامة أزهريه ، وله لحيه بيضاء قصيره ممتدة على جانبي وجهه ، وكان بسيط السمة لا تكاد تراه إلا مبتسما أو ضاحكا ، يأخذك حديثه، بطرافة لفظه وطريقة عرضه، لايدعُ أحداً إلا ويباسطة ، خفيف الظل طيب المعشر ، لا تكاد تراه ألا ويأخذك الاستبشار بقدومه ، منتظراً منه سيلاً من القفشات والضحكات ، وهو مع هذا قريب الصلة بالله ، محبا لأوليائه ، وإن كان هو منهم ، وكان الشيخ باهي رحمه الله علي شاكلته ، مبتسماً ، طلوق الوجه ، محبا للمسامرة مع الإخوان، مسايرا لغيره في الطرائف والروايات الأخاذة والمعاني الجميلة ، فكانا إذا إجتمعا فكأنما اجتمعت معهم أسباب السمر ، وحلاوة الحديث ، واسترواح النفسن ، وسعادة الصحبة ، وصفاء الوقت.

وكان من تلك الأسرار التي قصها علينا الشيخ إبراهيم ونقلها الينا الشيخ باهي ما نحن بصدد الحديث عنه وهو سرُّ قوله: ( الفاتحة لسيدنا نوح اللي يقعد يقعد واللي يروح يروح ) وهي أنك إذا رأيت مشاجرة أو عراك قد إحتدم عُرَاه بين طائفتين أو طوائف من المتعاركين وتخشي على نفسك من أثر هذا العراك أو تلك المشاجرة ، فاقرأ الفاتحة لسيدنا نوح ، بنيَّة أن يذهب أصحاب الشجار ويرحلون ، ويثبت أهل الخير فيبقون في مجالسهم ، وهو قوله: اللي يقعد يقعد ، واللي يروح يروح .

وكان الشيخ باهي لايزال بين الحين والحين ، ينبه عليها في أوقات العراك، دون أن يشعر سامعه أن عراكا قد يكون وشيكا ، يستدعي منه هذا النوع من الذكر.

وتحكي أم حسين إبنة الست أم محسب عن هذه الأمر فتقول : كنا في زياره للشيخ باهي في خدمته الكائنة في مولد السيدة زينب ، وكانت معي أختي زينب و بينما نحن جلوس نتبادل اطراف الحديث ، حتى أخذنا الشيخ باهي الى ذكر سيرة الشيخ إبراهيم ، وذكر مقولته الشهيرة : الفاتحة لسيدنا نوح اللي يقعد يقعد واللي يروح يروح ، وأخذنا الكلام مرة أخرى الى أن غادرنا للذهاب الى خدمتنا المقامة قريبا من خدمه الشيخ باهي ، ثم تواصل السيدة أم حسين حديثها : فلما دخلنا الخدمة وكانت أمي مريضه تجلس في جانب منها ، وأولادي على الأرض نائمين ، وعليهم غطاء مشدود عليهم ، إذا بشجار ٍ، وعراكٍ شديد ، يأتي صوته من خارج الخدمة ، ثم لم يلبث أطراف العراك الى أن وصلوا الى الخدمة ، فأخذني الخوف على أمي المريضة ، وعلى أولادي الملقون على الأرض ، من أن تدوسهم أقدام الفرقاء ، وإشتد العراك الى أن وصل الأمر لإستخدام السكاكين والمطاوي ، وقتذلك تذكرت مقولة الشيخ باهي في سر هذه الفاتحة المنقولة على الشيخ إبراهيم ، وهنالك قلت لزينب أختي : (تعالى نقرا الفاتحة لسيدنا نوح بنيَّة اللي يروح يروح) وما أن بدأنا في تلاوتها ، إلا وإنطفأ لهيب العراك ، وخرج الفرقاء من مكان الخدمة ، وهدات الأمور وكان شيئا لم يكن ، فعرفت من ذلك ما الذي دفع الشيخ باهي الى أن يُذَكِّرْنا بهذه المقولة حين كنت معه في الخدمة دون أن يذكر الدافع لها.

وكان أول ظهور لسر هذه الفاتحة في خدمه أقامها الشيخ باهي في مولد سيدي حسن الأنور وقد كان مجموعه من شباب هذا الحي يُزْمِعون أن يفتعلوا عراكا أمام الخدمة ، كنوع من بسط السيطرة على المكان ، وفرض السطوة على الوافدين عليهم في المولد ، وشعر الإخوان بخطرهم فأستعدوا لهم، وشعر الشيخ باهي بذلك كله ، وكان الى جواره الشيخ إبراهيم ، فقال للشيخ باهي : ( بقولك إيه يا شيخ باهي ، إقرأ معي الفاتحة لسيدنا نوح اللي يقعد يقعد واللي يروح يروح ) فما أتموها إلا ونفرٌ من هؤلاء الشباب المتآمر قد دخل الخدمة ، وسلموا على الشيخ ، وشربوا الشاي ، وأما النفر الأخر فذهب بعيدا، وانقضى الخطر ومر الأمر بسلام .

وللفاتحة أسرارٌ لا يعرفها ألا أهل الله ، ولكل نبيٍ سرٌ مع الله مخصوص به، والأولياء العارفون يعلمون هذه الأسرار ، أسرار الفواتح وأسرار الأنبياء ، ولهم الكشف فيها ستجري بها الأمور ، ويعرفون الداء والدواء ، كل هذا في سترٍ وغطاء ، وبكثير من البساطة في العطاء ، رحم الله الشيخ باهي الذي نحارُ في خفاء عطائه ، وخفاء قَدْرِه ، وخفاء سرِّه ، فكان نعم الوارث لوارثه الشيخ مسعد ، الذي نحار أيضاً في قَدْرِه ، ولم نطَّلِع على سرِّه ، والذي لا يزال بين أيدينا مدده ، والحمد لله على نعمته ، ورحم الله الأولياء الذين كنا نراهم في صحبته وما أكثرهم .

وللسماع في طريق الله أثر شديدٌ عند أرباب الأحوال ، وقد يحدث للمستمع في حال السماع شوق الى ما يُذَكِّره به سماعُه ، فيهبَّ من مكانه ، فِعْل من يريد الذهاب الى محبوبه ، فاذا علم أن لا سبيل الى ذلك ، كرر الوثوب مرات و مرات ، ثم يدور دوراناً متتالياً ، وقد يكون ذلك عن ترددٍ يظهر في حال السماع بين الروح والجسد ، فالجسد ثقلانيٌّ مرتبط بالطبع ، وهو الذي يجذبه لأسفل، لكونه من التراب ، فيسكن الى الأرض ، والروح علويه مخلوقه من الفرح ، تدفعه الى اعلى من حيث عالمها العلوي ، والحقيقة أنه اذا قويت الروح بالسمع، أشرقت على مقامها ، فلا تستطيع أن تتحكم في ابدأنها ، فيظهر من المستمع الاضطراب في الحركة ، فالسماع محركٌ للحب على الأطلاق، وتختلف أحوال المحبين بحسب قوتهم أو ضعفهم ، فمنهم من يكون معتدلا ومنهم من يتجاوز هذا الحد من الاعتدال .

وتروى أم حسين حالها مع السماع ، وإنفعالها به للدرجة التي كاد أن يودي بحياتها ، ويجعلها من الهالكين ، لولا وجود الشيخ باهي الى جوارها ، فأفاقها من سكرتها ، تقول أم حسين : كنا في مولد سيدي الفرغل بأسيوط وكانت الخدمة التي نقيم فيها عباره عن شقه في الدور السابع من عماره مقابله للمكان الذي يحيي فيه الشيخ التوني الذكر العام للمولد ، وكنت واقفه في بلكونه الدور السابع ناظرةٌ وسامعةٌ إنشاد الشيخ التوني ، ومن داخل الشقة يجلس الشيخ باهي مع زوَّاره من أولياء الصعيد ، الذين أتَوا لزيارته حين علموا بوجوده ، ولا أزال غائبه مع الذكر الذي أسمعه من الدور السابع ، ولا يزال الذكر يؤثر فيَّ ، ويصعد بروحي في معاني ما اسمعه ، حتى كادت روحي الى النزول الى ارض الذكر ، فأكون مع الذاكرين في سماعهم ومصاحبتهم في حلقتهم، فصار هناك صراعا بين العقل والروح في هذا الشأن ، يحذرني العقل من الهلاك أن هبطت اليهم من الدور السابع ، وتُهَوِّنُ عليَّ الروحُ شأن النزول ، وكأنما المسافة بيني وبينهم ثلاثة امتار ، وأنظر الى هذه المسافة من منظور روحى فأجدها بالروح ثلاثة أمتار ، فاذا نظرت إليها بالعقل وجدتها سبعه أدوار ، ولا زلت في هذا الصراع حتى كانت الثالثة ، التي رفعت فيها قدمي بالفعل ، انتصارا لحكم الروح علىَّ ، وهممت بالقفز ، فاذا بالشيخ باهي في لمح البصر يقفز الىَّ من داخل الشقة ، فامسك يديّْ ، وقاللي : (أيه يا بنتي اللي أنت هتعمليه ده؟ )وكنتُ في هذا الوقت في غمره من حالي من إثر إنشاد المنشد، ولا يزال الشيخ باهي يوقظني من غيابي المرة تلو المرة ، وأنا لا أزال في غيبة من حالي ، ثم نقر على جبهتي عده نقرات فأفقت بعدها ، ثم قال لها: (أيه يا بنتي ها تضيعي نفسك وتنطي من سابع دور وتخليني أنط من وسط الرجالة عشان ألحقك) .

والشيخ مع المريد لا يزال ناظرا اليه في جميع أحواله ، ملاحظاً له سائرا به نحو نجاته ، مانعا إيَّاه من هلاكه ، وصمام أمان المريد في قبضة الشيخ ، إن شاء منع عنه رأث إنشاد الذكر عليه ، أو شاء جعله متأثرا به ، ولكن تمت سيطرة قبضته عليه ، كما هو الحال مع أم حسين وسيطرة الشيخ باهي على أثر الذكر عليها ، والحقيقة انه لا خوف للمريد على نفسه من شيء ، فان سيطره الشيخ علي أحواله تقيه من تجاوز الأحوال ، وقد ذكرنا في بداية هذه الرواية أثر السماع على السالك ، وذكرنا منطلق هذا الأثر وسببه.

والحقيقة أن رعاية الشيخ مسعد لأبنائه لم تقف عند حد إنتقاله بل انتقلت الى ولده الوارث لطريقه من بعده ، فكان الشيخ باهي رحمه الله ناظرا الى أبنائه ساعيا في مطالبهم راعيا لهم ، فهذه أم حسين ابنه الست أم محسب وقد قام بينها وبين والدتها في أحد مرات مولد الشيخ شيءٌ من المخاصمة لنسيان أم حسين امرأ ضروري لم تحضره معها أثناء تجهيزها حاجات المولد، ونشأ شجار شديد بينهما إنتهى الى أن أقسمت أم محسب ألا يكون لها مع ابنتها بقاء في المولد ، إما أن تذهب هي أو تذهب ابنتها ، والأمر جد عسير على الإثنين ، فان أم حسين تنتظر أيام المولد وتحسب مواقيته من العام للعام ، وتعتبر أن هذه العشرة أيام هى عشرة أيام من الجنة ، والأمر عسير أيضا على أم محسب في أن تغادر المولد ، وهي من هي في مقامها من أبناء الشيخ ، وأدركت نهلة أنه لا مناص لها من مغادرتها هي ، ولم تجد حلاً إلا أن تذهب لزياره الشيخ مسعد في مقامه ، وتشكو إليه فعل أمها بها ، ففعلت وشكت ، وما إن أدارت وجهها ، إلا ورأت الشيخ باهي قائما أمامها داخل المقام، ماسكاً يدها ، سائلا إيَّاها عن أسباب اضطرابها ، فتعجبت من سرعه وجوده بمجرد نطق شكواها ، فشكت له الأمر ، فهدأ من روعها ، وطلب منها أن تذهب على الفور الى الخدمة ، ثم ذهب الى أمها ونادي عليها وطلب منها أن تترك نهله وشأنها فقالت له : ( حاضر يا عمي ) ....

وللشيخ باهي في أيام المولد شأن غريب ، تكاد تراه في كل مواطنه وخدمات أبنائه ، في وقت واحد ، مارً علي كل خدماته مطمئنا على أحوال سيره ، وأنت تشعر في ذات الوقت أنه لم يغادر صحبتك ، ولم يغادر صحبة من كان معه ، وكانه صورة متماثله في أنحاء المولد ،

ومن عجائب رعايته ما حدث أيضا مع ذات الراوي للقصة السابقة وهي أم حسين إبنه أم محسب فقد أصابها شيء من التغيير الصبغي في لون جزء من أجزاء جلدها بجانب العنق ، وأعيتها السبل في علاجه ، وظنت أمها أنه نوع من أنواع البهاق ، وهو مرض لا علاج له ، فأشارت عليها أمها أن تخبر به الشيخ باهي ، فلما حضر الشيخ باهي وجلست أمامه وأخبرته بالأمر ، فوضع كفه الأيسر على عينيها لكي لا ترى ما سوف يقوم به ، ثم وضع سبابته اليمني في فمه وبَلَّهُ من ريقه ، ثم مسح بأصبعه على مكان هذا الجلد المتغير في لونه من جيدها ، فأزال على الفور هذا التغير في اللون ، وصار مثل سائر الجلد ثم رفع يده اليسرى عن عينيها وقال لها : أين يا بنتي هذا الجزء الذي تكلميني عنه ؟ فنظرت اليه من جانب عينيها فلم تجده وكانت قد رأت من خلال أصابع الشيخ باهي اليسرى وهو على عينها ما كان يفعله .

والذي قصصناه عليك يدل من جانب على أن الوارث قد ورث عنه قَدْرَهُ ، وأن الصفة التي تجدها في الشيخ مسعد ، هي ذات الصفة التي تجدها في الشيخ باهي ، وأنهما من العباد الربانيين الذين من شانهم مع ربهم أن يقولوا للشيء كن فيكون ، وان هذا الجوهر الرباني القائم في الشيخ باهي وعمى الحاج مسعد هو جوهر واحد ، وإن تعددت الأردية ومظاهر الأشخاص ، رحمهما الله ، وجمعنا بهم في مستقر الرحمة.

ومن جانب أخر تدل هذه الروايات على عنايه الشيخ بأبنائه ونظره إليهم ومدده لهم وانهم في جميع أحوالهم تحت هذه العناية وهذا النظر وهذا المدد ، فكأنما المريد موصولا بشيخه بحبل طويل لا ينقطع عُرَاه ، وقَوْدَ هذا الحبل في يد شيخه مهما ذهب المريد بعيدا عنه ، والحقيقة أن المسافة تكاد تكون صفراً بين المريد والشيخ ، يراها الشيخ هكذا على حقيقتها ، ولا يراها المريد إلا وقت الحاجة اليه ، ولم يكن هدفنا من هذه الروايات ، الرواية فى ذاتها ، وإنما هدفنا مانستنتجه منها مما يجب أن نعلمه عنهم ، من أن الله قد جعلهم ولاة لنا وعلينا ، ووكلاءاً لله فى شأننا ،وقد تبدو الرواية بسيطة فى أحداثها ، ولكنها عميقة الدلالة فيما تشير إليه ، ولا يساور صاحبها الشك فى ذلك ، ولم تكن هذه الأحداث تجارب شخصية لأصحابها دون غيرهم ، بل كانت شائعة بينهم ، يتحدثون عنها ، ولا يجدون غرابة منها ، بسبب أنهم أصحابها وأحداثها واقعة بهم ، وهم كانوا طرفا فيها ، فإذا عارضهم من عارضهم من خارجهم ، إستغربوا معارضته لمخالفة الواقع الذى عاينوه فى أنفسهم ، لأنه كما قيل ، ليس مع العين أين .

ولقد كان لبعض كلمات الشيخ باهى مع أبنائه معان خلاف الظاهر منها، وإشارات كإشارات أهل الله ، ومن تلك الكلمات تلك الكلمات التي كان يرددها الشيخ باهي مع نهله إبنه أم محسب ، فكان يقول لها : والله يا نهله أنا مش هرتاح ، إلا أما أشوفك وأنت تحت مقطورة 36 عجلة داهساكى في الأسفلت وما يبقاش فيه نهله خالص ، فكانت نهله تنظر الى الشيخ متعجبة من هذا الذي يرجوه لها ، فيضحك وتضحك أمها من كلام الشيخ ، ومن تعجب نهله منه.

 والحقيقة أن المقصود بالمقطورة هي تلك المجاهدات والرياضات التي يمر بها السالك في طريق الله ، وتلك الصعاب والأهوال والمهالك التي يمر عليها في خلاله ، وتلك ألآفات والمعاطب والبلايا والمحن التي يجتازها السالك في هذا الطريق ، وهى كالنار التى يوقدها الواقدون على الذهب ليخرج منه خبثه ،ويزول عنه ماليس من جنسه ، وهى فى المريد رغائب النفس ، وآثار الطبع ، ومذام الأخلاق التى تقف فى سبيل السالك فى طريقه إالى الله ، وهى بمثابة العلائق التى تربط النفس بالروح ، فإذا زالت هذه الوائق تحررت الروح منها ، وإنطلقت الى الملأ الأعلى ، الذى هو أصل موطنها ، حتى لا يبقى في نفسه نفس ، فيلقى الله وقد فنيت ذاته في ذات الحق ، وذابت إرادته في إرادته ، وقد علم أن لا بقاء لوجوده في وجود الحق ، فإن النفس للإنسان كالأخلاط والشوائب التي تمتزج بالذهب النقي ، ولا رؤيه لنقاء الذهب وتخليصه من هذا الأخلاط والشوائب ، إلا بالنار العاتية التي تنقدح فيه ، فتذوب هذه الشوائب ، و تفني هذه الإخلاط ، وترتفع على سطح الذهب ، وتنحسر على جانبيه ، تاركة الذهب خالصا رائقا نقيً لا تشوبه شائبه ، ولا تمتزج به أخلاط ، هذا الذهب الخالص هي الروح الإلهية الصادرة من عليائه والراجعة إلى ربه.

 وقديما قال الشيخ إبراهيم الدكرورى لعم الحاج مسعد (يا مسعد اذهب وإدفن أبي داود ثم تعالى الىَّ) وأبو داود هو لقب عائلته ، وقصد بها نفسه التي بين جنبيه فاذا فنيت هذه النفس ، كان له التأهب للسير في طريق الله ( أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا أمنا وهم لا يُفتنون).

ومن تلك الكلمات التي كان ينطق بها الشيخ باهي أيضا والتي هي الأخرى على سبيل الإشارة قوله للشيخ خالد ابن أم محسب : (يا شيخ خالد أنت مراسلنا في الساحات ) والمراسل هو المندوب الذي يرسله أحدهم الى مواطن الرعاية والعناية والاهتمام ، ولهذه المقولة سبب في القول بها ...... فلقد كان الشيخ خالد وهو من أبناء الشيخ ومن أهل طريقه عادة أو طبع في ألا يكون له مقام في خدمة ابدً ، فيظل طوال أيام المولد متنقلا من خدمة الى أخرى ، وكان هذا الأمر يُقلق الشيخ خالد في نفسه ، كونه لا يستطيع التخلص منه ، مع مجاهدة نفسه في مقاومته ، وكثيرا ما يسأل نفسه عن السبب في ذلك ، فلا يكاد يجلس في خدمة شيخه ألا ويطرأ عليه خاطر المرور على باقي الخدمات ، فيطوف طوفته ثم يعود إلى خدمة عمه ، ولا يزال هكذا طوال المولد ، وكان هذا الأمر أيضا يثير ملاحظات الإخوان عليه ، ولقد إعتاد أبناء الشيخ أن يقيموا في خدمه شيخهم فلا يبرحونها ، وإذا تصادف تواجدهم في مكان أخر شعروا بالغربه الشديدة التي لا تسكن ألا برجوعهم إلى شيخهم ، فكانوا يستغربون هذا من الشيخ خالد الذى هو على خلاف ماتعودوا عليه ، فالأمر مثير للقلق من جانب الشيخ خالد ، ومن جانب الإخوان ، و حدث ذات مرة أنا طال مكوث الشيخ خالد في خدمة الشيخ على غير عادته ، الأمر الذي إستدعى الشيخ باهى أن يساله عن ذلك ، مما جعل الشيخ خالد يستغرب مراد الشيخ منه ، وتساءل فى نفسه : هل يبقى في خدمته أم يظل على ما اعتاده من إرتياد باقي الخدمات؟ ... ولمَّا إستشعر الشيخ باهي منه هذا الشعور ، وإستشعر من الإخوان نظرتهم اليه ، قال لهم مُبَرِرَاً عنه : (الشيخ خالد هو مراسلنا في الساحات ) وكأنما الشيخ خالد هو مندوبنا في المرور عليهم .

وكأنما نستنتج من ذلك شفوف طريقنا على طرائق القوم وليس ذلك من قبيل الفخر والعجب وإنما هو من قبيل الإشراف والنظر ، فإن للطريق مقامات ومراتب ومنهم الرئيس والمرؤوس ، وللرئيس رئيس وللمرؤوس من هو دونه ، وهذه الأمور مكشوفه لديهم معلومة لهم ، وان كانت هي لنا استنتاج إلا أنها لهم حقائق ، وإنما قلناه من باب الإحساس بالأمر لا من باب الجزم واليقين به ، فان أبناء الشيخ يعلمون في انفسهم ويوقنون في ضمائرهم ألا مقام لهم إلا الى جوار شيخهم ، وأن خدمه الشيخ هي محط أنظار باقي الخدمات ، وموطن زيارات باقي الخدمات ، والجميع أحباب لنا ونحن أحباب لهم نحبهم بمحبه الشيخ لهم ونقدرهم بتقدير الشيخ لهم والجميع محبوب من الشيخ مقدر منه نفعنا الله بهم في الدنيا والأخرة أمين يا رب العالمين.

ومن كرامات الشيخ باهى التي هي في الأصل من كرامات أبيه ، فإنها ذريةبعضها من بعض ، ما قصته علينا السيدة أم حسين ابنه  الست أم محسب ، فقالت :

كان الشيخ قد إعتاد في أيام المولد ( مولد سيدنا الحسين) أن يبيت في الخدمة (المجاورة لمنزل السيدة أم محسب فى الدراسة ) وكان في هذا المبيت نوع من المشقة عليه ، فأرتأت أم حسين أن يبيت في ليالي المولد في آخر يومه ، في الغرفة الداخلية من بيت أم محسب ، وكانت الغرفة بعيده عن الحمَّام ، فاعتذر الشيخ عن قبول هذا الأمر لبعد الغرفة عن مكان الحمام، فاقترحت عليه أم حسين أنت تدع له غرفتها القريبة من الحمام ، وتبيت هي في الغرفة البعيدة ، فرفض ذلك أيضا ، حتى لا يكون سببا في تغيير ما إعتادت عليه من نومها هي وأولادها ، ولكنها أصرت إصرارً شديدا على ذلك فما كان منه إلا القبول .

 وأعدت أم حسين الغرفة لاستقبال الشيخ وفرشتها ، وأعدت لنفسها الغرفة البعيدة ، وأنامت أطفالها فيها ، وبعد إنتهاء الذكر دخل الشيخ غرفته ، ودخلت أم حسين غرفتها ، وخلدت الى النوم ، فلما غمرها النوم رأت في الرؤيا ، وكأنما شيخ مهيب جميل أبيض اللون ذو لحية بيضاء ناصعة ، قد دخل الى غرفتها ، وكانت زينب اخت أم حسين في استقباله ، وسألها عن نهله أم حسين ، فأشارة إليها ، فلما قامت أحاطها هذا الشيخ الجليل بذراعه وضمها الى صدره.

تقول أم حسين واصفه هذه الضمة ، بأنها ضمةٌ لم تذق مثل حلاوتها في حياتها ، وكان من أثر مذاقها أن غاب عقلها وسكرت منها سكرةً لم تفق بعدها، وغادر الشيخ الغرفة ، واستيقظت أم حسين من نومها ، ولا تزال سكرتها فيها، ولا يزال عقلها غائبا فيما شعرت به ، فذهبت ببعض هذا العقل إلى غرفة الشيخ باهي ، فوجدته قد ذهب الى الخدمة ، فسعت إليه وهي في غيابٍ عن رشدها ، ثم جلست أمامه وهو ضاحكٌ ، ناظرا إليها ، فقال لها مبتسما: مالك ... قالت … أنا كويسه يا عمي …. فقال لها : أمال مالك تائهة كده ليه؟ ... فقالت له ... مش عارفه … أنا صحيت من النوم لقيت نفسي تائهة كده ، ثم نظرت الى الشيخ باهى ، وكأنما شاهدت فيه ذات الصورة التي رأتها للشيخ في منامها ، فقالت في نفسها : (أيه ده هو ده مين؟ )وفي ذات الوقت الذي سألت فيه في نفسها عمن هو صاحب الصورة ؟إذا بالشيخ باهى ينقر على جبهتها نقرتين ، أفاقت بعدها ، وعادت الى رشدها ، وذهبت عن غيبوبتها …. فلما أفاقت قال لها ...( فُقْتِى؟) فقلت (نعم) …. فقال لها طيب إذهبى الى هناك وشوفي هتعملي اكل أيه للإخوان ، وظلت صورة هذا الرجل في خيالها لم تغادرها ، وهي الصورة التي رأتها في وجه الشيخ باهي حين نظرت اليه.

ولا أدري ما يمكننا قوله تعليقا على هذه الرؤية ، إلا أن الصورة البهائية اللطيفة الجميلة التي راتها أختنا العزيزة في الشيخ باهي هى ذات الصورة البهية الجميلة التي كان عليها الحاج مسعد ، وهي ذاتها الصورة البهائية الجميلة التي عليها صاحب الطريقة سيدى سعد الدين الجباوى ، وهى ذاتها الصورة الكاملة التامة النقية العالية التي هي صورة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو الإنسان الكامل التي تجلت فيه الحقيقة المحمدية ، والتي إنتقلت الى ورثته من بعده واحدا بعد الآخر ، حتى وصلت الى آخر موروث ، فمن رآهم وسعد بهم و آمن بهم ، وإلتقت نظراتُه لهم ، ومدده عليهم ، فكأنما نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمده بمدده ، ومن كان على هذه الشاكلة فهو من أهل شفاعته صلى الله عليه وسلم.

ومما يؤيد صدق ما ذكرناه ما ذكرته أم حسين في لاحق بعد انتقال الشيخ باهى رضى الله عنه وبعد انتقال أمها أم محسب ، وقد شاهدت ذلك في رؤيا نورانية رأتها نقصها عليك أيها القارئ بنفس لفظ من رواها تقول اختنا أم حسين:

رأيت في رؤيا رأيتها وانا في الدراسة وهو مكان خدمه الست أم محسب … أن قوما أتوا إلي وقالوا لي : يلا … هانجهزك … عشان الناس الى جايين لك … فقلت لهم : هاتجهزونى أزاي ….  يلا تعالى نامي على السرير عشان واحد خواجة جايلك عشان يجهزك … عشان تقدري تتحملي اللي عمك هيعطهولك … ولازم نجهزك الأول فاستلقيت على السرير ثم رأيت الشيخ باهى قادما نحوي … ولكنه في صوره وكأنه أربع صور مختلفة وليست صوره واحدة ، ثم رأيت هذه الصور الأربعة المختلفة قد دخلت في جسدي … ثم قال لي الشيخ باهى : يا نهله … الأربعة ياابنتي … الأربعة… ماينفعش غير الأربعة ، ثم استيقظت من نومى على هذا الحال ، ووقع في خاطري أن هؤلاء الأربعة، هم الأقطاب الأربعة، سيدى احمد البدوي وسيدى احمد الرفاعي وسيدى إبراهيم الدسوقي وسيدى عبدالقادر الجيلاني، وكأنما هذه الطرق الأربعة المختلفة ماهي ألا طريق واحد لا ثانىَ له ، ذلك الطريق هو طريق النبي صلى الله عليه وسلم وهو الإنسان الكامل الذى ينتهى اليه كل طرق أهل الله فجميعهم الى رسول الله منتسب وهو ما ذكرناه في تعليقنا على الرؤية السابقة.

ومن كرامات الشيخ باهي ما قصه علينا الشيخ خالد ابن أم محاسب فنذكرها ثم نرجى التعليق عليها بعد سردها يقول الشيخ خالد:

كانت ليلة مولد سيدي احمد البدوي ، وكنت قد وصلت فيها الى المولد في حوالي الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، فلما دخلت الخدمة وجدت معظم الإخوان رقودا إلا قليلا منهم يتحدثون ، ثم سألت عن الشيخ باهي، فقيل لي انه مستلقي قليلا ، فقلت في نفسي أذهب لزياره سيدي احمد البدوي ، فلما ذهبت رأيت باب المسجد مغلقا إذ كان الفجر لم يُؤَذِن بعد ، فانتظرت بجوار الباب ريثما يفتح الباب لصلاه الفجر ، و قبيل الفجر بقليل ، إنفتح الباب فدلفت منه الى داخل المسجد ، فلما دخلت وأردت أن اذهب الى زياره سيدي احمد البدوي في مقصورته ، وجدت باب المقصورة موصداً ، فقلت في نفسي ، أذهب للوضوء ثم اصلي ركعتين ريثما يفتح المقام ، فلما إنتهيت من الصلاة وجدت أحدهم يذهب لفتح المقام ، فذهبت خلفه ، وما أن فتح الباب ودلفت منه وكان وجهى مقابلا للمقام ، وإنحنيت على يميني ، متوجهاً الى زاويه المقام التي فيها قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، هالني أن رأيت الشيخ باهي جالسا في ركن المقام المقابل لزاويه الضريح التي فيها قدم النبي، ورايته في هيئه غريبة ، وكأن راسه الشريف قد ملا هذا الركن حتى كاد أن يلامس إطار الضريح ، ورأيت كأن تلفيحته تكاد تعم الضريح من جميع جوانبه، فارتعدت فرائصي ، وهالني رؤيته على هذا النحو ، فرجعت الى الوراء قليلا مستغربا في نفسي ، قائلا لها: لقد ذهبت الى الخدمة فعلمت أن الشيخ مستلق ، ثم ذهبت الى المسجد فكنت أول الداخلين اليه قبل الفجر ، ثم تابعت الخادم الذي توجه الى فتح المقام ، فكنت أول الداخلين الى المقام، فمتى وأين دخل الشيخ باهي المقام ، ثم ما هي الصورة التي رأيته عليها، بهذه بهذا الوجه الضخم الذي كاد أن يلامس اطار المقصورة ، ثم ما معنى التفاف تلفيحة الشيخ حتى كادت أن تعم المقام بأكمله؟ ، كل هذه الأسئلة طافت بخاطري حال رؤيتي ، والإرتعاد من وجوده على هذا النحو ، وفي هذه الأثناء رأيت عيني الشيخ وقد توجت نحوي ، وجعل عينيه في عيني مركزا ناظره عليه ، فرجعت القهقرىّْ ، وجريت في المقام ريثما تهدا رعدتي ، وانتظرت قليلا حتى يدخل البعض الى المقام للزيارة ، فأدخل معهم ، فرأيت الشيخ في ذات المكان ، ولكن بالصورة الطبيعية ، فسلمت عليه ، وقبلت يديه وأتممت الزيارة ، وخرجت الى خارج المقام ، فرأيته في المسجد ، وقد جاء من الخدمة مستعدا لصلاه الفجر ليصليه مع الناس.

وأول حقائق هذه الرواية أن الشيخ تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وقلبه هو روحه الهائمة في ملكوت الله ، وهذا من الأخلاق المحمدية إذ كان الرسول صلى الله وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وهو أيضا من أخلاق الرسل والأنبياء إذ كانوا على هذه الصفة ، .... وثاني هذه الحقائق أن الصورة التي راها الشيخ خالد هي الصورة البديلة التي تلبست روح الشيخ ، وتلك الصورة الروحانية لا تخضع لقوانين الزمان والمكان ولا الكيف أو الكم ، فلا تسأل عن توقيت دخول روح الشيخ المكانية بهذه الصورة التي رآها ، ولا تسأل كيف ينتقل من مكان الخدمة الى مكان الضريح ، فإن المسافات التي عليها الأرواح منعدمه صِفْريَّة، فهي في مختلف الأماكن في الآن الواحد ، ولا تسأل عن حجم الشيخ ولا المساحة التي كان يجلس عليها ، فإنه في كل الأماكن بحجم المكان الوقع فيه ، ثم إن تجليه بهذه الصورة للشيخ خالد ، إنما هو من قبيل كرامه الشيخ خالد لدي الشيخ ، وإطِّلاعه على كرامة من كرامات الشيخ ، والكرامة كما قال الشيخ ناصر هي أمر خاصٌ بين المريد والشيخ ، والمريد هو المقصود من هذه الكرامة لا غيره ، ثم أن نظر الشيخ الى الشيخ خالد و تحديقه في عينيه إشارة أخرى الى كرامه الشيخ خالد لدى الشيخ ، فإنه بعينيه وتحت مدده مثل قول الحق لموسى : (فانك بأعيننا) جعلنا الله جميعا من أحباب الشيخ ومن المقربين لديه ومن أرباب مدده ونظره أمين يا رب العالمين.

وينبغي على المريد أن يظن الكمال في شيخه ولا يسيء الظن به ما دام قد إرتضى في ذاته أن يكون مريدا له ، وإبناً من أبناء طريقته وإذا خاطر عقلك النظر بالنقص في حقه ، فأعلم أن ما تراه نقصاً قد يكون عين الكمال ، ولكنك لا تعلم وجهه الكمال فيه ، فأنت أيها المريد اذا جاءك من الله شاهد بصدق شيخك في طريقه معك وصلاحه وتقواه ، وسرت معه في سلوكك الى الله بما أوصاك به ، فأثمر هذا السلوك لديك معارف لم تكن عندك ، وشعرت بتجليات روحانيه في قلبك ، وشعرت بقربك من الله و قربه منك ، ورأيت توفيقاً من الله لك في ظاهر حياتك وباطن روحك ، فإذا حصل لك ذلك كله ، فإنك تعلم بلا شك صدق الطريق وصدق المربى وكماله في إرشاده لك ، ولا يختلجك شكٌ فيه ولا ريبةً منه ، فانت ، مثلاً ، إذا قصدت أمراً ووصفوا لك الطريقة الى ما قصدته فسرت معه بحسب ما وصفوه لك ، فظفرت بطلبك ووصلت الى مرادك ، هنالك تعلم صحه الطريق الذي سلكت ، والمسار الذي سرت فيه ، وأنت إذا أردت أن تزرع شجرة وصبرت على ريها وإنباتها ، ثم صادفك أن أنبتت لك ثمرة ، ثم تذوقتها فوجدتها طيبه الذوق ، زكيه التناول ، هنالك تعلم طيب الشجرة وذكاء أصلها، فإذا كان لك مثل هذا الحال مع الطريق والثمرة ، ثم حصل لك أن ذممتها وقدحت في حقها ، بعد ما وصلك منها من تحقيق مطلوبك منها ، وذوقك الخير من ثمارها ، فماذا يكون الحكم عليك في ذلك ، وقد علمت باطن الطريق وأصل الشجرة ، فمثل هذا مثل من قدح في شيخه بظاهر كذبٍ ، لم تعلم أصله ولا مدلوله ولا تأويله ، وأنت قد علمت مسبقا صدقه معك وسيره بك في الخير ، وذقت منه حلاوة التجليات ، ومتعه القرب الإلهي ، وذقت معه عوارف الكلم ، و علمت منه أسرار الطريق.

ثم إنك أيها المريد ، لا تدري السر فيما ظهر لك فيما ظننته مخالفة ، فربما يكون لك هذا الذي ظهر لك ، إختبار لك في نول درجه في الطريق ، يعلو بك شيخك درجه فيه ،ولا يكون طريق الحصول على هذه الدرجة إلا بكمال اليقين في شيخك ، والاطمئنان الى تصرفه ، حيث لا تعلم الدافع اليه ، فلقد سمعت من الشيخ باهي ذات مرة ، أن عم الحاج مسعد إختبر إبنا من أبنائه ، بأن وضع في خواطره دواعي القدح في ذات وأخلاق الشيخ ، وظل هذا الرجل على يقينه بشيخه برغم الخواطر التي تواردت عليه بالقدح فيه ، ولم يكن هذا الأمر يوم أو يومين بل إمتد الى سبع سنوات متواصلة وهو لا ينصرف عن محبته لشيخه ولا القدح فيه.

فاذا صادف أحدهم مثل هذا القدح في الشيخ من تلقائه ، بالرغم من توارد الأدلة والبراهين لديه على كمال شيخه ، فإن هذا المريد وجب أن يخضع لتربيه شيخه وتأديب مرشده.

فقد حدث أن وقع أحد المقربين من الشيخ باهي ، فيما وقع فيه مَنْ ذكرناهم، فنسب المخالفة للشيخ بظاهر الأمر ، ولا يعنينا في هذا الأمر ظاهر المخالفة وإنما يعنينا القدح في الشيخ ، بالرغم من جلاء الأدلة على صدقه في الطريق ولا يعنينا شخص ذاك المريد الذي وقع عليه الاختبار ، وإنما يعنينا ما كان من الشيخ له من جراء هذا التجاوز ، فعاقبه الشيخ بحادثه ردعته وردته الى حقيقه الأمر ، فاعتذر للشيخ عن ذلك التجاوز ، ولقد تكرر هذا التجاوز من أشخاص أخرين ، وكان نصيبهم مثل نصيب صاحبهم ولا يجنح بك الخيال الى تصور الانتقام من الشيخ له ، فان محبته لولده كانت هي الدافع الى تأديبه ، و أنه بالرغم من المخالفة فإنه لا يزال ولده ، فما كان التأديب إلا لإعادته إلى جادة الطريق وسلكه في طريق شيخه ، وإلا لأقصاه من تحت إمرته وأعاده الى طريق من لا شيخ له ، وأنزله من منزلة المريد بشيخه ،الى مرتبةالمريد بنفسه ، وما أقسى على الأنسان أن يفتقر بعد غناه ، وأن يزِل بعد عِزِّه ، وأن يكون في المنع ، بعد أن كان في العطاء ، وأن يكون في نار الحرمان ، بعد أن كان في عِزِّ القبول ، أعاّذنا الله من ذل السلب بعد عز العطاء أمين يا رب العالمين .

ولدوله الباطن في أهل الله شؤون لا علم لنا بها وخوارق لا تخضع لميزان العقل فكان للشيخ مسعد بعد إنتقاله شأنٌ مع الشيخ عزت الدهشان من الفيوم وهو من محبي أهل البيت ومن الأولياء المقربين ومن أتباع سيدى الجنيد ، ولم يكن له نصيب رؤية الشيخ مسعد فى حياته الظاهرة ، فقد حدث في زمن أحد موالد الشيخ مسعد ، أن جاء للشيخ عزت الدهشان دعوة لزيارة الشيخ في مولده ، ولم يذكر الراوي مَنْ أعطاه هذه الدعوة ، وفي الليلة الكبيرة وهو في بيته في الفيوم ، وكان الوقت بعد المغرب ، رأي رؤيةً أيقظته من نومه ، فوجد من يوقظه قائلا له : (اليوم هو الليلة الختامية لمولد الحاج مسعد ، لِمَ لم تذهب اليه ؟ الم تصلك دعوته؟) ، فقال له: (ليس معي نقود لأذهب إليه)، فقال له☹ (إذهب وسوف تجد مالا تذهب به ) فلما إستيقظ من نومه قال لصديق له في بيته ، هيا بنا نذهب الى مولد الحاج مسعد ، فقال له مستغربا : الآن!!! ... فرد عليه: الآن ، فقال له : أمعك نقود ، فقال له: ربنا يفرجها ، وبمجرد خروجهم وجدا مجذوباً يمر أمامهما باسطا ظاهر جلبابه (حِجْرَه) لهما وفي حجره مالا وفيرا ، وقال له : خذ ما يكفيك لزياره الشيخ ، وذهبا الى المولد في الأخصاص ، وفي أول نزولهما على الطريق ، قابلا رجلاً ، فسألاه على طريق المولد ، فقال لهما : إتبعاني ، فساروا وراءه ، فلما وصل الى المقام قال لهما : المولد أهو والمقام اهو ... فلما نظر الشيخ عزت الى المقام ، والصورة المعلقة عليه ، وجد أنها بالتمام صوره الرجل الذي قادهما الى المولد ، فلما سأل عن صاحب الصورة فقيل له انه الشيخ مسعد صاحب المولد .

فلما دخلا المولد ، إنتقا إحدى الخَدَمَات الموجودة في المولد فدخلاها ، وكأنت هذا الخدمة هي خدمه الست أم محسب ، وفيها زينب بنت الست أم محسب، فلما رآها الرجل المصاحب للشيخ عزت الدهشان ، أعجب بها وقال في نفسه : ليت هذه البنت تكون لي ... ثم أخذت هذا الرجل سنه من النوم ، فرأى في نومه الشيخ مسعد سائلا إياه: (أنت عايز زينب؟) فقال له نعم ... فقال له ... تعالى وانا أديها لك ، فقال له : كيف أتى اليك ، إن لي شيخاً ، فقال له : (مانت تيجى أنت وشيخك) ، فلما إستيقظ الرجل من سِنَتِه ، وكان يدعى **محمد زكي** ، وأخبر الشيخ عزت الدهشان بهذه الرؤية ، فقال له الشيخ عزت: ( أحنا جايين نزور الشيخ ولا نجوز...الله لا يسيئك ... متشيلناش قواضى!!!!)

ثم صار الشيخ عزت الدهشان من أقرب المقربين الى الشيخ باهي ومن الملازمين له فلا نكأد في أى مولد من موالد أهل البيت إلا ونجد الشيخ عزت الدهشان ملازما للشيخ باهي ومصاحبا له ، وكذلك مصاحباً للشيخ صادق بكير ، والشيخ احمد السعدني ، والشيخ عزت ينتمي الى الطريقة الجنيديه وهي طريقة خلاف الطريقة السعدية التي ينتمي إليها عم الحاج مسعد ، إلا انه قد شاهد رؤيً مختلفة ، تفيد جميعها الى إنتماء الشيخ عزت الدهشان الى عم الحاج مسعد ، فمن هذه الرُؤي أنه رأى نفسه يصلي خلف الحاج مسعد ، ثم نظر إليه الشيخ مسعد ، وقال له : لا تصلي ورائي ، قال له .... لا ... أنا هاصلي وراك ، وأنت شيخي ، وكان دائم القول إن عم الحاج مسعد عمي.

وقبل انتقال الشيخ عزت الدهشان الى جوار ربه تحدث مع أبنائه عن الشيخ باهي مادحا إياه ، فقال عنه : إنني عاشرته فتره طويلة ، فلم أشاهده قد خاض في زرع أحدا ، أو نزل زرعه ، ولم أشاهدْ خائضا في إخوانه من المشايخ أو أبنائهم ، ولم يكن لديه سعي أو رغبه في جذب أبناء غيره اليه.

وفي إحدى لحظات الشفافية والصدق ، يعقد الشيخ صديق مقارنة بين الأولين من الإخوان والأخرين منهم ، بادئاً بالكلام عن معنى المحبة فيوصي الإخوان بتأكيد المحبة في قلوبهم نحو أشياخهم ، تلك المحبة التي بسببها تكون محبه الأشياخ لهم ، والتي يكون من أثرها حسن سيرهم في طريق الله، وهنا يجب أن نفرق بين نوعين من المحبة ، فان المريد في طريق الله أحد إثنين ، الأول من كان محبوباً وهو الذي إبتدأ سلوكه بمحبه شيخه له، والثاني هو المحب الذي بدأ طريقه بمحبته لهذا السلوك ، ومحبته للشيخ المرشد ، والذي يعنينا في هذا المقام هو النوع الثاني ، الذي هو نوع من أنواع الكسب حيث كان النوع الأول عن طريق الوهب ، ولهذا سئل الشيخ مسعد ولده صديق في أول وفوده عليه :( أنت جيت لنا محبا ولا زائرا؟) فكان أول سؤال له عن محبته في أن يكون له مرشد ، ولهذا ترى الشيخ قد أوقف محبته على محبه مريده له ، إذ هو المريد للسلوك ، والإرادة تسبقها الرغبة فيها ، والرغبة هي الحب ، وما ذكرناه هو من الأخلاق الإلهية ، ألا ترى الحق قد أوقف ذكره لعبده على ذكر عبده له حين قال : (فاذكروني أذكركم) ، فالعبد هو البادئ بالذكر ، والحق هو التالي له ، وأيضا ترى الحق قد أوقف استجابته لعبده على دعائه له ، فقال : (أدعوني أستجب لكم ) ، فالعبد هو البادئ بالدعاء ، والرب هو التالي بالإجابة ، ثم أن الحق قد أوقف نصرته لعبده على نصرة عبده له في قوله : (إن تنصروا الله ينصركم) فجعل نصرته لعبده تالية لنصرة عبده له ، ثم بعد ذلك قالها صراحه ومشافهة حين قال :(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فأوقف الحق محبته لعبده على إتباعه له.

نقول هذا لمن ذُكِرَ الحبُ أمامَه فقال : إن الله هو البادئ بالحب وهو قول صحيح لان الله هو الذي جعل في خاطرك محبتك له ،ولكننا في هذا المقام نتكلم عن ظاهر فعلك أنت ، لا باطن فعل الله فيك ، ونتكلم عن ظاهر الأسباب المرسومة لديك ، لاعن مباشر فعل الله فيك ، فالواجب على المريد أن يعمل في الوصول بقلبه الى محبته لشيخه ، واتخاذ الأسباب الموصلة له الى ذلك.

وقد تجلت هذه المحبة في كثير من المظاهر التي كان الأولون من الإخوان في أشد الحرص عليها ، وإنفرط عقدها عند الأخرين منهم ، فكان الأولون من الإخوان لا يبخلون بجهدهم في سبيل طريقهم في الله ، ولا في إنفاقهم في سبيله ، ولا في بذل أوقاتهم التي يقضونها مع إخوانهم وشيخهم ، ولا في حرصهم على ملازمتهم لشيخهم ودوام زيارتهم له واتصالهم به ، ولا فى إقدامهم على شئون حياتهم إلا بمشورة شيخهم ، مهما صغرت هذه الشؤن ، ولقد وصف الشيخ باهي الأخرين من الإخوان بأنهم كالعصافير إذا ألقيت نحوهم حجرا صغيرا فرُّوا جميعا وطاروا في أجوائهم ،

فاذا أردت دقه هذه المقولة من عم الشيخ باهي فان الشيخ صديق يقصها علينا وكان قد أحزنه ما يراه من سلوك الأخرين من الإخوان فتوجه الى الشيخ باهي معترضا على لين ورخاوة الشيخ باهي معهم ، فقال له: ( بقول لك أيه يا عمي ... فقال له: قول يا صديق ... فقال له ... أنا عندي كرباج سوداني ... أجيبهو لك تضرب بيه ).. قاصدا أن على الشيخ باهي أن يتعامل مع الإخوان بالشده التي كانوا يرونها من عم الحاج مسعد فقال له الشيخ باهي (شوف يا عم صديق أنتم أولاد أبويا ... صدر عليكم الحكم وخلاص .... يضربكم ...ما يضربكومش ... متقدروش تسيبوا بيت عمكم ولا تسيبوه ...أنا ... زي ما أنت شايف مُجَنَدْ ... دول عاملين زي العصافير اللي على الشجرة لو أنا مسكت حصوايه .... ورمتها كده هو ...كله راح يطير .... يبقى أنا عملت أيه في الساعة دي؟ ... يبقى لازم أتحمل لما أشوف نهايتهم أيه).... وفي وصفنا .... أن الأولين من الإخوان كانوا كالفراش التائق المجذوب نحو النور لا يزال مقتربا من هذا النور وإن أحرقته ناره ، يفني هيكله في نار محبته ، فلا يكترث لها ولا يعنيه أمرها ، ويظل فيها ، ولقد شكا الشيخ باهى ذات مرة من أن الإخوان في المولد يتسابقون في الإذن بالإنصراف ، دالاً بذلك على سيطرة الدنيا عليهم وإنخراطهم في مشاغلهم ومصالحهم.

ألم تر الى الشيخ سيد عبد العزيز في حاله ، حين لم يبالي بُعْدَ مسافته عن شيخه ، مسافراً إليه ممتطيا دراجته ، ثم لم يلبث هنيهةً بعد وصوله حتى طلب منه الشيخ أن يرجع الى الموطن الذي سافر منه ، دون أن يتذمر أو يتضجر أو يستاء أو يُلْقي لائمةً على شيخه ، وهو الذاهب اليه توقاً ومحبةً وشوقاً.

ألم تر الى الشيخ صديق حين كان يمضي أيامً وليالي المولد كلها ، أسبوعا أو أسبوعين لا يغادره ، وكان الأولين من الإخوان على ذلك.

ألم تر الى الشيخ سيد حسين وزوجته أم فايزة ، حيث كانا يقتسمان كامل دخلهما الى ثلاثة أقسام ، جزءٌ يجعلانه لمصاريف المنزل ، وجزءً للمصاريف الشخصية ، أما الثالث الباقي فقد جعلاه لفاتحه الشيخ حال زيارته ، يفعلان ذلك ويعلمان أن مَرَدَّود إنفاقهما بركةً في بيوتهم ، وستراً في أحوالهم ، وقرباً من ربهم ، ومحبةً في شيخهم ، وهما يفعلان ذلك رغماً عن تواضع معيشهم وكفاف أرزاقهم وضيق أحوالهم.

أم تر إلي طعام الإخوان في الموالد ، إذ كان جُلُّ طعامهم الدُقَّة والفول النابت والبتَّاو والجبن ، وهم على تلك النوعية من الأطعمة في كل أيام وليالي المولد مهما تعددت أيامه ولياليه ، ومع هذا فقد كانوا في أرحب أنواع السعادة ، وأبهج أوقات حياتهم ، وكأنها أيامٌ في الجنة ، ما داموا في حال القرب مع شيخهم.

الم تر الى الشيخ محمد عبد الرحمن من الفيوم حين إتخذ الشيخ قدوةً له في بذل ماله في طريق القوم ، وكان يملك إرثاً عظيما له ، فلم يبالي ماأنفقه، ولم يهتم لما بذله في صحبه عمه وإخوانه.

الم تر إلى بيت الشيخ في كل الأوقات ، كيف كان يعج ويمتلئ بالإخوان من كل صوب وحدب ، وقد إمتلأت القاعتان الكبرى والصغرى ، وإفترش الإخوان الحصائر خارج المنزل ، وجلسوا في جوار بعضهم البعض ، وصعدت الإخوات في الطابق الأعلى مرافقين لأهل بيت الشيخ ، وكأنهم في مولد ، ولم يكن الوقت وقت مولد ، فما بالك في مناسباتهم في الأعياد والمناسبات و ليله النصف من شعبان ، لا يمنعهم من ذلك حرٌ ولا بردٌ ولا مطر ، لا يتخلف منهم واحد.

ألم تر إلى الإخوان المرافقين للشيخ في حركاته وسكناته ، كيف كانوا إذا ساروا في الطريق وكأنهم في مظاهرة، ملتَفِّين حول الشيخ ، لا يتخلف منهم واحد .

ألم تر الى الإخوان المرافقين للشيخ في حركته كيف كانوا إذا ساروا في الطريق وكأنهم في مظاهرة ملتفين حول الشيخ متحلقين حوله يكادون من كثرة عددهم أن يسدوا مداخل الطريق ومخارجه.

ألم تر الى إجلال الإخوان وإكبارهم للشيخ فلا يطؤن موطئا إلا بأمره ، ولا يسكنون عن شيء ألا بمشورته ، اذا دخلوا علي الشيخ ، فبالإجلال والإذن، ولا يجلسون إليه إلا إذا أذِن لهم بالجلوس ، ولا يتكلمون إلا إذا أذِن لهم بالكلام ، وإن ظَلُّوا على حال السكوت طيلة جلستهم معه ، لا تكأد تتطلع أعينهم اليه رهبة منه ، فإذا تكلموا تلعثمت الحروف في أفواههم فرقاً منه .

ألم تر الى الإخوان في خواطر نفوسهم ، وفي مناحي أفكارهم ، و في

منا هج ظنونهم فلا تذهب بهم هذه الخواطر والأفكار الى ما ينقص من قدر الشيخ والى ما تحمله قلوبهم نحوه من دواعي الكمال والى ما تسوقه ظنونهم فيا لا يجب أن يظنوا شيخهم فيه ، لانهم يعرفون أن شيخهم على نواصي ظنونهم وعلى أعتاب خواطرهم يحاسبهم عليها ويعاقبهم أو يجازيهم بها.

ألم تر الى الإخوان وقد التزمت أبعاضهم بأوراد شيخهم ، لا ينقصون منها شيء ولا يخرجون عنها في شيء ، ولا تغيب أرواحهم حال قراءتها مأخوذين من نفوسهم فيها حتى تبلغ تمامها ، يسهرون لياليهم في تجلياتها تغتالهم تجليات أنوارها ، ويرتقون بها الى مقامات التدني ، وأذواق المعاني ، و أسرار الأسماء وعوالمها ، فقد كان الشيخ سيد حسين وقد تجاوزت الثمانين من عمره يقرأ ورده واقفاً قائماً على قدميه يرفض الجلوس والإستلقاء ، فلما قال له الشيخ باهي أن الله قد جعل لك رخصه في قراءتها جالساً أو مستلقياً ، فكان رده عليه: إني كنت على هذا الحال وقت الشيخ الكبير رحمه الله ، ولا أحب أن أغير ما كنت عليه مع شيخي ، وكنَّا نراه من فرط ضعفه وعدم تمكنه من الوقوف ممسكا بأحد عواميد سريره ، مستعينا بها على الوقوف حتى تمام ورده ، وظل على ورده الى أخر لحظات حياته .

الم تر الى الإخوان وقد أماتوا رغائبهم في صدورهم وانسلخوا عن مطالب نفوسهم ولم يكن لهم هم ولا شاغل الى الإنخراط في سلك طريقهم ، واتباع سبيل شيخهم ، لا تجذبهم الى الدنيا مطالبها ، ولا تستهويهم فيها مباهجها، ولا تتوق نفوسهم الى ما تاقت اليه العوام ، من لذائذ الأهل والأولاد والأمتعة والضياع والتجارة والكسب ، فهم في سلك الطريق لا رفيق لهم ألا صحبه الشيخ والإخوان ، فهي حياتهم وجنتهم ودنياهم وأخراهم وأولادهم وأهلوهم. الم تر الى الأولين من الإخوان كيف كانوا يشعرون بمدده ، والغذاء من روحه إذا لامست أيديهم أيديه وأقدامه ، وجلسوا الى جواره وشعروا بالطاقة وقد انطلقت منه إليهم ، كسريان الكهرباء في القابض على السلك ، فتسرى الأحوال على التوِّ في أرواحهم ، فينطقون بلسانها ، وتجري الحكمة في أقوالهم ، ويجدون من إثر هذه الأحوال علوماً من في صدورهم ، وكشفاً في نفوسهم ، كل ذلك بلا إلقاءٍ ظاهرٍ ، فلا ملقي ولا متلقى ، ولا معلم ظاهر ولا متعلم سائل ، بل يجد المريد العلم فى نفسه دون أن يسأل شيخه عنه .

ألم تر الى الأولين من الإخوان بين يدي شيخهم كالميت في يدي مغسله، يتركون له قيادهم ونواصيهم ، متجاوبين مع خواطره فيهم ، وهم يعلمون سطوته وهيبته وسيطرته عليهم ، فلا يجرؤون على مخالفته ، فهم يعلمون

(كما قالوا ) أن الله في لسانه وإرادة الله في إراداته.

وهم مع ذلك لا يطلبون الفتح الذى يطلبه الآخرين ، ولا ذوق القلوب الذى يطلبه المحدثون ، ولا الغوص فى التجليات التى يتوق إليها الذائقون ، بل كانوا بحسب شيخهم لهم ، ومقدار ما قدَّره لهم ، وهو العالم بأقدارهم ، وبما تحمله أرواحهم ، وكأنهم ما سلكوا سبيل الشيخ ، إلا لذوقها ، حينئذ تطيب نفوسهم ، ويهدأ بالهم ، ويبلغوا مرادهم ، وكانوا مصداق قول الحق ( ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة، وكثير منهم فاسقون )

ولو استرسلنا معا في وصف مناقب الأولين من الإخوان ، لما وسعنا إلا أن ننشئ كتابً مستقلا لهذه المناقب والصفات التي كانوا عليها ، والتي أثمرت لهم قُرباً من ربهم ، وإيثارا من شيخهم ، فنزلت بها عليهم التجليات الإلهية، وخوارق العادات الاصطفائية ، وجميعها مما أودعها الشيخ فيهم ، وكان سبب لها ، فمنهم من أصابه بها الكشف ، سواءً كان هذا الكشف إنعاما ووهباً ، أو بلاء واختبارا ، ومنهم من تكلم بلسان الحال ، ونطق بالسريانية من غير حول له في ذلك ، ومنهم من كان ينظر صراحة ، ويتكلم كفاحا مع أهل البيت ، يذهب اليهم ويحضرون اليه ، يتكلم معهم ويتكلمون معه ، يناديهم فيجيبونه ويتكلم معهم فيسمعونه ، ومنهم من كانت صور مشايخهم لا تغيب عنهم طرفة عين ، ومنهم من كانت صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تغيب عنهم طرفه عين ، ولا يغيب إحساسه بوجوده معهم وحضوره فيهم ، ومنهم من كان يعلم أسرار الحروف والأرقام والأوقاف والفلك وعلوم الأسماء الإلهية ووظائفها ، كل ذلك وهبا من شيخة لا كسبا من جهده ، فهذا ما كان عليه الأولون من الإخوان ، وهذا ماحدا بالشيخ صديق ، أن يعقد مقارنة بين الأولين والأخرين منهم ، و لسنا نعرف من أي وجه كان هذا الاختلاف ، ولا عليك إلا أن تنظر الى الأوصاف التي ذكرناها ، وترى نقيضها فيما عليه الآخرون منهم في الحاضر ، وكأنما الأخرون يضربون الصخر وصولا الى ما كانوا عليه فلا يطيقون، ويتطلعون إليهم فلا يستطيعون ، ولسنا نملك إلا أن ندعوا الله أن يجمعنا بهم في مستقر الرحمة ، وان نكون جميعا السابقون واللاحقون ، الأولون والأخرون، في صحبته الشيخ ، غير خزايا ولا مقصرين ، وعزاؤنا في ما نحن عليه نحن الأخرون ، أننا نعرف أننا عليهم محمولون ، وإلى ذواتهم منسوبون ، وقد علمنا منهم ، أن من العار أن ينفرط عقدنا معهم ، وان نخرج عن سلكهم ، وهم في مقام الكمال الذي عرفناه عنهم قائمون ، وقد علمنا أن الشيخ لم يترك ولده في الدنيا ، ولا يتركه في البرازخ ، ولن يتركه في الأخرة ، إذ كان محسوبا عليه معدودا من اتباعه ، معلوماً أنه الأمام لديه في موقفهم مع ربهم (يوم ندعو كل أناس بأمامهم ).

ولو أردنا أن ننبه قليلا الى صفات الشيخ باهى ، فإننا ننتقى بعضا من خصاله الدالة على معدنه ، منها بره بوالديه ،فقد إعتاد أن يقرا لأمه الفاتحة ويهبها لروحها دبر كل صلاه ، وكان لا يفتأ أن يطمئن على وجود دوائها تحت وسادتها ، ويضع مايرضيها من مال فى كيسها ، وظل طوال سنين حياته يصنع لها الشاي بنفسه بعد الأكل ويناولها بيديه ، فلما ماتت إنقطعت هذه العادة فعرفنا أنها كانت مخصوصه لوالدته.

من لطائف الشيخ باهي تلطفه الشديد بابنته هناء إذا كانت لا تسمع ولا تتكلم وقد منعها ذلك من التواصل مع أخواتها فابتكر نوعاً من التواصل لا تحتاج فيه الى السماع والكلام ، فكان على مدار وقتها يلاعبها الورق (الكوتشينه) وإمتدت هذه اللعبة حتى شملت جميع من في البيت ، فاذا غاب هو وجدت هناء الكثير ممن يلاعبها ، هكذا روى لنا وارثه الشيخ ناصر فلما تزوجت هناء إختفت هذه اللعبة تماما من البيت فعرفنا وقتها أنها كانت مخصوصه لها.

ولقد حدثتنا السيدة أم حسين عن الشيخ باهي : أن الشيخ باهي كان يحب سماع السيدة أم كلثوم وكان الشيخ يقول له : يا باهي متسمعش أم كلثوم فقام عم الشيخ باهي بالدخول تحت اللحاف لسماعها ، فناداه الشيخ يا باهي أنت بردو بتسمع أم كلثوم ، فقام الشيخ باهي بفتح الراديو فاذا بكل المحطات تذيع قران ، كلما حوَّل الى قناة يراها تذيع قران ، فسأل الشيخ باهي : هوة فيه حد توفي في الدولة فقال له : لا ، فقال له : المحطات كلها جايبه قران ، قال: أن الراديو بتاعك جايب قران أما الراديو بتاعنا جايب أم كلثوم اهو.وحدثنا الشيخ باهي قائلا عن نفسه : كنتُ إذا تجاوزت في أمر ما ، واعلم أنالشيخ سيحاسبني عليه ، وليس لى بدٌ من الحساب ، ذهبت الى ستنا فاطمة النبوية ، لتشفع لي عند الشيخ ، فلقد كان لها معي عشم كبير فاذا حضرت الى البيت وقابلت الشيخ بعد الزيارة ، نظر الي وضحك ولم يتكلم معى في شيء ، فاعلم من ذلك أن الشفاعة قد وصلت ، وتكرر هذا الأمر مرات عديدة.

ويحكى الشيخ صبرى عن قصة دخوله فى الطريق مع الشيخ باهى فيقول أنه رأى فيما يرى النائم أنه يبحث عن وظيفة ، فقيل له أن هناك شركة تطلب موظفين للعمل بها ، وأشاروا له إليها ، فذهب فى إتجاهها ، فوجد لها بوابة كبيرة ، لها باب صغير مفتوح فى وسطها ،يقف عليها حارس ، فسألة عن كيفية التقديم لهذه الوظيفة ، فقيل له : تكتب طلب على ورقة دمغة ، ثم تقدمه إلى مدير الشركة ، فكتب الطلب ثم سأل عن مكتب المدير حتى يقدم له الطلب ، فأشاروا إليه بمكانه ، فلما توجه تلقائه ،وجد أن المكتب عبارة عن قبر ، ووجد يداً إمتدت من هذا القبر ، وأخذت منه طلبه ، ودخل فى روعه ، أن هذه اليد هى يد النبى صلى الله عليه وسلم ، .... فلما إستيقظ من نومه ، هاله مارآه ، ولم يدر تأويله ، فذهب إلى بعض ممن يعرفون فى التأويل ، فقيل له ، أن عملك الجديد سيكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس ذلك العمل إلا الإنتساب إلى الطرق الصوفية التى تعنى بالطريق الموصل إلى الله من خلال سبيل أهل البيت ، فقال : وأين لى إلى سبيلهم ، فقيل له ، أن الذى أراك الرؤيا ،سيريك كيفية الوصول .

وتمضى الأيام ، فإذا به يرى أنه يصلى فى مسجد سيدنا الحسين ، والمصلين ثلاثة صفوف فقط ، فلما إنقضت الصلاة ، إذا بالحسين يقوم بتوزيع المصلين ، كلُ واحدٍ منهم إلى من سيتولى أمره ، فذهب إلى رجلٍ لا يعرفه ولم يكن قد رآه من قبل . .  
ولمَّا جيئ به إلى الشيخ ، عرفه وقال له ، ( إنَّما كلُ واحد منا سفينة ، ولا بد لكل سفينة من مرسى ، ومرساك عندنا) ، فالعباد السائرون الى الله ، إنما هم سفن ، وتختلف حمائل السفن من عبد الى عبد ، فبعض هؤلاء تحمل سفينتهم الأعمال الصالحة ، وبعضهم تحمل سفائنهم المعاصى والآفات ، ولكل سفينة مرسى فمراسى أهل الطاعات الأنبياء والأولياء والمرشدين الى الله، وهم السدنة الذين يمدون السفائن بالخيرات ، ومراسى أهل المعاصى الأبالسة والشياطين ،الذين يمدونها بالشرور .

وممَّا رآه الشيخ صبرى ، نعلم أن الطريق حق ، ولا طريق إلى الله إلا من خلال رسول الله ، الذى هدانا إليه ، ورؤيا رسول الله حق ، ولا مراء فيها .  
ونعلم أيضا أن الطريق عبارة عن إدارة ، لها مدير ، ومُدار ، فأما المدير فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما المُدار فيبدأ من نائبه الذى هو فى هذه الرؤيا مولانا سيدنا الحسين ، يليه من ذهب إليه بإشارته ، يليه الشيخ المربى المرشد وهو فى حالة عم صبرى ، الشيخ مسعد ومن بعده الشيخ باهى .  
ونعلم أيضا أن هناك تواصلا بين هذه الأطراف بطريقة يعلموها فيما بينهم ، وليس هذا من قبيل الإستنتاج ، بل هو من قبيل الحقيقة الواقعة ، لأن الرؤيا فيها  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورؤيته حق ، فيكون فحوى كل ماجاء فى الرؤيا حق .  
ونعلم أيضا أن العبد بجميع مايعمل كالسفينة الواصلة إلى الله بما تحمله ، وأن مرسى سفن المؤمنين بيد ولى الأمر الذي يشرف على حمولة هذه السفينة السائرة فى بحر الحقيقة إلى مثواها

ويقص علينا الشيخ صبرى حكاية له مع الشيخ باهى مفادها أن المريد لا ينبغى له أن يتخذ وردا من نفسه دون شيخه ، لأنه لا يعرف مآلات الأوراد التى يتلوها ، فقد حدث أن الشيخ صبرى كان يقرأ كتاباً عنوانه : ( أسماء الله فى ملكوت الله ) وفى هذا الكتاب يوازن الكاتب بين أسماء الأشخاص والأسماء الإلهية المقابلة لها من حيث العدد ، فأنت تعرف أن لكل حرف من الحروف عدد يشير إليه ( وهو علمٌ يعنى بخواص الحروف والكلمات)، فإذا جمعت أعداد حروف إسمك ، ثم نظرت إلى أعداد حروف الأسماء الإلهية ، فاخترت منها الإسم الذى يوافق أعداد حروف إسمك ، فذلك هو الإسم المخصوص بك .... فإذا قرأت هذا الإسم بمثل هذا العدد ، فإنه سيرد عليك صورا من تجلياته ، وهذا ما حدث مع الشيخ صبرى ، حين أخذ يتلو هذا الإسم الإلهى الموافق لإسمه بمثل العدد المكتوب فى الكتاب دون أن يستشير الشيخ باهى فى هذا الورد ،أو تلك التلاوة ، بالرغم من أن الكتاب ينص صراحة ،على أنه لا يجوز بأى حال من الأحوال أن يستخدمه القارئ إلا من خلال شيخٍ مرشد له ، ومع ذلك شرع الشيخ صبرى فى قرائته ، وكان العدد الأصغر ( الأدنى) لتكراره ١٠٣ مرة ، فلم يمض ثلاثة أيام من قراءته ، إلا ووجد نفسه حال يقظته ، فى عالم آخر ، يتصف بالبهاء والنور والجمال والوضاءة ، والكمال والروحانيات، ففرح به أيَّما فرح ، وقال فى نفسه : هكذا تكون الحياة ،وهكذا ينبغى العيش ، فمالبث بعد ثلاثة أيام ، أن رأى فى نومه ، أنه يسير فى طريق ، على يمينه زروع ممتدة ،وعلى يساره بحرٌ واسع ،ثم رأى من بين الزرع من ينادى عليه ، فلما ذهب إليه قال له المنادى : ألست جائعا ؟ قلت : نعم ، فقال : تعالى لنأكل ، وكان الطعام ( فتَّة ولحم ) ، ثم نظر الرجل وراءه ،فرأى أربعة أشخاص قادمون نحوهم ، فقال الرجل للشيخ صبرى : قم بسرعة ، إن هؤلاء الأشخاص هم أصحاب الإسم الذى تقرؤه وهم المحافظون عليه ، ولو أمسكوا بك لعدم الإذن بقرائته ، فسوف يقاضوك ، ثم صحوت من النوم على تلك الرؤية ، وإنتابنى خوف ، وقلت فى نفسى : على كل الأحوال هى رؤية ، ولو أمرنى الشيخ بأن أتوقف عن القراءة لفعلت ، وأتممت نومى إلى الصباح ، وفى الصباح صحوت على طرق الباب ، فوجدت أحد الإخوان يخبرنى بأن الشيخ باهى يريدك ، فلما ذهبت إلى الشيخ أجلسنى بجواره وقال لى : ( إنت هانشتغل حرامية ولا إيه ؟  
فقلت له : أنا لم أكن حرامى قبل أن آتى إليكم ، فكيف أكون حرامى بعد أن جئت إليكم ؟ فقال إنت عارف أنا بكلمك عن إيه ، فتذكرت الرؤيا التى رأيتها ،والإسم الذى كنت أقرأ عدده ، ثم قال له الشيخ : إن هؤلاء الأربعة الذين رأيتهم ، هم أصحاب الإسم الذي قرأته من غير إذن ، ولو أمسكوك لأصبحت قضية ، ولحملت أنا هذه القضية ، لأنى شيخك ، وعلى العموم توقف عن قراءة هذا الإسم ، واستمر فى أورادك التى أعطيتك إيَّاها ، وإكتفى بذلك ، فقلت حاضر ياعمى ، ولكن شيىء فى صدر أحزننى ، لِما شاهدته من الجمال الذى رأيته من أثر هذا الإسم ، فقال له الشيخ باهى : لا تحزن سوف يأتى إليك أهل البيت فى نومك ، وسوف يعطون لك وردا تقرأه ، وبالفعل حدث ذلك ، وتلقى ورداً من السيدة زينب رضى الله عنها. .

والحقيقة أن الأوراد لها روحانيات خاصة بها ، وهذه الروحانيات كالزاد للإنسان ، والحال والصفة التى عليها العبد هى التى تحدد المناسب له من هذا الزاد ، فربما تناولت مايضرك ، وربما تناولت مالم تتمكن من هضمه ، وربما تناولت مايؤدى إلى هلاكك ، فإذا أطعمت مثلا طفلا صغيرا غذاءاً دسما ، فإن هذا الغذاء سوف يؤدى به إلى ضرره ، هذا فى عالم الأبدان ، فما بالك بعالم الأرواح التى هى ألطف وأدق وأخف من عالم الأبدان ، ولا يتمكن من معرفة حالة روحك وصفتها إلا شيخك المربى المرشد لك إلى مافيه نجاتك ، ويعلم ماينفعك ويضرك ، ولا تظن أن الأمر هكذا بدون ضابط أو رابط ، فإن عالم أهل الله متصلٌ بعضه ببعض ، وقائم على نظام لا ينفرط عقده ، وكل والى له من يتولى عليه ، وكل رئيس لأحدٍ ، مرؤسٌ من غيره ، إلى أن يصل الأمر إلى الوالى الأعظم الذى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ،بما ولَّاه ربناعلينا

ويحكى الشيخ صبرى عن رؤيا قد رآها ، مُفادها ، أنه كان فى إحدى موالد أهل البيت ، وكان الشيخ باهى جامعا مريديه بين يديه محددا المهام المنوطون بها فى المولد ، وقد جعل لكل واحد من الإخوان منطقة من الساحة يمرون عليها ، ويقفون على أحوالها ، وفى المنطقة المحددة للشيخ صبرى كانت هناك خدمة كبيرة على رأسها إمرأة ترتدى ثياباً بيضاء ، جالسة على كرسى وبيدها مسبحة وهى تردد : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه السيدة كانت وضَّاءة الوجه ، جميلة الطلعة ، بهية المنظر، على سمتها وقار يجذب إليها أشخاص الناظرين إليها ، وقد جذبنى إليها سمتها مستمعا بالنظر إليها ...... فلما لمحتنى ناظراً إليها ، نادت علىّْ ، وقالت : إبن من أنت ؟ فقلت : أنا إبن الشيخ مسعد ،ثم قالت : إنى أعرف هذا الرجل ، إن خدمته فى مولد زين العابدين كان ترتيبها فى العشرة الأوائل ، ثم تجاوزتها ،لأتابع ما أمرنى الشيخ باهى به ، فلما تجاوزتها ، إشتقت إلى رؤيتها مرة أخرى ، فرجعت لعلِّى أراها ، فلما رجعت لم أجدها ، فسألت القائمين بالمكان عنها ، فقيل لى أنها دخلت هذا المنزل المجاور للخدمة ، فذهبت إلى المنزل وطرقت الباب ، ففتحت لى الخادمة ، وقالت : من تطلب ، فأخبرتها أنى أريد السيدة التى كانت تجلس على الكرسى أمام الخدمة ، فاستأذنت لتخبرها ، ثم عادت بالإذن ، وأدخلتنى ، ثم مررت من باب الى باب آخر الى باب ثالث ، حتى عددت سبعة أبواب ، وبعد الباب السابع ، وجدت غرفة مربعة الشكل بطول وعرض خمسة أمتار، وفى وسط الغرفة سريرعالى ، وهى مستلقية على هذا السرير برداء ابيض جميل ، فلما رأتنى قالت : إنت جئت ؟، فقلت :نعم ، ثم قالت : أستأذنك فى الخروج لمهمة كلفونى بها ثم أعود إليك....... ثم إستيقظت من النوم على ماكنت أشاهده ، فلما سألت قيل لى : إنها السيدة زينب .  
وفى صبيحة اليوم التالى وجدت فى نفسى شوقآ إلى زيارة السيدة زينب فى ضريحها ، فذهبت لزيارتها ، فلما وضعت رأسى على مقصورتها ، شاهدت ذات المنظر الذى رأيته فى منامى ، وظللت على هذا عاما كاملا ، أذهب إلى زيارتها فى الثامنة من صباح كل يوم ،وأشاهد نفس ماشاهدته من قبل .  
وفى هذه الرؤية ،كرامة للرائى ، إذ كانت سببا فى التجليات الناشئة من رؤية السيدة زينب ، وهى تجليات رحمانية ذوقانية من أذواق الطريق

ويقص علينا الشيخ صبرى رؤيا رآها وقصها للشيخ باهى ، رأى فيها ،الرئيس جمال عبد الناصر راكبا عربة جيب ، والناس ملتفين حوله من اليمين والشمال مرددين : ياعزيز ياعزيز ، فأجابه الشيخ باهى وقال له : عبد الناصر هو الإمام الحسين فى زيارته لك ،أما نداء الناس : ياعزيز ، فهو وِرْدُك الذي يجب أن تقرأه ، وفى هذه الرؤية عطائين ،أما الأول فهو زيارة سيدنا الحسين للرائى ولا زيارة لهم إلا بعطاء وإكرام ونفحات وتجليات وأرزاق وسعادات ،أما العطاء الثانى فهو تجليات إسم الله العزيز بما فيه من الرفعة والعلوم والزيادة والمهارة والجلال والصيط والعز.

ويقول الشيخ صبرى فى حكاية له مع شيخه :  
ذات مرة أخذنى الشوق الشديد إلى زيارة الشيخ باهى فى الأخصاص ، فوجدتنى بلا وعى ، وبلا ضابط من نفسى ، وكأنى مجذوب بما أنا عليه ، فسلكت طريق الذهاب إليه ، ولم أدر كيف وصلت ، فلما ذهبت إلى الإخصاص ، لم أجد الشيخ ، حيث كان فى إحدى الليالى فى كفر الرفاعى ، فجلست فى إنتظاره ، وأنا على حال الجذب الحاصل فىَّ ،ثم غلبنى النوم فنمت ، فلم أدر إلا بالشيخ باهى يوقظنى فى الصباح لتناول الإفطار ، فما إن شاهدته ، حتى إحتضنته ولم يكن هذا دأبى معه ، ولم أجرؤ على فعل هذا من قبل ، لأنه شيخى ومرشدى وله ماله من الجلال والتقدير لمكانته من قلوبنا ، ولِمَا نعلمه عنه من جلال قدره ، هكذا يقتضى الأدب مع الشيخ ، ثم كلف الشيخ أحد الحاضرين بإحضار الفطار ، وبعد الفطار صنع لى الشيخ بنفسه الشاى وأعطانى إيَّاه فشربته ، ثم توجه الىَّ وقال لى : ( إن شاء الله ، أنا عندى مشوار فى حلوان ، وسنخرج سويا ، فأذهب أنا إلى حلوان وتذهب أنت إلى بيتك ، فقلت له ( وأنا لازلت فى حال الجذب وفقد السيطرة على النفس ) : أنا معاك معاك مكان ماتروح ، ولن أتركك ، فقال الشيخ باهى ( ياصبرى ربنا يهديك ) قلت له ( أبداً) ، ثم يواصل الشيخ صبرى حديثه فيقول :  
وخرجنا إلى الطريق ،وأنا على هذا الحال ، وإذا بآلام شديدة فى بطنى ، فتقيئت ، فما كان من الشيخ باهى ،إلا إن وجد زيراً بجوار شجرة إلى جانبنا ، فسقانى من مائه  
ثم إنتظرنا العربة التى تذهب بنا إلى ما أردناه ، والشيخ ينوى فى نفسه أن ينزل حلوان لقضاء مايريد ، ويتركنى لأذهب إلى بيتى ، وأنا مصمم على مصاحبته دون وعىٍ منى بذلك .  
وفى الطريق ركب معنا إثنان من دراويش الشيخ ، فسألهم الشيخ باهى عن وجهتهم ، فأخبروه أنهم ذاهبون لصلاة الجمعة فى مسجد السيدة زينب ، فطلب منهم الشيخ أن يأخذونى معهم ولا يتركونى ، كل ذلك وأنا فى حال التصميم على مصاحبة الشيخ .  
ولما وصلت العربة إلى حلوان ، قام الشيخ وقمت وراءه ، ونزل من العربة ونزلت وراءه ، وعينى ناظرة إليه ، وفى لمح البرق لم أجده أمامى ، بالرغم من ثبات نظرى عليه ، وأخذت أبحث عنه فلم أجده ،فقالوا له :عمَّن تبحث ؟ فقلت أبحث عن الشيخ باهى ،فقالوا : لن تجده ..  
ثم ذهبنا الى السيدة زينب وصلينا الجمعة ، ثم ذهبت إلى سيدى على زين العابدين وزرناه ،.... ولم ألبث إلا أن وجدت نفسى عند مسجد سيدنا الحسين ، ولم أعرف كيف تمكنت من الوصول إليه ، ووجدتنى أدخل إلى المقام ، وأجلس مستندا إلى إحدى حوائطه ، ثم رأيت الزائرين للمقام يمرون أمامى والكثير منهم يضعون فى حجرى مالاً وأنا لا أكترث لما يضعونه فى حجرى ، ولو كنت فى حالة من الوعى لما تورعت أن آخذ هذا المال ، فقد كانت الأمور المادية شديدة علىَّ فى هذا الوقت ، وكانت الحالة جِدُّ عسيرة ، ولكن الذى حدث أنى وجدت رجلا يقف وكأنه حارسٌ علىَّ ، ووجدتنى أقوم واُلَمْلِم المال من حجرى وأذهب إلى هذا الرجل ، وأعطيه المال ، فنظر الىّْ وأخذ المال ، وقال لى : مع السلامة ، وضرب لى سلاماً عسكريا ( تعظيم سلام ) ، ثم ووجدتنى أذهب إلى المنزل بنفس الطريقة التى خرجت منه ، فإنتبهت من تلك الحالة التى كنت عليها ،وأفقت من غيبتى ، ووجدت الأهل والجيران فى إنتظارى ، وإستغربت فى نفسى من هذه الجلبة المحيطة بى ، فسألونى، إنت كنت فين ؟ قلت فى العمل ، وسألونى إنت جاى منين ؟ قلت من العمل ، وسألونى إنت معاك إيه ، ولم أكن أعلم مافى يدى ، فقد رأوا معى كوشة وابور جاز ، ودُفْ(تار) بلاستيك ، فقلت لا أدرى ، وسألونى ، إنت كنت بايت فين ؟ قلت لا أدرى ، والى الآن لم أعلم أين كنت ولا من أين أتيت بهذه الأشياء ، ولكن الذى شغلنى هو المكان الذى سقانى فيه الشيخ باهى من ( الزير ) ومكان الشجرة التى جلست تحتها فى الأخصاص ، وأنا أعرف المكان الذى وقفنا فيه ، ولكن ليس فى هذا المكان لا شجرة ولا زير ، ولا تعليق لنا على ماقاله إلا أن هذا المشهد هو مشهد من مشاهد ( الجبروت) ، والجبروت هو رؤية الأمور الغائبة عنَّا ( الملكوت ) عند من كشفها الله لهم فيرونها فى عالم (الملك) فيعيشون الغيب فى واقعهم ، وهو أمر مخصوص بالأولياء ، ولذلك أطلقوا على عالم الجبروت ، ( عالم الأولياء) ، وكان مشهد صبرى فى مقام الحسين ، ليس المقام الذى نعرفه ، وإنما كان المقام قصرا منيفا ، سابغ الإتساع ، فلما سألت عنه قيل لى إنه بيت مولانا سيدنا الحسين ، وظللت فترة طويلة ، كلما زرت سيدنا الحسين ، يكون هذا مشهدى فيه ، ووقع فى خلدى أن هذا المشهد هو حقيقته ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

**مابعد إنتقال الشيخ باهى**

فى إحدى رؤآها، تحكى أم ناصر عن رؤيا رأتها للشيخ باهى بعد إنتقاله بخصوص ولده الشيخ ناصر، ، تقول فيها:

بعد انتقال الشيخ باهى رأيت ناصر وكأنه يعمل في الجبل في قطع وتهذيب أحجاره، فلما رأيت منه ذلك ، سعيت اليه مندهشة: أنت يا ناصر تشتغل في الجبل .... ليه، فرد عليها ناصر: متخفيش يا ماما ...أنا قد الشغل... قلت له : لا ... ما تشتغلش أنت في الجبل ابداً ولا الطوب ولا الرمل ولا الكلام ده ... ثم نظرت فرأيت الشيخ باهى قادما نحوي وقال لي: ما تخفيش يا عفاف عليه ... وأنت يا ناصر ...خلى بالك من أمك .... يا ناصر خلى بالك من أمك ... يا ناصر خلى بالك من أمك، رصيدك أمك..

وعن هذه الرؤية نظن أن المقصود بالجبل في هذه الرؤيا هو وراثه الأمر من بعده في رعاية أبنائه في الطريق فإن عمل الشيخ أنما هو تهذيب النفوس و ترويضها ونقلها من الصفات السيئة التي تعوق سبيل السالك الى ربه الى الصفات الحسنه التي تقوده أليه، والترويض والمجاهد وترويض المريد وأعانته في المجاهدة مثلها كمثل العامل في الجبال ،الذى يهذب الأحجار ويقطعها بآلاته ويزيل الناتئ منها ويجعله في صورة مستقيمة ، تصلح للبناء ولما خلقها الله من أجله ، وهو عمل شاق لا يستهان به ، وبهذا طمأنها الشيخ باهى على كفائه الشيخ ناصر في أداء المهمة التي ورثها منه ، إذ كانت تخاف عليه من مسئوليه خلافته لوالده وهذه الرؤية ، مثلما كانت ضمانة لأم ناصر على توفيق الله له في أداء المهمة التي أوكلت اليه فهي طمأنة للإخوان الذين صاروا تحت إمرته وتحت ولايته وتحت إرشاده ،انهم ما زالوا على ذات الطريق الذى تركهم عليه والده.

ولم ينقطع مدد الشيخ باهي عن جميع الإخوان بعد إنتقاله أيضا ، فتعددت رؤيه البعض منهم له ، ومن بينهم أخونا محمود بركات ، مخبراً إيَّاه ببعض أسرار الإخوان ، فكان يُعْلِمْهُ مثلا بأكثر الإخوان قراءه للفاتحة له ، وظل أعواماً طويلة بعد انتقال الشيخ يراه يوميا ، إلا بعض أيام التقصير ، فيكون تقصيره قد حال بينه وبين رؤية الشيخ وحدث أن كان في أول مولد لسيدنا الحسين بعد إنتقال الشيخ باهى أن أصاب محمود بركات آلأم شديدة في أسفل ظهره من أثر غضروف كان قد أصابه في سابق ، وكانت تتكرر عليه هذه الشكوى في حياه الشيخ باهي فتختفى أثارها من مجرد شكايته له فيها ، فلما أصابه الألم بعد إنتقال الشيخ وجد نفسه يبكي في داخله ، ويذكر سابق حاله في شكايته للشيخ ، ولم يكن له بد من ذهابه للمولد ، إذ كان أول مولد بعد انتقال الشيخ ، وإستقلَّ عربه تُقِلَّه الى الدراسة مكان المولد ، فكان أن جلس في هذه العربة بين رجلين أحدهما مجذوب ، والأخر رجل صعيدي ، ولمَّا عرف هذا الرجل أن محمود متوجه الى مولد سيدنا الحسين : فقال له (باين عليك مُحِب ).... فقال له : (على الله) فسأله: (أنت تبع مين؟ ) فقال له : سيدي سعد الدين ، فقال له : (سعد الدين واقف قدامي لا بس ميري ... مش عايز منه حاجه )... فقلت شكرا ثم نظر الىه الرجل مره أخرى وقال : .... (يا ولد أنت ظهرك بيوجعك ... فقلت نعم فقال: قضية وشلناها ومش هيوجعك ثاني )... فقلت : (اللهم أمين) ثم ذهبت الى الخدمة وأمضيت يومي وانصرفت في صبيحه اليوم التالي ، فوجدتني لا اشعر بالألم وكأن أمراً لم يحدث ، وظل هكذا حتى اليوم ،

ونكاد نوقن مما تم سرده أن الشيخ لا يزال ناظرا الى أولاده وانهم تحت رعايته حتى بعد انتقاله كما كانوا قبل ذلك ، ونوقن أيضاً أن آلام المؤمن إنما هى طهارة لهم من تجاوزات عرضت لهم ، أراد الله أن يطهره منها .

والحقيقة أن مدد الشيخين لا يزالان يتناوبان على الإخوان فهذا اخونا محمود بركات وقد اجتمع مع نفر من أخواته يقرؤن القصيدة التوسليه الموجودة في دلائل الخيرات التي تبدأ بـ : يا ربنا بمحمدٍ ، الى أن وصل الى الأبيات القائلة:

وبشيخنا السعدي مسعد عصره

حاز الولاية والكرامة والهدى

وبشيخنا الباهي المعظم قدره

من بالمحبة حاز أفاق رضا

فلما وصلوا الى ذلك إستشعروا رائحةً طيبةً عمَّت جنباتهم كأنها مسك زكي عم الأرجاء فصاحوا جميعا ... الله .... الله.

ومن مظاهر عدم إنقطاع هذا المدد ما ذكره الشيخ صديق عن الشيخ باهي بعد انتقاله ووصفه الدائم له بان الشيخ باهي حيٌ يرزق ، إذ إعتاد الشيخ صديق بعد إنتقال الشيخ باهي ، أن يرى الشيخ باهي في مناسبات أهل البيت من الموالد ، يأتي اليه قائلا له يالا يا شيخ صديق نذهب الى المولد ، فيصلون هناك ويزورون المقام ويجلسون قليلا ثم يقفلون عائدين ، هو ونفرٌ من قدامى الإخوان ، ذلك أن هؤلاء القدامى من الإخوان ، كانوا من أشد الملتزمين بالموالد التي يذهب إليها الشيخ في جميع أوقاتها ، من أول المولد الى أخره ، ثم أن الشيخ صديق قد إعتاد أن يرى في موالد عم الحاج مسعد المتعاقبة ، زَفَّة المولد خارجه من السيدة زينب رأساً ، وأن يرى عم الحاج مسعد راكبا بُرَاقاً وسائرا أمامها.

وهكذا كما لم ينقطع مدد الحاج مسعد بعد انتقاله عن الإخوان كذلك لم ينقطع مدد الشيخ باهي بعد انتقاله عن الإخوان فهذا اخونا الشيخ محمود بركات ، وقد أوشكت إبنته أن تضع مولودها بالرغم من تحذيرات الأطباء لها بعدم الإنجاب لأصابه قلبها بالضعف الشديد من اثر حمى روماتيزمية سابقه ، وأن الحمل والولادة ربما يؤديان بها الى خطر الموت ، وفي الليلة السابقة للولادة استلقي الشيخ محمود على سريره وقد ملأه الخوف والوجل عليها ، وما أن استلقي حتى وجد الشيخ باهي مناديا عليه قائلا له : (يا محمود في أيه؟ )فقال له: (البنت رايحه تولد الصبح والدكاترة يقولوا: هتموت) فرد الشيخ باهي قائلا: (لا هتموت ولا حاجه وهاتجيب ولد زي القمر )ومرَّت الولادة بسلام و أنجبت ولدا كما قال الشيخ باهي.

**الفهرس**

التمهيد

المقدمة

أهل الله وآثارهم

مراتب علوم أهل الله

الشيخ والمريد عند أهل الله

نسب الشيخ وظروف ميلاده

ماقبل الفتح ولقائه مع شيخه

الفتح الأعظم

الخلوة

مفتاح الشخصية

الفتوة ومظاهرها فى حياة الشيخ

حال الشيخ فى بيته وبين ذويه

العهد والفاتحة بين المريد والشيخ

الشيخ بين مريديه ، والمريدين من الطرق الأخرى ومع العوام ممن يتعاملون معه

الشيخ مع إخوانه من الأولياء ومع الطائفين من أهل البيت

رحلة الشيخ الى سيدى عبد الرحيم القضابى

حال الشيخ فى حياته ، مع أولاده فى برازخهم

ماقبل الأنتقال ، وإنتقال الشيخ الى ضريحه

مابعد إنتقال الشيخ مسعد

مابعد إنتقال الشيخ باهى